جامعة الدول العربية
معهد الدراسات العربية العالية

النثر وفنونه فى المهجر الشمالى
(كتاب الرابطة القلمية)

رسالة قدمها لنيل درجة الماجستير فى الأدب الحديث

عبد الكريم الأشتر

١٩٥٩ ـ ١٩٦٠

أشرف على تحضير هذه الرسالة

الدكتور محمد مندور

قرأ فصولها : الدكتور اسحق موسى الحسيني

تصميم البحث

المقدمة

(١)

توالت الدراسات في الشعر المهجري وشعراء المهجر حتى استرعت الانظار، فأصبح يخيل لبعض القراء أن هؤلاء المهاجرين لم يعبروا عن ذواتهم ويصوروا حنينهم وأشواقهم بغير الشعر ، أو أن شعرهم وحده هو الذي يستأهل الدراسة لما فيه من صدق وأصالة وحيوية . وقد سأل (جورج صيدح) واحدا من المؤلفين عندنا : " لماذا لم يعقد في كتبه فصولا عن النثر المهجري" فأجابه : " ان للمهاجرين الناثرين أضرابا في الوطن العربي لا يحصى عددهم ، أما شعراء المهجر فلا مثيل لهم في محيطنا اليوم[(١)] " ومثل هذا الجواب يعني أن (المؤلف) لم يدرس النثر المهجري على الاطلاق ، بل يعني أنه لم يقرأ من هذا النثر الا أطرافا يسيرة لا يؤهل قارئها لاصدار هذا الحكم الكبير. وقارئ هذه الدراسة يستطيع أن يقف على ما في قولنا هذا من حق[(٢)] .

على أن بعض المدركين لقيمة هذا النثر من الباحثين ، أحجم عن دراسته لما تثير الخطوة الأولى في النفس من تهيب ، ففضل أن يسلك طريقا مسلوكة فينجو بنفسه من عناء شق الطريق ووضع الصوى على أطرافها ، وبذلك أهمل هذا النتاج الضخم ، فلم يلتفت اليه نظر ولم يسلط عليه ضوء ، في حين سلطت الأضواء — من نثر المشرق — على ما دونه قيمة وأصالة . ولم تظهر في النثر المهجري دراسات جادة ما خلا صفحات يسيرة جاءت في مواضعها من دراسة القصة العربية والمسرحية اذ اضطر كتابها أن يقفوا حينا قصيرا عند (جبران) و (نعيمة) من كتاب الرابطة القلمية[(٣)] ، وما خلا وقفة جانبية سريعة للدكتور مندور أمام نص مهجري لأمين مشرق[(٤)] . وأعترف أنه قد راودتني هذه الافكار كلها وكدت أقرر — بدوري — التنحي الى الطريق المسلوكة لولا صلابة أستاذي الدكتور محمد مندور واصراره على أن أخطو هذه الخطوة مهما يكلف ذلك من جهد ووقت.

---

(١) أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية ص ٤٥ .

(٢) انظر خاتمة هذه الرسالة .

(٣) انظر مثلا (القصة في الأدب العربي الحديث) لمحمد يوسف نجم ص ٢٥٥ — ٢٧٣ و(القصة في لبنان) لسهيل أدريس ص ٢٠ — ٤٠ وانظر بعض المراجع التي أحلنا عليها في فصل القصة .

(٤) في الميزان الجديد ص ٦٤ — ٦٩ .

وقد بدأنا نستعرض موضوعات النثر . وكانت أمامنا طرق كثيرة نستطيع أن نشقها : فالحقل بكر ، كان أمامنا أن نتناول الدراسة مثلا كاتبا من كتاب المهجر كجبران أو الريحانى أو نعيمة ، أو نتناول فنا من فنون النثر المهجرى كالمقالة أو القصة . أو نتمادى فى الطموح فنشمل النثر المهجرى كله . وقد وقف أستاذى الدكتور مندور عند هذه الأخيرة وبدأ يزينها لى . وكنت أعلم أن من عادة أستاذنا أن يزين لتلامذته مصارعة الأمواج ، ثم يتركهم لأنفسهم يغالبونها كيف يشاءون ، حتى اذا أشرف واحدهم على الغرق مد اليه يده بطوق النجاة ، ثم ما يلبث اذا استرد الغريق أنفاسه ـ أن يدفع به الى الأمواج من جديد ..

وسألت أستاذنا : وأكنا تعوزنا المصادر ، فأجاب فى هدوء : " نكتب بما تحتاجه الى نيويورك وسان باولو " سان باولو ! كان أستاذنا اذاً يدفعنى الى الشمال والجنوب معا ، وتلك لا أستطيعها ولا يستطيعها باحث شرقى فى الوقت الحاضر ، فنحن لا نكاد نعرف شيئا عن جمهرة الكتاب فى الجنوب ، بل لا نكاد نعرف شيئا عن بعض الكتاب فى الشمال ، لم تصل الينا آثارهم وليس بين أيدينا مجموعات كافية من صحفهم ومجلاتهم ، ولم تنشر فينا كتب تنقل نماذج من انتاجهم ، وبعض هؤلاء ما زالت آثارهم مكتوبة فى حوزة أهليهم أو أصدقائهم .. ، ثم هذا النتاج الضخم كله ـ لو استطعنا الوقوع على مصادره ـ كيف ينسق وينقد ويقيم فى رسالة جامعية واحدة ؟ قال أستاذنا ـ وهو يبتسم ـ " فلا تجاوز الشمال اذاً " . وبدأت أروز البحث وأستطلع المصادر وأعود الى بعض من زار المهجر أو كتب عنه ، فانتهيت الى أنه ليس من حقنا أن نكتب فى نثر المهجر الشمالى وليس فى أيدينا قدر صالح من انتاج بعض أدبائه (كعبد الله يسرى)[1] و (حبيب ابراهيم كاتبه)[2] وغيرهما من الكتاب الذين عنوا بالمقالة الصحفية . وسألت أستاذنا من جديد أن نضيق من مدى البحث ، ثم قررنا أخيرا أن نختار جماعة من أدباء المهجر الشمالى يمتازون ـ على نحو من الأنحاء ـ بالتجانس الفكرى وتجمعهم رابطة من الروابط تحددهم وتميزهم ممن حولهم ، بشرط أن يكون فى أيدينا القدر الصالح من انتاجهم الذى يمكننا من فهمهم واصدار الأحكام فيهم . وكان من الطبيعى ألا نتجاوز الرابطة القلمية ، فهى الجماعة الوحيدة التى تنطبق عنه

---

(١) انظر جورج صيدح ـ أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية ٣٠٩ ويقول/انه أصدر ثمانية كتب، وكتب عشرات المقالات وما زالت فى جعبته قصص مخطوطة لم تنشر .

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ وأنظر مقدمته لديوان (الأرواح الحائرة) لنسيب عريضة .

عليها هذه الشروط والتي تجمع أبرز أدباء المهجر وأحدهم أصالة وأخصبهم انتاجا ، وأكثرهم ذيوعا ، وهم تجمعهم رابطة فكرية تصلح أن تميز فيهم — الى حد ما — مدرسة أدبية قائمة بخصائصها فى التفكير والتعبير ، وقد وصل الينا نتاج زعيميها الكبيرين (جبران) و (نعيمة) كاملا ، ولا تعدم أن تقع على نماذج صالحة من نتاج (عمالها) الآخرين ، وبذلك اتضحت حدود البحث وبدأت أطمئن اليه ، ثم انصرفت الى دراسته والكتابة فيه ٠

(٢)

عدد أعضاء الرابطة عشرة هم ٠ (جبران خليل جبران) عميدها، و (ميخائيل نعيمة) مستشارها، و (وليم كاتسفليس) خازنها ، ثم (نسيب عريضة) صاحب (الفنون) و (ايليا أبو ماضى) صاحب (السمير) و (عبد المسيح حداد) صاحب (السائح) والشاعران (رشيد أيوب) و (ندرة حداد) ، ثم (وديع باحوط) و (الياس عطا الله) ، فأما هذا الأخير فقد كان يتذوق الأدب — على حد تعبير (جورج صيدح) — ولكنه لم يكتب شيئا[١] . وليس لوديع باحوط سوى مقالة واحدة بعنوان (البرغشة) نشرها فى مجموعة الرابطة القلمية التى صدرت عام ١٩٢١[٢] ، وأما (رشيد أيوب)و(ندره حداد) فقد انصرفا الى الشعر وحده ،ولم يبق الا الستة الأولون وهم الذين تشملهم هذه الدراسة ٠

فأما جبران فقد صدرت كتبه التى كتبها بالعربية فى مجموعة كاملة مكونة من ثلاثة أجزاء[٣] يضم الجزء الأول كتاب (الموسيقى) و (عرائس المروج)و(الأرواح المتمردة)، ويضم الثانى (الأجنحة المتكسرة) و (دمعة وابتسامة)، ويضم الثالث (المواصف) و (البدائع والطرائف) وهى كل ما كتب جبران بالعربية من نثر، وقد أشرف على تنسيق المجموعة واصدارها صديقه (ميخائيل نعيمة) ، وكتب لها مقدمة طويلة عرف فيها بهذا المنتاج ووصل بينه وبين حياة صاحبه ، وقد اعتمدنا هذه المجموعة الموثوقة ٠

---

(١) جورج صيدح — أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية ٣٠٨ ٠

(٢) ص ٢٧٨ ، وانظر كتاب صيدح ٣٠٨ ٠

(٣) صدرت عن مكتبة صادر فى بيروت : الأول سنة ١٩٤٩ والثانى والثالث سنة ١٩٥٠ ٠ ثم صدرت أخيرا كلها فى مجلد واحد ٠

وأما نعيمة فقد صدرت كتبه كلها ، وتكررت طبعاتها في حياة صاحبها ، وقد بدأت أول الأمر فحددت ما كتبه منها في المهجر وما كتبه في لبنان ، وكدت أقتصر على دراسة القسم الأول، ثم فطنت الى أن نعيمة لم يغادر اتجاهه الفكري والروحي العام الذي اختطه لنفسه في المهجر فقد جرى فيه وانتهى الى نهاياته ، وبذلك شملت هذه الدراسة آثاره النثرية التي نشرها حتى الآن ، وهي : مسرحية (الآباء والبنون) وكتاب (الغربال) والمجموعة القصصية (كان ما كان) وكتاب (المراحل) و (جبران خليل جبران) و (زاد المعاد) و (البيادر) و (الأوثان) و (لقاء) و (كرم على درب) و (صوت العالم) و (مذكرات الأرقش) و (النور والديجور) و (في مهب الريح) و (مرداد) و (دروب) و (أكابر) و (أبعد من موسكو ومن واشنطن)[1] .

وأما وليم كاتسفليس فلم يقبل على النشر لأنه انصرف الى أعماله التجارية الكبيرة.وقد خلف بعض المقالات والحكايات الشعرية المنشورة في بعض مجلات المهجر وصحفه وفي مجموعة الرابطة القلمية[2] وقد جمعنا منها قدرا يكفينا في هذه الدراسة[3].

وأما نسيب عريضة فقد كانت مواهبه تصرفه عن النشر ،على أنه كتب بعض القصص والمقالات في مجلة (الفنون) وفي (السائح) وفي مجموعة الرابطة القلمية[4] .

وأما ايليا أبو ماضي فقد انصرف الى الشعر حتى عرف به وحده ، على

---

(١) رتبت الكتب هنا ترتيبا تاريخيا بحسب أزمنة كتابتها لا أزمنة صدورها ، وقد كتب الي بذلك الاستاذ نعيمة في رسالته المؤرخة في ١٩٥٨/١/٩ . ونشر منذ ثلاثة شهور الجزء الاول من مذكراته ، فافدنا منه دون أن ندخله في دراستنا .

(٢) انظر الصفحات ٦٦ ، ١٥٠ ، ١٩٦ .

(٣) جمع أخوه الأستاذ (فيليب كاتسفليس) — وقد قابلناه في بيروت — مجموعة من هذه المقالات لم يتيسر له — رغم ما بذل من جهد مشكور — اطلاعنا عليها فقد كان أعارها لأحد المحامين الأدباء في بيروت وهو الأستاذ (فيكتور حكيم) وقد زرته في مكتبه وقضيت ساعات طويلة أفتش/عبثا/عن (المصنف الأصفر) الذي يضم هذه المجموعة ، وقد أخبرنا الأستاذ (فيليب) أنه عازم على الاتصال بأولاد أخيه (وليم) في المهجر ليرسلوا اليه ما بقي في أيديهم من آثار أبيهم ليصدر ذلك كله في كتاب مجموع وقد ذكر صيدح في كتابه (ص ٣٠٣) أن (وليم) خلف في عهدة أبنائه كتابا بعنوان (من ميت حي الى أحياء أموات) ولم يؤيد أخوه (فيليب) هذا الخبر .

(٤) انظر الصفحات ١٠٥ ، ٢٩١ .

أنه دفع الى كتابة المقالة فى مجلته (السمير) . وقد نقلت نماذج منهما تمثل اتجاهاته العامة فيهما كما أفدت مما ورد فى المجلة من أخبار وبحوث عن الرابطة وأعضائها وما أوردت من آراء فى إنتاجهم الأدبى .

وأما عبد المسيح حداد فقد عالج ضربا من فن القصة لم يلتفت اليه زملاؤه من أعضاء الرابطة وهو الحكاية ، فكتب كتابا باسم (حكايات المهجر)(١) صور فيه صورا من حياة المهاجرين فى مجتمعهم الجديد ، وكتب عبد المسيح المقالة أيضا فى مجلة (السائح) ، وقد رجعت الى ما حفظت بعض المكتبات الخاصة فى سورية من أعدادها .

(٣)

هذه هى حدود النتاج التى وقفنا عندها فى دراستنا هذه ، وهى - كما يبدو للوهلة الأولى - حدود معقولة ، ولكن النظر فى فنون هذا النتاج يمكن أن يحقق مداه تحقيقا أدق ، فقد عالج هؤلاء الأدباء فنون النثر كلها فكتبوا المقالة والقصة والمسرحية والنقد والترجمة والأمثال والرسائل ، وبعض هذه الفنون - كما نرى - خلقوها خلقا فى أدبنا الحديث فكانوا روادها ، كالسيرة الفنية والأمثال . وسنرى فى بعض فصول هذه الرسالة أنهم كتبوا فى بعض هذه الفنون على نحو جديد لم يسبقوا اليه . وهم قد صدروا فى ذلك عن تأثر عميق بتجربتهم الخاصة وبالكتاب المقدس والفلسفات الشرقية ، ثم بالأدب الغربى الذى قرأه بعضهم فى عمق .

فدراسة هذه الجوانب المختلفة فى نتاجهم الفنى تقتضى تنسيقه أولا ، ثم النظر فى مضامينه العامة وقوالبه الفنية ، ثم الانتقال الى دراسة هذه الفنون فنا فنا ، ثم تلخيص الخصائص العامة لهذا النتاج فى المضمون والشكل . ويجب أن يتم هذا كله على ضوء الاتصال العميق بين هذا النتاج وبين مصادره التى أشرنا اليها . والمصدر الأول هو تجربتهم الخاصة . ولا يمكن أن تفهم هذه التجربة ما لم تفسر حركة المهاجرة تفسيرا واضحا صريحا فتحدد أسبابها القريبة والبعيدة ، فقد يكون لهذا التفسير - كما سنرى - أثره فى مضامين هذا النتاج . وقد يتعدى المضامين - كما سنرى أيضا - الى الشكل . على أن تجربة المهاجرة لا تنتهى بالمهاجرة ، وبالظروف التى رافقتها وانما تمتد الى حياتهم فى البيئات العربية التى كونوها فى المهجر ، وهى بيئات كانت تحمل معها الى الوطن الجديد فضائلها ومساوئها كلها وكانت تمثل - فى الواقع - موقفا

(١) تفضل الاستاذ " نصيبة " فأرسل الى هذا الكتاب من مكتبته الخاصة .

حضاريا يختلف كل الاختلاف عن الموقف الحضارى الذى يمثله المجتمع من حولهم ، فلا عجب أن يدور الصراع بين الجانبين فى معركة غير متكافئة ، فهؤلاء أغراب خلفوا وطنا مضطهدا متخلفا تسيطر عليه حكومة دخيلة أوتوقراطية شرهة جاهلة يحملون ذكراها المرة فى أنفسهم ، وهم يشعرون بهذا التخلف ، ويهيئون أنفسهم لما كانوا يسمونه (التمدن) ، ولكنهم - على رغبتهم هذه - أبدوا فى أول الأمر عنادا فى تبنى القيم الحضارية فى المجتمع الجديد ، حتى كان بعضهم يحتفظ بلباسه وطربوشه الشرقى ويأبى أن يتخلى عنهما ، فأما الجانب الآخر فحضارة مكينة تدعمها الآلة والعلم والحس ، ومجتمع يؤمن بموقفه وبأسلوبه فى الحياة ، ولابد - على كل حال - من دراسة هذا الصراع لفهم تجربة المهاجرة ، وهو صراع دار فى نفوس هؤلاء المهاجرين ، وسترى أنه كانت له آثار كبيرة فى النثر الذى نقوم بدراسته .

ولكن هؤلاء الأدباء المهاجرين لم يخلفوا وراءهم ماضيا واحدا وان خلفوا وطنا واحدا ، فقد كانت لكل منهم مشكلاته الخاصة التى تختلف باختلاف القرى التى غادروها ومستوى الأسرة التى عاشوا فيها طفولتهم وقسطا من شبابهم قبل أن يهاجروا ، وباختلاف المحيط الذى ربوا على الايمان بقيمه ، والثقافات التى غذوا بها والطوائف التى ينتسبون اليها ، ثم باختلاف الوراثات التى يحملونها فى دمائهم ، فلا عجب اذا أن تكون لكل منهم - الى حد ما - تجربته الخاصة فى المهاجرة ، وهى التجربة التى تمتد الى حياته فى المهجر - كما قلنا - ، والتى تؤثر فى نتاجه الأدبى أبلغ الأثر ، ولابد لفهم هذه التجربة الخاصة من فهم هذا الماضى الذى خلفه كل منهم .وهذا يعنى أن نحيط بملامح حياتهم ومنعطفاتها البارزة ، ثم أن نعى منابع تفكيرهم العامة والمفارقات الشخصية التى تميز بينهم وتكون أصالتهم ، هذا كله ولم نتجاوز مصدرا واحدا من مصادر هذا النتاج وهو تجربة المهاجرة ، فأما المصدر الثانى وهو الكتاب المقدس والفلسفات الشرقية فيقتضى النفوذ الى روح التوراة والانجيل ثم الاحاطة بأبرز التيارات الفلسفية التى خلفها الشرق كالبوذية والطاوية والالمام بسائر مذاهب التصوف الشرقى على اختلافها ، بما فيها التصوف الاسلامى ، ثم دراسة هذا التفاعل العميق ، الذى يبلغ حد الامتصاص ، بين هذه الفلسفات وبين ما أنتجه هؤلاء الأدباء من نثر .

وأما المصدر الثالث وهو الأدب الغربى فلابد من الرجوع الى عيونه التى قرأها هؤلاء الأدباء وتأثروا بها ، لابد - مثلا - من قراءة أعلام الأدباء

الروس (كتولستوى) و (ديستويفسكى) و (غوركى) و (غوغول) و (تورجنيف) و (بيلنسكى) لفهم (نعيمه).ولابد من قراءة (وليم بليك) و (نيتشة و(تاجور) لفهم (جبران) • وستجد أن بعض هؤلاء الأدباء (كنسيب عريضة و (ايليا أبى ماضى)-تأثر بالثقافة العربية القديمة تأثرا ظهر فى نتاجه الأدبى على نحو بارز جدا ، فى الجملة وتركيبها ، وفى الصور وفى الموضوعات التى يختارها .ولابد من ابراز هذا التأثر وتحديد مداه .

(٤)

هذه هى حدود الدراسة التى يتطلبها النظر فى هذا النتاج• ويمكن أن يرجع القارئ الآن الى فهرس هذه الدراسة ، فيرى أننى لم أعتسف تنظيم الأبواب والفصول ، وانما جريت فيها على هذا النحو الذى بدا فى شرحى السابق • فقد بدأت بمدخل فسرت فيه حركة المهاجرة ، وانتهيت فيه الى أن الموقف الاقتصادى فى الوطن لم يكن سوى العامل المباشر فى المهاجرة ، وانما ترى جذوره العميقة فى الموقف الاجتماعى والسياسى السئ ، وفى الاضطهاد المر الذى نزل بالمسيحيين حتى اضطروا الى أن يعتزلوا حياة اخوانهم المسلمين ، فيعيشوا - فى المدن - فى أحياء خاصة تلجأ اليها دائما الأقليات المضطهدة - و التى تحمل ارثا من ذكريات الاضطهاد ، أو يعيشوا فى قرى متفردة تغلب عليها الصبغة المسيحية، ثم أن يلتفوا حول كنائسهم ويزدادوا تمسكا بتقاليدهم الدينية• وقد ساعد ذلك على أن يتميزوا - من اخوانهم المسلمين - فى اللهجة والثقافة وأسلوب التفكير ، فاعتمدوا الانجيل ، واعتبروه الوسيلة الأولى فى تعلم القراءة والكتابة، وحفظوا مقاطع طويلة من اصحاحاته وعظاته • ثم أسست المدارس التبشيرية - بأهدافها الكثيرة - فجمعتهم حول مفهومات فكرية ودينية لا تزيدهم -على كل حال - قربا من فهم اخوانهم المسلمين ، وبذلك زادت الشقة اتساعا ، وقد كان جيل المهاجرة يحمل معه هذا الارث كله فلا غرابة أن تبدو آثاره الشائرة فى نتاجهم الأدبى.

ثم بدأت الفصل الأول من الباب الأول، بدراسة موجزة للبيئات الفكرية العربية التى كونها المهاجرون فى المهجر ، ووصفت موقفها الحضارى الذى كانت تتبناه ، وصراعها مع المجتمع الجديد ، والنهاية الطبيعية التى انتهى اليها هذا الصراع وهو أن يقضى جيل المهاجرة الأول حياته فى المهجر

قلقا مضطربا يحمل الماضي والحاضر ويحاول أن يوفق بينهما فلا يجد الى ذلك سبيلا • وقد كان أدباؤنا من هذا الجيل ، فاكتووا بتجربة روحية قاسية أرهقت خيالهم وحواسهم وزادت من كآبتهم ، فالتمسوا العزاء في مجتمعهم الجديد ، فوجدوه مرة أخرى في الانجيل الجميل الذي وعوا روحه الوديع ،وفي الفلسفات الشرقية التي تنتهي في الانجيل على نحو من الانحاء ، فتمسكوا بهما وحكموهما في نظرتهم الى الحياة والناس والأحداث، وبذلك عادوا الى ماضيهم من حيث لم يغادروا مجتمعهم الجديد •

ثم عرضت للرابطة القلمية ، ولم ألجأ الى ما أفاضت فيه المصادر من تاريخ هذه الرابطة ، وكيفية تأسيسها ، فقد تكفي في ذلك احالة بسيطة الى مصدرها الأصيل وهو كتاب (نعيمة) • (جبران خليل جبران)(1) ، وانما لجأت الى اعطاء رأيي في معنى تأسيس هذه الرابطة في الوطن الجديد ، فهي تعني التعبير الأصيل الذاتي عن تجربتهم ، ولعلها أقوى تعبير خلفته هذه التجربة •

وفي الفصل الثاني عرضت لمنابع تفكيرهم العامة ففصلت الكلام عليها ، وهي المنابع التي أشرت اليها في هذه المقدمة ، وفي كلامي على المصادر التي استقاها نتاجهم الأدبي •

ثم قدمت في الفصل الثالث تخطيطا سريعا لحياة كتاب الرابطة ، قصدت أن يلم القارئ فيه بالمنعطفات الكبيرة في حياتهم الفكرية والنفسية وبقواعد تربيتهم ونشأتهم ، واستخلصت — من ذلك — المفارقات الشخصية التي ميزت بين شخصيات هؤلاء الأدباء ، وطبعت نتاج كل منهم بطابع أصيل ، فنوعت الطعوم ، وزادت هذا النتاج خصبا •

ثم انتقلت الى الباب الثاني فألقيت — في التمهيد — نظرة عامة على النثر لدى كتاب الرابطة القلمية ، فميزت فيه مضامين ثلاثة تستقطب تفكيرهم واهتمامهم وتستغرق عواطفهم .وهي : المضمون الانساني أولا، وهو أبرز ما يشغل عنه هذا الأدب وأغناه وأجمله ، وقد بدا هذا المضمون في سعيهم الحار الى جلاء ألوهة الانسان وربطه بمصدره الأول ، وفتح قلبه وروحه على الأزل والأبد ، حتى تشمل (أناه) كل شيء ، ثم في تمجيد هذا الانسان والتغني بمطامحه وآماله ووضع مفاتيح الكون في يديه ، حتى يصبح قادرا على التحرر من نفسه ،

---

(1) ص ١٧٥ وما بعدها • وقد نقلت المصادر الأخرى عنه •

ومن القيود التى تكبل عواطفه وأفكاره وارادته وخياله ، فيستجيب لحنينه الطافح الى الكشف عن المجهول ، والاندغام فى الحياة ، وقد قادهم هذا الى أن يروا أنفسهم فى مظاهر الوجود كلها ، فى الجماد والنبات والحيوان ، فغنوا الطبيعة غناء لم يسمع الأدب العربى أعذب منه حنانا وأصفى نغمة وأعمق صدقا ، فأحالوا الصخور قلوبا نابضة ، والحقول مرايا تشف عما يختلج فى صدر الأرض من حنين وأشواق ، والليل زفرات وصبابات وانشادا، والبحر صدى لما يعمر قلوبهم من جلال الحياة وجمالها وخلودها .

وقد تبينت أصول هذا المضمون الانسانى فى الانجيل وما يصب فيه من الفلسفات الشرقية الأخرى ، حتى تهيأ لى أن أنتهى الى أنهم - على روعة ما قالوه فى هذا المجال - لم يزيدوا على أن يغنوا الانجيل والتوراة وبعض الحقائق الفلسفية الشرقية القديمة . وقد وضحت لى الصلة بين أسفار التوراة الشعرية من ناحية ، والأدب الرومانسى من ناحية أخرى ، وبين غنائهم الرائع للطبيعة ومظاهرها وللانسان وأشواقه .

ثم درست فى الفصل الثانى المضمون الاجتماعى ، الذى يبدو فى دعوتهم الخالصة الى المحبة والسلام وتوزيع خيرات الأرض بالعدل ، ثم تستفيض بما ألفوا من حب التغنى بكرامة الانسان وقدسية الحياة ، وبركات الأرض التى تكفى أبناء الحياة . ويتصل هذا بما كتبوه فى مشكلة الانسان الذى يمثلونه هم فى المهجر ، الانسان الضائع المعذب الذى يعيش فى مجتمع قاس غريب القيم والمفهومات . وقد قادهم هذا كله الى الثورة بما كان يسود مجتمعهم من التعصب الطائفى ، وطغيان الاقطاع الدينى ، ولكنهم باستثناء جبران لم يدعوا الى الثورة للتخلص من هذه المظالم ، وانما اكتفوا بالكشف عنها لتعميق احساس الناس بها ، وقد استعانوا فى اظهار بشاعتها بما جاء فى الانجيل من آيات تدعو الى المحبة والعدل والمساواة والسلام وأفاضوا فى ذلك حتى بدوا فى دعوتهم هذه عالة على الانجيل وحده ، فقد اعتمدوا - بصورة عامة - لباب هذا الكتاب الجميل وهو الدعوة الى المحبة التى تجعل من الضارب والمضروب انسانا واحدا وتجمع بين الذئب والحمل ، وتنادى بالسلام والمسرة لأبناء الأرض جميعا .

وفى الفصل الثالث درست المضمون الوطنى ، وقد بدا فى حنينهم الدائم الى الوطن ، والتغنى بأرضه وجماله ، ثم فى الدعوة الى التمسك بتقاليد الشرق ، والابقاء على روحه الوديع المنساب فى أرواح مواطنيهم من بنى قومهم ،

ثم فى الدفاع عن قضايا هذا الوطن والانتصار له فى محنه المتتابعة ، وقد بدا لى أنهم لم يضيفوا — فى دعوتهم هذه — المنصف جريا مع فلسفتهم فى الحياة ولم يضيفوا التفكير القومى الضيق الذى يحد من الميدان الانسانى الواسع الذى اعتادوا أن يركضوا فيه ·

وقد تبين لى تأثرهم بما خلفت المذابح الطائفية وعهود الاضطهاد فى أنفسهم من ذكريات مرة ، فوقف بعضهم من الاحتلال الفرنسى موقفا غامضا شديد الغموض على حين بدا موقفهم جميعا من الاحتلال العثمانى حادا كادوا يخرجون فيه عما دعوا اليه من المحبة واشاعة السلام ، ولابد من أن نذكر أن بعضهم لم يتفق مع الاخرين فى مهادنة الاستعمار الفرنسى ، بل دعا الى مغالبته والتمرد على أحكامه ، وسخر من رجالاته وممثليه ·

وقد انتهيت أخيرا الى الجلاء عما كان لحقيقة بعضهم فى الحياة من أثر كبير فى مواقفهم السياسية والقومية هذه ، وما يمكن أن يقود اليه من ضياع وتشتيت ·

وفى الفصل الرابع درست الصورة الأدبية التى اختارها هؤلاء الأدباء للتعبير عن هذه المضامين ، فانتهيت الى أن التعبير الشعرى المغموس فى العاطفة والمطرز بالخيال ، بما يستتبع من رمزية ، واشفاف وتلوين ، هو القالب المفضل الذى صبوا فيه أحاسيسهم وأفكارهم وعواطفهم : وقد كانوا فى هذا متأثرين أبلغ التأثر بأسفار التوراة الشعرية ، ولغتها الفطرية ، وقد بدا فى تراكيبهم تأثرهم العميق بالانجيل المترجم نصا وروحا ، حتى سلكوا فى بعض الأحيان مسلكه فى تقديم الاخبار ، وصياغة المفصولات المطلقة ، وحتى تفشت آياته وتعابيره وألفاظه فى معظم ما كتبوا من نثر ·

وقد أبنت الصلة بين هذا القالب الفنى الذى اختاروه وبين تجربتهم الخاصة الطرية التى يصعب أن تتماسك فى الجملة التقليدية وصورها ، فقد كانوا فى حاجة الى قالب شديد الحساسية عميق النبرة شاسع الايحاء ليستطيع أن يستغرق احساسهم المستوفز وغربتهم العميقة ·

على أن الكشف عن هذه الصلة بين الصورة والتجربة ، لم يعد ما بدا لبعض الباحثين من مقابلة هذه الجملة التى اختارها هؤلاء الأدباء المهاجرون والتى استجابوا فيها لاحساسهم بضرورة الوفاء بحاجات أرواحهم الكبيرة ، والجملة التقليدية ذات الجزالة الأصيلة والايقاع المنيف ، والايجاز البليغ ، والفاصلة

الواضحة ، وبهذا تميزت فى أدبنا جملة مهجرية تأثرها بعض الأدباء فى الشرق ولكنهم أخفقوا فى مجاراتها لأنهم لم يملكوا الأصالة الفكرية والعاطفية التى تقيمها وتفى هى بها٠

وقد وضح لى أن أصالة هذه الجملة تكاد تتجمع كلها فى (جبران) أولا ، ثم فى (نعيمه) ، فأما الآخرون فقد حاول بعضهم اللحاق بهما ، مثل (عبد المسيح حداد)، ولكنه لم يبلغ ـ على التحقيق ـ ذيول آفاقهما الرحبة ، وسقط فى الحواشى٠

ثم انتقلت أخيرا الى الباب الثالث وهو الباب المخصص لدراسة الفنون الأدبية العامة التى عالجها هؤلاء الأدباء ، وقد مهدت لهذا الباب بتبيين هذه الفنون وعللت أسباب انصرافهم اليها ووقوفهم عندها ، بما كان يعمر نفوسهم من احساس بحاجتهم الى دروب جديدة عريضة تفى بحاجة أرواحهم ونموذواتهم ، وقد بدا لى صدق ذلك فى المقالة الذاتية التى أولع أكثرهم بكتابتها ، والبوح فيها بأسرار نفوسهم وأشواقها ، وقد عجزوا ـ الا فى أحيان قليلة ـ عن كتابة المقالة الموضوعية الخالصة ، وهى غالبا مقالة فرض عليهم كتابتها كأن تكون اجابة على سؤال ، أو شرحا لرأى سئلوا ابداءه٠

وقد استغرقت المقالة معظم نتاجهم النثرى لما ذكرنا أولا ، ولأن الصحافة هى التى احتضنت هذا النتاج فى أول الأمر ، وليست تتسع الصحيفة لأكثر من قطعة انشائية محدودة ٠ فلما أنشئت المجلات ، ظهرت القصة القصيرة، ثم كتبت القصة الطويلة ، وهكذا كانت المقالة ، والمقالة الذاتية خاصة ، هى المدرسة التى تخرج منها أبرز كتاب الرابطة القلمية هؤلاء٠

وقد شارك فى المقالة هؤلاء الكتاب جميعا ، ولجأ اليها الصحفيون الثلاثة منهم : ايليا أبو ماضى ونسيب عريضه وعبد المسيح حداد ٠ وما كان بعضهم ـ فى اعتقادنا ـ ليلجأ الى النثر لولا عمله فى الصحافة واضطراره الى التعبير عن رأيه فى مجلته التى أنشأها ، يصدق ذلك خاصة فى أبى ماضى، فقد حفلت أعداد مجلته (السمير) بمقالاته وتعليقاته ومقدماته ٠

وقد بدا لى واضحا النجاح الكبير الذى أصابه (جبران) فى المقالة الشعرية، فقد كان فيها أستاذ المهجريين جميعا ، على الرغم من أنه تتلمذ فيها على (الريحانى) ، ولم يقصر عنه بعيدا (نعيمه) ولكنه كان يخضعها دائما للتصميم والهندسة [redacted] ، فتخرج المقالة عنده عن كونها خاطرة شعرية سارحة ، الى تأمل روحى عميق بعيد المدى ، على حين

تلبث عند (جبران) فى حدودها الأصيلة .

وقد امتازت مقالة أبى ماضى ونسيب عريضة بالكشف عن ثقافتهما العربية الواسعة وتأثرهما العميق بالجملة التقليدية ، وجريهما على آثارها ، حتى كادا أن يكونا فى الرابطة روحا متميزا خاصا لم يغادر رياض الأدب العربى القديم .

وفى الفصل الثانى من هذا الباب درست القصة ، وقد بدأت بالحكاية التى كتب فيها (عبد المسيح حداد) كتابا كاملا باسم (حكايات المهجر) ، وشارك فيها على قلة (جبران) و (نعيمه) ، وكتب (وليم كاتسفليس) الحكاية الشعرية. وقد بدا لى بعدهم جميعا عن القصد عن كتابة الحكاية ذات المفهوم الفنى المحدد القائم على حبك حادثة سريعة ذات عقدة خفيفة ، وتشخيص الشخصية الرئيسية تشخيصا حيا ، ثم الانتهاء السريع الى الحل ، فقد كتبوا الحكاية على أنها صورة لفكرة أو صورة لشخص أو حادثة فحسب .

وفى القصة القصيرة التى أخلصها من كتبها من هؤلاء الأدباء للموضوعات الاجتماعية غالبا ، بدا اخفاق جبران الأصيل فى عجزه عن حبك وقائع تحتفظ بمنطق الواقع ، وفى خلق شخصيات شديدة الارتباط بهذه الوقائع ، وتصوير سلوكها تصويرا يتفق مع الأحداث التى تتفاعل معها هذه الشخصيات ، وهو غالبا ما يسقط نفسه على الشخصية حتى يمحو سماتها ، ويطمس أصالتها وارتباطها بمنطق الأحداث فى القصة .

وقد بدت هذه العيوب كلها فى القصة الطويلة الوحيدة التى كتبها (جبران) ، وهى قصة (الأجنحة المتكسرة) التى تحكى حبه فى مطلع شبابه .

وفى هذا الميدان تبدى نجاح (نعيمه) المطلق ، فقد كتب القصة القصيرة فى نجاح مكنه من أن يكون - الى حد كبير - بانى القصة القصيرة الفنية فى أدبنا الحديث . فقد كان بارعا فى التصميم والحبك وتصوير الشخصيات وتحليل سلوكها ، والاحتفاظ بحرارة القارئ واقباله ، بما يبث فى القصة من عناصر التشويق الفنى ، وجذب الانتباه الى الغايات المنتظرة . ولم يصل - لسوء الحظ - الى هذا المستوى من النجاح فى قصصه الثلاث الطويلة ، فقد أخلصها جميعا لتصوير عقيدته فى وحدة الحياة ، وخلود الانسان عن طريق التناسخ والتقمص ، فبدت شخصياتها بعيدة عن الواقع شاذة أو مريضة ، وبدت الأحداث مصطنعة ثقيلة الخطو . وثقلت وطأة الفلسفة فى بعضها حتى كادت أن تخرج - فى صفحات كثيرة - عن دائرة الأدب ، الى دائرة الفلسفة ..

وقد شارك (نسيب عريضه) فى القصة القصيرة ، وكشف عن فهم وسط

لشروط القصة الفنية ،

كما كشف عن تأثر عميق بمصادر الثقافة العربية الأصيلة ، جعله يخترع قصته الكبيرتين (ديك الجن) و (حديث الصمامة) من هذه المصادر .

وفي الفصل الثالث درست المسرحية ، وقد كتبها (نعيمة) في كتابه (الآباء والبنون) ، وعرض فيها لمسألة الصراع بين القديم والحديث ، وخلط فيهما مسائل روحية بدت نافرة في مجرى الموضوع العام . وقد أصاب (نعيمة) في هذه المسرحية اخفاقا لم يغب عن عينه الناقدة ، فلم يحاول ولوج هذا الباب الا في فصل تمثيلي واحد ، لم يكتبه لنفسه ، وانما كتبه لاحدى الاذاعات بطلب منها . وقد اعترف (نعيمه) نفسه بضعف هذه المسرحية ، وأدخل عليها في طبعتها الثانية تعديلات لولا خوفه من أن تنقلب الى اطاحة بالمسرحية الأولى ، لوسعها توسعة كبيرة .

وقد بدا اخفاق (نعيمه) في عجزه عن تصوير شخصياته تصويرا موضوعيا ، وفي اختيار الوقائع وتنسيقها ، وفي تركيز الحوار ، وتحريك المسرح حركة مناسبة ، وبدت المسرحية تحمل طابع المراهقة ، والأزمة الفكرية اللتين كان (نعيمه) يعيشهما حين كتبت هذه المسرحية .

وكتب (جبران) مشهدا تمثيليا طويلا لم يقصد به الى التمثيل ، وانما اختار ذلك قالبا لتصوير فكرة من أفكاره الاصلاحية تصويرا حيا يجذب القارئ ، ولم يزد (جبران) في هذا المشهد عن كتابة (محضر) جميل حي لندوة فكرية طويلة ، فقد بدأ وانتهى و (المؤتمرون) لم يغادروا أماكنهم على الاطلاق .

وفي الفصل الرابع درست النقد ، وقد خاض (نعيمه) ميدانه في جرأة وأصالة في كتابه المشهور (الغربال) ، وانتهج فيه منهجا تأثريا ذاتيا شديد الصلة بعقيدته الخاصة ، ونظرته في تفسير الحياة وظواهرها . وقد بدت نسبية آرائه النقدية في مواطن كثيرة ، أبرزها رأيه في اللغة وفي العروض ، وبدا ذلك في نقده التطبيقي أيضا ، فقد رجع هو نفسه بعد ذلك عن كثير من الآراء التي دافع عنها في (الغربال) . وبدت بعض المفارقات في الكتاب ، لأنه مجموعة من المقالات كتبت في فترات مختلفة .

على أن الكتاب ذو قيمة تاريخية وفنية كبيرة ، فقد دعا الى تحكيم قيم ومقاييس جديدة في انتاج الأدب وفهمه وتذوقه ، ويمكن أن تلخص دعوته

فى كلمة واحدة هى (الصدق) فى الانتاج وفى التعبير عن النفس.

وقد تبين لى أن (نعيمه) ، وان احتفظ بآرائه التى أبداها فى الكتاب فى الأدب واللغة ، فقد عدل عن آرائه فى النقد ووظيفة الناقد ، متفقا فى ذلك مع خط التطور الفكرى العميق الذى خضعت له شخصيته ، فمال - نتيجة لذلك - الى المسالمة وتقبل الاقدار ، والتسليم للطبيعة . وقد مثل (الغربال) - على هذا النحو - شباب (نعيمه) واقباله على تصحيح مناهج الحياة الأدبية التى لم تكن ترضيه . وتبين صدى هذا التحول فى موقفه من النقد والنقاد فقد دعاهم الى الكف عن هذه المهمة الخشنة تاركين الطبيعة تنقد ذاتها بذاتها ... وقد انتهيت الى أنه لا يمكن أن تمثل دعوة من الدعوات الخريف الفكرى لأديب من الأدباء كما تمثل هذه الدعوة خريف (نعيمه) .

وشارك (جبران) فى النقد ، ولكنه اقتصر فيه على بسط رأيه فى بعض القضايا الأدبية واللغوية ، وفى مهاجمة أساليب الشعراء فى النظم ، وأساليب تعليم اللغة فى الوطن ، وآراؤه هذه وردت عرضا خلال مقالات لم يخلصها للنقد الأدبى غالبا ، وانما أخلصها لموضوعات عامة ، وهى أشبه ما تكون بصرخات عصبية حادة ، لا تقيم بناء ولكنها تهدم جسرا عفنا ، وتخلع ضرسا مسوسة) - على حد تعبيره - .

وشارك فى النقد أيضا (ايليا أبو ماضى) ، فكتب بعض المقالات فى مجلته (السمير) ينعى على بعض الشعراء نتاجهم الباكى ، ويدعوهم الى تصحيح تجاربهم الفنية . ولكن مشاركته هذه لم تتعد أن تكون خواطر سانحة لا تنتظم فى مذهب نقدى واضح .

وفى الفصل الخامس ، درست السيرة ، وقد كتبها (نعيمه) وحده فى كتابه (جبران خليل جبران) وجرى فيها على أسلوب الغربيين فى تراجمهم لأعلامهم ، فشخص حياة جبران ، وأقامها فى ظروفها من الزمان والمكان ، وأعاد (جبران) الى الحياة من جديد ، وبدأ يرصد تفاعله مع الأحداث والناس فى هذه الظروف ، وينتهى الى النتائج والمنعطفات التى انتهت اليها حياة (جبران) وهو خلال ذلك يحلل نفسه ، ويصور سلوكه الفكرى والعملى . ويعد (نعيمه) أول من كتب السيرة الفنية على هذا النحو فى أدبنا الحديث ، وقد بدت فى هذه السيرة مقدرته الخارقة فى احياء الوقائع وتشخيص الشخصيات ، ولكنه لم ينج من أخطاء كبيرة ، لعل أبرزها كثافة ظله فى مراحل السيرة ، حتى كان يزحم ظل (جبران) أحيانا ، ويطمسه .

وفى الفصل الاخير من هذا الباب ، درست الأمثال والرسائل فى أدب الرابطة القلمية ، وقد كتب (نعيمه) - فى الأمثال - كتابا كاملا اسمه (كرم على درب) ، يحوى أكثر من أربعمائة وخمسين مثلا . وهو - فيما نعلم - أول كتاب من نوعه فى أدبنا الحديث . على أن (نعيمه) لا يعد رائد هذا الفن فى أدبنا ، فقد سبقه (جبران) الى كتابة أمثال قليلة كان يضعها تحت عنوان (حفنة من رمال الشاطئ) (1) ، ثم أصدر من بعد ثلاثة كتب - بالانجليزية - أخلصها تقريبا لهذا الفن ، وهى (السابق The forerunner) و (المجنون The Madman و (رمل وزبد Sand and foam) ونحن نعتقد أن (نعيمه) تأثر (جبران) فى الالتفات الى هذا الفن ، فكتب كتابه هذا وأصدره سنة ١٩٤٦ . وقد بدا لى تأثرهما معا - فى هذا الفن - بسفر الأمثال فى التوراة ، وبعظات المسيح فى الانجيل ، من حيث المضمون والشكل ولم أجد صلة بينها وبين الأمثال العربية التى حفظتها كتب كثيرة فى أدبنا القديم ، فقد شفت الأمثال - كما شف أدب الرجلين كله - عن عقيدتهما الخاصة ، ونظرتهما فى الحياة والانسان ، وكشفا فيهما عن مقدرة رائعة فى اختزان التجربة وتكثيفها والتعبير عنها تعبيرا دسما يضطر القارئ الى اعمال عقله واطلاق خياله حتى يلحق بهما .

ولم تنشر حتى اليوم سوى رسائل كاتب واحد من كتاب الرابطة هو (جبران) ، فقد نشر (نعيمه) فى كتابه (جبران خليل جبران) مجموعة منها ، كان (جبران) أرسل بها اليه فى مناسبات مختلفة ، خلال اقامتهما معا فى المهجر ، وحدثه فيها بشئون روحه وقلبه وأدبه ، وبشئون الرابطة ومشكلاتها . ثم نشرت مجموعة أخرى من رسائل (جبران) الى بعض أصدقائه الآخرين ، ومنها رسائله الى (مى) (مارى زياده) ، وهى الرسائل التى كشفت عن العلاقة بينهما وحددت مداها ونوعها . وقد نشرت هذه الرسائل أخيرا فى كتاب مستقل (2) ، اعتمدنا - الى جانب المجموعة الواردة فى كتاب نعيمه - فى دراستنا هذه . وقد تبين لنا أن (جبران) أظهر فى هذه الرسائل عفوية وانطلاقا لم يظهرهما فى أدبه الذى كان يكتبه للناس ، فقد بدا فيها خفيف التعبير ، سريع الخاطرة ،

---

(1) البدائع والطرائف - مجموعة مؤلفات جبران ٣/ ١٨٠ .

(2) أصدرته دار بيروت باسم (رسائل جبران) سنة ١٩٥١

رقيق الرمز حتى تمنينا لو أن (جبران) كتب دائما بلغة الرسائل ، وقد وضحت في هذه الرسائل صورة (جبران) الذى كان يحسن الابتسام أحيانا، على الرغم مما كان يحمل من تبعات الحياة وعلى الرغم من كآبته الرومانسية الأصيلة ، وبذلك اختفى فيها (جبران النبي) الذى يلقي ظله دائما على أدبه ، فبدت ألصق بالنفس وأعمر بالانسانية وأقرب الى طبيعة الحياة التي تشرق فيها الشمس من خلال الغيوم.٠

ولاشك أن لكتاب الرابطة الآخرين رسائل لم تنشر حتى اليوم ، وستنشر في يوم من الأيام ، على أنه كان بين أيدينا عدد قليل من رسائل (نعيمه) لم نحاول أن نتخذ منها نموذجا لرسائله . وسننتظر - على كل حال - أن يضاف الى هذه الدراسة نتائج جديدة أو تصحح فيها نتائج قديمة على ضوء ما ينشر بعد اليوم من أدب المهجر . وقد أيدنا اعتقادنا هنا بأن الرسالة تكشف - من صاحبها - عن خصائص وصفات لا يكشف عنها أدبه الذى يكتبه لينشره في الناس ، ففي الرسالة صدق واخلاص وانسانية وعفوية ومباشرة ، وهي خصائص لا يسهل أن يبديها الكاتب في أدبه الذى يذيعه ، ومن هنا تبدو قيمة الرسائل التي يخلفها أهل الفكر والفن ، فهي - على التحقيق - أكثر صلة بحياة صاحبها وأكثر دلالة على خصائص فكره وسلوكه .

وقد انتهت دراستنا أخيرا بتلخيص الخصائص العامة للنثر لدى كتاب الرابطة القلمية في المضمون والشكل ، وهي ، في الحقيقة ، نتائج مركزة لدراستنا هذه ، ومن الأصوب أن نحيل اليها القارئ في مكانها من خاتمة الدراسة، ويمكننا - على كل حال - أن نذكر هنا ما انتهيت اليه أخيرا ، من أن هذا النثر المهجرى نثر أصيل لاحد لأصالته ، وهو صفحة لم يكتب مثلها - من حيث خصائصها - في الأدب بناقديمه وحديثه ، وقد استطاع أن يفتح لأدبنا الحديث أبوابا مغلقة ويشق له طرقا جديدة ، ويبني له قيما فنية أكثر استجابة لحاجات النفس العربية التي بدأت تعي واقعها وذاتها ، وأكثر وفاء بهذه الحاجات .

(٥)

ولا مفر للباحث في الأدب المهجرى من الاعتماد على مصادر مختلفة ، ومصادر البحث في هذا الأدب تتعدى الآثار المكتوبة الى المقابلات الشخصية ، والاتصال بالشخصيات المهجرية المعروفة التي أثرت في هذا الأدب أو عاشت

زمنا في محيطه أو اتصلت ببعض ممثليه ، وقد يفيد الباحث من هذا الاتصال فوائد لا تخطر له على بال ، الأمر الذي يوحي بضرورة الاسراع في تدوين الوثائق التي تعين الباحثين في هذا الأدب قبل أن تتبدد ويضيع بضياعها مصدر لا يعوض ، يعيش الآن بيننا الى حين ، ومن المحزن حقا أن يموت هؤلاء الأدباء الكبار واحدا في اثر واحد ، دون أن يخلفوا — الا في مواضع قليلة من كتبهم — ما يعين الباحث على فهم هذا المحيط الغريب البعيد ، وعلى تقدير أبعاد التجربة التي خضعت لها أرواحهم وتأثروا بها في انتاجهم تأثرا بليغا ، ونحسب أنهم لو التفتوا الى تدوين مذكراتهم لأحسنوا هنا احسانا لا يقدر ، وعسى أن يفعل الباقون منهم (١).

وقد قدرت ، منذ بدأت النظر في موضوع الرسالة ، قيمة هذا المصدر الفريد من مصادر بحثي ، وكان الاستاذ (ميخائيل نعيمه) العلم الكبير الذي لاح لي — كما يلوح للباحثين جميعا في أدب المهجر — منذ مطلع الطريق ، فهو — في الحقيقة — أحد الركنين الكبيرين اللذين تقوم عليهما رسالتي ، وهو صديق ،(جبران) وكاتب سيرته ، وهو عقل (الرابطة) وفيلسوفها وموجه أدبها ،وهو الذي سهر على تجاربها وشهد ولادتها وعايش آلامها ومخاضها ، وقد كنت زرته في مسكنه منذ أكثر من ست سنوات ، واستمعت اليه يحدثني عن عقيدته التي بدت لي غريبة في ذلك الحين، ثم عاودت الاتصال به في حلب حين جاءها محاضرا عام ١٩٥٤ ، ثم اغتنمت فرصة وجوده في القاهرة ، في مؤتمر الأدباء العرب الثالث ، فعاودت الاتصال به ، ودونت ما سمعته منه حرفا حرفا ، ثم زرته في بيروت وجلست اليه ثلاثة أيام أفاض فيها في الحديث افاضة كريمة أضاءت لي كثيرا من النتائج التي انتهيت اليها ، ثم تلقيت منه رسائل مستفيضة ، تجيب عن بعض الأسئلة وتعطي الرأي في بعض المشكلات ، وتوضح ظروف بعض الأعمال الأدبية ، وقد اجتمع لدي من هذا كله مادة أرجو أن أكون قد أحسنت استغلالها ، واستخلاص بعض النتائج المفيدة منها .

ثم بدا لي — وأنا أجمع مادة الرسالة — قلة ما بين أيدينا من أخبار (وليم كاتسفليس) خازن (الرابطة القلمية) ، ومن آثاره ، فكتبت بذلك الى صديق لي في طرابلس وسألته أن يتصل بآل كاتسفليس ، ثم رأيت أن أسافر بنفسي الى (طرابلس) فزرت فيها (الست آديل) أخت الكاتب ، واستطعت أن أخلص من خلال دموعها وآهاتها وذكرياتها عن أخيها ، بأخبار دقيقة عن طفولته وصباه ، ثم اتصلت في بيروت بالاستاذ (فيليب كاتسفليس) وهو أخو الكاتب

---

(١) حدثنا الاستاذ نعيمه في بيروت بتاريخ ١٩٥٨/١٢/٤ أنه عاكف على تدوين مذكراته ، وقد صدر الجزء الأول منها بعنوان (سبعون — حكاية عمر) في ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٩ ، وأفدنا منه افادة كبيرة .

فحدثني حديثا مفصلا عن أخيه وعن الرابطة التي عرف عمالها عن كثب ، حين سافر الى (نيويورك) مع أخيه (وليم) .

واغتنمت فرصة زيارتي لطرابلس فزرت (بشرى) للمرة الثانية وقضيت وقتا طويلا في (متحف جبران) ، وعمقت معرفتي بآثاره وصلتي بحياته ، عن طريق احياء ما خلف من آثاث بسيط . وقد خيل الى حينا طويلا أنني أعرف هذا الأثاث وأعرف صاحبه ، كأنني عايشته منذ زمن ، وقد أتاح لي فحصي لمكتبته وكتبه أن أكون فكرة مفيدة عن مصادر ثقافته التي استقاها ، وعن حدودها ونوعها ، وزرت دير (مار سركيس) الذي أمضى حوله (جبران) فترات حارة من طفولته وصباه ، والذي آوى حب جبران الأول مع فتاته (حلا الظاهر) بطلة (الأجنحة المتكسرة) ، ثم آواه أخيرا بعد الموت ، وزرت بيت (جبران) واستحضرت تجارب هذا الفتى وطفولته في هذه الربوع الجميلة ، حتى أيقنت أني الآن أقدر على فهمه وفهم أدبه .

وقد احتجت أن أكتب حينا للأستاذ (جورج صيدح) فجاءني رده مفصلا صريحا ، أفدت منه في بعض المواضع . واستأنست بآراء بعض من زار المهجر أو كتب عنه أمثال الدكتور (محمد الكفافي)(1) والاستاذ (سامي الكيالي) والدكتور (احسان عباس) ، والأستاذ (خليل الهنداوي) ، والاستاذ (نظير زيتون) وناقشت معهم بعض القضايا والمشكلات .

— ٦ —

ثم ان الباحث في أدبنا الحديث مدعو الى الرجوع الدائب الى مجموعات الصحف والمجلات التي صدرت في عصر نهضتنا الأدبية الحديثة ، فهي — باعتبارها احتضنت كثيرا من إنتاجنا الأدبي — حافلة بالآراء والدراسات والأحكام والمقالات التي ينبغي للباحث الوقوف عليها والاحاطة بها قبل أن يباشر الكتابة ، بل لعله قادر على أن يجمع منها مادة صالحة في كثير من جوانب البحث ، على أن الباحث في أدب المهجر يشكو هنا شقاء الحظ ، فالمجلات والصحف المهجرية نادرة في مكتباتنا حتى ليضطر الباحث أن يكد بحثا وراء ما يحصل من أعدادها في (بيروت) و (دمشق) و (القاهرة) في المكتبات الخاصة أحيانا كثيرة وفي المكتبات العامة ، ثم لا يفوز من ذلك كله بشيء يغنيه ، لقد كنت أسمع أن في مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت — مثلا — مجموعة من مجلدات مجلة (السائح) التي صدرت في (نيويورك) زمنا طويلا ، فلما جئتها قابلني أحد المسئولين

---

(1) تفضل فأهداني رسالته النافعة (العرب في المهجر الشمالي) التي كتبها في زيارته للولايات المتحدة الامريكية . وقد امتدح أبو شادي جهود الدكتور الكفافي في الاتصال بأدباء المهجر اتصالا شخصيا خلال زيارته هذه . (دراسات أدبية ٤) .

فيهما ـ بعد تفتيش دقيق حقا ـ بالاعتذار ، ولم يكن حظى فى دار الكتب اللبنانية خيرا من حظى هناك ، على أننى عوضت عن ذلك بما لقيت من أعداد مجلة (السمير) لايليا أبى ماضى . وليس فى مكتبة دمشق (الظاهرية) من مجلات المهجر سوى أعداد قليلة (لعلها لا تجاوز الثلاثة على التحقيق) من مجلة السمير هذه ، ولولا أنى وجدت فى مكتبة معهد الدراسات العربية العالية مجموعة مجلة الفنون ومجموعة الرابطة القلمية لكان يمكن أن يطول تفتيشى عنهما ، وقد حفظت هذه المكتبة الى جانب ذلك مجموعة صالحة من مجلة (العصبة) البرازيلية ، وهى ذات صلة بأدب المهجر الشمالى ، وقد أفدت منها افادة طيبة .

فأما الصحف ـ ودارس أدب المهجر فى أمس الحاجة اليها لتبين جوانب التكون الأدبى هناك ـ فينبغى أن يعود اليها الباحث فى دور الكتب المتعمقة ، فقد يجد أعدادا متفرقة منها ، وقد وجدت أعدادا قليلة من جريدة (مرآة الغرب) و (الهدى) فى فرع دار الكتب المصرية فى القلعة ، ولكنى لم أفد منها بشىء ، وعدت الى المجموعة الصحفية التى باعها الكونت (فيليب دى طرازى) لدار الكتب اللبنانية (1) ، وهى الأعداد الأولى من الصحف العربية الصادرة فى الوطن وفى المهجر ، فأفدت من ذلك افادة خفيفة ، وعسى أن توفق دور الكتب فى لبنان وفى الجمهورية العربية المتحدة الى الحصول على مجموعات كاملة لمجلات المهجر وصحفه ، فهى كنز ثمين للباحثين ، وهى صورة لما تصاد للحياة الفكرية التى ازدهرت فى المهجر وخلفت فى حياة وطنها الأدبية أعمق الآثار . وتستطيع هذه الدور أن تشترى بعض المكتبات الخاصة الثمينة التى تضم هذه المجموعات ، ثم تستطيع أن تتصل بمن بقى من أدباء المهجر وصحفييه ليمدوها بما تحتاج من هذه المجموعات ، وتلك على كل حال مهمة وزارة الثقافة والارشاد عندنا ، ولعل مكتبة معهد الدراسات العربية العالية تنشط بدورها لجمع وثائق الهجرة التاريخية والأدبية ، وتنافس فى الحصول على مجموعات كاملة من صحف المهجر ومجلاته ، فالمعهد ـ كما ينبغى أن يكون ـ مرجع الباحثين فى حياة العرب الحديثة فى كافة وجوهها ، وعلى مكتبته أن تنهض بهذا العبء الكبير .

فأما المجلات والصحف التى صدرت فى الوطن ، فهى لا تخلو من فوائد كبيرة ـ كما قدمت ـ حتى بالنسبة للباحث فى أدب المهجر ، وقد رجعت

---

(1) سهل لى الرجوع اليها مدير الدار الاستاذ العربى واصف البارودى فله الشكر .

الى مجموعات كاملة منها ، فى مكتبة معهد الدراسات العربية العالية ، فوقعت على مقالات وبحوث ونقود خففت عنى بعض متاعب البحث ، ووسعت من آفاقه وخططت بعض اتجاهاته ، ويستطيع القارئ أن يرجع فى بينها الى فهرس المصادر فى آخر الرسالة .

وقد رجعت فى تفسير حركة المهاجرة الى كتب مغمورة كبيرة الخطورة كتبت فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهى شديدة الصدق فى تصوير الحياة المضطربة فى سورية ولبنان ابان تلك الفترة القاسية من حياة الشام ، وأذكر منها (حسر اللثام عن نكبات الشام) لباحث دمشقى مسيحى منصف يغلب على الظن أنه شهد مذبحة الستين ، وقد أمدنى بصور ثمينة لهذا الاضطراب الطائفى المحزن الذى كان يعم حياة الشام ، وبصور أخرى للاضطهادات التى كانت تنوء بها حياة المسيحيين بتشجيع من السلطات العثمانية آنذاك وبتحريش الدول الاستعمارية ووحيها . وكتاب (كنوز لبنان) وصاحبه (باحث لبنانى يقيم فى القطر المصرى) كبير الغيرة على لبنان ، شديد التأثر لما أصابه ، وقد صور خراب البيئة الاجتماعية فيه تصويرا ناجحا ، على أن الباحث مدعو الى قراءته بالرفق لانه يشتم منه رائحة الدعاوة العثمانية فى بعض السطور ، ولكنه —على هذا— يضم حقائق جليلة يمكن أن تنهض فى الرد على بعض الفئات اللبنانية التى تربط مصيرها ببعض الدول الغربية . وفى الكتاب قدر صالح من أخبار لبنان فى أواخر القرن الماضى ، وصور كثيرة لحياة أبنائه فى تلك الفترة .

وقد كانت لبعض الدراسات التى أصدرها بعض من كتبوا فى تاريخ المهاجرة وأدوارها ،أوفى أدب المهاجرين أو حياتهم ، فوائد كبيرة أيضا ، نذكر منها كتاب (السوريون فى أمريكا The Syriane in America)(1) للدكتور (فيليب حتى) ، وكتاب (الناطقون بالضاد فى أمريكا) الذى نشره معهد الشئون العربية الأمريكية فى نيويورك وترجمه (يعقوب العودات) ،وكتاب (حكايات المهجر) (لعبد المسيح حداد) ، ورسالة (العرب فى المهجر الشمالى) للدكتور (الكفافى) . ثم نذكر من الدراسات الأدبية كتاب (جورج صيدح) (أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية) وكتاب الدكتورين (نجم) و (عباس) (الشعر العربى فى المهجر) ، ومجموعة المقالات التى كتبها (اسماعيل أدهم) عن (ميخائيل نعيمه) فى مجلة

(1) ترجمته مجلة المقتطف فى أعدادها الصادرة ما بين السنتين ١٩٢٢ و ١٩٢٤

(الحديث) (١) الحلبية وكتب الدراسات النقدية لمارون عبود (٢).

وليس من شك في أن الدراسات الجديدة لن تبعد - مهما تحرى كاتبوها الدقة والحذر - أن تقع في بعض الأخطاء، أو تتعجل بعض النتائج، أو تنزلق في بعض المنعطفات، والدراسات المهجرية - بقلة مصادرها، وبعد ما بينها وبين المحيط الذي تحاول أن تتصوره - أقرب الى مثل هذا، ولن يخفف من ذلك شيء، كأن يعترف الباحث به، ويهيء نفسه لمتابعة الدرس والنظر في البحث على ضوء ما يصدر بعد ذلك من دراسات، وما ينشر من آثار المهجر.

ان من شأن الدراسات المخلصة أن تتم بالتعاون وبالصبر، وبأن يأخذ اللاحق عن السابق فينظر في النتائج التي انتهى اليها على ضوء اختباراته الجديدة، وما اتصل به من مصادر لم يتح لسابقه الاتصال بها، فيقر ويخالف ويزيد، وبذلك تنمو حياتنا الفكرية والأدبية وتتجدد وتزداد فهما لأنفسنا ولحقائقنا ولتراثنا.

لقد تناولت التراث الأدبي النثري الذي خلفه - حتى اليوم - كتاب الرابطة القلمية ففسرته على ضوء التجارب التي عاناها هؤلاء الكتاب، وعلى ضوء الثقافات التي تأثروا بها. ونظرت في مدى ما أصابوه من توفيق فني وأصدرت أحكامي بمقدار ما أتيح لي من فهم هذا النتاج وتقييمه • وأنا أرجو أن أكون قد أخلصت القول، فهذا غاية ما قصدت اليه.

واني لأشكر أستاذي الدكتور مندور شكرا جميلا لما بذل في نصحي، ولما أظهر من صبر ونبل وعلم أهلته كلها لأن ينعم بما ينعم به من حب تلامذته واعجابهم.

وأشكر أستاذي الدكتور اسحق موسى الحسيني الذي تفضل بقراءة فصول الرسالة فصلا فصلا، ونصح لي وأعانني بالوصول الى بعض المصادر في مكتبته الخاصة.

وأشكر الأستاذ الكبير ميخائيل نعيمة لما أبداه وأعطاه، فقد زودني بما طلبت من أخبار حياته وحياة نتاجه، وحياة زملائه في الرابطة وحياة نتاجهم، ولم يضق بي في زياراتي المتكررة له في (بسكنتا) و (حلب) و (القاهرة) و (بيروت)، وقد زاد على ذلك فأخذ يكتب الي بما أريد الى (حلب) و (القاهرة)

---

(١) انظرها في قائمة المصادر.

(٢) أبرزها في هذا المجال: (جدد وقدماء) (وفيه أشياء كثيرة عن جبران)، و (في المختبر) و (مجددون ومجترون).

ويرسل الي بما أحتاج من كتب رفاقه في الرابطة ، ومن مسودات رسائله القديمة الى بعض اخوانه ، ومن نماذج من مسودات انتاجه . وكان يكتب الى الرسالة تتجاوز الصفحتين والثلاث ، يبدد بعض الصعوبات ، أو يضيء بعض المتاهات أو يحذر من بعض المزالق . صدر مفتوح ، ورغبة في العطاء واقبال على الجد ، وصلابة في الحق ، وتجاوز واغضاء . شكر الله له شكرا يكفيه .

وأشكر الاستاذ خليل هنداوي الذي أطلعني على بعض الرسائل الهامة التي تبادلها مع الاستاذ نعيمة .

وأشكر الاستاذ سامي الكيالي الذي قدم الي دراسة المرحوم (اسماعيل أدهم) عن ميخائيل نعيمه ، وهي الدراسة التي نشرها في مجلته الكبيرة (الحديث) .

وأسأل الله أن يجزيهم عني خير ما يجزي به أصحاب الجميل .

ملاحظات

١ - استعملنا كلمة (مهجر) بدلا من (مَهاجر) ، لشيوعها ووضوحها وسهولتها .

٢ - توسعنا قليلا في نقل النصوص والأمثلة مقدرين بُعد القارئ عن مصادر الأدب المهجري ، فحرصنا أن نزوده بعدد صالح من النصوص ليستعين بها على فهم هذا الأدب وتقويم أحكامنا عليه .

٣ - أيضا أن ننقل النصوص والأمثلة نقلا حرفيا ، فلم نصحح بعض الأغلاط اللغوية الواردة فيها ، لنضع بين يدي القارئ صورة صحيحة - قدر الإمكان - لهذا الأدب .

(١)

ليس الغرض من كتابة هذا المدخل تقديم بحث مستوفى فى المهاجرة وظروفها، فقد تغنينا عن ذلك كتب كثيرة تناولت هذا الموضوع.[١]

وقد درج الذين كتبوا فى الأدب المهجرى، أو نظروا فى اتجاه من اتجاهاته الفكرية أو الفنية، أو درسوا أديبا من أدبائه، أو مجموعة من شعرائه، درجوا على أن يصدروا بحوثهم بمقدمات فى دراسة أحوال سورية ولبنان منذ منتصف القرن التاسع عشر، وما كان يسود المجتمع السورى واللبنانى –على الأخص– من قلق فى حياته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مما دفع الى المهاجرة أو شجع عليها، فلن يكون التفصيل – هنا – اذاً الا اعادة لا تجدى لما يجده القارئ فى هذه البحوث.[٢]

على أن بعض الذين درسوا المهاجرة وظروفها من هؤلاء، أخذوا عن المصادر التى أشاروا اليها فى بحوثهم، دون أن يظهروا فيها، وخيل لبعض الدارسين أيضا أنه ينبغى أن يغفلوا عن بعض الأشياء حتى لا يساء تفسير ما كونوا من آراء، وأعجلت بعض الدارسين الآخرين أصلاب البحوث فمروا بالمهاجرة وأسبابها استكمالا لمداخل الدراسة، وهذا كله يدعو أن نضع هذا المدخل فنقصره على ما انتهت اليه دراستنا الخاصة للمهاجرة وأسبابها وظروفها، ونجمع الى ذلك ما يعين على فهم بحثنا فى نثر كتاب الرابطة القلمية، واضاءة النتائج التى سننتهى اليها، ويستطيع القارئ – اذا شاء التوسع – أن يعود الى ما سبق

---

(١) انظر (المهاجرة فى لبنان) لأسعد داغر. وهو يضم احصاء غزيرا لمعظم مصادر هذا الموضوع.

(٢) انظر مثلا (شعراء الرابطة القلمية) لنادرة السراج ص٢٦ – ٥٦، و (الشعر العربى فى المهجر) لعباس ونجم ص ٩ – ٣٥، (وهو فى رأينا – من أحسن ما كتب فى تحليل ظروف المهاجرة).

من دراسات فى الأدب المهجرى ، والى ما تشير اليه من مصادر ومراجع ، فيجد فيها ما يبغى من سعة وتفصيل واستكمال للجزئيات الصغيرة ٠

(٢)

حقيقتان بارزتان تقفسان للباحث فى حركة المهاجرة ٠

الأولى : أن الكثرة الغالبة من المهاجرين مسيحيون ، وليس يعبأ هنا كثيرا ببعض المسلمين ممن هاجروا فى أوقات متأخرة تقليدا لاخوانهم المسيحيين، حين رأوا بعضهم يعودون باليسر والغنى (١) ٠

والثانية : أن حركة المهاجرة مرتبطة ارتباطا وثيقا بتفتح الوعى الذى بثته النهضة التعليمية التى عمت لبنان وبعض أنحاء سورية ، فالارساليات الأجنبية كانت قد بدأت تغزو الشام غزوا ملحوظا منذ القرن التاسع عشر ، بعد غزوة نابليون لعكا سنة١٧٩٩ ، وقد انبثت فى قرى لبنان ومدنه تؤسس الأديرة والمدارس، وترسل البعوث ، وقد أتيح لهذه الارساليات أن ينمو نشاطها بعد الفتح المصرى لسورية عام ١٨٣١ (٢) ، وقد أحدثت

---

(١) قدر (فيليب حتى) عدد المهاجرين من المسلمين الى أمريكا (٨٠٠٠) نسمة فقط ، المقتطف :. ١٩٢٢ المجلد ٦ الجزء ١ ص ٦ افىحين جاوز عدد المهاجرين كلهم في بعض الأقوال — ثلث المليون ٠ وانظر (الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام) لجميل صليبا ص ٥٣ فهو شديد الالتفات الى هذه الحقيقة ٠

(٢) كان لدخول ابراهيم باشا الى سورية نتائج خطيرة أثرت آثارا فادحة فى مجرى الأحداث من بعد ، فقد تنفس المسيحيون فى ظلاله — لأول مرة — هواء حرا، حتى ليقول صاحب حسر اللثام بعد أكثر من ستين عاما من تاريخ الفتح : " ٠٠ ويعد حكم ابراهيم باشا فى الشام بدء عصر التنوير والاصلاح ، فقد كان الذى قبل أيامه لا يعد نفسه من الآدميين. فلما انتشرت راية العدل ، وعم الأمن وتساوى الناس أمام الحاكم ،ظهرت القوة التى كانت كامنة فى الصدور ، خطا النصارى الخطوات الواسعة فى ميدان الحضارة ، ونشطوا الى القيام بالأعمال الكبيرة ، ولم يزل أهل الشام يتحدثون بابراهيم باشا وأيامه الى هذا الحين ٠٠" — انظر ص ٤٥ و ٦٧. وقد ساعد هذا التفتح على أن يزداد احساس المسيحيين — بشكل خاص — فى الشام بمساوئ حكم العثمانيين واضطهاداتهم ، بحيث تعذرت عليهم الحياة فى ظلالهم بعد انسحاب ابراهيم باشا من الشام ، ولعل الصلات الطيبة التى عقدها ابراهيم باشا مع شيوخ الجبل وأمرائه ، ثم احساس هؤلاء الشيوخ بضعف العثمانيين كان مما ساعد على أن يغرق الجبل — بعد انسحاب الجيش المصرى — فى الفوضى بسبب حرص هؤلاء الشيوخ والأمراء على أن يظهروا ما تعودوه أيام ابراهيم باشا من بعد النفوذ ، والتأثير فى سياسة الجبل: انظر بحوث (اسماعيل أدهم) الحديث : السنة ١٨ (١٩٤٤) ص ٣٧،وانظر حسر اللثام ٧١ ٠

هذه الارساليات فى لبنان خاصة — نهضة تعليمية وفكرية موجهة (١)، وفتحت عيون خريجيها — وهم مسيحيون — على حقائق الحياة من حولهم، وارتفعت بما يتطلبون من مستوى لحياتهم فى المادة والفكر (٢).

وقد اتجهت الدراسات فى هذه المدارس اتجاها انسانيا نظريا عاما أبعد خريجيها عن مجالات العمل فى الصناعة أو الزراعة، حتى " أصبحوا — فى الغالب — وقرا على أنفسهم وعلى ذويهم، وعلى البلاد " وأصبحوا " يرون من العيب أن يقدموا على عمل زراعى أو صناعى، فضاقت البلاد على النابغين منهم فغادروها الى حيث لا يرجعون .. " (٣).

وتظهر الى جانب هاتين الحقيقتين البارزتين فى الهجرة حقائق اجتماعية واقتصادية أخرى :

أ) فالجبل تتقسمه وتمزقه — منذ القديم — اقطاعيتان مصطرعتان : سياسية، ويمثلها أمراء الجبل وشيوخه على اختلاف نحلهم، وقد كان المتصرفون يصطنعونهم ليمتلكوا الشعب بهم، ويقسموه أنصارا وأحزابا، وكانوا هم فى أحيان كثيرة يقاومون المتصرفين ويحاربونهم، ويدفعون أنصارهم الى (رفع العرايض) بشأنهم الى الآستانة، والى رجال القنصليات الأجنبية، فتتضارب المصالح وتقع الفوضى فى البلاد. وما أكثر ما قاد التناحر بين هؤلاء (٤)

(١) اتهم (الريحانى) هذه المدارس بأن فيها " روحا أجنبيا من شأنه أن يبعد السوريين واللبنانيين عن كل ما هو عربى فى غير اللسان، ولو استطاع لأبعدهم كذلك عن اللسان، لقتل فيهم حب اللغة العربية " (ملوك العرب) ١/ ٢٤.
ويقول (الياس أبو شبكه) عن الارساليات الفرنسية : " .. أول ما فكرت فيه الرسالات الفرنسية عندما أتت هذه البلاد هو بثها الفضائل التى تحلى بها ملوكها وأدباؤها ورجالها العسكريون والبحريون، فقد كان لهذه الدعوة أثرها العميق فى المسيحيين على الخصوص، فراحت الناشئة تغرف من معين تلك الفضائل غذاء لتفكيرها .... وقد يكون مرد هذا الى أن الناشئة المسيحية فى الشرق حملت على الاعتقاد — من حصر الدعوة فيما انطوى عليه التاريخ الفرنسى من الفضائل — بأن تاريخها لا يرتبط بتاريخ العرب، جاهلة أن من خطل الرأى القول بأن تاريخ العرب هو تاريخ الأمة الاسلامية دون سواها .. " — روابط الفكر والروح ٥٧، وانظر — فى هذا — (كنوز لبنان) ٣٢. وما يقوله جبران فى كلامه على (مستقبل اللغة العربية) مجموعة المؤلفات ٣/ ٢٤٣.
(٢) لاحظ بعض من كتبوا عن لبنان فى مطلع هذا القرن أن المتعلمين كثروا فيه " الى حد يمكننا من القول بأن اللبنانيين لم يبق فيهم أمى .. " — كنوز لبنان ١٩، وانظر ما يقوله أيضا فى ٢٧، وارجع الى حسر اللثام ١١ — ١٣ ولبنان بعد الحرب ٥١ و ٨٢.
(٣) كنوز لبنان ٢٩ وما بعدها. وانظر (حسر اللثام) ص ١١ — ١٢
(٤) كنوز لبنان ٨٩ و ٩٢ و ١٢٤.

الشيوخ الى الفتن والمذابح (١) ، واقطاعية دينية يمثلها رجال الدين على اختلاف مذاهبهم ، فقد " تعددت الرهبانيات في لبنان ، وكثر عدد المترهبين فيها ، وكثرت أديرتهم الضخمة ، وعظمت ثروتهم أملاكا وأموالا حتى قربت من مضرب المثل " (٢) وبات " نصف لبنان في حوزة رجال الدين " (٣) ، وكثيرا ما كان رجال الدين أنفسهم يناصب بعضهم بعضا العداء ، حين تتضارب المصالح ، فتقف الجمعيات والأخويات في وجه رجال الدين الكبار ، فيبدأ هؤلاء بتشويه سمعة الكهنة الصغار ليتخلصوا منهم ، ويثيرون عليهم أقرباءهم وأسيادهم (٤) ، ثم يلجئون — كما فعلوا سنة الستين — الى اثارة النعرات الطائفية ليلفتوا عنهم الأنظار ، وينشط سوق الدسائس بين عامة الشعب وخاصته ، وهكذا كان الرجل اللبناني مسلوب الكرامة والحقوق ، ضائعا بين الاقطاعيين (٥) ، مما سهل الطريق للثورات والانتفاضات المختلفة أن تعم لبنان في هذه الفترة التعسة من حياته القلقة ، حتى انتهت أخيرا بمذبحة الستين (٦) .

---

(١) كنوز لبنان ١٦٥ .　　(٢) المصدر السابق ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق ١٣٣ .　　(٤) المصدر السابق ١٣٢ .

(٥) جاء في (كنوز لبنان) قوله : " فاذا كانت رهبانياتنا نسكية فأين التوحد والاعتزال وهي مخالطة العالم في شئون حياتها أجمع ، ولماذا هذه القصور الباذخة، والصروح الشامخة . ولماذا هذه الثروات الطائلة والأملاك الواسعة . بل أين الزهد والاتضاع المسيحي ورجالها يتسابقون الى الرئاسات وصدور المجالس، ورؤساؤها يطولون في عظمة المقامات على كل منافس . واذا لم تكن رهبانياتنا نسكية فهي اذا عملية خيرية ، فعليها أن تتمثل الرهبانيات الغربية وتقفو أثرها في أعمالها بانشاء المدارس والمياتم والمعاهد الخيرية الانسانية والوطنية ، وعليها أن تنظر في تلك الاعمال الى افتقار البلاد .. "ثم قال : " اننا في زمن لا يكتفى فيه بتزويق الكلام ، لأن الغشاوة القديمة قد زالت عن العيون فالكل يرى كيف تتسرب عوائد تلك الأملاك وفوائد تلك الأموال ، والكل يعرف — ولو لم يتمكن من الاحتجاج القانوني — أن بعض الاغنياء وأصحاب المطالب الشخصية يستولون على قسم كبير من ذلك فلم يحجم بعضهم عن ادعاء شيء كثير من تلك الثروة لنفسه ، ولا عن تسجيلها باسمه ولا عن ذكر أنها من ماله الخاص .. " . ص ١٣٠ — ١٣١ .

(٦) أنكر صاحب (كنوز لبنان) أن يكون الاقطاع وحقوق النبلاء سببا في اشعال نار المذبحة ، وقال ان السبب هو " تداخل الاغيار في شئوننا الداخلية حتى جعلونا أقساما وأحزابا ، وكانت النظامات الدولية الضربة القاضية علينا لأنها غير مناسبة لأخلاقنا ولا لعاداتنا وتربيتنا " — ص ١٦٦ ، وهذا — في رأينا — انكارا للاسباب البعيدة للمذبحة ، فلو لم يكن الاقطاع على هذه الصورة لما أتيح " للاغيار " الدس والتفريق ، ولما أثيرت " العامة عند المسيحيين " . فهل نتمسك بالظاهرة وننكر الأصل .

ب) وفي سورية ولبنان ألوان من المذاهب والأديان [١] ، وقد كثرت هذه المذاهب حتى تهيأ لبعض الكتاب أن يعدها أجناسا مختلفة [٢] - فالموارنة والروم الأرثوذكس ، والروم الكاثوليك ، والدروز ، والشيعة (المتاولة)، والمسلمون السنيون .. ومهما فوتنا على هؤلاء الكتاب أغراضهم السياسية من وراء اعتبارهم هذه المذاهب أجناسا ، فليس من شك في أن صراعا خفيا أو مكشوفا كان يمزق وحدتها وينذر — في أحيان كثيرة — بأفدح الأخطار [٣]. وقد كان كهنة هذه الطوائف يستغلون هذا الصراع ويؤرثونه ليحققوا بذلك مصالحهم ويزيدوا مكاسبهم ويمنوا زعاماتهم [٤] .

ج) والدول الأوربية كانت قد أدركت ، منذ زمن طويل، أن الامبراطورية العثمانية على وشك أن تختفي ، وأنه ينبغي أن تلزم كل منها فراش (الرجل المريض) حتى تفوز بما تشتهي من التركة الضخمة، وأنه ينبغي أن يكون لكل منها أنصار ينادون باسمها ويخصصون لارشادها ، لتضرب بهم منافسيها. وقد اختارت فرانسة الموارنة [٥] ، واختارت انجلترا الدروز [٦] ، واختارت روسية الروم الأرثوذكس [٧] ، فأضحى زعماء الطوائف المختلفة الدينيون والمدنيون ألاعيب بأيدي رجال القنصليات الأجنبية فسخروا مناصبهم لخدمة المصالح المتضاربة .

---

(١) انظر في تعدادها حسر اللثام ٥ .

(٢) لبنان بعد الحرب ٥٤ ، ٥٥ ، وهو يسمى الموارنة (الأمة المارونية) ص٥٩

(٣) لعل الباحث يستطيع أن يعد بأصول الحزازات الى زمن بعيد منذ جاء المردة الى لبنان ليقاوموا الفتح العربي الذى امتدت به الموجة الاسلامية، ثم الى عهود حروب الصليبية التي ظاهرت فيها بعض الطوائف المسيحية الغازي الصليبي ، ثم الى أيام الأمير الشهابي وما جرى فيها من وقائع بين الطوائف المسيحية والدروز . انظر بطل لبنان ١٧ و ٩١ ، ٩٢ . ولم يكن الخلف بين الطوائف المسيحية نفسها بأضيق منه بين المسيحيين والمسلمين .

(٤) طالب صاحب (كنوز لبنان) " بالتشديد على بعض رجال الدين في التزام شئونهم ، فيفهم الذين استخدموا الدين للدنيا أن الغطرسة والمخرقة والدس والدسائس ليست من خدمة البلاد .. " ص١٨ وانظر ١٢ و ٩٦ و ١٢٥ .

(٥) انظر بعض مواقف فرنسا من رعاية الموارنة ومد البطريرك الماروني بالأموال وتأثير ذلك في الدروز ؛ حسر اللثام ٧٥ .

(٦) يقول صاحب (حسر اللثام) انه " سرى بين الدروز اعتقاد أنهم — أي الانجليز — من آل حمزة " . ص ٨٠ .

(٧) انظر في حماية روسية للأرثوذكس ومساعدتها لكنائسهم ومدارسهم وأديرتهم : لبنان بعد الحرب ٦١ — ٦٢ . و(سبعون) لنعيمة ص ٧٤ ، وبحوث (اسماعيل ادهم) الحديث ١٨ / ٨٢ — ٨٣ .

د) والعثمانيون مدركون ما يجرى فى الخفاء ، وهم حريصون على أن يبقى الجبل ــ ما أمكن ــ تحت اشرافهم وأن يشددوا ــ ما استطاعوا ــ قبضتهم عليه . وقد تكون الطريقة أحيانا أن يحرشوا بين عناصر هذا الخليط حتى يضرب بعضها بعضا (١) ، فيتخلصوا من الشيوخ والأمراء واقطاعيات رجال الدين، ويضعوا على رأس الجبل حاكما عثمانيا . ولم تكن مهمة هذا الحاكم ــ الذى سمى باسم المتصرف ــ سهلة ، لانه مضطر " أن يرضى جهات كثيرة متباينة ، منها رؤساء الدين فى الداخل ، وقنصليات الدول فى الخارج ، وقلما وفق المتصرفون للتوفيق بين هذه الجهات ، على تعددها وتباين مطالبها وأغراضها . ولما كان أهل البلاد لا حساب لهم فى هذا المعنى ، فقد انتهج المتصرفون ــ من ذلك ــ أقوم السبل ، فملكوا الشعب بأشخاص تقدموه وقسموه بينهم أنصارا وأحزابا (٢) " وسلطوا عليه (مشايخ الصلح)، ووضعوا فى أيديهم " قوة المجلس الكبير "، فاختاروا لهذا المجلس " رجالا مثلهم " " لم يتلقوا علما ولا تربية ولا تهذيبا .... " "فأهملوا حقوق البلاد اهمالا تاما ، وراعوا مصالحهم الخاصة " " فلا منصب الا بالوسيلة ، ولا خدمة الا بالنفوذ ، ولا وظيفة الا بالتأثير الخارجى " (٣) . وهكذا أصبح حكم العثمانيين حكم التسلط والكبر .. وابتزاز المال ، واماتة الحقوق" (٤) فضاعت الثقة بين الشعب والحكومة ، وحل محلها سوء الظن والحذر .

هـ) وقد تمخضت هذه الأسباب المعقدة عن اضطرابات دموية فى سنة ١٨٤١ (٥) و ١٨٤٥ (٦) ، ثم توجت بالفتنة الكبيرة سنة ١٨٦٠ ، وهى الفتنة التى لم تستطع حدود الجبل أن تقفها فسرى لهيبها الى دمشق، واحترق بها أكثر من أحد عشر ألفا من المسيحيين ، وقدرت خسائر المذبحة المادية بثلاثمائة مليون ليرة ذهبية ... وشرد مائة ألف فى الطرقات (٧) ، وأثر ذلك أبشع التأثير فى الحياة الاقتصادية .

---

(١) انظر : حسر اللثام ٦٣ ــ ٦٤ وما بعدها .

(٢) كنوز لبنان ٨٩

(٣) المصدر السابق . الصفحات : ٩٣ و ٩٤ و ٩٦ و ١٢٤ . وانظر كيف كان ينتخب المجلس الكبير " بتدخل بعض القنصليات وقوة ذوى النفوذ " ص ٩٦ . وانظر كلامه على مداخلة القنصليات فى ١٢٥ وما بعدها .

(٤) كنوز لبنان ٨٦

(٥) انظر أخبارها فى (بطل لبنان) ٢٠٦ وما بعدها

(٦) انظر أخبارها فى المصدر السابق ١٧٨ وما بعدها .

(٧) انظر فى أخبار المذبحة كتاب حسر اللثام عن نكبات الشام ، وانظر بطل لبنان ١٣٨ ــ ١٥١ و ٢٠٩ وما بعدها .

و) وقد اضطربت الدول الأوربية المتنافسة لأخبار المذبحة، وعقدت مؤتمرا في باريس في ٣ آب (أغسطس) سنة ١٨٦٠ ، خولت فيه لفرنسة أن تنزل بجنودها في لبنان لمدى محدد (١) . وقد استقبل مسيحيو لبنان جنودها استقبال المنقذين ، وسموا وراءهم في زحفهم لحصار الدروز (٢) ، وألقى (يوسف كرم) بطل الموارنة خطابا بين يدى قائد الحملة (الجنرال بوفورد) قال فيه : " أيها الجنرال ! ان أكثر نواب الطائفة المارونية جاءوا اليوم لتقديم اكرامهم ، وليؤهلوا بك وبجنودك البواسل . وأنت تعلم يا حضرة الجنرال أن فرنسا أخذتنا تحت حمايتها منذ زمن مديد ، حتى ان الفرنسوية يسموننا فرنسوى لبنان، وقد صدقوا ، فاننا وان لم نكن فرنسوى الجنس ، فنحن فرنسوى القلب والميل، وها قلوبنا وقوتنا لك وطوع أمرك ، واننا نحسب أنفسنا سعداء ان أمكنك استخدامنا كما تستخدم جنودك نفسها (٣) ... "

ز) ثم اعتبر الجبل ولاية ممتازة من ولايات الدولة العثمانية ، فوضع له نظام أساسى (٤) عقب المذبحة ، بدأ يحكم الجبل بموجبه متصرف مسيحى عثمانى يختاره (الباب العالى) وتوافق على اختياره الدول الكبرى المشتركة فى مؤتمر باريس ، ويساعده ، فى الحكم مجلس كبير مؤلف من ١٢ عضوا ينتخبه شيوخ الطوائف اللبنانية ووجوهها . وقد وقفت حدود لبنان فى هذا النظام دون (بيروت) و (طرابلس) و (صيدا) وسهل (بعلبك) وسهل (البقاع) و (مرج عيون) واقليم (صور) و (حاصبيا) و (راشيا) وسهول (عكار) (٥) ، أى دون السهول والثغور ، فلم يبق الا فرج ضئيلة بين الصخور يزرعها اللبنانيون ليعيشوا ، أما العمل فى السهول والاقاليم التى تتعدى حدود جبلهم فقد كان يصدهم عنه " اختلال الأمن فى عهد الحكومة العثمانية " .

---

(١) كنوز لبنان ص ١٥٣ ، وانظر بطل لبنان ٢١٤ .

(٢) بطل لبنان ٢١٤ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ٢١٥ .

(٤) انظر فى تاريخ وضعه ، واقرأ نصوصه فى (لبنان بعد الحرب) ١٣١ ، و(حصر اللثام) ٢٦١

(٥) انظر فى الحدود التى حددها القانون الاساسى للجبل، حسر اللثام ٢٧٠ ، وهو يفصل بعد ذلك فى ذكر الاقضية والقرى اللاحقة بها . وانظر (لبنان بعد الحرب) ١٣٢ ، وكنوز لبنان ١٤٦ ، وفى الكتاب الاخير تعليق نافع على مواد النظام. وانظر بطل لبنان ٣٧ .

ع) وقد بدأت تجارة الحرير الطبيعي تحتضر لطغيان الحرير الصناعي(١) ووصوله الى أوربا ـ من الصين واليابان ـ بطريق قناة السويس المشقوقة سنة ١٨٦٩ .
ووضع نظام حصر التبغ والتمباك سنة ١٨٨٣ فتوقفت زراعتهما(٢) ، وتوقفت العناية بغرس كروم العنب ، وأهملت الأحراج والبساتين . ومنع المجلس الكبير المتاجرة عن طريق الثغور بحجة منع التهريب والعبث بالمكوس الجمركية ، وخوفا من أن يصبح لبنان " مباءة لأعداء الدولة في قلب بلادها(٣) " ... ولم تكن الأسباب مهيأة ـ على كل حال ـ لرواج التجارة ، فالطرق قليلة ، ووسائل النقل معدومة ، وليست في لبنان صادرات تهيئ لحركة تجارية ناشطة(٤) ، وقد منع اللبنانيون من استخراج الملح ، وصيد السمك(٥) ، " فلا حرفة في لبنان ولا صنائع ولا حركة(٦) " .

(٣)

هذه هي الحقائق التي تقف للباحث في حركة المهاجرة من لبنان وسورية ، وقد يسهل علينا أن نجمع هذه الحقائق كما تبدو ـ لأول نظرة ـ فنخلص منها الى أسباب المهاجرة التي ينتهي اليها الباحثون عادة ، وهي : الضيق الاقتصادي ، والضغط على الحريات ، والظلم ، وسوء التدبير ، ودسائس الدول الأجنبية ... الى جانب العامل الوراثي ، لكون المهاجرين من أبناء الفينيقيين الذين اعتادوا أن يجوبوا البحار ، ويتسقطوا مواطن الرزق .

على أننا ـ في رأيي ـ يجب أن ندرس هذه الحقائق التي أشرت اليها في ضوء الحقيقتين البارزتين الأوليين : أن المهاجرين كلهم ـ تقريبا ـ من المسيحيين وأن حركة المهاجرة لم تعم الجبل وبعض الأنحاء من سورية الا بعد انتشار التعليم في صفوف المسيحيين ، وتفتح الوعي ، ونمو الذات ، والالتفات الى النظر في الواقع ، والاحساس العميق الموجه بما فيه من فساد واضطهاد وشقاء .

---

(١) كانت تربية دود الحرير سببا في " معاش عائلات كثيرة في بلاد الشام ، وهو أهم فرع من فروع تجارتها " آنذاك . حسر اللثام ١٠ ـ ١١ ، وانظر : فيليب حتى (السوريون في أميركا) ـ المقتطف : ١٩٢٢ عدد فبراير ص ١٢٠ .

(٢) كنوز لبنان ٦٧ ـ ٦٨ .

(٣) المصدر السابق ٣٥ ، وانظر لبنان بعد الحرب ٧٦ .

(٤) كنوز لبنان ٣٧ . (٥) المصدر السابق ١٢٧ .

(٦) من مقال لالخوري الحمشيتي (المهاجرة منافعها ومضارها) المشرق ١٤/٣٤٦ .

ونبدأ فنسأل أنفسنا : هل كان المسيحيون وحدهم يحسون بالضيق الاقتصادى ؟ ألم يحس معهم الدروز مثلا أو الشيعة ، أو المسلمون السنيون من سكان الجبل وبعض المناطق فى سورية بهذا الضيق ؟ ألم يكونوا جميعا رعايا جبل واحد أو مدن واحدة ؟ ألم يخضعوا لحقائق اقتصادية واحدة . هل كان العثمانيون يضيقون على مسيحيى الجبل وبعض المدن الاخرى وحدهم دون المسلمين ، فيتركون للمسلمين أن يعملوا فى السهول والثغور ، وينتفعوا بالارض وبأسباب الرزق الاخرى ، ويحظرون على المسيحيين أن يصنعوا صنيع المسلمين ؟ فلم لم يشر اذاً مصدر واحد من المصادر التى بين أيدينا الى أن النظام الاساسى كان يطبق على مسيحيى الجبل دون مسلميه، مع أن فى هذه المصادر اشارات صريحة الى تدخل الجند العثمانى فى مساعدة الدروز للقضاء على المسيحيين أيام المذابح والفتن ؟ (١)

لقد كان المسيحيون والمسلمون - على حد سواء - يعيشون حقائق اقتصادية واحدة ، وكل ما فى الامر أن المسيحيين - للاسباب التى سنزيدها وضوحا - كانوا أحد شعورا بواقعهم ، وأقرب استعدادا للتنكر له والخروج عليه .

ثم ان الناظر فى بعض الكتب التى كتبت عن الجبل وقراه فى أواخر القرن الماضى ، وأوائل القرن الحاضر ، يحس احساسا قويا بأن الحياة الاقتصادية لم تسوء فيه - على سوئها - الى الحد الذى يغرى بالكفران بالارض ومغادرتها لو لم يظاهر ذلك موقف اجتماعى وسياسى خاص أرهف احساسهم بالازمة الاقتصادية وزادها تعقيدا ، فقد كانت سوق (اهدن) - مثلا - " عامرة فيها أفخر القطايف والاطالس، وأنواع الحلل والنفايس، وما يلزم للانسان من المآكل والمشارب والملابس ، والذبائح بها يوميا من ٤٠ - ٦٠ رأسا من الماعز والخرفان والابقار ، وفى يوم الأحد تزيد على المائة عددا ، وتنقل من السلخانة الى دكاكين الجزارين .. "، وكانت النساء " يلبسن الاثواب الفاخرة على آخر الازياء الاوربية .. " (٢) .

ونجد بين أيدينا مصادر تشير الى انعكاس الموقف الاجتماعى والسياسى على الحياة الاقتصادية . فصاحب (كنوز لبنان) يرى أن اللبنانيين أنفسهم يسألون عن التفريط فى ثروات لبنان وكنوزه الكثيرة ، منصرفين عن الأعمال النافعة بمراشض

---

(١) انظر بطل لبنان ١٤٧ ، ١٤٩ .

(٢) انظر بطل لبنان ٢٨ ، ٣٠ (الكتاب كتب سنة ١٨٩٦) .

" طويلة الأذناب عريضة الأهداب "(١) يرفعونها الى السلطات العثمانية، والدول الأوربية في كل يوم، يشكون بها حزازاتهم وخلافاتهم " التى تمد شغلهم الشاغل "(٢) يصورون ضياعهم الاجتماعى وتمزقهم(٣) . ولو قضوا حينا على حزازاتهم واتحدوا وانصرفوا الى تأسيس الشركات ، واستثمار رءوس الأموال ، وتنشيط الصناعات الموجودة ، وزراعة التبغ والتنباك والعناية بالأحراج والبساتين ومحاربة الأنظمة الفاشمة التى يسنها مجلسهم الكبير الذى ينتخبونه هم بأنفسهم،(٤) اذا لما وجدوا سببا يدعوهم الى التذمر والمهاجرة(٥) . وقد يوضح هذا الانعكاس ويكشفه الالحاح الغريب الذى تبديه بعض الفئات اللبنانية على (مسئولية النظام الأساسى عن حركة المهاجرة) التى نشطت سوقها ابتداء من سنة ١٨٨٠، فهو الحاح لا يخلو ـ فى رأيى ـ من غرض سياسى هو ضم السهول والثغور الى الجبل واعلان لبنان دولة مستقلة فى امارة أو جمهورية منفصلة عن سورية التى تختلف عنها ـ كما يقولون ـ " بالجنس والتقاليد والعواطف والمصالح "(٦) .

اذا كان النظام الأساسى قد أضر بالجبل ففصل عنه سهولا وثغورا وأقاليم لايمكن للجبل أن يعيش بدونها ، فلم تجعل المطالبة بضم هذه الثغور والسهول والأقاليم طريقا للمطالبة بالانفصال عن سورية الأم ؟

ان دعوى المهاجرة بسبب حرمان لبنان من مداه الطبيعى مرتبطة عند الداعين بها ـ بدعوة محددة ، هى الانفصال ـ فى حدود هذه الدولة ذات المدى الطبيعى ـ عن سورية الأم(٧) . فكأن وراء الأمرين حقيقة نفسية واحدة ، لايساعد

---

(١) كنوز لبنان ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ٧٩ ، وفى ٨٢ يقول عن الأحزاب : " .. وأما أحزابنا فليست أحزابا بمعناها عند الأمم الحية ، بل هى انقسام وشقاق ونفار مبنية على التغرير والتضليل وأغراض الاغيار ". انظر أيضا الفصل الذى عقده فى هذا الموضوع ص ٦ ـ ٨ . وانظر الصفحات ١٢ ، ١٣ ، ٢١ . وقد جعل اتحاد الأمة اللبنانية اساسا للنهضة" .

(٣) قال صاحب (كنوز لبنان) ساخرا : " يكفى لبنان مجدا أن خائنيه قابضون على رقبته يخنقونه كل يوم ألف خنقه ، ويكفيه حياة أنه يشغل الدولة العلية بتختيم العرائض، ويملأ الجرائد بالتشهير بالمتصرفين ، ويكفيه عمرانا ألا تقوم فيه مصلحة عمومية ولا مشروع وطنى ، ويكفيه نفعا وتعزيزا أن الخلافات الشائنة لا تنقطع من بين أهليه ، ولا يحدث فيه عمل الا والاختلاس أقل ما يجرى فيه " ص ٩٧ ـ ٩٨ .

(٤) انظر ما يقوله صاحب (كنوز لبنان) عن هذا المجلس فى ص ٩٥ وما بعدها ، وفى ص ١٦٢ وانظر ص ١٦ ـ ١٧ و ٣٩ .

(٥) المصدر السابق ٢٠ وانظر أيضا ٣٥ (٦) لبنان بعد الحرب ١١٠ .

(٧) أصر أوغست أديب باشا على وجوب الرجوع الى " الخريطة التى رسمتها هيئة أركان حرب الحملة الفرنسوية التى ذهبت الى سورية سنة ١٨٦٠ و ١٨٦١ " للجبل . انظر حدود هذه الخريطة فى لبنان بعد الحرب ص ٧٧ .

على حلها الا أن تضم الثغور والسهول الى الجبل ، ثم أن تصبح هذه الدولة في مداها هذا دولة ذات كيان قائم خاص يحس رعاياها بالأمان والطمأنينة والكرامة ٠

ولم يطالب هؤلاء الكتاب بضم الثغور والسهول والاقاليم الى الجبل ولايطالبون بالغاء الحدود المفروضة على الجبل ؟

ذلك لانهم يدركون أن وراء حقيقة الضيق الاقتصادى حقيقة نفسية أكبر تشملها هى احساسهم بالاضطهاد والضعف والضياع نتيجة ارث ضخم مثير من الحزازات والاضطهاد وضياع الحقوق والمذابح الطائفية ٠

لقد كان النظام الاساسى حلا لهذه الحقيقة النفسية. ولكنه لم يكن حلا كافيا ، فقد بقى المسيحيون يدينون بالتبعية للدولة العثمانية التى ذاقوا فى ظلال رعويتها مرارة الاضطهاد والتقتيل والذبح ، والتى كانت تسوق أبناءهم الى (الخدمة العسكرية)(١) • وقد أتيح لهم أن يتصلوا بالارساليات التبشيرية ، وبالدعاوات الأجنبية تفتح أعينهم على هذه الحقائق وتحدثهم عن الحرية والكرامة الانسانية والمساواة والعدالة • ثم اتصل بهم أن تجارا من (بيت لحم)(٢) هاجروا الى أمريكا — وهى دولة مسيحية — فوجدوا الحرية والرخاء والمساواة(٣) ٠٠٠٠ فماذا ينتظرون اذاً ؟

ولقد هاجر بعضهم ، وعاد — الى أهله — ممتلئ الجيوب(٤) بشيء

---

(١) (السوريون فى أمريكا) : المقتطف : ٩٢٤ عدد فبراير ص ١٢٠ ٠

(٢) تبدو هنا سذاجة الدعوة التى وجهها الملك حسين بن على الى المهاجرين أن يقدموا الى الحجاز ليتاجروا ويسعدوا ، ويعززوا الوحدة العربية ٠ انظر (ملوك العرب) للريحانى ١/٣٣ ٠

(٣) انظر رأى جورجى زيدان فى المهاجرة : تاريخ آداب اللغة ٤/٦٥ (لا يذكر من أسبابها الا السعى وراء الحرية الشخصية والكرامة) ، ويذكر أن أكثر المهاجرين من المسيحيين " لانهم أكثر احتكاكا بالاجانب وأوسع اطلاعا على آدابهم ". وفى مجلة الجامعة (١٩٠٦ عدد ١٥ تموز ص ٥٤) مقالة فى (حال السوريين فى دار هجرتهم) لشبلى ناصيف دموس، يقول فيها : " ان سورية لم تضق بأهلها ، ولكن أخلاق رجالها ضاقت لأسباب يطول شرحها وربما كان ذكرها لايوافق هذا المقام ٠٠ " ٠

(٤) انظر محاضرة ليوسف أبى خاطر (المهاجرة وأضرارها) فى المشرق ٢٢/٧٢٩ يقول فيها : " يبدو أن المهاجرين الأول أثروا بسرعة فغشوا من بعدهم ٠٠ " ٠

القصور المنيفة ويبدى تهذيبها رفيعا،(١) ويتحدث عن بلاد حرة عجيبة يتدفق فيها الخير ، وتكنس سلال الذهب من شوارعها(٢) ، كما أخذ كثير من المهاجرين يرسلون الى ذويهم الأموال فى رأس كل شهر(٣) ، هكذا بدأت حمى المهاجرة،(٤) ثم اتسع مداها حتى " أقفرت أكثر القرى فى الجبل "(٥) .

هذا هو تفسير حركة المهاجرة - فى رأينا - : تفتح ووعى موجه نتج عنهما شعور عميق بالقلق والاختناق الفكرى والنفور والاضطهاد ، يذكيه ارث ضخم من أحاديث المذابح والحزازات الطائفية،(٦) ثم احساس متضخم بالعسر والحاجة فى بلد صغير ضيق الأرض يحكمه الاقطاع السياسى والدينى وتنتشر فيه الرشى والدسائس ومظاهر الصراع الاستعمارى الحاد .

---

(١) انظر مقالة (شبل ناصيف دموس) المشار اليها سابقا .

(٢) حكايات المهجر ٣٦ ، وانظر مقالة يوسف أبى خاطر المشار اليها سابقا .

(٣) يقول نسيم نوفل : انه يوجد حوالى ٩٠٠ نسمة فى الولايات المتحدة من أهالى قريتى (حصرون وبزعون) " يرسلون الى أقاربهم ووكلائهم فى رأس كل شهر لا أقل من عشرة آلاف فرنك " بطل لبنان ٥٨ .

(٤) يمكن أن نتصور المدى الذى بلغته حركة المهاجرة اذا علمنا أن البواخر الفرنسية كانت تنقل المهاجرين بمعدل ٢٠٠ - ٣٠٠ نفس فى كل أسبوع ، بطل لبنان ٥٧ - ٥٨ ، وانظر (حكايات المهجر) ٦٦ فهو يصور تيار الهجرة الجارف . ويقول فى ص ١٠٢ " البواخر التى تقطع الاتلانتيك أنابيب تصب الخلائق من العالم القديم المكتظ بالبشر الى العالم الجديد المفتوح ... ليتنفس فيه الانام بملء رئاتهم فى فضاء واسع يكتنف الملايين من القادمين " .

(٥) مقالة يوسف أبى خاطر ، المشرق ٢٢/٧٢٩ ، وقد قدر صاحب حسر اللثام عدد الذين هاجروا من لبنان بين سنتى ١٨٨٠ - ١٨٩٥ بمائتى ألف نسمة . ص١٣

(٦) فى مقالة للدكتور حليم سعادة فى المكشوف (١٩٣٧/ عدد٨٥، ص١٢) يقرن فيها بين حركة المهاجرة والحزازات الطائفية ، فهو يدعو الى البقاء ومحاربة الطائفية فى سورية . والخورى باسيليوس خرباوى ، فى كتابه (تاريخ الولايات المتحدة والمهاجرة السورية) يفصل فى تفنيد أسباب المهاجرة ، ثم يقول ملخصا قوله : " فينتج مما تقدم أن الضغط الدينى والسياسى ، وفقر البلاد بموت التجارة والصناعة والزراعة ، وميل الانسان الفطرى الى التمتع بالحرية وظلم الحكومة وعدم نزاهة الحكام وسوء الجوار وبخس الحقوق وتثقيف الناشئة فى مدارس الاجانب وغير ذلك كانت الحافل على المهاجرة والداعى اليها ، ص ٧٦٨ .

ولكي ندرك هذه الحقيقة النفسية الضخمة ، يجب أن نحس مرارة الارث البغيض الذي ورثه المسيحيون ، من الشعور بالاضطهاد والمذلة والضياع. ولقد أدرك جيلنا في سورية بعض مظاهر هذا الاضطهاد ، وعاش بعض الفتن والمذابح . على أننا سنعود الآن الى القرن التاسع عشر الذي بدأت في العقدين الاخيرين منه حركة المهاجرة .

وسأقتبس الآن بالحرف الواحد فقرة طويلة من كتاب (حسر اللثام عن نكبات الشام) لمؤلف مجهول ، ولكنه - في الارجح/كما تقدم - دمشقي مسيحي، يكاد يلمس الباحث انصافه في مواضع كثيرة من الكتاب ، فان ما يذكره من مظاهر اضطهاد النصارى لا ينسيه المواقف النبيلة التي وقفها بعض زعماء المسلمين من النصارى خلال الفتن ، ولا يدفعه الى ضياع الرشد في البحث ، وتجريم البرئ . وان لما يذكره على كل حال صورا مقاربة لم تتصل مازالت تعيش في ذاكرة جيلنا مع مرور أكثر من قرن ونصف ، مع انتشار الثقافة وتبدل القيم . .

قال صاحب حسر اللثام : " وكان النصارى عرضة للاهانة والذل أكثر من كل أهل الطوائف الاخرى ، يسيئ معاملتهم كل واحد ما خلا أهل العلم والعقلاء ممن كانوا يشذون عنهم ويحمونهم ، واذ لم يكن لهم مخرج من ذلك الفوه كما ألف مذلوهم اذلالهم ، فكان النصراني حيثما توجه ينعت بالكفر ويشتم صليبه ، ويهان ويحتقر ، وتقلب عمته ويصفع ، الى غير ذلك . وان سار في محلة المسلمين تبعه الصبيان قائلين له : (نصراني كلب عواني ، دقوا له بالصرامي ، قالت أمه فيه . ضربة تقلع عينه) وأمثال هذه من القبائح ، فكان يحتمل كل ذلك صابرا على بلواه لا يفوه ببنت شفة ، ولايقدر على غير الاستجارة بمتعقل مسلم اذا صدفه ، فيحاول هذا ابعاد الصبيان عنه ، فان أطاعوه كان به أولا فيضطر أن يتركه وشأنه أسفا من هذا المداء . وكان المسلم اذا مر بمسيحي يقول له : اشمل ، أي سر عن اليسار ، فيلبي هذا الامر صاغرا ، واذا كثر المارة ما بين ذاهب وآيب ، كثر شقاؤه ولم يعلم المسيحي كيف يسير ، فيدعى حينئذ الى المطورقة فيطورق أي يسير في الطاروق (الطاروق منخفض في وسط السكة يبلغ أقل من شبر انخفاضا

(١) ص ٣٦ _ ٤٣ .

وعرضه من ذراع ونصف الى ذراعين وعلى جانبيه رصيفان للمارة ، ويسير فى الطاروق البهائم محملة وغير محملة ، وفى الشتاء تجتمع فيه مياه الأمطار ، وفى الصيف الاقذار) وهناك يصادف المناء الاكبر من البهائم وأصحابها : هذا الحيوان يدفعه ، وذاك يزحمه ، والسائق يوكزه ، والاخر يلكمه ، فلا يجد له مخرجا من هذا الشقاء الا بوصوله لمحله أو يخلو الرصيف من المارة فيصعد اليه . وكثيرا ما كان أصحاب الدكاكين فى الأسواق يسخرونه لقضاء ما يلزمهم من الأشغال أو يستعملون اهانته واسطة لاذهاب مللهم ، وتفريج كربهم، فكان أحد أصحاب الدكاكين يناديه : تعال يا معلم ، فيأتى ، فيقول له : تقدم فيقبل ، فيصفعه ويكلفه أن يذهب ويحضر له حاجة ، أو أن يلبسه مركوبه ، أو يرفعه له من أمام دكانه او أن يساعده فى ترتيب دكانه وغير ذلك ، وان كان يريد المزاح معه ، فاما أن يهمس فى أذنه شاتما أباه ، أو يقول له أمرا آخر ، أو أنه يتناول عمته عن رأسه ويصفعه ، ويرمى العمة الى جاره ، ويقول له : اذهب وخذها منه ، فيذهب ليأخذها ، فيصادف من الثانى ما صادف من الأول الى أن يقدر الله له وجود أحد يشتغل فى بيعه وشرائه فيسلمه العمة أو يكون من أهل الصلاح والانسانية فيدفعها اليه ويصرفه لعلمه بأن معاملة الذمى هذه لا تجوز (وقد كان كثيرون من الاسلام ينكرون على اخوانهم هذه الأفعال الغير جائزة). وكان المضطهد المسكين يظهر البشاشة والرضا ويسلم ذاته للعذاب والويل ، وكثيرا ما كان يأتى ولد أو شاب من وراء النصرانى ويقلب له عمته ويأتى آخر فيدحرجها ثم آخر فيصدمها ، وكلما قصد صاحبها أن يتناولها يصفع ويرفس ، وكانت العمة كبيرة مستديرة محكمة الربط قوية الشد لحفظ ما يضعونه ضمنها من الأوراق التى يضطر الى وضع خراجه فيها ليبرزها حالا عند الاقتضاء ، ولم يكن للمسيحى تركها ، لأن أوراقه داخلها ، ومنها ورقة خراجه التى اذا سار بدونها عرض نفسه للخطر والاهانة الكبرى ...

وكان القانون يحتم على الذمى أن يحمل على كتفه حيثما توجه كيسا يسمونه كيس الحاجة لا يخرج من بيته بدونه ، والغاية من هذا الكيس أن يضع فيه ما يسخره المسلمون بحمله من خضار أو غير ذلك ... وصدف كثيرا أن الرجل النصرانى كان يستمر مسخرا يومه بطوله مع أنه من أصحاب العائلات يعيش بسعيه اليومى ، فتضطره السخرة الى المبيت وعياله بلاطعام أو يستمد مساعدة جيرانه ... ولكثرة تكرار هذه الأمور التى لاتطاق صار

الناس يحسبونها بسيطة ، وكانوا عندما يجتمعون فى سهراتهم يسألون بعضهم بعضا من نوع التباسط : أن كم مرة شتمت وصفعت ، وكم حمل حملت ، فيقول هذا كذا وذاك كذلك ...

أما أموال الذميين فكانت مطمعا للحكام وغيرهم ، فمن جهة كانت الحكومة تنزفها بزيادة مال الخراج الزيادة الفاحشة ، وبطلب القروض وما أشبه ذلك ، ومن جهة ثانية بالمصادرات وانتحال الأسباب ، فكان الحاكم اذا سمع بذمى غنى عمل على سلب ماله ... ولذلك صار شأن الغنى من النصارى التظاهر بالفقر والمسكنة ، فكان لا يلبس الا أبسط الأردية ، واذا عمل ثوبا جديدا وضع عليه رقعا كثيرة ليظهر الفقر ، الا أن ذلك ظهر للحكام فصاروا يرسلون الجواسيس من قبلهم لمعرفة أصحاب اليسار ، وصار هؤلاء الجواسيس شرا عظيما على الناس فاق شر الحكام ...

وخلاصة الأمر أن الحياة كانت مرة صعبة على الذين رزئوا بحكم الوحوش الضارية الذين سولت لهم النفس أنه يجوز لهم تعذيب من لم يتبع رأيهم فى الدين ... ولطالما اضطر الناس الى ترك دينهم واعتناق الاسلام تخلصا من كل هذه المصائب ...

وكان هؤلاء الجهال يحظرون على أهل الذمة العيش بما تقتضيه وسائطهم وسعيهم ويغصبونهم من الترد ى بالأردية التى يستعملها المسلمون ، ولا يصرحون لواحد منهم بركوب المطايا غير شخص البطريرك ... ولولا أن يقوم فى كل عصر رجال عرفوا بالعلم والاستقامة ، ويعملوا على انقاذ الذميين من هذه المصائب الحمراء لكان العيش لايطاق ولايذاق وهو مع ذلك كان لايمكن للذى فى صدره شىء من المروءة . فجعل الناس يلجئون الى أحد أمرين : اما الالتجاء الى وجيه أو محارب من المسلمين ، واما الرحيل عن البلدة التى يسكنونها ، والاقامة فى قرى لبنان أو سواها حيث لم يكثر التعصب الى هذا الحد ..." (1)

ان الفقرة الأخيرة مما اقتبسناه تشير الى حقيقة المهاجرة التى كان يلجأ اليها بعض المسيحيين بسبب احساسهم المر بالاضطهاد ، فقد كان الواحد منهم يترك بلدته أو قريته ويلجأ الى قرية من قرى لبنان حيث تخف وطأة الاضطهاد . وليس يعنى هذا أن المسيحيين فى قرى الجبل لم يكونوا يشاركون

(1) من أمثلة مظاهر الاضطهاد الطائفى التى حفظها التاريخ المنشور الذى أصدره درويش باشا والى دمشق سنة ١٢٣٦ هـ : وهو يحظر فيه على " النصارى " رجالا ونساء أن يقلدوا المسلمين ؟ فى ملابسهم وعمائمهم ونعالهم " وينذر فيه من لا يستجيب بأن " ماله لا يغنى عن حاله ، وخطيئته فى عنقه ". انظر نص المنشور فى حسر اللثام ٤٤ .

المسيحيين في مدن الشام وقواها احساسهم بالاضطهاد والقلق ، فقد كانت الشام كلها قطرا واحدا ، بدليل أن مذابح سنة الستين لم تقف عند حدود الجبل ، بل تعدتها الى دمشق ذاتها .

على أن صاحب الكتاب عقد فصلا طويلا عن أحوال جبل لبنان ذاته يظهر مدى ما وصل اليه المجتمع اللبناني من تمزق وخلف ، فالدروز يتربصون بالنصارى ، والنصارى يتحدون الدروز ، ويوشك (جبل البارود) أن ينفجر في كل يوم ، فقد يكفي أن يصطاد بعض الشباب المارونيين طيرا في مزرعة دروزية حتى تشب النار وتسيل الدماء ، وتبدأ حركات الالتفاف حول القوى المارونية وهذه صورة لمحاصرة دير القمر في اضطرابات سنة ١٨٤١ (١) : " وكان الدروز المحيطين بالبلدة في ذلك الحين يتقدمون عليها ويضرمون النار في بيوتها ، فلما رأى النصارى الويل محدقا بهم من داخل بلدتهم ومن خارجها ، اضطربوا اضطرابا لا نظير له ، وصار النساء والاطفال يركضون هربا من فتك الدروز بهم ، والرجال يتجمعون في أواسط البلدة ليمكن الدفاع عن أنفسهم ، وقد رأوا المنية بعيونهم ، وأيقنوا أن الآخرة جاءت ، فعزموا على الدفاع حتى يقتلوا عن آخرهم ، وتركوا الدروز يحرقون وينهبون في البيوت والمخازن المتطرفة .. " .

وهذه صورة مقابلة (٢) : " وسمع بطريرك الموارنة بهذه الامور فقام وقعد وأرغى وأزبد ، وأقسم أنه ليأخذن لبني جنسه بالثأر ، ويذود لهم الذمار ، ويحمي الديار ، وكان مريضا على سريره ، فأبى الا أن يقوم لمحاربة الدروز على أكتاف الرجال ، وبدأ بالاستعداد وجمع الأهبة والرجال ، وأصدر مطران زحلة للروم الكاثوليك منشورا الى أبناء طائفته يدعوهم فيه الى الجهاد ويوصيهم بالحرص على نصرة الدين ومحاربة الدروز أينما حلوا ، وينهاهم عن ارتكاب المنكر والتعرض للنساء ، ولكنه يبيح لهم القتل والحرق والسلب ، لانه عد ذلك من لوازم الحرب الدينية ، والتهبت نيران الثورة في الجبل كله ، فلم يعد للقوم حديث غير الحرب ، واشتغلت كل نفس بالاستعداد للهجوم والدفاع ... "

وتستمر المعركة على النحو التالي : " أخضع الدروز القوى النصرانية كلها في مدة عشرة أيام وحرقوا أديرتها وكنائسها ، واستولوا على أموالها ..

---

(١) حسر اللثام ٨٣ - ٨٤ ، وانظر كذلك بطل لبنان ٢٠٧ وما بعدها .

(٢) حسر اللثام ٨٥ .

كل هذا وجموعهم واقفة حول دير القمر وأهلها يستغيثون وليس من يرحم ... "(١).

هذه بعض صور المعارك في سنة ١٨٤١. ويقول صاحب الكتاب :"على أن الذي حدث في دير القمر من المصائب في سنة ١٨٤١ لم يكن بالشيء الذي يذكر في جانب الذي تم فيها سنة ١٨٦٠ وهي سنة الهول والبلاء..."(٢)

وكان النصارى يعتقدون أن الحكومة العثمانية تضع سلاحها في يد الدروز، وأن عساكرها يقاتلون جنبا الى جنب معهم ، وأن الباب العالي يصدر أوامره في السر الى الولاة لتحريض الدروز على قتل النصارى . ويقول الكاتب : " ولم يسمع الى الآن بخيانة أعظم من هذه الخيانة تصدر عن حكومة تنشر الخطوط والأوامر وتدعى حب الانسانية والعدل ، وتسمى نفسها الاسماء الفخيمة ، وبعد أن تعد وتؤكد بالمحافظة على أرواح رعاياها، ترسل جنودها للفتك بهم مع الثائرين ، وهم ما ثاروا الا بأمرها ، ولا ذبحوا الا بسيفها..."(٣)

ويعيش المسيحيون مهددين ، فقد أشاعت الحكومة العثمانية في المسلمين " أن أوربا عازمة على مهاجمة مملكتهم وامتلاكها وسحق الاسلام ومحقه واعطاء السيادة في الشام وسواها الى النصارى بدل المسلمين، فهيجوا مخاوف أهل الاسلام وحقدهم وجعلوا الجهال والرعاع منهم ينوون الايقاع بالنصارى حالما تناسبهم الأوقات وتساعدهم الظروف"(٤).

ثم تتتابع الفتن ، وتغلي الأحقاد الموروثة، فتندلع النار من جديد سنة ١٨٤٥ ، ثم تهدأ حينا والتعبئة جارية ، والدول الأوربية تحرش بين الفريقين فقد " كان قناصل فرانسا لسوء الحظ يكثرون من المراقبة

---

(١) حسر اللثام ٨٦.

(٢) المصدر نفسه ٨٨ ، وانظر بحثا عن مذبحة الستين في مجلة الطليعة البيروتية : ١٩٣٧ عدد ابريل (نيسان) بقلم انطوان ضاهر العقيقي .

(٣) المصدر نفسه ٩٧.

(٤) المصدر السابق ١٠٧

والتشديد والضغط على الحكام الاتراك من بعد تلك الحروب ويظهرون القوة والاقتدار ويغيظون الحكومة التركية فى كل أمر ، حتى ان قنصلهم فى بيروت كان يحتم على المسلمين بالوقوف كما يقفون للوالى عند مرور عربته بهم، فاذا لم يقفوا له نزل من العربة وجمل يجلدهم بسوطه جلدا ، ويشتم أعز الأمور عندهم ، ويكثر من احتقارهم ، وكان الموارنة أعوانا لقناصل الفرنسيس يعاونونهم على مد نفوذهم ويجاهرون بالانتماء الى الدولة الفرنساوية حتى انهم كانوا يملأون الجبل زينة كلما زاره أحد قناصل هذه الدولة ، وجعلوا يقدمون له قضاياهم ويحكمونه فى أمورهم بدل عمال السلطان "(1)

وقد كانت هذه الاحداث كلها خميرة المذبحة الرهيبة فى سنة الستين ، فقد ذبح المسيحيون فيها ذبح النعاج وحرقت دورهم ونهبت أموالهم(2) ، وامتلأت نفوسهم بالمرارة والشعور بالاضطهاد . وعقد مؤتمر باريس فى آب سنة ١٨٦٠ للانتصار للمسيحيين " ووصلت الجنود الافرنسية الباسلة مدينة بيروت فى اليوم السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٦٠ ، وكان أفراد هذا الجيش _ وعدده ستة آلاف رجل _ ينشدون الاناشيد الحماسية بلغتهم الافرنسية ، ويتوعدون الدروز بالجزاء العادل ، ويسرون لانهم جاءوا للاقتصاص من الذين ذبحوا الأبرياء وفتكوا بالمساكين ، فكان لوصولهم رنة عظيمة وتأثير كبير ، وفرحت القلوب فرحا لا يوصف "(3)

ان الجيل الذى عاش هذه المذابح والاحداث هو الذى أنجب جيل المهاجرة أو كان بعض موجاته ، ولقد سألت الأستاذ ميخائيل نعيمة : هل كنت تشعر _ قبل الهجرة وبعدها _ [illegible] بالأذى والحذر لما حدثك به أبواك من أحاديث الاضطهادات والمذابح ، فأجاب : "نعم ، ولكن هذا الشعور خف بعد ذلك" . فلا غرابة اذاً أن يحس هذا الجيل بالقلق والنفور من المحيط

---

(1) حسر اللثام ١٢٨ _ ١٢٩ .

(2) انظر وصفا لوقائع المذبحة فى كتاب (حسر اللثام عن نكبات الشام) ١٣٤ _ ٢٣٦ ، وانظر أيضا (بطل لبنان) ١٣٨ _ ١٥١ .

(3) حسر اللثام ٢٥٢ .

الذى يعيش فيه ، وألا يصبر على الحياة التى صورنا عوامل الاضطراب فيها ، وأن يرحل الى مجتمع جديد يكد فيه راضى النفس كدا لو صبر عليه فى وطنه ، لأحاله جنانا زاهرة .

نحن لا ننكر أن جيل المهاجرة هو جيل الطبقة البورجوازية التى وجدت الحياة مقفلة أمامها فى لبنان ، وهو الجيل الذى وعى واقعه بما تهيأ له من ثقافة واتصال بقيم الغرب الحضارية الجديدة (١) ، ولكنا نرى أن هذا الوعى تم على نحو معين شديد التأثر بما كان يسود مجتمعه من اضطراب طائفى وسياسى . ولولا هذا لناضل هذا الجيل لتحسين حياته وتحقيق قيمه داخل الوطن لا خارجه ، فلقد بذل فى المهجر من الجهود ما كان يكفى للوصول الى هذه النتائج . ويجب أن نذكر على كل حال أن هجرة أخرى سبقت هذه الهجرة ولحقت بها ، وهى الهجرة الى مصر التى كان يسيطر عليها الانجليز . وقد كانت أيضا هجرة طائفية ، و استطاعت - بما فى أعماقها من كره مكبوت لا ننكر مبرراته - أن تكون عونا للمحتل الانجليزى على نحو ما هو معروف فى تاريخ هذا الاحتلال .

ان تفسير حركة المهاجرة الى امريكا تفسيرا اقتصاديا صرفا لايساعدنا على فهم أدب المهاجرين الذى صوروا فيه تجربتهم الفريدة هذه ، وانما يساعدنا على فهمه تفسير هذه الحركة تفسيرا نفسيا - اقتصاديا . ولو لم يكن فى أيدينا من مصادر التاريخ ما يؤيد هذا التفسير الذى نذهب اليه ، لكان لنا فى هذا الأدب نفسه أقوى مؤيد ، فهو - كما سنرى - أدب متمرد ، زاهد بالروابط التى تشد أدبنا الى تراث قديم ذى صبغة خاصة . وهو أدب انسانى عميق الصلة بالتراث المسيحى ، كثير الاشادة بقيمته ، شديد الاعتناء بتأكيدها . عميق الاهتمام بمسألة الطائفية .

على أننا لا نستطيع أن ننكر - كما أشرنا سابقا - أن هؤلاء الأدباء فى المهجر قد عبروا - الى جانب هذا - تعبيرا سليما عن مطامح هذا الجيل الذى نشأ " فى عهد التحرر الفكرى وتفتح شخصية الفرد اللبنانى " (٢) وهذا كل ما نستطيع أن نقوله فى هذا الموضوع .

---

(١) انظر الفصل الأول (لبنان فى القرن التاسع عشر) من كتاب (الشعر العربى فى المهجر) للدكتورين عباس ونجم .

(٢) الشعر العربى فى المهجر ٣٤ .

الباب الأول

الرابطة القلمية وكتابها

الفصل الأول : البيئات الفكرية العربية في المهجر الشمالي (الرابطة القلمية)

الفصل الثاني : منابع التفكير العامة لدى كتاب الرابطة القلمية

الفصل الثالث : المفارقات الشخصية

الفصـــــــل الأول

البيئـات الفكرية العربيـــة فى المهجـر الشمالـــى

(١)

دراسة البيئات الفكريـة التى كونها المهاجـرون السـوريون فى مدن أمـريكـــا الشمالية تنفـع فى استشفـاف الأجـواء المباشـرة التى انغمس فيهـا الأدبـــاء المهجريـون بعد هجرتهم ، وقـد رموا فيهـا بـذورا تحمـل سمات تعودها مـــن أوطانها ـ كما رأينـا ـ ، فعانوا تجارب المخاض الفكـرى والفنى ، وهم يتنفســون هذه الأجـواء المكهربـة بالتمـاس مع أجواء غريبـة تفسـر الحيـاة تفسيرا يختلـف عن تفسـيرها هى ، رغم الاتفـاق فى العقيـدة . وهم فى تعبيرهم عن آلام هــذا المخـاض انما كانوا يعبرون عن تجربـة هذه البيئـات الجديـدة وعن شخصيتهـــا القلقـة ، من خلال تجاربهـم وذواتهم . وما كان يمكـن لهؤلاء الأدباء أن ينتجـوا انتاجـا أصيـلا لو لم يعـبروا عن هذه الأشـواق والمطامح والآلام التى عاناهـــا المهاجـرون .

والأدب المهجـرى ـ فى الأصـل ـ لم يكتب للمجتمعات العربيـة فى الوطـــن ، وانما كتـب لهذه البيئـات الصغـيرة الغريبـة المستوحشـة . واذا كان هذا الأدب قـد لقـى رواجا فى بعـض أنحاء الوطـن ، فلأن هذه البيئـات التى كونها المهاجرون ما زالت ـ حينـذاك ـ قريبـة العهـد بالمجتمعات التى خلفوها هناك ، وبالقـيم التى تسودها ، لأن هذه المجتمعات كانت تعانى ـ على نحو آخـر ـ تجربة الوقـوف عنـد مفترق الطريـق ، وصراع القيم بين القديم والحديـث ، ونمو الفردية البورجوازيـة الممتـازة ـ آنذاك ـ بنضالها فى سبيل تثبيت كيانها وفرض ذاتها ، ولأن النغمـــة الرومانسية التى طلـع بها هـؤلاء الأدبـاء ـ على غرابتها ـ كانت محببة مستساغـــة ، ولأن القـيم التى نادى بها الأدب المهجرى ـ أخيراً ـ قيم انسانية عامة . على أننـــا ـ مع هذا ـ لن نستطيـع أن نغفـل هذه الحقيقـة : وهى أن الأدب المهجرى انما كتب ـ فى الأصـل ـ للبيئـات العربيـة الجديدة فى المهجر ، وأنه قد عبر عـــن تجربتها الخاصة ، وصور آلامها وآمالهـا ومطامحها ، ورغبتها فى أن تجدد حياتهـــا ، وتبـنى بنفسهـا قيما تستجيب لخصائـص تكوينها ولنزعتها الى التحـرر من بعـــض قيـود الماضـى ، والى التعبـير الصادق عن نظرتهـا الى الحيـاة ...

ودراستنا لأدب هذه البيئات ، هي ـ في الواقع ـ دراسة لهذا المخاض العنيف الذى تعرضت له هذه البيئات فى صراعها مع المجتمع الأمريكى ، وما أحست به من قلق وضياع ، وحنين وشكوى وتمرد قبل أن تدفع الى الخضوع والتسليم. فهى اذاً دراسة ـ من وجهة بالغة العنف ـ لالتقاء حضارتنا وقيمنا بحضارة الغرب وقيمه ، التقاء معناه فى هذه البيئات : الوقوف وجها لوجه .

ولم يكن الأدب المهجرى الا صورة هذا الصراع ، ولقد بلغ أعلى ذراه فى التعبير عنه ، ولضح حين استوت لهؤلاء المهاجرين شخصية مستقلة قائمة على مناهضة القيم التى يتبناها هذا المجتمع الطاحن فى موقفه من الانسان وفى تقدير الحياة وتفسيرها من ناحية ، وعلى مناهضة كثير من القيم الرجعية التى يتبناها مجتمعهم الذى خلفوه فى الوطن، من ناحية أخرى.

ومن هنا تبدو قيمة دراسة البيئات الفكرية العربية التى كونها المهاجرون، ودراسة الصراع الذى قام بينها وبين المجتمع الأمريكى الذى تعيش فيه ، كما تبدو قيمة الدراسة التى قدمناها عن حركة المهاجرة وتفسيرها ، ومن هنا أيضا يتبين ما قلناه من أن هذا الأدب انما كتب ليعبر عن مطامح هذه البيئات وعن آلامها وآمالها فى تجربتها الأليمة هذه .

لقد جاء هؤلاء المهاجرون من قرى شرقية وديعة بسيطة الى مدن مكتظة ذات تقاليد معقدة ، فلا غرابة أن تصيبهم الدهشة والذهول (١) ، وأن يحسوا حينا طويلا بالتشتت و " تشوش الأفكار " (٢) ، وبالغربة الموحشة التى تعطل النمو (٣) ، حتى لقد ذكرتهم (نيويورك) ـ وفيها انحصرت أكبر الجاليات السورية ـ " ببابل " التى قرأوا عنها فى العهد القديم . على أن هذه الفترة لم تطل كثيرا ، فسرعان ما صحوا لأنفسهم وبدأوا يعون واقعهم وطبيعة تجربتهم، ويحددون موقفهم من المجتمع الجديد والمجتمع القديم الذى خلفوه ، وبدأت تتضح ـ بذلك ـ سمات شخصيتهم الخاصة التى بدت بعد ذلك فى أدبهم وميزته بالجدة والأصالة .

---

(١) انظر صورة للدهشة التى كانت تصيب المهاجر أمام عظمة المدينة فى (حكايات المهجر) ١٠٢ ـ ١٠٣ .

(٢) من مقالة يوسف أبى خاطر (الهجرة وأضرارها) المشرق ٢٢/٧٣١ . انظر هذه المقالة فى تصوير حال المهاجر فى هذه الفترة .

(٣) السوريون فى أمريكا ـ المقتطف : ١٩٢٢ عدد يناير ص ١٦ .

وقد أبى بعض المهاجرين فى بدء هجرتهم أن يتخلى حتى عن الطربوش العثمانى ، ونربيج النارجيلة والشوارب المريضة والتربيعة فى الجلوس (١) • وأسست الجمعيات المختلفة ، وكان من بعض أهدافها العمل على أن يحتفظ المهاجرون بتقاليدهم وشخصياتهم ، " وبآداب اللغة العربية والعوائد الشرقية الأكثر كرما وورعا وعفافا وشهامة ومروءة وعزة " (٢) ، فراعوا فى تمازيهم ، وتهانيهم ، وتهانيهم وأعيادهم وأفراحهم هذه المظاهر الدقيقة التى عرفوها فى وطنهم الصغير (٣) ، وحرص بعضهم على لقب (البيك) الذى جاء به من الوطن (٤) ، وكانوا اذا كسبوا مالا جمعوه فى جوف الحزام الجلدى الذى حملوه معهم (٥) ، وكانوا يذكرون شفيع كنيسة الضيعة التى هاجروا منها (٦) •

على أنهم احتفظوا بما هو أخطر من هذا كله : بخلافاتهم المذهبية والطائفية والقروية (٧) ، فقد التفت كل طائفة حول نفسها ، وأصدرت نشرة أو جريدة عربية ، تحمل رأيها وتدافع عن وجهة نظرها الخاصة (٨) • وكثيرا ما كانت تشب بين هذه الصحف معارك مخجلة تزيد فى تمزيقهم وتقسيمهم • وقد وقعت بعض جرائم القتل اجابة لثأر قديم تام فى الوطن (٩) ، ونتج عن ذلك أن المجتمع الأمريكى

---

(١) حكايات المهجر : انظر الصفحات : ٧ و ١٤ و ١٨

(٢) بطل لبنان ٥٨ ، ويقول جورج صيدح ـ فى هذا ـ عن المهجريين : " وجميعهم اشتركوا فى مقاومة تيارات الحياة المادية وطغيان الفكر واللسان الأعجميين، واستهتار الجيرة والعشيرة •• " (أدبنا وأدباؤنا) ٥٦ ، وانظر كلام (فيليب حتى) على موقف السوريين فى أمريكا من الخمر والميسر ، وابتعادهم عن ارتكاب الجرائم ، وتعلقهم بفضائلهم الاجتماعية • (السوريين فى أمريكا :المقتطف : ١٩٢٢ عدد ابريل ص ٣٢١)وانظر نموذجا لجلسة من جلسات بعض الجمعيات السورية ، نقله نسيم نوفل عن جريدة (كوكب أمريكا) فى ٦ تشرين الثانى ١٨٩٦ ، فقد دعت بعض الخطيبات فى الجلسة الى التمسك بالعادات والتقاليد الشرقية • بطل لبنان ٥٩ •

(٣) حكايات المهجر ١٩٣ • (٤) المصدر نفسه ١٤٦ •

(٥) المصدر نفسه ١٨٤ • (٦) المصدر نفسه ٢٩ • وانظر ما ينقله الدكتور أبو شادى على لسان الشاعر المهجرى الشعبى (ميخائيل رستم) فى وصف هذه الحال• (دراسات أدبية ١٥ ـ ١٦)

(٧) المصدر نفسه ٥٢ •

(٨) كانت بعض الصحف تلجأ الى المهاترة والمشاتمة لترويج • ← حكايات المهجر ٥٠، ٥٤، ٥٦

(٩) فى سنة ١٩٥٠ شب فى نيويورك خلاف طائفى بين الموارنة والروم ، وقد أسفر عن قتيل وبعض الجرحى • (السوريون فى امريكا) الهلال : ٩١٩ عدد أكتوبر ص ١٢٦ ، وقد حدثنى الاستاذ نعيمة بهذا أيضا فى مقابلتى له ببيروت بتاريخ ١٩٥٨/١٢/٥ •

لم يكد يصير هذه البيئات المهاجرة التفاتا ، فالدكتور (حتى) لا يعرف ممـا كتب الأمريكيون عن السوريين – قبل أن يضع كتابه عن (السوريين فى أمريكا) (١) (٢) – الا ثلاث مقالات نشرت في مجلة نيويوركية ، مع كتيب ألفه (لوشس.هـ. ميللر) ، فقد اختبأ السوريون – على حد تعبيره – وراء مجلاتهم وجرائدهم العربية فلم يسمع الأمريكى صوتهم ، وأساء فهمهم ، حتى ان القضاة فى عام ١٩٠٩ رفضوا منح الجنسية (٣) الأمريكية لطالبيها من السوريين بدعوى أنهم ليسوا من العرق الأبيض (٤) ، وهو يصف المستعمرات التى أنشأها المهاجرون فيشبهها بالماء الراكدة المتجمعة على ضفاف النهر ، فى حين يهدر تيار المدينة الجارف بقربها (٥) ، وقد نشرت المقتطف فى سنة ١٩٠٥ سؤالا من أحد المهاجرين يقول فيه أن الأوربيين وغيرهم من المهاجرين الى أمريكا سريعو الامتزاج بالأمريكيين ، الا السوريين " فانهم يبقون محافظين على عاداتهم ولو قضوا العمر كله هنا (٦) ".

وقد قلنا سابقا ان موقف جيل المهاجرة من الحياة الأمريكية فى بدء الهجرة موقف معقول بسيط التفسير ، فالموقف الحضارى فى العالم الجديد يختلف فى أسسه الفكرية وفى مظاهره المادية عن الموقف الحضارى الذى عايشه هذا الجيل فى الوطن . وقد كانت نيويورك فى عين أحد المهاجرين سنة ١٩١٦ " مقبرة واسعة ، مشحونة بأشلاء الحب المقتول ، محشوة بجثث العواطف المخنوقة ، مملوءة ببقايا الشرف الموطوء (٧) " ، وهى فى عين آخر مدينة " قلبها

---

(١) مجلة Survey

(٢) MILLER : A study of the syrian population

(٣) السوريون فى أميركا ، المقتطف ١٩٢٢ عدد أبريل ص ٣٢١ ، ويقول : " ليس للسوريين فى هذه البلاد مركز أدبى معروف ، قل من الأمريكان من يعرفهم كشخصيـ أو يذكر اسمهم " الهلال ١٩١٩ " عدد اكتوبر ص ١٢٥ .

(٤) انظر مقالة بعنوان (السوريون من السلالة البيضاء ولو كره الأمريكيون) فى المباحث ١٩٠٩ عدد كانون الاول ص ١٠٦٠ – ١٠٦٧ ، والمقالة تبدأ ببحث تاريخى طويل لاثبات أن السوريين من العرق السامى والجنس الأبيض ، وتشير الى دفاع الصحف السورية وجمعيات السوريين عن هذه الحقيقة .

(٥) كان المهاجرون السوريون يلتفون حول أنفسهم فى شوارع يختارونها فى المدن الأمريكية ، فهم فى بوسطن فى حى الصينيين وفى نيويورك فى شارع واشنطن ، وقد كانوا فى هذه الاخيرة يسكنون " أعالى البنايات التى يشغل طباقها السفلى محال تجارية ومصانع آلية وادارات مختلفة .. " حكايات المهجر ٦ .

(٦) المقتطف : ١٩٠٥ عدد حزيران ص ٦١ – ٦٢ .

(٧) أمين مشرق – الفنون : ١٩١٦ العدد ٧ ص ٥٩١ .

من حديد ، وعقلها من معادن الذهب والفضة "(١) ، وأمريكا كلها في رأى نسيب عريضة " فردوس مبطن بجهنم "(٢) .

على أن هذا الموقف السلبي المطلق من الحياة الأمريكية ، كان يقابله موقف آخر يتفق معه في الأساس ويختلف في المظهر ، ذاك هو الارتماء السريع العصبي في أحضان المجتمع الجديد ، والأخذ بتفسيره للحياة أخذا كاملا ، فهذا صراع لا يختلف عن صراع الفئات الأولى الا في طريقة الحل ، لقد كان بعض المهاجرين ينسى ماضيه كله ، حتى ليخجل من أهله الفلاحين(٣) ، ويحرص على أن (يطعم) لغته العربية بالانجليزية(٤) ، وأن يخيط أثوابه عند أشهر الخياطين الأمريكيين ، ويتأنق في اللباس ، ويعاشر الفتيات الأمريكيات(٥) .

(٢)

وكان لابد أن ينتهي هذا الصراع مع الزمن ، فيفتح المحافظون قلوبهم قليلا للحياة الجديدة ، ويعود الهاربون من أنفسهم الى الانسجام السوي مع المجتمع ، ويبدأ هذا الاندغام الايجابي بين البيئات المتفرقة والمجتمع الحديث ، فتتأسس جمعيات الصداقة ، ومؤسسات التعاون ، وتبدأ الصحافة العربية تصل المهاجرين بحياتهم الجديدة ، وتنقل اليهم أخبارها الى جانب أخبار الوطن ومشكلاته ، ويطوف الباعة المهاجرون بالمتاجر والأرياف ، فيتحسسون مشكلات المجتمع الجديد ويحاولون تفهمها ، ويؤسسون المتاجر فتقوم بينهم وبين المؤسسات الاقتصادية الأمريكية الكبيرة علاقات التعاون أو التنافس فتساعد على النفوذ الى صميم الحياة الأمريكية وجذورها الضاربة

---

(١) أمين الريحاني — من كلمته في ذكرى جبران — المقتطف ، ١٩٣١ عدد اكتوبر ص ٢٠

(٢) ديوان (الأرواح الحائرة) ١٢٧ .

(٣) حكايات المهجر ٧٧

(٤) المصدر نفسه ٢٢٢

(٥) حكايات المهجر ٧٤ و ٧٥ ، وقد كان مما يفخر به الريحاني صلابته في المحيط الأمريكي ومقاومته " لتيار الاقتباس " فهو " لم يتخلق مثل سواه من السوريين هناك بأخلاق الأمريكيين كلها ... " ملوك العرب ١ / ١٠ ، ويقول فيليب حتى : " أن البعض من المهاجرين السوريين يغفلون الحسن من عاداتهم وتقاليدهم ، ولا يتناولون الا المستهجن من عادات الأقوام المحدقة بهم " . الهلال ١٩١٩ عدد اكتوبر ص ١٢٨

فى الأرض ، والى طبيعة الفرد الأمريكى ومقاييسه التى يقيس بها الحياة والناس، ويبدأ بعض المهاجرين يشاركون فى الحياة السياسية الأمريكية ، وينتسبون الى الأحزاب (١) ، وينخرطون فى الجيش (٢) ، فكأنهم أحسوا بالمصير المشترك وأعطوا أنفسهم ـ نهائيا ـ للمجتمع الجديد ، وأخذوا يدركون تمام الادراك مطامحه ومشكلاته ، وبذلك أصبحوا أقرب الى قلب الفرد الأميركى ، وبدأوا يتصلون صنع الحياة الأوربية " بعد أن كانوا يقصرون اقامتهم على البيع والشراء (٣) . وظهرت الجمعيات والمؤسسات الاجتماعية والنوادى (٤) فى أواخر القرن الماضى ، وكان ذلك دليلا على أن هذه البيئات بدأت تعى ذاتها وواقعها وتجابه مشكلاتها .

وقد برع السوريون واللبنانيون فى التجارة منذ القديم (٥) ، فلا غرابة أن تكون عمود عملهم فى المهجر ، الى جانب الزراعة . لقد تاجروا أول الأمر بالمطرزات، والاشغال اليدوية والابر والأمشاط والبقالة والمسابح وعود الصليب وماء الأردن والأيقونات يجلبونها من الديار المقدسة (٦) . ثم حملوا الكشة والجزدان يدورون بهما على البيوت ، حتى بلغوا أخيرا مستوى اجتماعيا واقتصاديا كريما ، فنفذوا الى الأوساط الرفيعة ، وأصبحت لهم المحال التجارية الكبيرة فى (الافنيو الخامس) حيث تعرض أثمن حلى العالم ، وأسسوا المصانع الضخمة ، وبنوا القصور المنيفة (٧) . ولكنهم ـ فيما يبدو ـ لم يلتفتوا فى صراعهم المادى المنيف الى بناء شخصيتهم الأدبية (٨) ، فلم يصيروا الصحافة التفاتا وتشجيعا ، فكانت الصحيفة ما تكاد تبدأ صدورها حتى تختم

---

(١) كان عبد المسيح حداد ووليم كاتسفليس فى الوفد الذى مثل السوريين المنتسبين الى الحزب الجمهورى فى أمريكا ، أمام الرئيس كوليدج . انظر مقالة فى (المباحث) بعنوان (السوريون فى المهجر) السنة ١٩٢٤ عدد نوفمبر ص ٦١ ـ ٦٤ . وما يزال آل كاتسفليس فى طرابلس يحتفظون بالصورة التى التقطت للوفد مع الرئيس الأميركى آنذاك.

(٢) انظر كلاما على خدمات السوريين الحربية فى أميركا : (السوريون فى أميركا) المقتطف ؛ ١٩٢٢ عدد مايو ص ٤٣٣ .

(٣) .. كنوز لبنان ٥٣

(٤) جورج صيدح ـ أدبنا وأدباؤنا ٢١

(٥) فى بحث للدكتور (الن مكلوغلين) عن المهاجرين ، يقول : " ان السوريين أحذق فى ادارة الأعمال من كل الامم الأخرى المهاجرة ما عدا اليهود .. " المقتطف : السنة ١٩٠٥ عدد حزيران ص ٦٢ .

(٦) كان المهاجر يتدرج فى التجارة من البيع بالكشة الى حمل الجزدان الى عرض البضائع فى الفنادق : (حكايات المهجر) ٢٢٢ وانظر صورة لما كان يلاقيه من عذاب فى ص ١٨٤ .

(٧) فيليب حتى ـ السوريون فى أميركا : الهلال ؛ ٩١٩ ، عدد أكتوبر ص ١٢٢ ، وانظر كتاب جورج صيدح ٣٧ .

(٨) انظر فى المصدر السابق : نظرة المهاجرين الفاترة الى الأدب واقبالهم على المطالعة فى وقت واحد ، وانظر كتاب صيدح ٣٦ ـ ٣٧ .

عملهـا (١)، وأهملوا انشـاء المدارس الخاصة التى تساعدهم على أن يحتفظوا بتراثهم الذى حملـوه . ولم يعنوا بالتعلـيم العالى (٢) الذى يهيئ لـبروز هذه الشخصية الأدبيـة ويبـدو أن كثيرا من رجـال الصحافة هناك أساء فهم عملـه الشريـف، فلجأ الـى الطـرق التى تعرفهـا كثير من صحف وطنهم فى ابتزاز أموال النـاس، وقـد اعتـبر الاغنيـاء الصحفيـين والأدبـاء عالة ، فرفضـوا تشجيعهـم ، وساء الموقف بين المهاجرين والمترجمين عن شخصيتهم ومطامحهـم (٣).

ولم يثبـت فى هذا الميـدان كثـير من المحترفـين ، ولكن الموهوبين من الأدبـاء والكتـاب لم يستطيعـوا أن يغفلوا الاستجابة للصـوت الحار العميـق المنبثق مـن قلوبهم التى يجذبهـا الشوق والقلـق ، فمضـوا فى طريقهم يعبرون عن تجربتهـم وأوجاعهم النفسية ويصورون التطور الذى خضعت له شخصياتهم وتضير به تفسيرهم للحيـاة وفهمهـم لها (٤). وقد رضوا أن يشتتوا أنفسهم بين معاناة العمل فى المتاجر، ومعاناة الانتاج الفنى ، على بعد ما بينهما من روابـط نفسيـة (٥).

وقـد رفـع هـؤلاء الأدبـاء من مستوى الصحافـة العربيـة فى المهجر ،وانتزعوهـا — مع الأيـام — من أيدى الجهـلاء والمسترزقـة ، وجعلوها فى أيدى الأكفياء ، حتى أصبحت هذه الصحافة هى مدرسة اللغة العربية فى المهجر .. التى تعلم المهاجرين أن يذكروا دائما وطنهم وأهليهم ولغتهم (٦). وهى التى عملت — فى هذه البيئات — على توضيح القيم

---

(١) جـورج صيـدح — أدبنـا وأدبـاؤنـا : ٣٧ .

(٢) فيليـب حتى — السوريـون فى أميركا . المقتطـف ١٩٢٢ عدد مايو ص ٤٣٣

(٣) جورج صيدح — أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكيـة . ويقول المـؤلف :
" وتكاد ترجح كفة المال ، فينبـذ الأدباء من المجتمع ، لولا أن بعض الأثريـاء المثقفين ضموا الأدباء الى صدرهم ، وأنزلوهم المرتبة التى يستحقونها من مراتـب الكرامة " . ويعبر ندرة حداد عن هذا الموقـف فى قولـه :

يا ويـل أهل الشعر كم شبعـوا جوعا ، وكم سكروا ولا خمـر
(أدبنـا وأدبـاؤنـا ٢٧)

(٤) جـورج صيـدح — أدبنـا وأدبـاؤنا فى المهاجـر ٥٦

(٥) المصدر السابق ص ٥٧ ، وفى مقالة كتبها لويس الريس (الثقافة : ١٩٤١ العدد ١٤٢ ص ٢٢)
يقول : " ولست واجدا أديبا من أدباء المهاجرين ، لا يجيد انتقاء خير الأقمشة والأصواف .. كما يجيـد انتقـاء الألفـاظ والعبـارة " .

(٦) أدبنـا وأدبـاؤنـا ٧٧ — ٧٨ .

الاجتماعية و (بلورة) الأهداف والمثل ، وهيأت الطريق - بذلك - لظهور الأدباء والجمعيات الأدبية والمجلات الكبيرة التي تتولى التعبير عن هذه القيم والأهداف والمثل. ومن هنا يأخذ تأسيس (الرابطة القلمية) معناه العميق، كما سنرى في الفقرة التالية.

(٣)

وليست بنا حاجة - تمشيا مع الخطة التي اتبعناها في الرسالة - الى اعادة ما تناقلته الكتب حول انشاء الرابطة القلمية وتاريخها القصير الممتلئ وأهدافها ورجالها ، فقد أصبح الحديث فيها مكرورا لا فائدة منه. وخير لنا أن نقول كلمتنا في نشأة هذه الرابطة ، ومعنى تكوينها بالنسبة للبيئات العربية التي كونها المهاجرون في مجتمعهم الجديد ، وبالنسبة للأدب العربي الذي ظهرت الرابطة لتبشر بقيم جديدة في فهمه وتصفيته وتطوير مقاييسه.

لاشك أن انشاء الرابطة يعتبر تعبيرا ناضجا عن استواء شخصية المهاجرين في بيئاتهم الجديدة ، استواء حيا ، فهي تعني أن فئة منهم أصبح لها رأي خاص تعبر عنه في الحياة والأدب ، وهو رأي تكون لها من تحديد موقفها من الحياة الجديدة التي تعيشها والحياة القديمة التي خلفتها ، على أساس قاعدة فكرية عامة ، ومذهب واضح في التفسير والتعليل. وهي تشق بقدرتها على التعبير عن رأيها وتصحيح المقاييس الخاطئة التي يحكم بها مواطنوهم المقيمون في الوطن على تجاربهم وأنتاجهم ، وهي تعني - بكلمة مختصرة - تخطيط الحقل الأدبي الذي هو صورة الحياة ، تخطيطا جديدا يرضيهم ويحقق - في رأيهم - الشروط اللازمة لتوجيه النتاج الأدبي توجيها يضمن له الاحتفاظ بالقيم الفنية التي يبشرون بها. وفي هذا يقول (قانون الرابطة) : " ان هذه الروح الجديدة التي ترمي الى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد ، الى دور الابتكار في جميل الأساليب والمعاني ، لحرية في نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة ، فهي أمل اليوم وركن الغد ، كما أن الروح التي تحاول بكل قواها حصر الآداب واللغة العربية ضمن دائرة تقليد القدماء في المعنى والمبنى ، هي في عرفنا سوس ينخر جسم آدابنا ولغتنا.."(١)

ويمكن أن نعتبر قيام الرابطة - في حد ذاته ، كما أشرنا من قبل - دليلا على أن الصلة بين المهاجرين والمقيمين قد اختمرت ، فلم يعد المهجر

---

(١) جبران خليل جبران ١٧٦

فرعا فحسب من الدوحة البعيدة ، وانما هو كيان أدبى خاص له سماته الخاصة ورأيه الخاص ، ولكنه كيان ملتفت الى الوطن ، معترف بالأصل (١) ، ذلك أن الرابطة قامت لتصحح المقاييس الأدبية القديمة على ضوء تجارب أفرادها وثقافتهم واتجاهاتهم الفكرية ، ولتنشىء أدبا عربيا يحقق الشروط التى تتطلبها هذه المقاييس الجديدة .

يقول قانون الرابطة : " بيد أننا ، اذا ما عملنا على تنشيط الروح الأدبية الجديدة ، لانقصد بذلك قطع كل علاقة مع الأقدمين ، فبينهم من فطاحل الشعراء والمفكرين من ستبقى آثارهم مصدر الهام الكثيرين غدا وبعد غد ، الا أننا لسنا نرى فى تقليدهم سوى موت لآدابنا ، لذلك فالمحافظة على كياننا الأدبى تضطرنا للانصراف عنهم الى حاجات يومنا ومطالب غدنا ، وحاجات يومنا ليست كحاجات أمسنا .... " (٢) .

وهكذا يغدو تأسيس الرابطة ، ذات الغايات المحددة والمنهج الواضح ، اعلانا ضخما عن المهجر الذى استقامت له شخصية ورأى وارادة ، ومن هنا يفسر التقاء أفراد الرابطة حول أهدافها تفسيرا بسيطا طبيعيا ، فهو التقاء تم بعد مخاض قارب بين الأذواق والمفاهيم وحقق الألفة بين الأهداف ، وأنضج هذه الروابط التى تقيم الكيان الأدبى المتميز ، بالرغم من اختلاف الاتجاهات وتفاوت الطاقات وتفرق المواهب (٣) .

وفى رأينا أن قوة الرابطة القلمية وبلوغ تأثيرها فى أدبنا الحديث ، وارتفاع

---

(١) يجب أن نذكر أنه كان فى المهجر حين أسست الرابطة ست مطابع عربية وست مجلات . انظر : فيليب حتى : (السوريون فى أمريكا) المقتطف = ١٩٢٢ عدد مايو ص٤٣٣

(٢) جبران خليل جبران ١٧٧ .

(٣) قال قسطنطين زريق عن الرابطة : انها " وحدت قواهم فى سعيهم الأدبى والروحى ، وجعلت منهم مصدرا من مصادر الاشعاع لحياة عربية بدأت تفتح عينيها للنور .. " . الأديب ١٩٤٦ العدد ٨ ص٧٧ ، وقال مارون عبود : ان انشاء الرابطة القلمية واتخاذ (السائح) مجلة لها ، انما هو انشاء مدرسة كاملة بالفصل . ـ عدد جبران الخاص فى المكشوف ص ٢ .

رنينهـا في أوساطنـا الأدبيـة ، مردها ـ الى حد كبير ـ الى هذا الالتقاء العميـق في الأهـداف والمسـالك ، فقـد كان كل عامـل من عمالها يؤكـد بطريقته الخاصـة الأثـر الذي يخلـفـه زميلـه ، حتى استقامت لهم جميعـا طريـق واضحة معروفـة المصـدر والمنتهـى (١) .

ويكـاد يمثـل هذه الطريـق أتم تمثيـل ، قول ميخائيـل نعيمـة في المقدمـة التي كتبهـا لمجموعـة الرابطـة القلمـيـة سنـة ١٩٢١ : " ان الرابطـة القلميـة ما كانـت لتقـدم هذه المجمـوعة الى قـراء العربيـة لولا اعتقادهـا بأنها قـد اتخـذت من الأدب رسـولا ، لا معرضـا للأزيـاء اللغويـة والبهرجـة العروضية . فان لم يكن لها الا تشـويـق بعـض الأرواح الناشئـة الى طـرق الأدب عن سبيـل النفـس لا عن سبيـل المعجمـات فحسبهـا ثوابـا ، فقـد كفانـا ما عندنـا مـن المعجـزات اللغويـة ، وآن لنا أن نتعطـف ـ ولو بالتفاتـة ـ على ذاك " الحيـوان المستحـدث " الذى كان ولا يزال سر الأسرار ولغز الألغـاز .. " (٢)

فالانسـان اذاً تصوير أزمته من الداخل على النحو الذى جربـوه ، ووضع الحلـول لهذه الأزمـة ، والتعبـير عنها تعبـيرا حيـا أصيـلا عميق الصلة بالنفس ، تلـك هي القاعـدة التي نهـض عليهـا بنـاء الرابطـة المتمـيز ، على اختلاف ألـوان الأحجـار .

وقـد ساعـد على التقـاء أعضاء الرابطـة حول هذه القاعـدة أنهم استقوا ثقافتهم من مصـادر متقـاربـة أو موحـدة ، وأنهـم عانوا تجـارب متماثلـة ، فقـرب ذلـك بين وجهـات النظـر وحـدد منابـع عامة للتفكـير ، كما سيتبين لنا في الفصـل التالـي .

---

(١) انظر مقالة اسماعيل أدهم السادسـة : الحديـث ١٨/٧/٣٠٧ ـ ٨

(٢) مجموعـة الرابطـة القلمـيـة ص ٧ .

الفصل الثاني

منابع التفكير العامة

(١)

نستطيع أن نحصر منابع التفكير العامة لدى كتاب الرابطة القلمية في أربعة مصادر :

الأول :الثقافة المسيحية ، وعمودها الانجيل ، ثم ما انتهى اليه من فلسفات الشرق وقيمه .

الثاني :الثقافات الأجنبية ، وما اطلعوا عليه من آداب الغرب وفلسفاته .

الثالث :تجربة الهجرة التي وسعت آفاق حياتهم ووضعتهم في قلب الحضارة الحديثة، وعلمتهم الحنين والتفكير الدائم بالوطن .

الرابع :الثقافة العربية التي امتد اتصال بعضهم بها الى مدى صالح ، وقصر اتصال بعضهم حتى لم يجاوز كتبا يمكن حصرها .

وسنبدأ الآن بالكلام على هذه المصادر في ايجاز ، حتى نتمكن من فهم تكوينهم الفكري والروحي ومن ثم فهم أدبهم الذي يعكس - في وضوح - تأثرهم بهذه المصادر والتجارب الثقافية العامة .

×× ×× ××

يجب أن نلاحظ أن هؤلاء الأدباء مسيحيون كلهم ، بعضهم كاثوليكي، وبعضهم من الأرثوذكس ، ويجب أن نلاحظ أن العقيدة الدينية في فترة المهاجرة ، منذ أكثر من نصف قرن ، كان لها في الشام شأنها الكبير في توجيه مقدرات الفرد وصياغة شخصيته واختيار ألوان ثقافته ، فقد كان المسيحيون التابعون للدولة العثمانية يحسون ألوانا من الضغط الظاهر والخفي - كما فصلنا في مدخل الدراسة -. وقد شهدت الأجيال القريبة من فترة المهاجرة أهوالا طائفية تقشعر لها الأبدان ، فلا غرابة اذاً أن يلتف المسيحيون حول زعمائهم الروحيين ، وأن يتكتلوا ، وأن يزداد لجوؤهم الى الكنيسة واحساسهم بأنهم (أقلية) مضطهدة ، وأن يورث الآباء أبناءهم هذا الاحساس . وقد كانت دراستهم الأولية من ناحية أخرى - في الكنائس أو في مدارس طائفية صغيرة ملحقة بالكنائس ، يتولى التعليم فيها بعض رجال الدين المتفرغين .

وكانت كتب الدراسة الاولى بعض اسفار التوراة كالمزامير والأمثال ، أو بعض اصحاحات الانجيل، وهكذا كانت تتعاون الدراسة الأولية - كما نرى - في الفترة التي تبدأ فيها شخصية الطفل بالتفتح واكتساب التجارب والتطلع ، مع

التربية البيئية ، في الفترة التي تصاغ فيها خطوط شخصية الطفل العامة، على أن يخرج للحياة انسان يحس احساسا عميقا بأن له - في بلدته أو وطنه - موقفا خاصا من الاحداث والناس والأرض ، ومفهوما خاصا للوطن والمجتمع والتاريخ المشترك .

ويكون من ذلك أن ينشأ لهذا الطفل مفهوم ثقافي خاص ، فقليلا ما كانت تتصل به - آنذاك - صور أو أسماء أو أحداث تتعلق بالتاريخ العربي . وقد كانت تمتلىء نفسه بآيات التوراة والانجيل يحفظها - كما جاءت بها الترجمة العربية- لا تزاحمها في ذاكرته محفوظات كثيرة أخرى تبعد بالطفل كثيرا عن هذه الدائرة .

فاذا أنهى الصبي هذه المرحلة ، أتيح له أن يدخل مدرسة من المدارس الطائفية الخاصة أو الأجنبية التي يشرف عليها رجال من طائفته الخاصة، أو جمعية تبشيرية مذهبية تتلقى الاعانات من دولة أجنبية وتعنى بنشر مذهبها وتنشئة الاطفال على التمسك به ، وعلى فهمه والدفاع عنه ، فتتأكد في نفس الصبي - على هذه الصورة - الحقائق التي نشأ عليها وغذى بها.

وأخلص مما تقدم الى أن هؤلاء الأدباء - في صورة عامة - نشئوا نشأة مسيحية صرفا ، كان الانجيل والكتاب المقدس فيها هما الحقيقة الأولى في حياتهم . فلما قابلتهم تجربة الهجرة - لما فصلناه من أسباب نفسية ومادية - وأحسوا بالحاجة الى أن ينظروا في الحياة ومعانيها من الأساس ، فعلوا ذلك على ضوء ما تعلموا من حقائق الانجيل والكتاب المقدس . وغاية ما استطاعوه - هنا - أن يسيروا في الاتجاه الى آخره ، وأن يجعلوا من بعض الحقائق رموزا ، وأن يصلوا بين الانجيل وبين الثقافات الدينية الشرقية التي يمكن أن تعد منابع أو أصولا لحقائق الانجيل الكبيرة . ومن هنا تشابهت الحلول التي أخذ بها هؤلاء الأدباء لمشكلة الانسان في موقفه من نفسه ومحيطه ووطنه ، وفي موقفه من الله . وهي حلول تنتهي ، على نحو من الأنحاء ، الى الانجيل والفلسفات الشرقية القديمة . فقد دعوا الى المحبة الخالصة التي تقوم على المعرفة بمكان الانسان في الكون ، فتذيب ارادة الفرد في الارادة الشاملة ، وتخرج به من المتناقضات والثنائيات . وكان جبران ونعيمة - بحساسيتهما المفرطة وقلقهما الدائب وشعورهما بالحاجة الى النفاذ في صميم

الأشياء _ أكثر أدباء المهجر التصاقا بهذه الحقائق ، فقد كانا يحاولان أن يعيشاها في اخلاص وكانا يدعوان اليها ، ويتحدثان فيها . ولقد استغرقتهما هذه (الصوفية) المسيحية استغراقا كاملا حتى وصلا الى (التناسخ) و (التقمص) ، وهما أقصى ما وصلت اليه الفلسفات الشرقية القديمة من حلول لقضية الانسان وما يتعلق به من مشكلات الخير والشر والفناء والخلود .

وقد اجتمع أكثر هؤلاء الأدباء حول هذا الحل ، حتى أصبح التصوف سمة من سمات تفكير هذه الجماعة ، ولعلها أوضح السمات في أدبهم على الاطلاق ...

(٢)

وننتقل الى المنبع الثاني من منابع تفكيرهم وثقافتهم ، فنذكر أن أكثر هؤلاء الأدباء قد أتقنوا اللغات الأجنبية ، واطلعوا _ بنسب متفاوتة _ على آدابها ، ولعل الكاتب مدعو الى الاطلاع ومتابعة الدرس بأكثر مما يدعى الشاعر ، على أن الذين جمعوا الشعر الى النثر من هؤلاء الكتاب كانوا مدفوعين الى الطلاع والقراءة ليغذوا الصحف التي يشاركون في تحريرها أو يؤسسونها . وقد كان بعضهم يتقن أكثر من لغة واحدة الى جانب لغته العربية ، فنعيمة كان يتقن الروسية والانجليزية . ويقرأ الفرنسية . ووليم كاتسفليس كان يجيد الفرنسية والانجليزية ، ولابد أن تكون اقامة جبران في باريس أكثر من سنتين قد أكسبته معرفة قراءة الفرنسية الى جانب الانجليزية . ونسيب عريضة كان يقرأ الروسية - وقد ترجم بعض قصائده عنها الى جانب الانجليزية أيضا . و[illegible] كان عبد المسيح زميلا له في مدرسة المعلمين الروسية في الناصرة .

ومهما يكن حظ بعضهم ضئيلا من الاطلاع على آداب هذه اللغات الأجنبية ، فلا بد أن حياتهم في هذه الديار الأجنبية كانت تساعد على أن يلتفتوا بين الحين والحين _ بالرغم من تراكم الأعمال _ الى كتاب أو مجلة أو صحيفة . ولعل مماشاتهم لسير الأحوال في وطنهم الجديد واضطرارهم الى الالتفات الى مشكلات هذا الوطن وتفهمها ليحسنوا تصريف أمورهم ، لعل ذلك كان يدفعهم دفعا الى المخالطة والى الاطلاع على آراء جديدة في الحياة والناس وتنظيم المجتمعات .

وقد كان أكثر هؤلاء الأدباء يعرف لغة أجنبية ـ على الأقل ـ حتى قبل أن يهاجر الى الولايات المتحدة ، فقد عرفنا أن ثلاثة منهم (نعيمة وعريضة وعبد المسيح) كانوا تلامذة في المدارس التي أنشأتها الجمعية الروسية الفلسطينية، وقد درسوا في الناصرة في مدرسة المعلمين الروسية . فهذه وحدة جديدة في التأثر الفكري العميق تجمع نصف هؤلاء الأدباء الذين ندرسهم . وقد سافر نعيمة الى الروسيا (بولتافا) فازداد نفوذا في اللغة الروسية ، حتى تمكن من قراءة شوامخ الأدباء الروس ، (دستويفسكي) و (تولستوي) و (تورجنيف) والناقد (بلينسكي) و (غوغول) وغيرهم . وقال نعيمة في حديثه الى :

" كنت أقرأ كالمنهوم ، كالمسافر الجائع . وكنت أحس أن هذه دنيا جديدة تتفتح لي ، دنيا واقعية حارة أعيشها ، لا زخارف وجناسات وبهلوانيات لفوية "(١) ، ولقد عرفنا أن (وليم كاتسفليس) درس في كلية الآباء اليسوعيين وأجاد الفرنسية قبل أن يهاجر الى نيويورك وقد تخطى العشرين .

وقد أقبل هؤلاء الأدباء في مهجرهم على الاستفادة من مكتبات الغرب الفنية ، وجمع بعضهم في بيته كتبا أجنبية كثيرة . وزائر (متحف جبران) في (بشري) يرى مكتبته التي تعدت أربع خزائن ، وقد امتلأت بالكتب الأجنبية الأدبية والفلسفية ، ومباحث الديانات والتاريخ والاجتماع . .

ويقول نعيمة : " لاشك في أن أدباء المهجر أفادوا من احتكاكهم بالآداب الغربية .... ان ما لاقوه من غنى في خزائن الآداب الغربية ساعد الى حد كبير على تفتح مواهبهم واستثمارها ، كل على هواه ، وبالطريقة التي تلائم ميوله ومزاجه . فجبران ما ابتدع اسلوبه الفني بالألوان والأنغام والبعيد عن الاسفاف والابتذال والمشحون بالاستعارة المبتكرة والنبضات والانفعالات ، لولا أنه عرف (نيتشة) و (طاغور) ، ولا هو اختار ذلك الأسلوب الا لأنه كان الأقرب الى ذوق المصور وذوق الشاعر فيه من أي أسلوب سواه. وكذلك الريحاني وأسلوبه الذي هو تارة أسلوب (كارليل) وطورا أسلوب (امرسون) وأحيانا أسلوب (والت هويتمن) ، وكذلك قسل في كاتب هذه السطور، فلولا أنه نزف من معين الأدب الروسي ، لما كان له أسلوبه في النقد والنظم والقصة ... "(٢) .

---

(١) معه حديثه الحي في القاهرة بتاريخ ١٩٥٧/١٢/١٦

(٢) مقالته (أدب المهجر) ـ الحديث : ١٩٤٩ عدد كانون الثاني ص ٤١ .

ولعل هذا التحليل الدقيق لأساليب بعض أدباء المهجر ، وردها الى مصادر تأثرها الأصيلة دليل ما اتسمت له ثقافة نعيمة من اطلاع واسع عميق على آداب الغرب، حتى لقد سخر في المقدمة التي كتبها سنة ١٩١٧ لمسرحية (الآباء والبنون) — ممن ينكر على الغرب فضله الكبير في تجديد شباب أدبنا . وهو الذي يقول : " للغرب حقه ، فقد أطلق أفكارنا من عقالات كثيرة ، وبدل في مقاييسنا ودلنا الى سبل جديدة" (١)

على أننا اذا تجاهلنا هذا كله ونظرنا في نتاج هؤلاء الأدباء وجدناه يحفل بما يشير الى تأثرهم بالآداب الأجنبية ، حتى ان (نسيب عريضة) (وهو — بشهادة أدباء المهجر أنفسهم — من أشدهم التصاقا بالأدب العربي، وأكثرهم اطلاعا على الثقافة العربية وولوعا بها حتى ما يكاد يغادر القسم الشرقي من دار الكتب في نيويورك) تلمع في ديوانه أسماء بعض الشعراء الروس ، فهو ينقل قصيدته (الصمت) عن الشاعر الروسي (تيوتشف) (٢) ، وقصيدة (ترنيمة السرير) عن الشاعر (سولوكوب) (٣) . ولاشك أن حياته في الرابطة ، وزمالته لنعيمة وجبران والسهرات الحافلة التي كانوا يعقدونها، كانت تحيطه — وتحيط غيره من أعضاء الرابطة — بجو ثقافي رفيع تجيلنا شيء يبعث على التأمل الدائم والبحث والابتكار .

وسيبدو في دراستنا المقبلة لآثار هؤلاء الكتاب — على كل حال — مدى تأثرهم بالآداب الغربية والثقافات الأجنبية .

(٣)

والمنبع الثالث من منابع تفكيرهم العامة وتكوينهم الروحي هو (تجربة الهجرة) بمعناها الواسع الذي يشمل الصراع مع المجتمع الجديد ، فقد غادر هؤلاء الأدباء وطنهم الوديع الجميل ، وخلفوا وراءهم أهلا وأصحابا ، وذكريات عزيزة صفاها البعد من الشوائب ، الى أرض جديدة ومناخ كئيب " حيث الحياة باردة كالثلج وقاتمة كالرماد وصامتة كأبي الهول " (٤) فأحسوا بالتعاسة ، وبدأ الواحد منهم " يشكو الى الآخر ما في قلبه ويتوق الى لبنان ويشبب بمحاسنه " (٥)

(١) من رسالة أرسلها نعيمة الى يوسف ضوب سنة ١٩٢٨ . انظرها في المكشوف سنة ١٩٣٧ عدد ٩٢ ص٢

(٢) الارواح الحائرة ٢٤ (٣) المصدر نفسه ٣٣

(٤) من رسالة لجبران الى يوسف حويك يصف له الحياة في (بوسطن) ؛ انظرها في المكشوف (عدد جبران) السنة ١٩٣٧ عدد ١١١ ص٧ . وانظر (ذكرياتي مع جبران) للحويك ص ١٢١

(٥) من رسالة جبران السابقة ليوسف الحويك .

إلى

وأخذت القيم الاجتماعية الغريبة التي يولدها السعي المحموم وراء الكسب المادي تحز في أرواحهم، فقد عجزوا عن التعبد للمال وتهذير الحياة الجميلة الهادئة في طرقه المظلمة المعقدة، فقال شاعرهم يخاطب النسر :(١)

ملك الأطيار بلغت المنى ... في حمى مأمون
فكلانا طائر، لكن أنا ... طائر مسجون
ماله عن مذهب الناس غنى ... قلبه محزون
قيدوه، قيدوا منه الجمال ... قيدوا الأفكار
هي دنيا كلها مال بمال ... يا أبا الأحرار

لقد كانت الهجرة غصة دائمة وذكرى لاذعة . لقد وجدوا الحياة على غير ما ألفوه في وطنهم الهادئ فلم يتذوقوها، وبقي الوطن يومئ اليهم من بعيد، فعاشوا معذبين، لا هم يعودون ولا هم ينسون . ويمثل أبو ماضي هذه الحالة النفسية في قوله(٢) :

نحن في الأرض تائهون كأنا ... قوم موسى في الليلة الليلاء
ضعفاء محقرون كأنا ... من ظلام، والناس من لألاء
واغتراب القوى عز وفخر ... واغتراب الضعيف بدء الفناء

ورشيد أيوب في قوله عن المهاجر(٣) :

وقالوا رأينا شريدا يجول ... بعيدا عن الناس في معزل
يبيت الليالي يؤم الطلول ... ويبكي على عهده الأول
فقلنا دعوه عراه جنون ... ومرت ليال وكرت سنون

ولم يرجع

ثم — لهذه الاسباب — لم يستطيعوا ~~أن يعملوا~~ أن يغيروا حتى بالحرية التي هاجروا من أجلها، فإن أكثرهم — كما يقول نعيمة : " كان يتشوق الى التحرر من أمثال تلك الحرية "(٤) .

---

(١) رشيد أيوب — أغاني الدرويش ٤٩ (من قصيدة بعنوان النسر) .

(٢) جورج صيدح — أدبنا وأدباؤنا ٤٢

(٣) من قصيدته (المسافر) : أغاني الدرويش ٦٢ .

(٤) مقالته (أدب المهجر) الحديث : ٩٤٩ عدد يناير (كانون الثاني) ص ١٤ .

وقد عكس نتاجهم الأدبي هذه الأحوال النفسية المعقدة القلقة، حتى غدت تجربة الهجرة منبعا عميقا من منابع هذا النتاج، فما يكاد القارئ يمضي أسطرا في شعرهم أو نثرهم، حتى يحس مرارة هذه التجربة مترسبة في أعماق الكلمات، ويتسرب الى نفسه شعور موحش بالغربة والفراق واليتم والقلق والفراغ ...

وقد كان من نتيجة ذلك أن غنوا وطنهم غناء كله شجن وعذوبة، فوصفوا أرضه وسماءه وبحره وجوه. وشببوا بمحاسنه وصخوره وطيوره، وشفت صورهم وتعابيرهم عن خضرة شجره وانطلاق ضبابه ووداعة حملانه وشبابة راعيه، حتى بدوا عاجزين عن مغادرة هذا الوطن وهم في المجتمع الجديد (1). ولا شك أن هؤلاء الأدباء كانوا - في ذلك - يعبرون عن الحنين الشرقي الأصيل الذي استبد بالبيئات العربية الى "وطن الروح" (2). وهو الحنين الذي ميز تجربة الهجرة السورية (3) الى أمريكا، وشمل الناجحين من المهاجرين والخائبين على حد سواء. ولم يضعف الابعد أن امتص المجتمع

---

(1) يقول عبد المسيح حداد يصف هذه الحال: "... إن ركب الحمار الى الغدير والمشي الى الكرم في وسط الغبار والطين والنوم على المرج في ساعة الظهر ابان تلهب أشعة الشمس... أجمل في نفس ابن سورية القديم من الوقوف في شارع (برودواي) حيث تزدحم الكارات والسيارات والعربات، يتلفت المارون هنا وهناك ليروا لأنفسهم مخرجا يعبرون منه الى ناحيتهم المقصودة آمنين الأخطار. والكوخ المبني من أغصان الشجر القائم في الكرم، أجمل للمنام على سرير في منزل لا تدخله أشعة الشمس دقيقة في السنة. والجلوس عند النافذة في البيت السوري، حيث يمتد البصر الى أميال، فيشرف الناظر على الآكام والأودية، أجمل من بناية (ولورث) ذات الطباق الثماني والخمسين. والقمباز الذي يستطيع معه لابسه أن يجلس كيفما شاء القرفصاء والاربعاء، آنا متكئا، وآخر متمددا دون أن يشعر بشيء يشد على ساقيه وفخذيه وركبتيه، أجمل وألطف من التقيد بسلاسل البنطلون" حكايات المهجر ٤٢ - ٤٣.

(٢) يقول رشيد أيوب:

أنا في أقاصي البلاد وروحي بوادي الحمى (أغاني الدرويش ٧٤)

(٣) أدبنا وأدباؤنا ٥٩. يقول: الناجحون لم تنسهم النعمة أوطانهم الأولى، والخائبون زادت قسوة الحياة لهفتهم الى حضن الأم، الى البيت المهجور، الى الكرم الأخضر، الى ملعب المدرسة".

الجديد أرواح أربعة أجيال على الاقل .

على أن هؤلاء المهاجرين حاولوا، بعد زمن قصير من التردد ، أن يلتفتوا الى حياتهم الجديدة. وبدأوا - مع الزمن - يحسنون السلوك فى شعابها وتصرف خفاياها ومشكلاتها ، فتأثر الواحد منهم " بأوضاعها كرجل زكى الفؤاد، وبعاداتها كفرد اجتماعى ، ثم تأثر بجوها الفكرى الواسع كأديب متفتح (١)

وهكذا استمرت تجربة الهجرة فى حياتهم ، ولكنها هدأت قليلا وأتاحت للمجتمع الجديد المتمتع بالحريات فى القول والفكر والعمل ، والساعى نحو التقدم والرقى والفنى ، أن ينفذ فيها بخصائصه شيئا فشيئا ، حتى أصبحت هذه التجربة منبعا تمده مجار مختلطة ، وبتكشف فى أدبهم عن نزعات كثيرة مشتبكة : فهو الحنين والتشوق والضيق ، وهو التملق بالحرية والتمرد على الجمود الفكرى ومحاربة الاقطاع الدينى والسياسى ، وهو اتساع الافق والتمرس بحضارة رائعة ، ويحاول أحد الباحثين أن يجمع هذه النزعات فى قوله : ان " الذى يطالع آثارهم الفكرية يلمس ما للبيئة من تأثير فيها، وهذه الاثار تتجلى لنا فى بعض نزعات نفسية ترجع عند التحقيق الى اثنتين رئيسيتين هما : حب الحرية والحنين الى الشرق (٢) . ويقول جورج صيدح : "انهم تأثروا الى حد ما بالبيئة الامريكية من حيث التحرر والاجتهاد والنزعة العملية، فاكتسى أدبهم مسحة غربية ... " (٣).

على أن التفصيل فى هذا سيكون فى موضعه من الكلام على المضامين العامة فى أدبهم .

(٤)

والمنبع الاخير من منابع تفكيرهم العامة هو الثقافة العربية . وقد بدأ اتصالهم بها فى مدارسهم الطائفية الخاصة التى كان يباح لها - حينذاك - أن يتلقى طلابها دروسهم بلغتهم القومية الخاصة . وقد كانت ارساليات الانجيليين نقلت معركة التبشير الى اللغة العربية بترجمتها الانجيل اليها ،

---

(١) جورج صيدح - أدبنا وأدباؤنا ٤٤

(٢) أنيس الخورى المقدسى - الاتجاهات الفكرية فى الادب العربى الحديث ٢/ ٦٩

(٣) أدبنا وأدباؤنا ٦٥ .

ثم لحقت بها ارساليات اليسوعيين والارساليات الأخرى، ومن هنا أتيح للمسيحيين أن يتعلموا العربية في مدارسهم الخاصة، وأن يتصلوا بالثقافة العربية على نحو ما أتيح لأدبائنا هؤلاء.

وقد عمق بعض هؤلاء الأدباء اتصالهم بهذه الثقافة وأحبوها وتأثروا بها تأثرا عميقا خلف آثارا واضحة في نتاجهم الأدبي: مضمونا وشكلا، ويمثل هذا الفريق (نسيب عريضة وايليا أبو ماضي)، وقد كان الأول يلازم - كما قلنا - الفرع الشرقي من دار الكتب العامة بنيويورك لايكاد يغادره، وكان ملجأ رفاقه في الرابطة فيما يتصل بهذه الثقافة ومصادرها، حتى سموه (دائرة المعارف العربية)، وقبلوا أن يجري قلمه بالتصويب في لغتهم قبل أن يدفعوا بنتاجهم الى المطبعة (١)، كما احتفظ أبو ماضي -حياته كلها- بلغة مشرقة متينة، وكشف نثره الذي كتبه في مجلته (السمير) عن تأثره العميق بمصادر الثقافة الأدبية العربية - بوجه خاص - حتى ليوشك في كثير من صوره وتعابيره وموضوعاته أن يبعد عن عصره الذي يعيش فيه، فضلا عن أن يغادر الأرض الغريبة البعيدة، المقطوعة الصلة بهذه الثقافة.

ولم يتح هذا القدر من الاتصال بالثقافة العربية للآخرين على الاجمال، فقد غادر (جبران) وطنه وهو في الثانية عشرة لايكاد يعرف شيئا كثيرا من لغته، فلما عاد اليه بعد ثلاث سنوات لم يستطب أسلوب تعليم العربية في مدرسة الحكمة، فغادرها دون أن يهيأ له استكمال عدة كافية تسهل له اتصاله بمصادر الثقافة العربية، والمطلع على مكتبة جبران في بشرى لايجد فيها الا مجموعة ضئيلة من الكتب العربية لا يتجاوز عدد كتبها ما يمكن أن يحتويه رف صغير، على حين تملأ الكتب الأجنبية الخزائن الأربع كلها.

وقد انصرف (نعيمة) - بعد تخرجه من الناصرة، وسفره الى (بولتافا) في الروسيا - الى قراءة الآداب الأجنبية، ثم لم يتح له من بعد الرجوع الجاد الى ما حصل من الثقافة العربية وتنميتها الا في الوطن، والمطلع على بعض ما كتبه نعيمة في السنوات الأولى من هجرته، يدرك صدق ما نقول. ويصح هذا القول نفسه - على نحو أمضى - في عبد المسيح حداد ووليم كاتسفليس،

---

(١) من حديث الاستاذ (فيليب كاتسفليس) الي في بيروت بتاريخ ١٥/٨/١٩٥٩.

ماقلناه من

ويجب أن نذكر هنا/أن التعليم الذى تلقاه هؤلاء الأدباء فى مدارسهم الأجنبية أو الطائفية - اجمالا - كان تعليما موجها ، أعطاهم العربية من خلال الانجيل المترجم وبعض الكتب . الاخرى ، ولم يقصر فى أن يوحى اليهم بالتصاق الثقافة العربية الأصيلة بالعقيدة الاسلامية ، على نحو ما قال (الياس أبو شبكة) فى السابق ، وعلى نحو ما لاحظ الريحانى من موقف هذه المدارس من اللغة العربية . وقد ساعد على احكام هذا التلقين وبلوغ أثره ، ما كان جاثما على الصدور من ذكريات الاضطهاد والمذابح الرهيبة، وما نتج عن ذلك فى نفوس المسيحيين حينذاك من استعداد لقبول هذه النظرة والتسليم بها .

فليس غريبا من بعد أن يبدو نتاجهم الأدبى - فى حدود الاستثناءات التى ذكرناها بالنسبة لهؤلاء الأدباء - مقطوع الصلة بأصول هذه الثقافة ، كما لاحظ ذلك المستشرق (جيب) وتعرعليه (١) .

ويجب ألا يفهم من هذا الكلام ما زعمه (جيب) من أن المهجريين قصدوا الى قطع الصلة فى أدبهم بالتراث الاسلامى وتحويله الى التراث المسيحى، وانما جاء ذلك - عند بعضهم - نتيجة الظروف التى أحاطت بهم على نحو ما صورناه فيما سبق من كلامنا . وقد كان منهم من انصرف الى الثقافة العربية الأصيلة كما قلنا ، ويجب ألا نغفل أيضا عن أن بعض هؤلاء الأدباء اتصل على نحو ما، بجوانب هذه الثقافة فيما هو متفق مع عقيدتهم فى وحدة الوجود. وقد بدا ذلك فى اهتمامهم الرقيق بالأدب الصوفى ، واعتنائهم بعينية (ابن سينا) على وجه الخصوص . وقد أثار بعض أعلام هذا التراث خيال جبران ، فرسم صورهم التى نراها فى كتاب (البدائع والطرائف)(٢). كما شهد الذين عرفوا المهجر وزاروه باحترام هؤلاء الأدباء للثقافة الاسلامية ، واعترافهم بقيمتها الكبيرة ، واعتزازهم بها باعتبارها ثقافة

---

(١) انظر السياسة الاسبوعية : ١٩٣٠ العدد ٢٠٤ ص ١

وانظر ما أثاره قول (جيب) لدى بعض الكتاب فى مصر وتعليق (صيدح) عليه فى كتابه ص ٥٢ .

(٢) وانظر كذلك مجموعة الصور المنشورة فى كتاب (جبران حيا وميتا) لحبيب مسعود ، فان فيها صورة متخيلة لمحمد رسول الاسلام ، وصورا للمعرى والغزالى وابن المقفع وابن الفارض وابن خلدون الخ ...

ذات قيم انسانية عامة (١) ٠

ومهما يكن ، فان اقامة هؤلاء الأدباء في ديار أجنبية غريبة مقطوعة الأسباب بأجواء الثقافة العربية ، ثم ما حمله هؤلاء الأدباء من صور الماضي وحنينه ، يشفعان لما بدا في أدب بعضهم — كما قلنا — من انقطاع الصلة بأصول هذا التراث . وربما كان لهذا الانقطاع أثر كبير في تحررهم من سلطان القديم وانطلاقهم في ميدان التجديد ٠

وعلى كل حال ، فقد كان هؤلاء الأدباء خاصة والمهاجرون عامة على اتصال بالحركة الأدبية والفكرية التي كانت قائمة في الوطن العربي (٢) ، يتابعونها في شغف ، ويعلقون على اتجاهاتها ويبدون آراءهم في بعض مظاهرها ويأخذون منها ويعطونها في سماحة . وقد بدا ذلك في تعليق جبران على نقد المنفلوطي لكتاب (الأجنحة المتكسرة) (٣) وفي نقد نعيمة (للدرة الشوقية) ولمجموعة من الكتب الصادرة في الوطن (٤) ٠

وأخلص من هذا كله الى القول : أن بعض هؤلاء الأدباء — على الاجمال — لم يتح لهم في الظروف المعينة التي عاشوها في الوطن قبل المهاجرة ، وفي حدود الثقافة التي تلقوها ، والتي صاغت شخصيتهم الفكرية في أجواء مكفهرة ، لم يتح لهم أن يتصلوا بالثقافة العربية اتصالا مؤثرا ينفذ الى حد المشاركة في تكوين شخصيتهم هذه ٠ في حين أتيح لبعضهم أن يتصلوا بهذه الثقافة اتصالا حسنا بدا أثره في نثرهم ، في المضمون والصورة على حد سواء ٠ وسيبدو ذلك واضحا فيما يلي من فصول الرسالة ٠

---

(١) جاء في كتاب (أدبنا وأدباؤنا ٠٠) لصيدح قوله : ان الدكتور أبا شادي " وجد الأدباء المسيحيين يغارون على الثقافة الاسلامية ، وعلى سمعة نبي الاسلام، ويعدونه قبل كل اعتبار بطلا عربيا ومصلحا فذا ، ويحسبون ذلك ناحية وثيقة بكرامتهم الوطنية" ويرى صيدح نفسه " أن الثقافة الاسلامية ازدهرت وتمجدت في تلك الأوساط المسيحية ، وشعت في أدب الكتاب والشعراء اشعاعا عفويا غير مشوب برغبة أو رهبة٠٠" انظر ص ٥٣٠ وارجع الى كلام ابي شادي في (دراسات أدبية ص ٤٠) وسنعود إلى الكلام في هذا الموضوع مرة أخرى.

(٢) يقول (لويس الريس) : ان للمهاجرين في الأمريكتين ، في المواصم الكبرى ، مكتبات عربية فيها أحدث نتاج وطنهم الأدبي ، فالأدباء هناك يظلون على صلة بالحركة العربية الثقافية ٠٠ انظر الثقافة — ١٩٤١ العدد ١٤٢ ٠٢٢

(٣) انظر رسالة إلى أمين الغريب - رسائل جبران

(٤) ارجع إلى الغربال - المقدمة

الفصل الثالث

المفارقات الشخصية

(١)

ان منابع التفكير العامة التى تكلمنا عليها فى الفصل السابق لايمكن أن تمنى ذوبان هؤلاء الأدباء فى بوتقة واحدة ، وانمحاء المفارقات الشخصية بينهم . فذلك يعنى أن يفنى الواحد منهم عن الآخرين ، وهو أمر ليس بالصحيح ، ولايمكن أن يتم فيما نعرف من نواميس الطبيعة . فالشخصية مهما تقاربت من شخصية أخرى ، ومهما وقفت معها فى صف واحد ، ومهما استقتا من منبع واحد ، تظل الواحدة منهما تحتفظ بسماتها الخاصة وطابعها الخاص ، وبقدرتها على الاحتفاظ بأصالتها .

ولعل الفن - بشكل خاص - حريص أن يظهر هذه المفارقات ، لأنه هو التعبير عنها . وقد رأينا أن هؤلاء الأدباء قد غادروا وطنا صغيرا واحدا تحف به آلام وأوجاع متشابهة ، بعد أن تلقوا ثقافة تكاد تكون فى تجاريبها العامة متقاربة ، فنزلوا مدينة واحدة ، وعاشوا فى ظروف متشابهة . ولكن هذا كله لا يعنى أن يصدروا فى أدبهم عن نفس واحدة ، فقد أثبت الآن أن الأخوين فى الأسرة الواحدة تختلف وراثاتهما ومكتسباتهما اختلافا يمكن أن يلمح فى سلوكهما واستجابتهما لمؤثرات الحياة من حولهما ، فكيف وقد حمل هؤلاء الأدباء وراثات مختلفة ، وعاشوا فى أسر مختلفة ، فى بيئات - مهما تقاربت - تختلف لونا وسعة ومدى فى الاتصال بمصادر التأثر الفكرية والعملية . ثم هم قد قابلوا فى المهجر أحداثا يختلف بعضها عن بعض ، وعانى بعضهم آلاما لم يعانها الآخرون ، واتصل بعضهم بالمجتمع الجديد اتصالا لم يتح للآخرين ، واضطر بعضهم الى التجول فى المدن الأمريكية والأرياف على حين قبع بعضهم فى نيويورك لايكاد يغادرها الا قليلا ، فضاقت خبرة بعضهم بالمحيط الجديد ، واتسعت خبرة آخرين . ولابد أن يؤثر هذا كله وأشياء أخرى مما يشبهه فى نظرة كل منهم الى الحياة ، واستجابته لأحداثها ، ثم فى تعبيره عن هذه الاستجابة فيما أنتج من شعر ونثر .

خريطة تبين الأمكنة والبقاع التي ولد كتاب الرابطة القلمية ونشأوا فيها

جبال لبنان

المقياس : ١ : ١٠٠٠,٠٠٠

العاصمة	حدود لبنان
مركز المحافظة	الأنهار
مركز القضاء	السيول
القرى	البرك – التل
الخطوط الحديدية	الملاحة
	المناطق البركانية

مصورتاون : حمدي طربين ٣٥

فأما جبران (١) فقد نشأ في أسرة متوسطة (٢) ، ونجله أب سكير ورث — بدوره — الادمان عن أبيه . وكان عمه أيضا مدمنا "كثيرا ما يغلبه السكر " فينطرح في بشرى في الاقنية الممتدة على جانبي الطريق العام ، فينقل الى بيته ولايصحو الا في صباح اليوم التالي " (٣) . وقد كانت تجول في دماء الأسرة جرثومة السل التي صرعت أخته وأمه وأخاه في بوسطن . فلا غرابة اذاً أن يرث جبران طاقة عصبية مهتاجة سريعة الاستجابة ، غزيرة السهل ، قليلة الثبات . ولا غرابة أن يقبل في بعض فترات حياته على الخمرة اقبالا مرضيا ، فقد شرب الويسكي المختلط ذا الطعم القارص ، كأنه جمرات محرقة ، باعه له أحد المهربين في عهد منع الخمور في الولايات المتحدة (٤) . وكان كثير الشكوى من ارتعاش قلبه واختلال أجهزته وانطفاء عافيته في بعض الأحيان ، حتى لينقطع فيها عن العمل . وأنت تجد مثل هذه الجمل في رسائله الى نعيمة : " أما أنا فبين صحتي المشوشة ومشيئة الناس بي أشبه شيء بآلة موسيقية ، محلولة الأوتار ، في يد جبار يضرب عليها أنغاما غريبة خالية من الألفة والتناسب " (٥) ، " لم تكن صحتي حسنة في الأسبوع الغابر ، لذلك لم أكتب شيئا جديدا .. " (٦) ، " ربما كان السكوت أجدر بي حتى يعود هذا القلب الى ما كان عليه منذ سنة " (٧) ، " قال لي الأطباء في أوائل الصيف أن أهجر الكتابة بكل أشكالها ... " (٨) ، "منذ

(١) ننقل — من حياة هؤلاء الأدباء — التفاصيل التي يستطيع القارىء الرجوع اليها في مصادرها القريبة ، جريا مع الخطة التي اتبعت في الرسالة .

(٢) من مقالات أمين خالد في نقد جبران : المشرق ٤٢٦/٣٠ ، أما (أدمون وهبة) فيجعله " من أصل وضيع " انظر عدد جبران الخاص في المكشوف ص ٨ (من مقالة بعنوان " كيف فهم جبران يسوع الناصري وآمن به ") .

(٣) فؤاد حبيش — مقالة في المكشوف : ١٩٣٦ — العدد ٦٣ ص ٨

(٤) ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران ١٨٨ . وكان جبران يكثر أيضا من التدخين ومن شرب القهوة (كتاب نعيمة : جبران . وكتاب الحويك : ذكرياتي مع جبران — مواضع متفرقة)

(٥) ميخائيل نعيمة : المصدر السابق ٢٧٧ (الرسالة مرسلة سنة ١٩٢٠)

(٦) المصدر السابق ٢٨٠ (الرسالة مرسلة سنة ١٩٢١)

(٧) المصدر السابق ٢٨١ (الرسالة مرسلة سنة ١٩٢١)

(٨) المصدر السابق. ٢٨٧ (الرسالة مرسلة سنة ١٩٢٣)

أيام وأنا رهن هذه الغرفة ، وقد قمت من فراشي لأكتب اليك ، أنت تعلم أنني تركت نيويورك مريضا ولم أزل أحارب التسمم في معدتي [1] " ، "كنت مصابا بالداء المعروف بالنقوس الصيفي [2] " الخ ...

هذا كله ولم يقض جبران في هذه الحياة أكثر من ثمانية وأربعين عاما . واذا لم نكن نريد أن نرد ما يحرص بعض الناس على تسميته (بعبقرية جبران) الى التهاب الدماغ بتأثير جرثومة السل المتوارثة وانفجاره قبل أن يحترق ، عن (عبقرية راشحة [3]) ، فلا نريد أن نقلل من تأثير هذه الوراثة التعسة في التأثير على طاقته العصبية المتأججة ، حتى لتلتهب استجابة لأقل المؤثرات وتطلق خياله في آماد قصية عجيبة ، فيطوف في وديان غائمة ، ومزارع تتقلب فيها الحياة مع فصول السنة " كأنها ظل اله غير معروف جالس بين الأرض والشمس [4] " ، مع أرواح تجزع من الليل اذ تتبطن ملابس الدجى بنواح موجع وبكاء مر وعويل أليم [5] " ، وحب " يرفع أجنحته ويسبح ... نحو دائرة النور [6] " ، و " هيبة سحرية تسبح بتموجاتها أسرار الآلهة [7] " ، وعوالم بعيدة لا يبلغها " عواء الذئاب وفحيح الأفاعي [8] " ...

وقد كان جبران يحس أن في قلبه " صورا وأشباحا تتمايل وتتمشى وتتهادى كالضباب " حتى ليعجز أن يضعها في " قوالب من الألفاظ [9] " ، وكان يحس في بعض الأحيان أنه " ضباب يرتعش في الفضاء [10] " .

---

(١) ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران ، ٢٩٠ (الرسالة مرسلة سنة ١٩٢٤)

(٢) المصدر السابق ٢٩١ (الرسالة مرسلة سنة ١٩٢٨)

(٣) من مقالة فؤاد حبيش المشار اليها سابقا في المكشوف :

(٤) عرائس المروج ـ مجموعة مؤلفات جبران ٧٦/١

(٥) المصدر السابق ٦٤

(٦) الأرواح المتمردة ـ مجموعة مؤلفات جبران ١٥٠/١

(٧) الأجنحة المتكسرة ـ مجموعة مؤلفات جبران ٧١/١

(٨) المصدر السابق ٧٥

(٩) ميخائيل نعيمة ـ جبران خليل جبران ـ (من رسائل جبران الى نعيمة) ص ٢٨١

(١٠) المصدر السابق (" " " " ") ص ٢٨٣

ولا نريد أن نقلل من تأثير هذه الوراثة أيضا فيما كان يحس أحيانا من الهبوط والضيق عقب فترات الاشتعال العصبي ، وتأثير ذلك في قلبه ، وما كان ينعكس من نظرات حزينة الى الحياة ، كأن الشحوب والاصفرار يلفان في نظره الكائنات جميعا ، والحزن عميق القرار مترسب في الاعماق ، والدموع والزفرات والنحول حيثما يجيل بصره : فهذا وجه " صغير مصفر " وهاتان عينان " مكحولتان بخيالات التعاسة والفاقة " وفم " مفتوح قليلا كأنه جرح عميق في صدر متوجع " وقامة " صغيرة مهزولة منحنية ... كأنها غصن من الورد الأصفر الذابل "(١) ، وحياة هي " ظلمة تتسابق فيها الأشباح الشريرة ، وواد تسدب في جوانبه الثعابين المخيفة "(٢)

، وخيال هو " خيال الموت المريع منتصبا بين الجثث الملطخة بالدماء " وعويل هو " عويل الصدم ممزوجا بنعاب الغربان الحائمة حول فريسة شرائح البشر "(٣) الخ ....

وقد قضى جبران طفولته في بشرى النائمة(٤) ـ في غفوة صوفية ـ على كتف الوادي المقدس (قاديشا) والغارقة في زرقة عميقة وخضرة ناضرة ، تطل في حذر على الوادي البعيد القرار كأنه تجسيد لفكرة الموت ، وتحيط بها جبال شاهقة (ظهر القضيب) ذات صخور حمر دامية متهورة موشاة بعروق خضر منتصبة " في وجه الشمس " تكر في أعماقها ينابيع كثيرة ، وفيها فجوات غامضة يغيب فيها الخيال . وكثيرا ما تطوف برءوس الجبال غيوم كثيفة رمادية ، ويزحف الضباب المرتعش فيغطي بيوت القرية كأنه أجنحة سحرية لطائر

---

(١) عرائس المروج ـ مجموعة مؤلفات جبران ١/ ٨٠
(٢) المصدر السابق ـ ١٠٢
(٣) الأرواح المتمردة ـ مجموعة مؤلفات جبران ١/ ١٣١
(٤) ترتفع عن سطح البحر ١٤٥٠ مترا .

أسطوري يخفي رأسه وراء الافق المجهول [1] .

ولقد أدرك النساك منذ القديم جلال هذه البقعة الرائعة ، فاتخذوا من جبالها وفجوات صخورها خلوات يخلون فيها الى ربهم. ، فسمي الوادي بالسريانية (وادي قاديشا) أي الوادي المقدس [2] . و اتخذ بعض الرهبان الايطاليين ديرا لهم في سفح من سفوح جبال الأرز المطل على الوادي ، وهو (دير مار سركيس) المحفور في الصخر [3] . وكان جبران — وهو صبي — يتسلق الجبل ويأكل من كرمة الدير ، ويقف لحظات مبهورا يطل على الوادي الساكن والصخور ذات الفجوات ، والهدوء الشامل العميق ، ويسمع الغربان النائحة المتفرقة في رؤوس الجبال ، وعويل الينابيع السائرة الى مصيرها في جوف الصخور ، ومن فوقه يغيب الأرز الخالد (أرز الرب) في نشوة الهيبة ،كأنه بعض أناشيد التوراة ينشدها التاريخ القائم بين السمو والبصر وتسبح بها القمم العالية ، فيحس جبران أن أجنحة من النور تحمله الى عوالم بعيدة يشتاقها ويهفو اليها ، ويخيل اليه أنه لو بسط يديه لاحتوى الكون في ذراعيه وغاب فيه [4] ، ويود لو انطلق مع القمم المتمردة الى ملكوت في غير هذه الأرض ...

وهكذا وجد خيال جبران الذي تطلقه طاقة عصبية جامحة ملتهبة ، صخورا متمردة يتسلقها ، ووديانا عميقة يغيب فيها ، وفجوات مظلمة يركن اليها وهدوءا شاعريا يحمله على أجنحته ، وتسبيحات وأناشيد غامضة .

وكان يتنفس هذا الفضاء الحر بما في قلبه من شوق الى الانطلاق والتحرر من قيود الأرض ، وما في أعصابه من هياج واشتعال وحاجة الى التنفيس وتبديد الطاقة العاتية الهادرة فيها ، وما في خياله من تهويمات وسحابات مزركشة ، وضباب سحري ما يفتأ يزحف من البحر والحقول..

(١) ان لبنان — لموقعه على سيف البحر ممتدا من الشمال الى الجنوب — يجذب البخار المتصاعد من البحر فيتكاثف على رباه ضبابا أو سحابا ، وينزل على قممه أمطارا وثلوجا " لبنان ٢١ ـ ٢٢

(٢) يبدو أن (ابن بطوطة) في سياحته رأى بعض هؤلاء الزهاد في جبال لبنان ، وأشار الى ذلك في كتابه : ١ / ٤٩ ، وانظر بطل لبنان ٥٢ و٥٣ وكنوز لبنان ٥٥ ، وقد كان وادي قديشا ذاته موطن الأديرة الكبيرة ، ففيه (دير قنوبين) " وهو دير قديم جدا وأكثره داخل مغارة ، وكان كرسي بطريرك الموارنة . وشمالي وادي قاديشا واد فيه دير قزحيا (ومعناه كنز الحياة) وهو قاعدة أديرة الرهبان اللبنانيين الموارنة وأهمها .. " انظر كتاب لبنان ٤١

(٣) انظر وصفا لحال الدير في أواخر القرن الماضي : بطل لبنان ٥٢

(٤) انظر وصفا لبشري وما يحيط بها ، في أواخر القرن الماضي في بطل لبنان ٥٦ ـ ٥٧

وكان يعود الى البيت فيسمع فى أسرته بعض أخبار المذابح الطائفية والمذهبية وبعض جرائم الاقطاعية ، فيحس أن الدنيا المثالية التى عاشها فوق (فى زيارته لدير مار سركيس) هى غير الدنيا الملطخة بالوحول والدماء ، تحت فى القرية ، فتثور فى نفسه الشاعرة براكين من التمرد والثورة ، لا يجرؤ أن يبوح بها لأحد .

لقد خلف لنا جبران فى بعض دفاتره المدرسية صورا لنفسه فى هذه الفترة ، كتبها وهو طالب فى مدرسة الحكمة وهو لم يكد يتجاوز الخامسة عشرة الا قليلا ، ونحن نجد فيها الخيال المحوم الذى يرفض أن يطأ الأرض الا مجازا ، والصور المنتزعة من جو (بشرى) . يقول :

" أخذت اليراع ، وطيرت رائد الافكار ، فسقطت على جذوع الألفاظ والتقطت ثمارها ورجعت الى أعشاش الطروس ، وولدت فراخها . تطايرت طيور الأفكار فى سماء المعانى ، وسقطت على غصون البراعة وغردت ألحانها . ارتفعت أبخرة الافكار بحرارة شمس الذكاء الى فضاء المعانى ، ففاجأتها أرياح الارادة الباردة وأسقطتها على الاقلام شؤبوبا ، فسال على الطروس مدادا "(1) .

هذه صياغة مصطنعة ، ولكنها الأصول الأولى للطريقة التى اتبعها جبران فيما بعد : الكتابة بالصور والزخارف والاحساس الممتلئ والخيال المتدافع المتوهج ، وكلها تشير فى وضوح ـ الى وراثات جبران وجو (بشرى) .

لقد أدرك أحد الكتاب تأثير هذا الجو فى تكوين شخصية جبران ورد اليها ـ على وجه خاص ـ ما تميل اليه هذه الشخصية من أسباب التمرد والثورة ، وأنكر أن يكون (لنيتشة) و (وليم بليك) تأثير فى تطرف جبران وجنوحه الى الهدم واحتقار الضعف(٢) . ولو وقف الكاتب عند حدود التعليل دون أن ينكر أثر (نيتشة) ، اذاً لنجا من الغلو ـ فى رأينا ـ فليس صحيحا ـ فيما نحسب ـ أن ترد الى الطفولة سائر المظاهر التى تبدو فى الرجولة ، انما هى الأصول والاستعداد والتهيؤ فحسب ، فاذا لقيت ما يسير فى اتجاهها أو يدفعها أو يثيرها ، برزت فى عنف ، على نحو ما برزت فى أزمة التمرد العنيفة التى اجتاحت نفس جبران بعد أن اتصل بنيشتة ، حتى كادت تذهب

---

(1) المشرق : السنة ٣٧ ص ٢٥٠ (نصوص منتزعة من دفاتر جبران التى تحتفظ بها بربارة يونغ ـ كاتب المقالة وناقل النصوص فؤاد أفرام البستانى). [illegible]

(٢) من مقالة لحليم كنعان فى المكشوف : ١٩٣٩ العدد ١٩٤ ص١٥ .

بجذوره .

XX XX XX

على أن جبران لم يتخلحياته كلهـا عن ايمانه رغم تمرده ، فقد كان احساسه الصوفي العميق يستغرق شكوكه ويذيبها . وقد بقي تمرده على الدين ، في حدود ثورته بمثليه . وكانت تقترن هذه الثورة دائما بتمجيد المسيح والرجوع الى نصوص الانجيل لاستشهادها على ما آلت اليه تعاليم المسيحية على أيدى رجال الدين . ويلوح لنا _ بهذا _ أن العقيدة التي أخذ بها في تفسير وجوده وحياته كانت الحل الوحيد الذي يمكن أن يحفظ عليه اتزانه النفسي، ويعصمه من الانهيار ، وهي عقيدة وقودها الاحساس والخيال ، وهما (ثروة) جبران المخزونة النامية التي كان يحس _ دائما _ بالحاجة الى الانفاق منها ، وتبديد بعض طاقاتها ، فجاءت العقيدة تغطي هذه الحاجة ، وتستنفد هذه الطاقات ، وبذلك حولتها عن المزالق الخطيرة التي كانت خليقة أن تهوش هذه النفس وأن تعبث بنظامها ، فان الالحاد أو الشك أو الحيرة الدائمة _ وهي المزالق التي كان يمكن أن يرتمي فيها جبران _ لن توفر له الايمان (بالمثال) الذي يقيم المتمردون ، عن طريقه دعامتهم النفسية ، و(يبرون) ثورتهم وسيفقد جبران ، بفقد هذا الايمان ، (مثاله) الجميل الذي جسده المسيح ، وستصبح ثورته معطلة لا غاية لها ، وسينتهي _ بذلك _ الى فوضى نفسية شبيهة بالفوضى التي انتهى اليها (نيتشة) مثلا ، وهو الذي ثار ثورته بدون (مثال) ، ثم حاول أن يخلق لها المثال (السوبرمان) فانتهى الى لا شيء .

ومن هنا ، يمكن أن نفهم _ في رأيي _ هذا الاضطراب الذي أصاب شخصية جبران بعد اتصاله بنيتشة ، فقد حاول هذا الجبار أن يقضي على (مثال) جبران ، فعطل نموه وفجر احساسه وطاقاته في مجار مسدودة ، فضاع ، واستمر ضياعه حتى عاد من جديد الى (المثال) و (العقيدة) فانفتحت الأبواب ، وانصرفت الطاقات في مجاريها الطبيعية ، فوجد نفسه .

وقد اندفع جبران في تقديس (مثاله) على قدر ما يمكنه احساسه النافذ المضطرم ، وعاطفته القوية . وكان المسيح ، بيديه المسمرتين على الصليب ، وعينيه الذابلتين اللتين يضطرم فيهما حزن عميق لا قرار له ، يرضي خيال جبران واحساسه الأصيل بالكآبة ، وكانت (شهادته) بيد اعدائه تثير عاطفته القوية ، حتى ليخيل اليه أحيانا أنه / مصلوب _ فيه _ على الصليب ، تتدفق الدماء من فمه ، وتتعالى في أذنيه أناشيد وتراتيل بعيدة تقدس استشهاده ، وتنفي آلامه ومجده ...

لقد كان ايمان جبران بالمثال أساس تمرده .

ولقد أعانته عقيدته بشمول الحياة وخلودها ووحدتها على الاحتفاظ بهذا الايمان، وعلى تقريب (المثال) من نفسه حتى يتم اندغامه فيه ، وبذلك وجدت طاقاته سبيلها ووجد احساسه العميق بذاتيته مداه عن طريق تقديسها — من خلال المثال — .

ولقد كان لاحساس جبران العميق هذا بذاتيته ، آثار ضخمة في شخصيته ؛ فقد جعلته كثير الغيرة على كرامته شديد الثقة بنفسه ، شديد الرغبة في اظهار تأثيره على الناس ، حتى ليختار في حديثه ألفاظا ذات رنين يرضيه ، ليضمن افتتان المستمعين به (١) . وقد مكنته هذه الثقة العميقة بنفسه ، من أن يمارس — كما سبق أن أشرت — سلطانا عجيبا على رفاقه من أعضاء الرابطة ، حتى لتتملك بعضهم بعد وفاته أحوال نفسية غريبة وهم يتحدثون عنه ، فهم يغيبون في الأجواء التي كان يغمرهم بها حين كان حيا ، فعبد المسيح حداد " كانت تتسارع دقات قلبه وتستيقظ أشباح نفسه نافضة عن أجفانها نعاس الليالي ، وتتملكه رعشة مجهولة " حين كان يرى جبران ، وهو يقول في بساطة : " كانت لجبران شخصية رائعة كشخصية يسوع " ، ويقول : " وان ما شعرت به نحو جبران شعر به أيضا أعضاء الرابطة القلمية (٢) " .

ويمكن أن يستخلص من كتاب نعيمة وكتاب الحويك أن جبران كان يتمتع بمثل هذا التأثير في المجتمعات النسوية . وقد ساعده ذلك على الظفر بعشرة نساء وفتيات جميلات . ولعل اللطف البادي في قسماته والوداعة في تقاطيع وجهه ، وما تزخر به عيناه من أحلام وخيالات ، وشعره الطويل ، كانت تعين على احكام هذا التأثير ، فقد كان جبينه (ملائكيا) — على حد تعبير عبد المسيح حداد — وكانت ، ملامحه سحرية تبص منها دلائل العبقرية" . ولقد تنبأ له أحد المصورين وهو فتى بأنه خلق لرسالة علوية " (٣) . ووصفته " غبرييلا مسترال) (من أديبات أميركا الأسبانية) بقولها : " كان يحمل بين تلافيف دماغه كل أحلام الشرق : ذكاء خارق ، لطف غير متناه ، نعومة

---

(١) ميخائيل نعيمة — جبران خليل جبران . وانظر ما يقوله الحويك في (ذكرياتي مع جبران ٥١ ، ٢١٩) .

(٢) من حديث عبد المسيح حداد الى يوسف اليميني : مجلة الصحبة ، ٩٤٨ العدد ٤ ص ٣٧١

(٣) المصدر السابق ٣٧١ و ٣٧٢

ورقة تفوقان الوصف ، ترى في عينيه وهو يحدثك بريق العبقرية ولمعان النبوغ وتلمس فيه من خلال حديثه روحا فارسية خالصة ، تظهر على وجهه في بعض الأحيان حدة يهودية منتقلة اليه بالوراثة من سليمان(١) " .

وهنا يتضح ما قلناه منذ قليل ، عن احساس جبران بهذه الذاتية ، وعن (اندغامها) في (مثاله) وتمجيدها من خلاله . فدارس أدب جبران يمكن أن يرصد تعابير كثيرة يكرر فيها كلمات (النبوة) و (النبي) الذي " يرى في أعماق الأرواح مالا تعرفه الأرواح "(٢) . وهو الذي كتب في رسالة له : " أشغالي كثيرة وأحلامي عظيمة ومطامعي هائلة مخيفة تتصاعد الى أعالي السماء "(٣). لقد كان ـ وهو الذي يشف أدبه عن نفسه في صفاء ووضوح ـ يحس بأنه مختار لرسالة علوية ، ولقد بقي يجول في هذه الدائرة الغامضة حتى أخرج كتابه (النبي). ويجب أن نذكر أن جبران/ يغطي أحد جدران محترفة في نيويورك بصورة ضخمة قديمة للمسيح وهو على الصليب ، وكان لأنه يطالع هذه الصورة كيفما التفت في محترفه الصغير ، حتى غيب في اللاشعور ـ وهو المتهيئ لهذا ـ هذه الصورة الضخمة للنبي الشهيد . وقد أحس بهذا بعض الباحثين وذكروه ، ودللوا عليه في أدبه ، يقول (خليل تقي الدين) : " ألم يراود خيال النبوة عيني جبران . ألم يعتقد ربيب الأرز أنه رسول بعث به الشرق هاديا لأبناء الغرب الضالين " ؟ (٤) . ويسميه الياس أبو شبكة باسم (المسيح الجديد)(٥)، ولقد تمت دورة (النبوة) هذه بعد موته وانتقاله الى دير مار سوكيس، اذ كتب على مدخل الدير بعد دفن جبران : هنا يرقد نبينا جبران "(٦) ، وما زال جثمانه في الكنيسة تحرسه الشموع ، ويقام في كل سنة ـ في ذكرى نقل الرفات ـ قداس صارخ الى جانب القبر وتصدح الموسيقى مع موجات البخور ......"(٧)،

---

(١) عدد المكشوف عن جبران ص ١٠ وانظر (جبران حيا وميتا) لحبيب مسعود ٤١٠

(٢) الأجنحة المتكسرة ص ١٩

(٣) من رسالته الى جميل المعلوف : الأديب : ١٩٥١ العدد ٤ ص٥٩

(٤) من مقالته (جبران خليل جبران كما أفهمه) : المكشوف١٩٣٦ ـ العدد ٥٠ ـ ص٢ وانظر كتاب الحويك ١٩٩ .

(٥) من مقالته (أثر الثورة الفكرية التي أضرمها جبران في نفوس الناشئة العربية)
عدد المكشوف الخاص بجبران ص٦

(٦) ثم جملت (بيننا) ، انظر كتاب نعيمة عن جبران ٢٢١ ـ ٢٢

(٧) انظر عدد المكشوف الخاص بجبران ص ١

وقد انتهى عبد المسيح حداد أخيرا الى وصفه فى صراحة بأنه " نبى القرن العشرين " ، ونقل عن رئيس أساقفة نيويورك الذى زار جبران قوله : " انه كان فى زيارة قديس — أو نبى من الانبياء " (١) • وأخذت بعض مجلات المهجر تسميه " النبى العظيم والنابغة الخالد ، " (٢) وبدأت تتلى مقاطع من كتابه (النبى) فى بعض الكنائس ، وتقرأ — حتى فى لندن — مقاطع من كتابه (يسوع بن الانسان) قبل الجلوس الى الطعام (٣) • ولعل نعيمة أراد — من بعض أهداف الطريقة التى اتبعها فى كتابه عن جبران — أن يحطم هذه الاسطورة العجيبة ، وأن يعيد صديقه الى الانسان الذى عرفه فيه •

على أننا هنا نضع يدنا على مكمن الصراع العنيف الذى شمل حياة جبران القصيرة كلها ، وهو الصراع بين مثله الاعلى الضخم الذى آواه فى روحه (النبى) وطالعه صباح مساء على جدران محترفه ، وبين واقعه الانسانى الغائص حتى الركب فى الشهوات الجسدية العارمة • وقد كتب نعيمة كتابه كله عن جبران من هذه الزاوية ... لأنه منها ينبعث الضوء القوى الذى يفسر شخصيته ونتاجه (٤) •

وليس عجيبا أن يكون جسد جبران فى مستوى روحه عراما ويقظة ، فقد كانت طاقته العصبية العاتية توقظ خلاياه كلها ، وتفتت ضوابطه الارادية تفتيتا ، فاذا زل ، نهض مثله الاعلى — فى روحه — بعد الزلة ، فنشب الصراع الذى كان يستمد حرارته من وهج أعصابه ، فينفخ فيها بعنف حتى يحيلها خيوطا مشدودة كالأوتار ...

وليس عسيرا على قارئ أدب جبران أن يجده فى ارفع نشواته الصوفية يدور حول عمود قائم مبهم يود أن يفلت منه لو استطاع ، وأن يتجاهله على كل حال ، ذاك هو الجسد ، الجسد الملتهب الذى يتلظى حرمانا من الصلة الجنسية المنتظمة • وهو القائل فى رسالة له لا ينتظر أن تنشر

---

(١) من حديثه الى مجلة العصبة : العدد ا ١٩٤٩/ ص ١٠٣٣ و ١٠٣٤

(٢) مجلة الكرمة البرازيلية ، ١٩٣٣ عدد يناير (ك٢) ص ٥٢

(٣) من مقالة بعنوان (جبران خليل جبران فى لندن) بقلم (ك • خ) : المكشوف : السنة ١٩٤٠ العدد ٢٧٦ ص ١

(٤) ينقض الحويك هذا القول بالنسبة للفترة التى عاشها مع جبران فى باريس • انظر كتابه ١٢٦ ، ١٧٢ ، ٢١٨

على الناس : " خلقنا الله لنفرح ونتمتع بكل شيء في هذه الحياة، على قدر ما ترسم الحكمة الكائنة في أعماقنا ، فاذا ما امتنع الانسان عن استخلاص اللذة في الكائنات كان هو الجاني على نفسه " (١)

ولعل هذا ما جعل (أمين خالد) يقول في غلو واغراق : " اننا لا نعلم هل تعبر كلمة روح عن شيء في جبران سوى رائحة الجسد ".ويقول : " أجل الأنانية المجردة ، وشهوة التلذذ بحلاوة المرأة العارية ، هذه هي التوراة القلبية الواحدة التي أنبتت الكرمة الجبرانية بورقها وعناقيدها والدبس الذي صنع منه زبيبها ... ".وهو يرى أن " فلسفة " جبران " بدنية في مراميها " (٢)، والى هذا رمى مارون عبود فيما قال من أن جبران اذا أغرق في الصوفية فبرجاء الخلود في حضن المادة ، فقد كان يحب الحياة وملذاتها ، وكان يتحدث عن الروح وهو غارق في جسده ، ثم يقول : " وهذا ما يحملني على التأكيد أن الرجل وثني المعتقد وان كتب عن يسوع ما كتب ، فينيقي عتيق ، يرى في مسيحه شخصية أدونيس " (٣)

ولسنا في حاجة الى الجملة المسرحية الأخيرة التي اعتاد (مارون عبود) أن يذيل بمثلها آراءه (٤)، فلم يكن جبران يرى في المسيح شخصية (أدونيس) وانما هو التفسير البسيط الذي قدمناه لهذه الشخصية التي تصطرع فيها عوامل متناقضة أبعد التناقض. وبتأثير هذا الصراع الذي لا يدعه يستريح الى اتجاه ، عاش في حال يصفها بقوله : " ان نفسي لجائعة ظامئة الى مأكل ومشرب لا أدري أين هما " (٥) وبقوله : اشغالي كثيرة وأحلامي عظيمة ومطامعي هائلة مخيفة تتصاعد الى أعالي السماء ثم تهبط بنفسي الى أعماق الجحيم " (٦)

---

(١) من رسائله الى جميل المعلوف : انظرها في الأديب : ١٩٥١ العدد ٤ ص٥٩

(٢) من مقالات للكاتب المشار اليه بعنوان : (الجوهر الفرد في أدب جبران) . المشرق (السنة ٣٠ ص ٥٢٧ و ٥٢٩و ٦٦٢) ، وانظر في ذلك أيضا مقالة لحبيب جاماتي بعنوان (المرأة في حياة جبران) الهلال : ١٩٤٧ . عدد فبراير ص ٩٧ - ١٠٣

(٣) مجددون ومجترون ٢١٠ و ٢١١

(٤) لمارون عبود حكم آخر في جبران يقول فيه : " ان جبران من رجال الأجيال ، وليس في الأدب العربي من هو أعظم من جبران " . انظر المكشوف (عدد جبران) ص٣

(٥) من رسالة له الى يوسف الحويك سنة ١٩١١ ، انظرها في كتاب (من وجبران) لجميل جبر ص٢٠

(٦) من رسالته الى جميل المعلوف التي أشرنا اليها سابقا.

تلك هي خطوط شخصية جبران التي جعلت منه انسانا فريدا قلقا، يحس بتميزه ويقدر مواهبه، ويثق بها، ويتمرد على القديم بصوره الاجتماعية والأدبية كلها.

(٢)
وميخائيل نعيمة نموذج انسانى آخر، يكاد دارس أدب المهجر يعتقد أن هجرته الى أمريكا تمت كما تم أحيانا أمور تتضح لنا — بعد زمن — معانيها الكبيرة. وأسأل نفسي أحيانا، كيف يمكن أن يكون أدب المهجر لو لم يهاجر نعيمة؟. أيمكن أن تتضح له طريق عريضة واضحة في التجديد كالتي شقها له نعيمة، وركز على جوانبها الصوى المضيئة في (الغربال). ولم استطاع ذلك من دون أعضاء الرابطة جميعا؟

(١)
ولد ميخائيل في (بسكنتا) من أبوين يتمتعان بالاتزان الكامل جسدا
(٢)
وروحا، فقد عاش كلاهما حتى جاوز الثمانين، ونجلا ستة أولاد، كان ميخائيل ثالثهم، وكانا ينعمان بايمان عميق نظيف تقليدى، فهما لا ينقطعان عن الكنيسة وحضور القداسات، ويريدان لأولادهما أن ينشأوا مؤمنين بالله والكنيسة الاثوذكسية... وكانا — بذلك — راضيين قريرين، يسكنان الى ارادة الله وتدبيره، ويحسان بقدسية الروابط التي شدت بين قلبيهما... ويحرصان على سمعة الأسرة وكرامتها.

تلك هي الأسرة التي نشأ فيها ميخائيل نعيمة، فورث عن أبوية جهازا عصبيا متزنا سليما، لا يغلب عاطفة جامحة حتى يشدها بخيط من خيوط العقل، فهو متهيئ للسيطرة على المنطقة الغامضة في أعماقه، حتى ليصلح نعيمة أن يعد نموذجا للانسان الذى تأتلف عاطفته القوية مع عقله القوى، فلا تتحكم فيه الصراعات التي تحكمت في جبران مثلا. وقد أعانه هذا الاتزان على أن يخرج من أزمته النفسية التي عاناها قبيل العشرين وبعدها منتصرا، فقد نهضت لشكوك عقله عاطفة قوية واحساس نافذ بالحياة والحق والخير، فخففت من حدة الشكوك ثم كادت تطفئها مع الزمن.

وقد كان لبسكنتا الجميلة الحالمة على زند صنين الشامخ، أثر كبير في تربية احساسه واذكاء عاطفته وشبوب خياله، فالقرية الكبيرة ذات المياه الغزيرة، غارقة في جنائن التفاح والكمثرى والكرمة وبركات الأرض كلها،
(٣)

---

(١) كانت تضم في أواخر القرن الماضي أربعة آلاف نسمة (لبنان بعد الحرب ٨٥) وهي تعلو (١٣٥٠) مترا عن سطح البحر (الدليل الأخضر ١٨١).

(٢) من حديثه الى بتاريخ ٤/١٢/١٩٥٨ في بيروت وانظر مقالة اسماعيل ادهم الثانية الحديث ١٨/٨٢.

(٣) الدليل الأخضر ١٨١ وأنظر وصفا للقرية بقلم نعيمة في كتابه (سبعون) ٤٢ وما بعدها وانظر مقالة أدهم الثانية. الحديث ١٨/٨١.

وصنين القوى تلمع صخوره الحمر فتؤلف أشكالا غريبة أسطورية ، وفي أسفله الوادي الرهيب الفاغر شدقيه : وادي الجماجم الذي ذكره جبران في احدى مقالاته ٠

وقد ورثت الاسرة مزرعة صغيرة هي (الشخروب) في سفح من سفوح صنين ، واتخذت منها مصيفا لها (١) ، وقد كان ميخائيل — وهو صغير — يحمل زاده بيده ، ويتسلق اليها الجبل ، فما يكاد يصل حتى يقف مبهورا كأنه يطل على الارض من السحاب ، ويشعر " كأنه يذوب ثم يسيل ثم يتبخر ، ثم ينزل قطيرات لا تبصر فوق كل شيء ، ويتغلغل في كل شيء ، في البحر البعيد الملتف بأكفان شفافة من الضباب اللؤلؤي ، وفي الآكام الشحنية هنا ، المتكتلة هنالك ، وكأنها كلها درجات سلم أسفله في البحر وأعلاه على غوارب الجبال الجرداء ، وفي المزارع والقرى المنثورة على التلال والمغمورة بخضرة الارض وفي المروج الزمردية المحضونة بالتلال المرصعة بالبهائم في مراعيها والناس في أعمالهم ، والمرتوية من أفئدة الجبال السائلة ، وفي الاودية والاخاديد وكأنها الجراح الحية في أجسام الجبال ، الشاهدة لها بالصمود في معركتها مع الزمان ، وفي النسيم النشوان ، وفي زرقة السماء واغبرار الارض " (٢) ٠

ثم يعود ميخائيل فيتابع صعوده الى الشخروب ، فاذا وصل بداله الكهف الصخري المؤلف من صفحتين ضخمتين ردت واحدتها على الاخرى ، واستندتا الى صخر آخر من خلف كأنه صومعة النساك (٣) ، وظهرت من بعيد كومة من الصخور تشبه السفينة الصغيرة (الفلك) ، وقد وقفت في بابها صخرة أسطورية عجيبة تشبه رأسا بشريا ممسوخا أبكم ، كأنه ينتظر نبأ يقصه ويحرس باب الفلك/ من أجله ... خيالات عجيبة كان ينطوي عليها عقل ميخائيل الصغير بعد أن يهبط الجبل ويعود الى البيت ...

---

(١) انظر مقالة لنعيمة عن الشخروب : (صوت العالم) ١٤٢ ٠ وانظر وصفا مفصلا له في كتابه (سبعون) [illegible] ٤٤ وما بعدها ٠
(٢) مرداد ٤٢

(٣) انظر وصفا للصومعة في مقالة كتبها (المقيقس) في المكشوف : السنة ١٩٣٦ — عدد ٧٠ ص ٨ بعنوان (ميخائيل نعيمة في صومعته) ٠

وهكذا بدأ خيال نعيمة يرهف ويتسع ، وبدأ عقله ينمو فى هذه الأرض الوادعة الجميلة التى يغمرها السلام والأحلام والشعور العميق بالحقيقة الواحدة التى تعمل من خلالها ، فتسوق الينابيع الى البحر ، ثم تعقدها غيوما فى السماء ، فأمطارا تتغلغل فى الأرض تسقى الكائنات التى تحبل بها أعماقها المباركة •

وكان ميخائيل الصغير يزور الكنيسة ويحضر القداسات وتمتلىء نفسه بوداعة الرب (يسوع) وتضحيته وشهادته • وكان يخلو الى نفسه يفكر فى هذه الحقائق كلها ، ويحملها معه الى المدرسة الروسية التى أسستها فى القرية الجمعية الروسية الفلسطينية ، التى كان ميخائيل يحرص أن يكون فيها مجدا متفوقا على الاقران ،

ولما ذهب الى الناصرة ، أحس أن شيئا كبيرا جدا ينمو فى عقله ، ولكنه لم يتبينه • لقد كانت بداية الأزمة التى ستجتاحه فى عنف أكثر من عشرة أعوام • بدأت تتقابل فى نفسه المرهفة هذه الحقائق البسيطة الواضحة التى لمسها بيديه مع (الحقائق) المعقدة التى تعلمها فى الكنيسة ، وهى الحقائق التى سبقت الى نفسه ونشأ على احترامها فى أسرته • وكان يريد أن يعيش فى هدوء يمكنه من الوصول الى الصفاء الذى عرفه فى خلواته فى بسكنتا ، ويعينه على الوصول الى نفسه (١) ، فاعتزل رفاقه فى الناصرة ، واتخذ الصمت والوحدة خطة له ، الصمت العميق الذى يدوم أحيانا عشرة أيام لا يكلم فيها فردا ولا يرد تحية (٢) • فلما ذهب الى الروسية (بولتافا) كانت الأزمة (٣) قد استحكمت و " نشبت فى داخله حرب لم يشعر بمثلها من قبل " وأصبح له " عدو داخل نفسه " كما يقول •

---

(١) نعيمة يعتبر مفارقة الوحدة ابتعادا عن النفس : انظر (كان ما كان) ص ١١٢

(٢) من حديثه الى فى القاهرة بتاريخ ١٦/١٢/١٩٥٧ وانظر (الجريدة) اللبنانية عدد ٢٦٦ ص ٧

(٣) انظر (مذكرات الأرقش) ٣٢ و ٦٩ • وهذه المذكرات ـ بالاجمال ـ تصور أزمة نعيمة فى صدر شبابه تمثيلا كاملا •

وكانت تستغرقه أرض الروسية ذات الانفساح الصوفي ، الممتدة الى مسافات شاسعة ، فهي تفتح لروحه آمادا لاتحد ، ويفتنه الرجل الروسي الذى " يحتسب على الحياة ولا يقنط منها " ويبث في نفسه الامل(١)...

وكان يصل اليه بين الحين والحين صوت يتجاوب مع صوت الأزمة التى يعيشها، فيبدأ نعيمة بتتبع صداه. ذاك هو صوت الفيلسوف الروسي (تولستوى) الذى ثار بالكنيسة الارثوذكسية ، ورد على قرار الحرمان الذى أصدرته. وكان نعيمة يشعر أن بينه وبين (تولستوى) قرابة كبيرة : فهو ارثوذكس اجتاحته في صباه أزمة(٢) نفسية عجيبة قريبة في معانيها من الازمة التى يعانيها نعيمة في مثل هذه السن ، وقد انتهى الى أن يكون ثائرا على تعاليم الكنيسة ، وعلى الطبقية التى كانت تمزق المجتمع الروسي في عهد القياصرة ، وهو يكره الحروب والعنف ويدعو الى المحبة وعدم مقابلة الشر بالشر ، والى معايشة الأرض في بساطة وتواضع ، والى الكسب بعرق الجبين ، والى معاناة الحياة بشرف والتغلب على الشهوات بالارادة... وهذه كلها حقائق بسيطة عارية وصل اليها ميخائيل القروى في تأملاته وخلواته. ثم قرأ رد تولستوى على قرار المجمع الكنسي بحرمانه من التناول(٣) فوقف عند هذه النقاط.

" أما أنا فانى أعتقد أو أومن بما يأتى : أومن بالله أنه روح ومحبة وأصل كل شىء ، وأومن أيضا أنه في وأنا فيه ، وأومن بأن مشيئة الله موضحة ايضاحا تاما في تعليم الانسان المسيح الذى لا أعتقد به الها ، وأعد الصلاة اليه تهكما عليه(٤) "

---

(١) انظر مقالة (لابن جبير) في المكشوف (السنة ١٩٤١ ـ العدد ٣٢٥ ـ ص١) كتبها بعد مقابلته لنعيمة، وانظر ما قاله نعيمة عن روسية في مقالة ليوسف أبى رزق بعنوان (هكذا تكلم ناسك الشخروب) : المكشوف ـ السنة ١٩٣٩ ـ العدد ٢٠٠ ـ ص٥.

(٢) انظر في حكاية هذه الازمة كتاب (اعترافات تولستوى) ترجمة محمود محمود ، وانظر بصورة خاصة ص ١٦.

(٣) قال نعيمة في مقابلتى له في القاهرة بتاريخ ١٦/١٢/١٩٥٧ : " كان عزائى في فترة الدراسة بروسية (تولستوى) الذى مرت به أزمة نفسية أضاع فيها ايمانه ثم وجده ، ولكنى كنت أعرف أن تولستوى ارستقراطى ، وله قصر ، فكنت أقول لنفسى : ان تولستوى غير صادق ، يعيش في قصره وينادى بالاشتراكية والحياة مع الطبيعة وبمعرفة الانسان لنفسه ، فلما قرأت في الصحف أنه هجر قصره وبيته فرحت كثيرا ، وقلت : هناك اذاً رجل يحقق ذاته بالعزيمة ، فهو صادق ، وكان هذا اليوم مشهودا عندى... انظر كذلك (سبعون) ٢٦٩ وما بعدها. وانظر الجريدة اللبنانية العدد ٢٢٦ ص ٧.

(٤) من رد تولستوى على قرار المجمع الكنسى ، ترجم هذا الرد (سليم قبعين) ونشره في كتابه (مذهب تولستوى) انظر ص ٧١.

" ان زيادة المحبة تقود كل انسان بمفرده في هذه الحياة الى سعادة عظمى ، ويكون مقدار السعادة التي ينالها في الحياة الأخرى بقدر المحبة التي تكون فيه ، وبواسطة هذه المحبة ينتشر ويسود ملكوت الله على الأرض ،وبذلك تتبدل حالة معيشة الناس الحالية ، المبنية على الفساد والنفاق والبغض والنميمة والخداع . وأعتقد بأنه توجد وسيلة واحدة لانتشار هذه المحبة ، وهي الصلاة ، ولا أعني بها الصلاة العامة في الكنائس التي حرمها المسيح نفسه، بل الصلاة التي أرانا مثالها المسيح ، وهي صلاة الانفراد التي تكون بتوجيه كل الافكار نحو العزة الالهية ، وحصرها لتتميم ارادة الحق " (١) .

" ان تعاليم الكنيسة ما هي الا كذب ظاهر مضر ، وعقائدها ما هي الا مجموعة خرافات خشنة وسخر محكم الوضع ، قد أخفى اخفاء تاما جوهر التعليم المسيحي " (٢) .

" وانني أنكر التثليث المبهم ، ومعنى سقوط الانسان الأول ، وتاريخ الاله المولود من عذراء لافتداء الجنس البشري من الخطيئة ، وانني أعترف بأن الله واحد وهو روح ومحبة وأصل كل شيء .. " (٣)

" نعم انني لا أعتقد اعتقادهم بالحياة الأخرى التي ينتظرونها بالمجيء الثاني ، وانما أعتقد بحياة أبدية ، وثواب هنا وفي كل مكان ، الآن وفي كل أوان ، وأتمسك بهذا الاعتقاد تمسكا زائدا .. " (٤)

" لا أستطيع أن أرجع الى ذلك المعتقد الذي تخلصت منه بعد تلك العذابات الشديدة ، كما أن الطير لا يستطيع أن يرجع الى قشرة البيضة التي خرج منها " (٥)

" وللآن ، أرى هذا الحق مطابقا للديانة المسيحية كما أفهمها أنا ، ولذلك أومن بهذه الديانة المسيحية الحقيقية ، فأعيش بسرور وراحة ، وبهناء وهدوء أدنو من الموت ... " (٦)

---

(١) من رد تولستوي على قرار المجمع الكنسي ص ٧١ — ٧٢
(٢) المصدر السابق ٦٨
(٣) " " ٦٩ — ٧٠ (٤) المصدر السابق ٧٠
(٥) " " ٧٢ (٦) " " ٧٣

لقد كانت هذه الفقرات نقطا من النور أضاءت نفس ميخائيل كلها ، فبدأ يتبين طريقه ، ولكن أسئلة أخرى مرة مازالت قائمة فى نفسه تعذبه : وما معنى الخير والشر ؟ وما معنى الحياة والموت ؟ واذا لم تكن هناك حياة أخرى ، فكيف يلقى المسيء جزاءه والمحسن ثوابه ؟

وفى هذه الغمرات ، بدأ ميخائيل يقرأ الأدب الروسى بلغته الأصلية التى أجادها حتى نظم بها الشعر وأثار دهشة الروس أنفسهم (١). قرأ (تولستوى) العزيز فى (الحرب والسلام) و (أنا كارنينا) فأعجب بهما اعجابا شديدا ، ثم قرأ (دستويفسكى) و (غوركى) (٢) فاذا دنيا كاملة بأشخاصها وأحداثها وانفعالاتها ومشكلاتها تتفتح أمامه .... دنيا كلها صدق واخلاص والتصاق بمشكلات الانسان الأساسية ، وتعبير عن شكوكه وآماله . ثم قرأ (جوجول) فى قصصه الواقعى ، وتصويره الصادق للريف الروسى ، وقرأ (بيلنسكى) الناقد الذى يدعو الى الواقعية والصدق فى الانتاج . وأدرك ميخائيل فى وضوح ، أن ما يقرؤه فى العربية عبث وبهلوانيات لغوية كاذبة ، وأن مرحلة بعيدة من التخلف والجمود الصارخ تفصل بين أدبنا ، وهذا الأدب الحى النابض بالصدق والاخلاص وروعة الحياة . وأحس نعيمة أنه يستطيع أن يقول كلمة واضحة المقاطع فى هذه السبيل ، لقد اختمرت فى نفسه ثقافة أدبية ممتازة كونها اطلاع نهم على أدب من أغنى الآداب العالمية . فلما ارتوى شيئا أخذ يفتش عن كنوز أخرى ، فقرأ بالروسية أعلام الأدبين الانجليزى والفرنسى ، وعرف (شكسبير) و (ديكنز) و (بلزاك) و (موبسان) .... وبذلك استقام حسه الفنى وذوقه ، وتشعبت ثقافته الأدبية ، وبذلك — أيضا — تكون لنعيمة رأى أصيل واضح فى الأدب ، ورأى آخر أصيل يقترب من الوضوح فى الحياة والدين والنفس ، قبل أن يهاجر الى الولايات المتحدة ....

---

(١) من حديثه الى فى القاهرة بتاريخ ١٩٥٧/١٢/١٦ . وانظر (سبعون) ١٨٧ ، ٢٤٢ ومواضع أخرى .

(٢) كتب الى الأستاذ نعيمة بأسماء أبرز الأدباء الروس الذين تأثر بهم ، وبأسماء غيرهم من الأدباء ، وعين الأعمال الأدبية التى شغل بها فى فترة تكوينه الروحى والفكرى ، فأنا أعتمد ذلك هنا .

(٣) انظر فى هذا (سبعون) ١ ٢٣١ .

وفى جامعة واشنطن ، اتصل بمذهب التقمص (Métamorphose)
عن طريق زميله الاسكتلندى الذى يساكنه غرفته — وكان عضوا فى جمعية تقول بالتقمص ، استهاا /امرأة روسية هناك — ويقول نعيمة : ان اتصاله بهذا الزميل هو نقطة تحول ضخمة فى حياته (١) ، فقد أحس أن آخر حجاب يرتفع عن عينيه ، وأجابت هذه العقيدة عن الأسئلة الكثيرة التى كانت ما برحت تجول فى نفسه ، لقد استطاع أن يصل الى جزاء الخير والشر فى الحياة ، والى (مسئولية) الانسان ، دون أن يضطر الى الايمان بحياة أخرى فوق هذه الحياة ، ولقيت الثنائية التى كانت تعذب نفسه حدا تقف عنده . وبدأت (وحدة الوجود) Panthéisme (٢) التى كان يحسها احساسا غامضا فى طفولته فى بسكنتا تتضح وتضىء معانى الأحداث والناس والحياة من حوله . وكان نعيمة وجد الملجأ الأمين الذى يعصمه من الشكوك الموجعة والأسئلة المرة ، فاعتصم به وبدأ يفسر دقائق الحياة وصغار أحداثها ومظاهرها على ضوء هذه العقيدة الشاملة . لقد استطاع أخيرا أن يلقى على نار العقل ماء العاطفة والاستجابة الداخلية الصفوية البسيطة لعدالة الحياة وجمالها ، دون أن يفقد هذا العقل حدته ويقظته (٣) .

وفى هذا الطور بدأ اتصاله بالرابطة القلمية وأعضائها ، وبدأ انتاجه الأدبى . وكانت سنة يومذاك حوالى السابعة والعشرين ، وكان جبران الذى يكبره بست سنوات قد أصدر كتبه الثلاثة الأولى : الموسيقا وعرائس المروج ، والأرواح المتمردة ، وكتب مقالات كثيرة فى (المهاجر) و(الفنون) و (السائح) .

وكان من المحتم أن يحس (نعيمة) بذاتية جبران المتميزة ، وشخصيته القوية الطاغية ، وأن يلمس بيده الملهمة مظاهر المخيلة المشتعلة ، فيسلم

---

(١) اضطربت اجابة الاستاذ نعيمة حول تحديد نقطة التحول والاستقرار ، ويبدو أنه صحب رواسب هذه الأزمة معه الى لبنان سنة ١٩٣٢ ، (مقابلة/نتائج المقابلتين : فى القاهرة بتاريخ ١٦/١٢/١٩٥٧ ، وبيروت بتاريخ ٤/١٢/١٩٥٨) .

(٢) من حديثه الى فى القاهرة بتاريخ ١٦/١٢/١٩٥٧ ، وانظر (مذكرات الأرقش) فهى تمثل حال نعيمة النفسية والفكرية فى هذه المرحلة ، وفيها ايمان عميق بالتقمص .

(٣) انظر الاباء والبنون (ط نيويورك) ص ٢٢ . وقد كتبها فى هذه الفترة .

اليه قياد الرابطة ، ويقنع بأمانة السر . وكان موضع (نعيمة) الأصيل هو التوجيه ، والنقد الذى ترفده ثقافة فنية غزيرة مهضومة ، وهو الموضع الذى شغله فى السنين الأولى من حياته الأدبية ، ثم غادره — للأسف — الى غير رجعة ، وبقى الموضع شاغرا حتى انفرط عقد الرابطة .

ومن غير الطبيعى أن تجتمع موهبتان ممتازتان فى شخصيتين قويتين ، دون أن تدور بينهما معركة خفية قد لايحسانها أبدا ، وقد يتجاهلانها ، ولكنها معركة واقعة يجب أن تنتهى الى نتائجها المحتمة ... وقد انتهت بانتصار جبران ، وتسليم القياد اليه .

كان نعيمة يحس بتفوقه فى الثقافة والجنى الفكرى ، ولكنه كان يضطر الى الاعتراف — بينه وبين نفسه — بتفوق جبران فى ميدان الابتكار والابداع ونشاط المخيلة (١) .

وكان جبران يجول وحده فى ميدان آخر وهو (الرسم) ، وكان فيه متقدما معترفا له فى بلاد تحترم هذه الموهبة وتقدرها قدرها ، وقد درس هذا الفن — كما رأينا — فى باريس. وكان جبران شديد الاعتماد على موهبته هذه فى أن تعينه على استنفاد طاقته من الاحساس ، وتأدية فكرته الدقيقة ، وهو كثيرا ما كان يجمع الخطوط الى الحروف ليجلو هذه الفكرة ، ويستنفد هذا الاحساس .

وأدرك نعيمة — كما أدرك الريحانى من قبل — أنه لاقبل له بخوض هذا الميدان ، ولكنه — فى بعض الفترات — أحس دبيبا فى أعصابه ، فأمسك

---

(١) فى مقالة نشرها السيد (حليم كنعان) فى المكشوف (١٩٣٩ عدد ١٩٤ ص١٢و١٥) حاول أن يجرد نعيمة تجريدا تاما من قدرته على الابداع فقال : " أن الحياة التى جمعت بين نعيمة وجبران فى مكان وزمان واحد ، جعلت بينهما هوة أعمق من هوة قاديشا ، وأصحب . كان جبران عبقريا مجنونا لا يؤمن بمقاييس البشر ، وكان نعيمة فى هدوئه واتزان عقله أقرب الى التاجر : يزن ويقيس ". وهذا غلو ساق الكاتب اليه ، رغبته الجامحة فى تفضيل جبران. وسنجد الرد عليه فى موضعه من فصول هذه الرسالة .

بالقلم وحاول ... وجمع بعض الرسوم والخطوط وعرضها على جبران زاعما أن أخا له أرسل بها اليه . ويقول نعيمة : ان جبران أخذ يقلبها وقد بدت على سماته دلائل الاعجاب ثم قال لنعيمة بالانجليزية : ان صاحب الرسوم يتمتع بموهبة كبيرة ، وانه قادر على أن يصنع منه (ميكال آنج) .... وأقسم جبران على ذلك بالله (١) ...

وأخيرا نشر نعيمة بعض رسومه الى جانب شعره ، كما فعل جبران فى (المواكب) ، ويبدو أن بعض الادباء فى أمريكا الجنوبية كانوا يعرفون بعض خفايا الطريق ، فكتبوا - فى حينه - يعرضون برسومه فى (همس الجفون) فأجابهم : " أما الرسم فما مارسته ولا أمارسه ، ولا ادعيت يوما أننى من أربابه ، والرسوم الثلاثة المنشورة فى همس الجفون ، صنعتها من زمان فى فترة تسلية وتفكهة .. " (٢)

وقد كان فى استطاعة نعيمة أن يحارب فى ميدانه الخاص ، وأن يغزو ميدان جبران ، ولكنه - لثقته بنفسه ومواهبه - خلى مكانه فى التوجيه والنقد ، بعد فترة قصيرة ، واقتحم الميدان الجديد ، ميدان الابداع .

وقد استطاع - بفضل مواهبه الكبيرة - أن يصيب فيه نجاحا ، كبيرا جدا بلغ فى بعضه مستوى يغبطه عليه جبران لاشك .

وانه لمن المحزن - بعد ذلك - حقا أن يبلغ التحامل على نعيمة حدا . يقلل من شأن هذا النجاح ، فيقول أحد الكتاب : ان نعيمة وجبران لم يكونا رفيقين الا بمعنى الزمالة والمكاتبة ، أما بمعنى التفاعل الفكرى فلا " اذ بينما كان جبران يحلق فى السماء بين نسرين من قشاعم النسور (نيتشة) و (بليك)

---

(١) من حديثه الى فى بيروت بتاريخ ١٩٥٨/١٢/٤

(٢) من رسالة لنعيمة الى (حبيب مسعود) رئيس تحرير مجلة العصبة البرازيلية ، انظرها فى (العصبة) ١٩٥٣ / العددان ٢ ، ٣ / ص ٢٠٧ . والتعريض نجده فى (ما أجملك يا لبنان) ٢٠٩ .

كان نعيمة يحمل (غربالـه) ويلتقط "(١) .

على أن نعيمة استطاع أن يحقق انتصاراكبيرا آخر على نفسه ، بفضل سيطرته على خطوط أزمته النفسية ونجاته/ — نسبيا — من الصراع بين (المثال) و (الواقع) أو بين (الروح) و (الجسد)، وهو الصراع الذى عاش جبران جمراته طول حياته . فقد قدر أن يمسك بحبال (المثال) أو (الروح) ، وأدرك أن زلة بسيطة كفيلة أن تهدد توازنه الفكرى والنفسى حياته بطولها ، فكاد يتملص — فى سبيل سلام نفسه — من القيود التى تشده الى الأرض جميعا(٢) ، حتى اذا عاد الى الوطن سنة ١٩٣١ طلق حياة الناس ، واعتزلهم فى قريته الجميلة فى بيته الوديع ذى النوافذ المريضة التى لا تفصله عن الشمس والهواء ، كأنه يريد أن يغسل روحه من أدران المدنيات الكثيرة التى عاشها فى أوطانها(٣) . وهو يقضى ساعات التأمل والتفكير وبعض ساعات الكتابة فى (شخروب) الطفولة ، ويعمل فى الأرض بيده ، ويسوق البقرة الى المرعى ، ويحلبها ، ويشارك فى الحصاد ، ويتفقد أغراس الفاكهة(٤) . وقد اتخذ لنفسه سنة ١٩٣٨ غزالة يربيها ويطعمها بيده(٥) .. كأنه (تولستوى) عاد من جديد الى الأرض .

وهذا — فى اعتقادنا — تفسير ما نفتقد فى أدبه من أثر (المرأة الأنثى) والحب المروى بالاتصال ، وما نجده فيه من آثار (المرأة الروح) والحب الظمآن . وفى مذكرات الأرقش ، وفى بعض قصائد شعره ، وفى قصة (لقاء)

(١) من مقالة لحلم كنعان بعنوان : (العناصر التى تغذت منها نفس جبران : بشرى أم نيتشة أم بلاك أم نعيمة) المكشوف : السنة ١٩٣٩ العدد ١٩٤ ص ١٢

(٢) أنظر ما جاء فى سيرته الذاتية (سبعون) عن علاقاته العاطفية فى (بولتافا) — مواضع متفرقة . (اقرأ ١٩٢ — ٩٢ بخاصة) . وانظر ما يقوله اسماعيل ادهم عن كبت (غريزة الجنس) عند نعيمة (الحديث : السنة ١٩٤٤ ص ٨٥ — ٨٦)

(٣) من حديثه الى فى بيروت بتاريخ ١٩٥٨/١٢/٤ . وانظر مقالته (لماذا اعتزلت الناس) صوت العالم ١٤١ .

(٤) انظر فى ذلك مقالة لابراهيم جلال الدين فى الثقافة : (السنة ١٩٤٠ — العدد ٦٤ ص ٢٥ ، ٢٦) .

(٥) انظر مقالة ليوسف أبى رزق فى المكشوف (١٩٣٩ — العدد ٢٠١ ، ص٧)

خير دليل على ما نقول ، فقد هرب الأرقش من زوجه لأنه لم يطق شوك الارتباط بالأرض ، وشرد (ليوناردو) نفسه لأن نوازع جسده أفسدت حبه ، وقد كان نعيمة لمن يسميها (M. D. B.) وهي التي رفع اليها قصيدته في ديوانه (١) - كان لها سرا وصبحا ودمصا ومهدا وحملا وقمرا وشكوى وقبسا .... وكل شيء ، ولكنه لم يكن لها رجلا ...

وقد سألت الأستاذ نعيمة (٢) أن يدلني على أثر المرأة في أدبه ، فصمت قليلا ، ثم قال : " ستراها في شعري لا في نثري ، اني لاتحرج أن أضع في نثري شيئا من هذا .. " وأردف : " ما أكثر ما يسألني الناس عن المرأة في أدبي ، أهم قصيرو النظر لا يقرؤون كتبي ؟ ان من يقرأ كتبي يمكنه أن يقع على رأيي في المرأة ، انني أفلسف العاطفة ، عقلي يتغلب على عاطفتي ، والعاطفة التي لا يحكمها العقل عندي - عاطفة لا قيمة لها .. " وقرأت عليه بعد ذلك ما جاء في (مذكرات الأرقش) (٣) عن الحب والزواج : " ..... فكرت في الناس كيف ينتهي بهم الحب الى الزواج ، فيموت حبهم ويموتون ، ان الزواج لمقبرة الحب ، الحب يسمو بالمحب الى أعلى ، والزواج يشده به الى أسفل ، الحب يلتهم المحب فينشره شعاعا في الفضاء ، والزواج يسحق المحب فينثره هباء في الهواء ، الحب ذوبان فتبخر فانعتاق ، والزواج تجمد فتصدع فانشقاق ... كيف يرضى الحب وهو شعلة من نار ، أن يصبح بالزواج كومة من رماد .. ؟ (٤) " ، وسألته : أفما يزال رأيك هذا في الحب والزواج . فأجاب : نعم ، ولكني لا أفرضه على أحد ، من شعر بحاجة الى الزواج فليتزوج . " . وأعدت عليه السؤال في بيروت فابتسم وقال : " وماذا يهم الناس من أمر حياتي الخاصة ؟ وما علاقة الناس بفتاة أحببتها ؟ (٥) يكفي أن يعلموا أنني رجل كامل الرجولة بحمد الله ! "

وما نظن أن الأستاذ نعيمة كان يجهل أننا اذ نسأله عن أثر المرأة في أدبه فانما نسأله أن يدلنا على آثار أعمق ارتباطات الانسان بالأرض ، وهي المرأة . ومهما يكن فقد تمسك نعيمة بالانتصار الذي أحرزه على جسده وعلى المادة ، وبقي ملتزما جانب (المثال) أو (الروح) ، وقد

---

(١) همس الجفون ١٠٢

(٢) في القاهرة بتاريخ ١٧/١٢/١٩٥٧ .

(٣) في جلستنا بالقاهرة ، بتاريخ ١٨/١٢/١٩٥٧

(٤) مذكرات الأرقش ٧٣

(٥) الفن نعيمة كلامه هذا الفاء محزنا حين أصدر كتابه (سبعون) وحدث فيه عن علاقاته الخاصة بالمرأة ، في تفصيل جرئ مدهش .

جنـد موهبتـه الكبيرة (لتكريسعر) هـذا النصـر ، وظـل يجول في هذه الدائـرة حتى استنفـد قواه ، واستعـان على ذلك بما وعـى من فلسفات الشرق وأديانـه : بالبوذيـة والطاويـة ثم بتفسيره الخاص لآيـات التوراة والانجيـل .

هذه هي النتـائج التى انتهيـت اليهـا بعد أن قرأت نعيمة ، علـى أن الـذى يقابـل هذا الانسـان الكبـير لابـد له أن يضيـف الى ذلك بعض الحقائـق الأخـرى التى لاتجرح هذه النتـائج ولكنهـا تقـف الى جانبهـا ، فنعيمة انمـا يبشـر بالعقيـدة التى أجابـت عن أسئلـته وشكوكـه ، ويبشـر بالانسان الالـه ، ولكنـه لم يزعـم يوما أنه نجح في أن يعيـش هذه العقيـدة نصـا وروحـا ، فمـا زالت له جـذور في الأرض ، يحـاول أن يجتثهـا بنفسـه ليكون المثـال الصـالـح لعقيدته (١) ، فمن الظلم أن نتهمـه بأنه يعيـش حياتين : حيـاة لقرائـه وحيـاة لنفسـه ، وأن ندرس أدبـه على ضـوء هذا الاتهام فلا نجد فيـه الا دخولا علـى النـاس من بـاب جديـد ليروج ويأخـذ لـه مكانا في المكتبـة العربيـة ..

لقـد رضـى نعيمـة بتفسـير خاص للحيـاة جعلـه ينجو بنفسـه من كثـير من مغريانهـا ومشكلاتهـا ، ولكنـه لم يهيـأ له أن يحقق (مثالـه) العظيم المعجز على نحو ما يصـور له خيـاله ، وهذا كل شـىء يمكـن أن يقـال ، فليست الصعوبـة أن يقـول الانسـان ما يعتقـد وانما الصعوبـة أن يعمـل بما يعتقـد .... وتلـك مرتبـة الانبيـاء (٢) ..

---

(١) انظر مقالة لعبد الله غانم في المكشـوف (١٩٤٠ ـ العدد ٢٣٦ ـ ص ٣) بعنوان (سهرة عنـد ميخائيـل نعيمـة) فقد نقل عن نعيمة قوله في حديثه عـن التلاعب بمياه صنين : " سأدافع عن نفسي بكل قوتي ... أنا أجوب الانعتاق ، ولكني أقلع جذوري واحدا واحدا بيدى وحين أريد ، أنا لا أعرف مستقبلي ، فربما حملت صحنـي ودرت مستعطيا على الأبواب ، لكن هناك أيضا شروشا تربطني ، فلا أريد أن يقتلعها الناس بالرغم مني ، فأنا سأدافع جهدى لتبقى منغرزة في التراب الى أن يحين وقت قلعها ، فأقلعها بيدى .. "

(٢) يقول مارون عبود في كتابه (مجددون ومجترون) ص ٢٠٥ بعد أن أشار الى ايمان المهجريين بوحدة الوجود وتمسكهم بالمذاهب الصوفية : " أما عمليا فنصلى الوروار نارا حامية اذا حام على خلية نحلنا ، ونقتل البقرة والعنزة والحمارة اذا اغتالت ورقة من أغصان جنيناتنا . ان الفلسفة التى لايعمل بها صاحبها ، قبل غيره ، لا تعيش .. " وواضح أن مارون يشير الى (نعيمة) ذاته ، لأنه أبرز كتاب المهجر تعلقا بهذه المذاهب ، وهو وحده الذى عاد الى لبنـان فأتيح لمارون عبود أن يخبر حيـاته العملية عن قرب . انظر ما قاله في نعيمة أيضا في ص ٢١٧ من الكتـاب .

(٣)

وقد يكون نسيب عريضة من أقرب أدباء الرابطة الآخرين فكرا وروحا الى جبران ونعيمة . وهو شاعر قبل أن يكون ناثرا ، وفي شعره ذاتية ضخمة ولدها صراع عميق كابده من طول الطريق التي قطعها ليصل الى نفسه (١) .
أبواه أرثوذكسيان (٢) ، والارثوذكس في سورية عرب من أصلاب الغساسنة (٣) ، وهم أقل انغلاقا على أنفسهم من الكاثوليك ، وأقرب الى الأخذ بالثقافة العربية والاستفادة منها . ويبدو أن أفراد الأسرة لا يمتازون بالتعمير ، فقد ماتت أخته في حمص ، ومات أخوه في نيويورك ، في سنة واحدة عن عمر ليس بالطويل . وماتت أمه قبل أن ينهي مرحلة دراسته الأولى في حمص ، ثم مات هو بضعف القلب والكبد ولم يجاوز الستين الا قليلا (٤) ، وهذا يعني أنه لم يرث بنية قوية تقف للأحداث التي قدر له أن يقابلها .

ومهما يكن فقد عرف منذ الصغر باللين والخجل والهدوء وبالحساسية المفرطة (٥) والاحساس الرومانسي الكئيب المتشائم . وكان يعاني الشعور " بالحيرة في أعماق الروح " (٦) فيلجأ الى الطبيعة سارحا في (المزرعة الجديدة) و (الميماس) و (الدوير) من متنزهات حمص ، وقد يقوده احساسه بالكآبة الى الأماكن الأثرية والأطلال ، فيزور (قبر الصحبي) في الدوير ، ويخشع لغروب الشمس (٧) ..

---

(١) انظر ميخائيل نعيمة ـ الغربال ـ نقد (الأرواح الحائرة) .

(٢) كانت لأبيه بمصر أنوال للنسيج في حمص ، وهي صناعة مال اليها المسيحيون في مدن سورية الداخلية لأنه " لم يمكن لهم معاطاة الاشغال التجارية والفلاحة " انظر حسر اللثام ٤٤ .

(٣) مصطفى الشهابي ـ محاضرات في الاستعمار ـ ٢/ ٩ ، وانظر لبنان بعد الحرب ٦٠

(٤) نقولا عريضة ، من مقالة له بعنوان: (أخي نسيب) في مجلة القلم الجديد (١٩٥٣ العدد ٨ ص ٥) وانظر رسالة أرسلها نعيمة الى عيسى الناعوري في العدد نفسه من المجلة ص ٢٥ ـ ٢٦

(٥) عبد المسيح حداد ـ مقالة بعنوان : نسيب عريضة الشاعر الناثر ـ مجلة الصداقة ٢٦ مارس سنة ١٩٥٣ . وانظر عدد السائح الممتاز لسنة ١٩٢٧ ص ٥

(٦) نقولا عريضة ـ مقالته المشار اليها ـ في القلم الجديد ص ٥

(٧) من مقالة نقولا عريضة (أخي نسيب) المشار اليها

درس في المدارس الروسية الأرثوذكسية في حمص والناصرة ، وكان كثير المطالعة لايكاد الكتاب يفارق يده (١) . وقد أفاد ـ الى حد ما ـ من الروسية فأغنى ثقافته الشعرية ، على أنه لم يهمل الاطلاع على الأدب العربي والثقافة العربية ، فقد هيأته أحوال حياته للارتباط القوي بهما ، فلما هاجر الى نيويورك في الثامنة عشرة من عمره ، لم ينقطع عن المطالعة والدرس فكان يسهر لهما الليل (٢) ، ويكثر من التردد على القسم الشرقي من مكتبة نيويورك العمومية يقرأ أعلام الشعراء والكتاب العرب حتى سماه زملاؤه (دائرة المعارف العربية (٣)) . وكان نسيب يزودهم في السهرات بأخبار العرب وأحداث تاريخهم وقصصهم وينشدهم من شعرهم (٤) . ورجعة صغيرة الى مجلته (الفنون) التي أصدرها سنة ١٩١٣ تكفي للتدليل على سعة اطلاعه على الثقافة العربية ، فقد كان ينقل فيها نماذج من أمهات الكتب القديمة ، ونبذا من تاريخ أبطال العرب كالمعتمد بن عباد وغيره ، ويعود في ذلك الى أوسع المصادر القديمة (٥) ولقد اختار مثلا موضوع الحب عند العرب ، فنقل عن أخبار النساء وتزيين الأسواق والموشى والعقد الفريد والأغاني والكشكول ونفح الطيب ...

وقد مرت في حياته أحداث خلفت في روحه جراحا عميقة "فكره الحياة" (٦) وغزرت الدموع في عينيه حتى امتلأ ديوانه بها ، ولم يسعفه ايمان قوي يشد من روحه فقد كان يمزقه الشك :

حياة شك وموت شك   فلنغمر الشك بالمدام (٧)

وقد رافقته هذه الزعزعة الروحية منذ كان طالبا في الناصرة ، موطن المسيح ، فقد كان يكثر من تقليب الانجيل وقراءة سيرة المسيح (٨) .

---

(١) من مقالة نقولا عريضة (أخي نسيب) المشار اليها سابقا في مجلة القلم الجديد ، وانظر رسالة نسيمة الى عيسى الناعوري المشار اليها في مجلة القلم الجديد أيضا .

(٢) عبد المسيح حداد مقالته المشار اليها في (الصداقة) .

(٣) من حديث الاستاذ نسيمة الى ببيروت بتاريخ ١٩٥٨/١٢/٥ وانظر رسالة نسيمة الى عيسى الناعوري التي أشير اليها سابقا .

(٤) عبد المسيح حداد ـ مقالته المشار اليها في الصداقة .

(٥) من حديث الاستاذ نسيمة الى ببيروت بتاريخ ١٩٥٨/١٢/٥

(٦) نقولا عريضة : مقالته المشار اليها في (القلم الجديد)

(٧) من قصيدته (رباعيات) : الأرواح الحائرة ٨٣ وانظر أيضا قصيدته (موكب الفؤاد) في الديوان ١٦٦

(٨) مقالة نقولا عريضة المشار اليها سابقا .

وكان يطمح أن يقدم شيئا للأدب العربي الحديث ، فأنشأ أول مطبعة فنية عربية في المهجر (الاتلانيك)(١) صدرت عنها مجلة (الفنون) في نيويورك " لتفتح لها طريقا جديدا بين خرابات العالم الأدبي العربي ،"(٢) وعلق عليها آمالا كبيرة ، فزينها باللوحات المختارة لأشهر الرسامين ، واعتنى باخراجها وتحريرها ، وحرص على أن تكون " معرضا للفنون والأدب ، تنشر المنتخب من أدب الافرنج والمصرب"(٣) فبدت من أرقى المجلات العربية حتى " ليمكن مقابلتها بأرقى المجلات الافرنجية من نوعها ."(٤) وقد أنفق في ذلك ما جمع من مال وما كان يأتيه من مال الأهل بسورية .(٥) ولكن خابت آماله كلها ، على الرغم من مساندة جبران ونعيمة وغيرهما له . وقد قبل نعيمة في احدى الفترات أن يكون مديرا ومساعدا في التحرير سنة ١٩١٨(٦) ، ولكن المشتركين ماطلوا في تسديد الاشتراكات(٧) ، واضطرت المجلة أخيرا للتوقف بعد أن صدر منها عشرة أعداد(٨) ، فازدادت وحشة (نسيب) ، وضاق بالحياة في المهجر . ولم يرزق/أطفالا يخففون من وحشته(٩) ـ الى جانب هذا ـ ، فأخذ يغني تجاربة الخائبة غناء حزينا يقطع القلب . وكتب الى نعيمة يقول : " لقد خسرت معركتي وسقطت آمالي حولي "(١٠) . وقد تظاهرت الوحشة مع الشك مع الكآبة الموروثة ، فكاد يطفر نسيب حنينا الى حمص وطبيعتها الجميلة وعاصيها ومتنزهاتها(١١) .

---

(١) وديع ديب : مقالة بعنوان (نسيب عريضة) ـ الأديب : السنة ١٩٤٦ العدد ٧ ، ص ٧٩ ـ ٧٥ .

(٢) من رسالة أرسلها نسيب الى ميخائيل نعيمة : انظر رسالة نعيمة الى عيسى الناعوري المشار اليها في (القلم الجديد) .

(٣) كذلك كان نسيب يقدمها في الصفحة الأولى : انظر أي عدد من أعداد الفنون .

(٤) شهادة جورجي زيدان في (الفنون) : تاريخ آداب اللغة العربية ٤/ ٦٤ .

(٥) عبد المسيح حداد : مقالته المشار اليها في (الصداقة)

(٦) انظر الصفحة الأولى من العدد السادس (السنة الثالثة) لمجلة (الفنون)

(٧) نقولا عريضة : مقالته المشار اليها في القلم الجديد ص٥

(٨) ميخائيل نعيمة : رسالته المشار اليها الى عيسى الناعوري في القلم الجديد ص٢٥

(٩) المصدر السابق ص ٢٥

(١٠) " " " ٢٥

(١١) سيبدو أثر الحنين واضحا في نثره ، وانظر في شعره قصيدة : غادة العاصي ص٢٥٧ و (أم الحجار السود) ص٢٥٢ من ديوانه (الارواح الحائرة) .

وهكذا تميزت هذه الشخصية القلقة من شخصيات أعضاء الرابطة القلمية بثلاث ميزات : الأولى هي اطلاعه على الثقافة العربية اطلاعا حسنا مكنه من الاستفادة منها، ورجوعه الدائم الى الأدب العربي ـ شعره ونثره حتى استقام له أسلوب في النظم والنثر ذو طابع عربي صريح موغل أحيانا .

والثانية : الحيرة الدائمة والشك ، والصوفية الرقيقة التي تكاد تصل الى محجتها ولكنها تتراجع عنها في اللحظات الأخيرة . فهو لم يستطع أن يستغرق في النوم على زند جبران ونعيمة، ولم يستطع أن يصل بنفسه (١) . وقد ظاهر هذه الحيرة احساس عميق نافذ ذو صبغة رومانسية كئيبة ، وحوادث مفجعة ثقيلة :

أليس الممات غروبا يليه ... شروق أليس الحياة أصيلا
أم الموت خاتمة لا يليها ... ابتداء ، ولا تستعيد الفصولا
أخي اهدني أنت لا شك تدري ... أمورا تحير عقلي الكليلا
أخي اهدني انني في ضلال ... أساور فيه الأسى والذهولا (٢)

ثم لا يلبث أن يقول في مكان آخر :

لا يأس ، ليس الحياة الا ... مرحلة بدؤها ختام (٣)

وقد حبب اليه الهرب الى ما وراء الحس :

والحلم أفضل يقظة ... لا توقظوني من منامي (٤)

---

(١) سيبدو أثر ذلك في بعض نثره ، وانظر في شعره قصيدة : (الى نفسي) ص ١٠٤ وقصيدة (أيا نجمة) ص ١٠٧ وقصيدة (على طريق ارم) ص ١٧٧ ـ ١٩٧

(٢) انظر الأرواح الحائرة ص ١٢٢ وانظر كذلك قصيدته (أمام الغروب) ص ١٦١ ـ ١٦٣ وقصيدته (مركب الفؤاد) ص ١٦٦ ـ ١٦٧

(٣) من قصيدة بعنوان (رباعيات) ص ٨٣ ـ ٨٥ ، وانظر قصيدته (على الطريق) ص ٦٠

(٤) من قصيدة : (قل للعواذل) ص ٢٢٦ . وانظر قصيدة (لست أدري) ص ٢٢٨

وماتت نفسه قبل أن يموت :

كأن في داخلي قبرا بوحشته ... دفنت كل بشاشاتي وايناسي (١)

وأضاع معاني الحياة كلها :

لماذا نحس لماذا نحب ... لماذا نعيش بلا طائلة

لماذا التناسل والنسل يدري ... بأن الحياة له قاتلة

أكيما تزيد المقابر رمسا ... ونصغي الى رنة الثاكلة

حتى يقول :

لعمري وعمرك هذي أمور ... تحير ذا حجة عادلة

ومن راح يطلب تفسيرها ... سيضنك قوته العاقلة

فصمتا أيا من يلوم الزمان ... ويشكو أثانينه الهائلة

فان الحياة لاقصر من أن ... تحل بها عقدة شاغلة (٢)

ثم لا يجد غير أن يعود الى الطبيعة ، يغرق في سكونها آلامه ويطيب بحنوها جراحه ، فتفتح له الطبيعة صدرها وتهديه جمالاتها ، فيرى نسيب طرقها الضاحكة وصخرها الجميل وهوامها الطائر :

والطرق تضحك حينما ... يجتاز أعمى ذو بصر

لا يبصر الحسن المخبأ ... في الهوام وفي الحجر (٣)

ويحس بحاجته الى العون فيفتح قلبه للناس ، في شعور بالاخوة الانسانية العميقة :

فأجبني بيا أخي يا صديقي ... وأعد انها ألذ مقالة (٤)

---

(١) من قصيدة : (علقت عودي) ص ١٣٨ — ١٣٩

(٢) من قصيدة (لماذا) ص٤٥ وانظر كذلك قصيدته المشهورة (أنا في الحضيض) ص٧٢ — ٧٣

(٣) الأرواح الحائرة ص ١١٤

(٤) من قصيدة (ادن مني) ص١٤٥ —١٤٧ ، وفيها يخاطب الناس بقوله أيضا " يا ابن ودي ، يا رفيقي ، يا صاحبي .." وانظر كذلك قصيدته (هاك) ص١٦٤—١٦٥

ويرى أن مكانه الطبيعي — كما رأى شعراء الرابطة — هو الغاب حيث يعتصري من المتناقضات فيرى :

أن الذى يحيي | بعض الذى يفني
كم مومس تمضي | عذراء للرمس (١)

والثالثة : ولعلها أصل الميزتين الأوليين ، وهي الحنين العميق الى الوطن ، حنين يكاد يسد عليه الطرق ، حتى ليرى الوطن في سلة فواكه معلقة (٢) ، فيذكر جنات حمص وبساتينها ومتنزهاتها ، ويشبب بأحجارها وآثارها ، ولعل تعلقه الزائد بالأدب العربي والثقافة العربية واحساسه بالضيق والنفرة بعض مظاهر هذا الحنين المشبوب :

أنا المهاجر ذو نفسين : واحدة | تسير سيري وأخرى رهن أوطاني (٣)

(٤)

وايليا أبو ماضي (٤) من هؤلاء الذين تكون مواهبهم أكبر من واقعهم ، فينتصرون عليه ، وتبلغ ثقتهم بهذه المواهب واحساسهم بفورتها واتقادها حدا ينسون معه قيمة التجربة العملية ودورها في تحديد الاتجاه وتفتح الاصالة . لقد أصدر أبو ماضي ديوانه الأول وهو بعد في الاسكندرية لم يبلغ العشرين ، وكان يعاني نظم الشعر وهو في دكانه الصغيرة يبيع الدخان ، ويتأمل في الحياة الضئيلة الجارية فيه ومن حوله ، ولكنه لا يقدر أن يضغط هذا التأمل في أسلوب شعري خاص يعبر عن ذاته وتجربته الصغيرة ، فيأخذ عن الاقدمين قوالبهم الشعرية ويضطر الى المراجعة والمطالعة حين تتاح له الفرص ، فيقرأ أعلام الشعر العربي القديم وهو في هذه السن الصغيرة .

ويهاجر (ايليا) الى الولايات المتحدة وله من العمر ثلاث وعشرون سنة ، فينصرف الى التجارة مع أخيه في (سنسناتي) ويتابع المطالعة العربية والنظم ويتنفس هواء جديدا ويعاني تجارب جديدة ، فتبدأ تذوب بعض

---

(١) الديوان ص ٩٦

(٢) قصيدته (سلة فواكه) ص ٩١ — ٩٥

(٣) من قصيدة (نشيد المهاجر) ص ٢٤٥ ، وأنظر قصيدته (ياجارتي في الغرب) ص ٢٧٤

(٤) ولد في قرية (المحيدثة) القريبة من بكفيا ، على الطريق الى (ضهور الشوير) من أبوين أرثوذكسيين .

الاغلال عن الشخصية الأصيلة ، ويشعر أن الحياة الجديدة التي يحياها تختلف - اختلافاً كبيراً - عن الحياة التي عرفها في مصر ، فالعمل والجد والصبر، والاقبال على الحياة في ابتسام وتفاؤل ، هي وحدها التي يمكن أن تشق هنا للانسان طريقا في هذا الزحام الحضاري .

وقد دعاه هذا الى أن يعيد النظر في قيمة السابقة على ضوء اختباراته هنا ، وهذا يعني أن يعيد النظر في الحياة من أساسها : في معناها ومغزاها وبدئها وختامها ، وسبلها التي تسلكها في الناس والكائنات ...

وستبقى هذه الأسئلة الحائرة المعقدة التي طرحها على نفسه ، ومحاولة الاجابة عنها ، الطابع المميز لشخصية (ايليا) بين رفاقه من أعضاء الرابطة .

وقد كان يمكن الاخفاق الذي لقيه (ايليا) في الرد على هذه الأسئلة أن يلجئه الى أن يغمض عينيه ويهرب الى عالمه الداخلي ، لولا أنه لم يهيأ لأن ينتزع رجليه من الأرض ، فقد خبر الحياة العملية وهو لم يجاوز الثالثة عشرة حين كان جبران ونعيمة على مقاعد الدرس يحاولان أن يصورا لأنفسهما عالمهما المثالي الغامض .. وقد انقطع ايليا الى العمل منذ وطئت قدماه أرض المهجر فازداد معرفة بالحياة من وجهها الجاد العامل المكشوف على حين تابع نعيمة وجبران بعد هجرتهما بناء العالم المثالي الذي شغلا به .

وهكذا بقي (ايليا) يضع الحلول لحياته على ضوء اختباراته العملية ، فلم يقدر له أن يقطع بينه وبين الحياة فيستسلم للحلول الصوفية الغيبية التي استسلم لها جبران ونعيمة من قبله . وقد كان في بعض فترات الشك في صحة الردود التي يضعها ، يأخذ - بحكم العدوى السريعة - ببعض النظرات ، ولكنه سرعان ما يعود الى الطريق التي ألفها ، وتبقى تلك النظرات دليلا على ما يعترض حياته الفكرية من شك وقلق .

وقد بقي نتاج (ايليا) الأدبي يعرض في صدق حاله النفسية القلقة ، فهو كئيب حينا لا يكاد يعرف شيئا من أمر الحياة وشئونها ، والاجابة على أبسط أسئلتها ، فيقول : " لماذا نحب . لماذا نكره . لماذا .... لماذا نبني ونعمر . ونزرع ونغرس . ونربي ونقتني . بل لماذا نحن هنا .. فكر قليلا أيها القارئ ولا تنس أنك تسير من هذه الدنيا الى عالم مجهول، وأنك تسير لأنك عاجز عن الوقوف . وقل لنا ، أي شيء هذا الذي نحن فيه ؟

أحلم أم يقظة ؟ وحقيقة أم خيال ؟.. وصدق أم محال ؟ (١) "

ولكنه سرعان ما تستله الحياة والعمل من هذه السوداوية، فاذا هو متفائل/ متجاوب مع الحياة الامريكية يدعو الى الابتسام والاقبال على الحياة والجد . قال في المقابلة بين خيالنا وخيال الغربيين : " حلمنا بنقل الجبال ، ولكننا لبثنا في دائرة التصور ، وتركنا نقلها للايمان وحده ، فلم تنتقل ، وحلموا هم بنقل الجبال ، واستخدموا عقولهم وقلوبهم وسواعدهم فتحركت وانتقلت . حلمنا بالفردوس-ذلك العالم السعيد - فزهدنا في هذه الدنيا وازدريناها ، ولم نبال بما فيها من محاسن ، فصارت بلادنا من جراء الاهمال نصف طلول ، وحلموا هم مثلنا بالفردوس ، فانصرفوا الى جعل هذه الدنيا مثله جمالا وطلاوة واشراقا فحيثما سرت في بلادهم رأيت صورة مصغرة للفردوس .. (٢) " ، وهذا هو معنى ما أشار اليه (جمور عبد النور) في المقابلة بين أبي ماضي وجبران حين قال: الأول خليط من التشاؤم والتفاؤل ، شاك لا يؤمن الا بوحي عقله ، والثاني وان تمالت من بعض مقاطعه غمغمات السوداوية والشك وغلبت الظلال القاتمة على الواحه الفنية - يضع الحلول للقضايا النفسية واللاهوتية والطبيعية ، ويستدل بهدى روحه المجنحة الى تأويل كل مظهر من مظاهر الكون .. (٣) "

ومن هنا اختلف موقف ايليا من الحضارة الغربية عن موقف زملائه في الرابطة ، فهو يرى أن الشرق متخلف عن الغرب لأن الأول " نائم قاعد " والثاني " سهران عامل " . وهو يريد بالعمل هنا " استعباد الطبيعة " و " الاهتمام بالآلة " (٤) ، فهو - كما نرى - يرى رأي (أمين الريحاني) الذي قال : " أنا الشرق ... عندي فلسفات ، وعندي أديان ، فمن يبيعني بها طيارات ... (٥) "

ويلتقي ايليا مع أمين الريحاني أيضا في احساسه العميق - وهو في المهجر - بالارتباط بقضايا الوطن العربي ومشكلاته والدفاع عن قضاياه . ولعل رجوعه الدائم الى الثقافة العربية والأدب العربي كان يغذي هذا الاحساس وينميه

---

(١) افتتاحية السمير - عدد أول ايار - ١٩٣٢

(٢) " " تشرين الأول - ١٩٣٢

(٣) من مقالة له في الآداب : ١٩٥٣ العدد ٢ ص ٣٨ - ٤٢

(٤) انظر افتتاحية السمير عدد ٥ مايو (آيار) ١٩٣٢

(٥) انظر الريحانيات جـ ٤ ص ٤٦

وتلك حال (نسيب عريضة) كما رأينا . وقد كان ايليا يفسح في افتتاحيات (السمير) التي أسسها في نيويورك سنة ١٩٢٩ مجالا لمعالجة قضايا الوطن ومشكلاته ، ولعل ادراكه لأحوال الجالية العربية المهاجرة وتطلعها الى معرفة شئون الوطن ومشكلاته كان يدفعه الى الاهتمام بها في افتتاحيات المجلة التي توزع في أفرادها، لتكون صورة لما يعمل في نفوسهم وما يتطلعون اليه .

(٥)

وعبد المسيح حداد صاحب مجلة (السائح)(١) التي كانت لسان الرابطة ، ولد بحمص من أبوين أرثوذكسيين ، فهو ابن البيئة التي تأثر بها (نسيب عريضة). وقد هاجر الى نيويورك وهو في ميعة الصبا ، ابن سبع عشرة سنة، بعد تخرجه من مدرسة المعلمين في الناصرة فهو لم يحصل اذاً ثقافة فنية صالحة ، وهو لا يتمتع - الى جانب ذلك - بموهبة شعرية كأخيه (ندرة) ، فلم يكن أمامه الا العمل في المحال التجارية ومتابعة الدراسة في الليل . ويبدو أنه كان مهيئا لأن يذوب في الشخصية القوية التي تقف في حياته ، وقد كانت تلك شخصية جبران ، فلزمه كالمريد وسبح باسمه تسبيحا ورفعه - في صراحة - الى مراتب النبوة .

وان من يقرأ أحاديثه التي ينشرها عن جبران ، ووصفه له ، يدرك أى مدى بلغ جبران في (استقطاب) هذه الشخصية ، فلا عجب اذاً أن يتلقى منه الوحي ، ويزهو بتشجيعه ، ويأخذ منه - في بساطة وايمان - نظرته الى الحياة والكون : " لقد أدركت من كل ما درسته في حياتي أن كل واحد منا نقطة من نهر

---

(١) انفرد القس عبد الجليل بالقول : ان مؤسس (السائح) هو جبران ، أما عبد المسيح فهو مديرها . وهذا وهم . انظر B.H. P: 248

الحيـاة ما دمنـا أحيـاء ، لنكون نقطـة من بحـر الوجـود ، بعد أن يصبنا النهـر في بحـر الوجـود الذى تتبخـر منه حيـاة الأفـراد مرة بعد أخـرى، وأننـا أعتقـد بالحيـاة ودوامهـا ، ذلك ما أستقـر في دماغـي ونفسـي ، وعليـه ثبـت معتقـدى ولا أذهـب فيـه الى أى المذاهـب والأديـان المعروفـة ... " (١)

وقدسهـل عليـه — لما ذكرنـا — أن يكون أقـرب الى معايشـة المجتمـع الامريكى والتأثر بـه ، وملاحظـة ما يجـد المهاجر فيـه من مشكـلات وما يرتسـم فى نفسه مـن احسـاس وما ينعكـس فى سلوكـه من مفارقـات مضحكـة . وقـد قادتـه هذه الملاحظة الى ان يصـور حيـاة المهاجـر السـورى فى مجموعـة من الحكايـات الضاحكة المسليـة سماهـا (حكايات المهجـر) . ويبـدو أن أبا شـادى يمنحهـا حين منح عبـد المسيـح — فى سخـاء يحسـد عليـه — لقب (ملك تورين العرب)
[redacted]

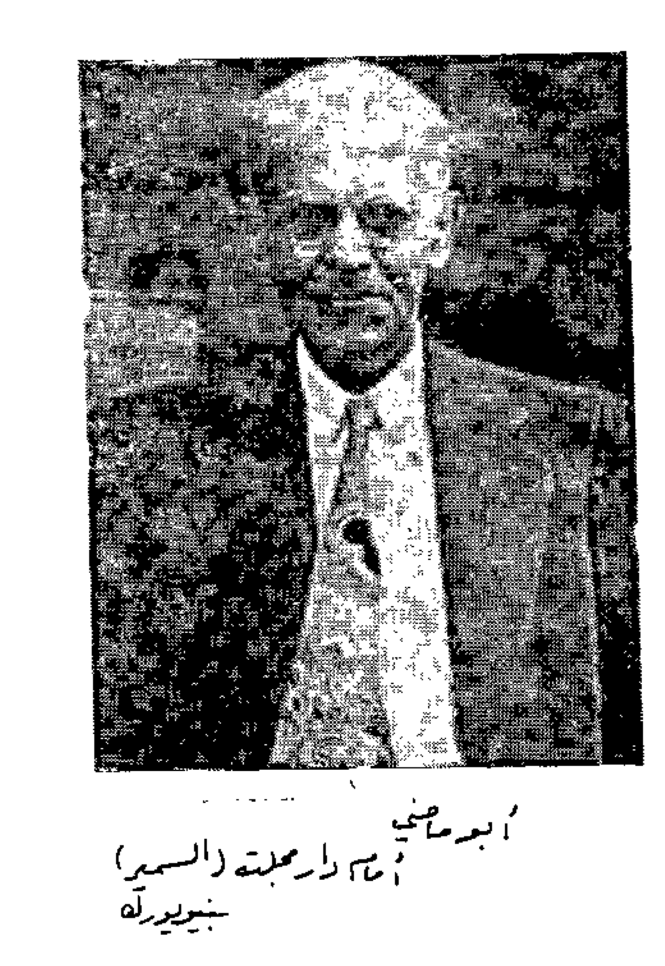
(٦)

وولـيم كاتسفليـس سليـل أسـرة يونانيـة مهاجـرة معروفـة فى (طرابلـس) ، كـان بعـض أفرادهـا يختـارون قناصـل لبعـض الدول ، وقد هاجـر جده الكبير (كريستوف كاتسفليـس) من اليونان منـذ حوالى مائتى عام . (٢)

---

(١) من رسالة أرسلها الى (أبى شادى) ، انظرها فى مقالة أبى شادى (عبد المسيـح حداد روح الرابطـة القلميـة) مجلة القلم الجديـد : السنة ١٩٥٣

(٢) نحن مدينون — كما قلنا — للأستاذ (فيليب كاتسفليس) أخى (وليم) بما حصلنا عليه من أخبار أخيه ، فقد تفضل — خلال زيارتى له فى بيروت — فأجاب عن الأسئلـة التى طرحت عليـه ، ثم زاد فحدثنا عن أعضاء الرابطة جميعا من خلال اتصاله بهم فى نيويورك زمنا طويـلا . ونحن مدينون ببعض هذه الأخبار أيضا للست (آديل كاتسفليس) — أخت وليم — فقـد حدثتنى عن أخيها — خلال زيارتى لها فى طرابلس — حديثـا عاطفيا شجيـا ، وسنعزو هذه الاخبـار الى مصـادرهـا فى كل حـين .



أبو ماضي
أمام دار مجلته (السمير)
بنيويورك



وليم كاتسفليس
(الصورة مرسلة من ابنته
السيدة آديل)

وقد ورث وليم عن أبيه ـ وهو ابنه البكر ـ ولعه الكبير باللغات[1]، فأجاد خلال دراسته في مدرسة (الفرير) بطرابلس ، ثم في (الكلية اليسوعية) ببيروت اللغة الفرنسية اجادة مكنته من أن يضع فيها أشعارا ما زال أخوه في بيروت يحتفظ ببعضها ، ثم تابع تحصيله للعربية ، وجمع الى ذلك الانجليزية بعد مهاجرته الى أمريكا .

ولقد أخذ عن أسرته الميل الى المظهر النبيل ، فعرف بالكرم الذي يبلغ حد التبذير ، وبالعشرة الجميلة والحديث الجذاب والوجه البشوش . وقد نجاه ميله هذا من العكوف على نفسه ، فلم يفرغ لمشكلاتها العميقة. وساعد على ذلك أيضا عمله الناجح في التجارة ، وبناؤه للأسرة ، وتيسير الحياة لها . وعلى هذا فالمهاجرة لم تكن في حياته حدثا نفسيا فحسب ، وانما هي ـ الى جانب ذلك ـ حدث تجاري ، فقد كان ـ باعتباره أكبر اخوته ـ مسئولا عنهم ، وقد أوشك مال الأسرة على النفاد نتيجة الانفاق الدائم ، للاحتفاظ بالمكانة الاجتماعية التي كانت الاسرة تحرص عليها .

وكان يحس القلق حين يفتر عمله التجاري ، فيعود يضرب في الأرض وراء الرزق. لقد اضطر أن يعود حوالي سنة ١٩٠٩ الى مصر عساه يجد فيها بابا مفتوحا لمواهبه ، ولكنه رأى أن يرتد مرة أخرى الى أمريكا[2]، ثم لم يسكن حتى بدأ يضع رجله على الدرجة الأولى من درجات السلم ، فتسلم ادارة بيت تجاري لأحد المهاجرين ، ثم أصبح شريكا فيه ، ثم أتيح له أن يؤسس لنفسه بيتا تجاريا در عليه ربحا كبيرا .

وقد كان وليم كاتسفليس خليقا أن يعكف على نفسه ، فالثقافة التي حصلها في اليسوعية ، واطلاعه الوافي على الأدب الفرنسي الذي يمجد الحرية ، وتهيؤه للتحسس العميق بمشكلات النفس الانسانية ، وبما في واقعه من كبت واضطهاد ومظالم وتخلف ، ثم بما في المجتمع الأمريكي الجديد من انطلاق وتحرر ، كان يمكن ـ هذا كله ـ أن يثير في نفسه أسئلة كثيرة ، على نحو ما أثار في نفوس

---

(١) كان أبوه يعرف الفرنسية والانجليزية والايطالية الى جانب العربية ، وكان أكثر حديث الأب يجري بالايطالية : من حديث أختيه (آديل) بطرابلس بتاريخ ١٤/٨/١٩٥٩

(٢) قال أخوه (فيليب) : ان في الاسكندرية أفرادا من أسرة (كاتسفليس) ، وقد ساعدوا (وليم) ، فعرضت عليه رئاسة تحرير بعض الصحف الفرنسية فرفض العمل لأنه كان يسعى الى التجارة .. (من حديث أخيه الي في بيروت بتاريخ ١٥/٨/١٩٥٩)

زملائه من أعضاء الرابطة ، وكان يمكن أن يعبر في نتاجه الأدبي عن تفسيره الخاص لهذه القضايا كلها ، فيكون له مقام بارز بينهم ، ولكنه التفت الى العمل الذى يساعده على أن يحتفظ بمظهره النبيل ، فأما العمل الأدبي فكانت له ساعات قليلة بعد العمل التجارى يتخفف فيها وليم من تبعاته المالية الكبيرة ، ويعود الى قلبه يتفحص جراحه وأسراره ويعكس آلامه ، ولقد بدت في مقالاته القليلة التي نشرها دموع الرومانسية الفرنسية التي غذى بها ، وكان يستريح الى هذا (البوح) ويعتبره (استجماما) من عملة التجارى (1) .

وكان وليم يظن ـ حين هاجر الى أمريكا ـ أنه سيجد هناك جوا أدبيا فسيحا يمكنه من التعبير عن نفسه ، بالخطبة والكتابة ، ولكنه اضطر في (بنسلفانيا) أن يسكن للعمل شيئا فشيئا ، فبدأ يعلم الفرنسية أولا ، ثم ألف كتابا سنة ١٩٠٧ باسم L'Arabe parlé للسياح الذين يزورون البلاد العربية ، ثم ضاق به المحيط ، فهجر (بنسلفانيا) الى نيويورك ليكون قريبا من المحيط الأدبي الذى كانت تمثله آنذاك الصحف العربية الناشئة ، والأدباء الذين بدءوا ينشرون بعض الكتب كالريحاني وجبران. ولم يكن لوليم نتاج أدبي مطبوع يشق به الدرب ، وعجز ـ في غمرة احساسه بالحاجة والعجز عن الكسب ـ عن الانتاج فاقتصر على كتابة مقالات في جريدة (مرآة الغرب) التي كانت تناصر الارثوذكس ، وقد عرض عليه صاحبها أن يتسلم رئاسة تحريرها فرفض ، لانه كان يكره أن يرتبط (2) ، وقد فعل ذلك وهو في أشد الحاجة الى المال ، فقد كان ما يزال عالة على أسرته في طرابلس ، ولم يجد مفرا من التسليم أخيرا فمال الى العمل التجارى ، وأخذ ينفق فيه أيامه ، وأبقى لميوله الأدبية ساعات من الليل ، يقرأ فيها ، ويكتب بعض المقالات ، وهكذا تحقق في نتاج (وليم كاتسفليس) الأدبي ما تحقق في الأدب المهجرى كله ، فهو وليد الحاجة النفسية للتعبير والبوح لا الحاجة المادية للكسب والربح .. فلما وفر له الكسب المادى المقام الموروث الذى يطمع في الاحتفاظ به ، شحذ ذلك من عزمه ، فزاد من انتاجه الأدبي،

---

(1) من حديث أخيه (فيليب) في بيروت بتاريخ ١٥/٨/١٩٥٩

(2) " " " " " " " " والعهدة في الرواية عليه .

ثم طمح فى أن يوثق الصلة بين المحيطين التجارى والأدبى فى البيئات التى كونها المهاجرون العرب ، فساعد ذلك على ازدهار الحركة الأدبية فى المهجر الشمالى وعلى نموها . وأوشك أن يفهم كثير من تجار المهاجرين الموسريين الدور الذى يؤديه الأدباء فى اعلاء مكانة المهاجرين فى المجتمع الطاحن الذى يعايشونه . ولعل وضع (وليم) فى موضع الخازن فى الرابطة القلمية ، كان اعترافا من أعضاء الرابطة بهذه الحقيقة ، فهو أقدر الأعضاء على فهم هذا الجانب (المادى) من عمل الرابطة .

ثم بقيت شخصية وليم الأدبية لا تتعدى هذه الحدود : تاجر أديب ، يفرغ لتجارته سحابة النهار ، ويفرغ لأدبه ساعات من الليل ، فنتاجه اذا فضلة عمله ، وبهذا تميز من كتاب الرابطة جميعا ، فلم تعد فى مقالاته القليلة مشكلة ذاتية عميقة ذات طعم انسانى خاص ، ناتجة عن (الحكة الروحية) التى عبر بها زملاؤه من كتاب الرابطة عن مأساة الجيل المهاجر كله ، وانما هى مقالات أقرب أن تكون خواطر رومانسية يطلقها الليل الذى يخلو فيه (وليم) لنفسه بعد أتعاب النهار الذاهب ...

وقد توفى بعد أن تقدمت به السن ، عن ثروة حسنة (١) .

(١) لم نغفل من حياة (وليم كاتسفليس) التفاصيل الصغيرة التى جمعناها ، لادراكنا بخلو مصادرنا الأدبية منها ، فهذا تفسير خروجنا على الخطة التى اتبعناها فى تصوير المفارقات الشخصية .

الباب الثاني

نظرة عامة في النثر لدى كتاب الرابطة القلمية

تمهيد : المضامين العامة

الفصل الأول : المضمون الانساني

الفصل الثاني : المضمون الاجتماعي

الفصل الثالث : المضمون الوطني

الفصل الرابع : الصورة الأدبية

تمهيـــــــد

اتسع النشر لدى كتاب الرابطة القلمية (١) لمضامين حية عميقة التقطت بذورها من الحياة بعد أن أعطت لها تفسيرا حاولت أن تجعله شاملا ، فقد كان لهؤلاء الكتاب رأى فى الانسان الفرد ووجوده وغاية الحياة منه وموضعه من الكون والطبيعة • ثم كان لهم رأى فى هذا الانسان من حيث اتصاله بالناس من حوله ، وتأليفه معهم مجتمعا متعاونا فى سبيل تأدية الغرض من وجوده • ثم كان لهم رأى فى هذا المجتمع من حيث هو كيان سياسى وقومى خاص تجسده الدولة • وقد استفاضوا فى التعبير عن هذه الآراء ، والتزموا - فى ذلك - موقفا واضحا أصيلا يتفق مع طبيعتهم وثقافتهم ، بحيث يصح أن تستخلص من أدبهم نظرة فلسفية عامة سنحاول أن نجلوها فى آخر هذا الباب •

ويمكن أن نقول الآن : انه تميزت فى نثرهم مضامين ثلاثة رئيسية متكاملة :

الأول : هو المضمون الانسانى الذى عبر عن رأيهم فى الانسان ، ومشكلاته الروحية القائمة فى كل عصر ، وهى المشكلات التى حاولت الأديان - على اختلافها - أن تجيب عنها اجابات حاسمة ، يبدو أن الانسانية - فى مراحلها جميعا - لم تطمئن اليها اطمئنانا شاملا • وقد اتصل بهذا المضمون غناؤهم الانسانى الرفيع للطبيعة باعتبارها مصدر الانسان ومنتهاه ، وباعتبارها مفتاح الحل الذى اختاروه لمشكلتهم الروحية الخاصة ، وهى المشكلة التى أثرت تأثيرا بالغا فى آرائهم هذه كلها •

والمضمون الثانى : هو المضمون الاجتماعى الذى عبر عن رأيهم فى المجتمعات وغاياتها ، وعلاقاتها بعضها ببعض ، و[illegible] دعا الى تحريرها من الداخل والخارج تحريرا كاملا ، من الوجهة الروحية والفكرية والاقتصادية •

والمضمون الثالث : هو المضمون الوطنى الذى عبر عن رأيهم فى القوميات والأوطان وصلاتها ، بعضها ببعض ، وصلة الانسان بها ، ثم اتصل بوطنهم الخاص فصور آلامه ومطامحه •

---

(١) نقول هذا الكلام على التغليب ، ولا نلغى به المقارقات الشخصية وأكثر من نريد به جبران ونعيمة•

فأما المضمون الفني الخالص الذي عبر عن رأيهم في مقاييس الجمال الفني شكلا ومضمونا فموضعه الفصل الذي خصصناه للنقد (١) .

على أنه يجب ألا ننسى أن نترسم الذي وسع هذه المضامين الكبيرة (٢) لم يخف سمة مضيئة عامة اتسم بها ، وهي حرصهم على أن يقول كل منهم كلمته الخاصة المتميزة ، بما يرضي أصالته واتجاهاته وبما يأتلف مع ما كون شخصيته من ضروب الوراثات والمكتسبات .

هذه مقدمة عامة سنحاول الآن أن نفصلها في هذا الفصل

(١) الفصل الرابع من الباب الثالث .

(٢) اعتبر صيدح هذه المضامين رسالات أداها الأدب المهجري ، وقد تأثر صيدح ـ في ذلك ـ بما عم حياتنا الأدبية من دعوات الى ما يسمى (بالأدب الملتزم) انظر أدبنا وأدباؤنا .... ٦٤ ـ ٧٩ .

الفصـــــل الأول

المضمـــون الانســـــاني

(١)

قلنا سابقا : ان البيئة الجديدة التى انتقل اليها كتابنا هؤلاء بعد أن وضح تكوينهم الذاتى فى الوطن بما قدمنا شرحه فى الباب الأول، وضعتهم أمام حضارة غريبة عنهم ذات تفسير خاص للحياة والأحياء.. وهم على الرغم من أنهم يشتركون فى العقيدة مع المحيط الجديد، فقد أحسوا - فى عمق - أن هذه العقيدة لم توحد تفسيرهم هذا، فالمسيحية التى عرفوها فى قراهم ومدنهم الشرقية الصغيرة القريبة من الفطرة،البعيدة عن التعقيد، المتطلعة دائما الى سماء"زرقاء، زرقاء، زرقاء، وبعيدة .. بعيدة .. بعيدة ..." (١) والملتفة بالسكون العميق، والصخور التى " تتخللها منبسطات ملسة ككف العذراء "، وتطمئن " ظلا ناعما كالمحبة، مؤنسا كالرجاء، عابقا بالسلام والطمأنينة كالايمان "، وتخترقها أقنية المياه " المتهامسة فوق الحصى، المترنمة بين الأعشاب .. تنشر فى الهواء أنفاسها البليلة ... " (٢)، المسيحية فى هذه الأرض الوديعة، توشك أن تكون غريبة فى عالم ضخم محموم " كالتنين "، " تقتع أنفاسه المتصاعدة من ألوف المداخن وملايين النوافذ " الشمس الصاربة، وينوء الهواء تحت " جبال متراكمة من الحديد والحجر والقير والأسفلت "، فكأن السماء فيه " ضاغطة من حديد محمية فى نار جهنم على صدر التنين المتمدد " الذى " يكاد يحترق بأنفاسه " (٣)، فالحياة هنا طاحنة " شبيهة بدواليب تحركها أيد خفية ليلا ونهارا " (٤)، فهى لا تؤمن بغير الحركة

---

(١) ميخائيل نعيمة - المراحل ٦٧

(٢) المصدر نفسه ٦٦ - ٦٧

(٣) " " ٦٥ - ٦٦

(٤) من رسالة لجبران الى جميل المعلوف بتاريخ ١٩١٢ : انظرها فى الأديب (السنة ١٩٥١ العدد ٥ ص٥٩) وانظر ما يقوله فى مقالاته ، (فى مدينة الأموات - دمعة وابتسامة ١٠٣/٢) و (الأمس واليوم ، ص١٢٥) و (مناجاة فى الحقل ، ص١٤٥) و(الملك السجين - العواصف ٢٠/٣).

الدائمة ، ولا تعتمد على غير الحس ، ولا دور فيها للتأمل والقناعة ، فقيمة الانسان بمقدار ما يكسب ، لا بمقدار ما يعي من حقائق الحياة والنفس،(١) فليس غريبا اذاً أن يحس هؤلاء القرويون بالوحشة والضياع ، وأن ينظروا ـ تبعا لذلك ـ في الحياة من أساسها ، ويسألوا أنفسهم : ما معناها ؟.. وما غاية وجودنا ؟. وما معنى المسيحية الوديعة التي فسرت لنا حياتنا هناك، في الجبال العارية المغسولة بأشعة الشمس وأضواء النجوم ؟ وما معنى المسيحية على الاطلاق ؟..

لقد وقف هؤلاء الأدباء في مفرق حاسم : فاما أن يصحبوا أنفسهم التي حملوها معهم من الوطن فينأوا عن الحياة الجديدة ، ويتمسكوا بشخصياتهم ، واما أن يتخففوا من أنفسهم وماضيهم ويندفعوا في التيار . وهم لم يكونوا قادرين على هذا ، فقد جاءوا المهجر بعد أن اكتملت شخصياتهم ونضجت ، فليس من اليسير العبث بروحها ، وليس أمامهم الا أن يخلدوا الى أنفسهم ، فيحاولوا أن يصلوا الى الاجابة عما ثار في عقولهم من عواصف اجابة تتفق مع ما اكتسبوا وورثوا ووعوا من معنى الحياة والايمان الأصيل بغاية الوجود .

ويمكن أن يمثل هذا الموقف تمثيلا دقيقا (الأرقش) ظل نعيمة ومثاله في سني هجرته الأولى ، فهذا رجل فقد ذاكرته ، فانقطعت صلاته بما حوله ، وفقد الاهتمام بتيار الحياة الجارية ، ولم يكفه ذلك ، فكان يفرض على نفسه السكوت أياما حتى يتاح له أن يغرق كله في نفسه ، ليصل الى حقائقها وحقائق الحياة الجارية فيها ومن حولها ، وقد جرده (نعيمة) من مقتنيات الحياة كلها ، وأبقى الى جانبه كتابا واحدا هو العهد الجديد(٢) ، فكأن (نعيمة) يضع مفاتيح الحياة التي يريد الأرقش أن يصل اليها في الانجيل ، ويمثل هذا الموقف أيضا يوحنا المجنون بطل قصة (جبران) الذي يسهر الليل حتى ينام أبوه ، فيهرع الى خزانته الخشبية

---

(١) يقول عبد المسيح حداد عن الحياة في أمريكا : " ان أمريكا بلاد المادة ، والمادة لا تأتي الا بالعمل ـ العمل الحقيقي ـ في ميدان واسع تتسابق فيه الخلائق تعدو عدوا ، فان تعب أحدهم سقط على الطريق فداسه القوم في مسيرهم ، وراح كأنه ما كان . "
ويقول : " وسط لا تأتي اللقمة للمرء فيه الا بالجد مغموسة بدم القلب وعرق الجبين "
حكايات المهجر ٨٤ و ٨٥

(٢) مذكرات الأرقش ١١

ليخرج كتاب العهد الجديد (١) ، ويتأمل الحياة على ضوء آياته وحلوله . وهو ينتهي الى أن " حكمة الحياة التى أنزلها المسيح من صدر الله قد توارت في بطون الكتب ، وقام مقامها ضجيج مخيف ترتصد من هوله النفوس .. " وينادي في حرارة : " أمدد يدك يا يسوع القوى وارحمنا ، لأن يد المظلوم قوية علينا ، أو أرسل الموت ليقودنا الى القبور حيث ننام براحة مخفورين بظل صليبك .. " (٢).

لقد تمسك هؤلاء الأدباء - اذاً - بالانجيل الذى يمثل ماضيهم ، وألحوا على أن يجدوا تفسير أنفسهم وحياتهم فيه ، وأن يعتبروه نقطة الانطلاق الثابتة الى كل حقيقة ، كما وعد بذلك المسيح نفسه : " السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لايزول " (٣) . " الكلام الذى أكلمكم به هو روح وحياة " (٤) . " من يشرب من الماء الذى أعطيه فلن يعطش الى الأبد " (٥) . " أنا هو نور العالم ، من يتبعني فلا يمشي في الظلمة " (٦) . " أنا هو خبز الحياة من يقبل الى فلا يجوع ، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبدا ... " (٧) . " من آمن بي ولو مات فسيحيا ، وكل من كان حيا وآمن بي فلن يموت الى الأبد " (٨) . والمسيح بعد ذلك هو الذى يقول : " تعالوا الى ياجميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم ، واحملوا نيرى عليكم وتعلموا مني ، لأني وديع ومتواضع القلب ، فتجدوا راحة لنفوسكم ، لأن نيرى هين وحملي خفيف .. " (٩) .... وقد كان هؤلاء المهاجرون متعبين حقا ، وكانوا ثقيلي الأحمال (١٠) ، يمزقهم الشك والحيرة والصراع ، فلا غرابة أن يستقوا من هذا النبع البارد .

---

(١) عرائس المروج - مجموعة مؤلفات جبران ١/ ٨٩

(٢) المصدر السابق ٩٤ وما بعدها

(٣) انجيل لوقا اصحاح ٢١ أية ٣٣

(٤) انجيل يوحنا " ٦ " ٦٣

(٥) " " " ٤ " ١٤

(٦) " " " ٨ " ١٢

(٧) " " " ٦ " ٣٥

(٨) " " " ١١ " ٢٥ - ٢٦

(٩) " متى " ١١ " ٢٩ - ٣٠

(١٠) يصف حبيب كاتبة المهاجرين بقوله : " .. شعب مهاجر ضعيف ، مغلوب على أمره ، غريب اللغة والتقاليد والعادات ، حائر في أمره ومصيره .. " من مقدمته لديوان (الأرواح الحائرة) ص ١

(٢)

فلنعد الآن الى الانجيل اذاً ، لنتبين تفسيره الخاص للانسان والحياة ، ثم نعود الى أدبائنا لنرى مدى تأثرهم بهذا التفسير في حياتهم ، ومدى استيحائهم له في أدبهم ، وكيف فهموه وفهموا حقائق أخرى من خلاله ٠

وردت في الانجيل آيات كثيرة في تفسير الانسان ، تمثلها الآيتان التاليتان : " الروح نفسه أيضا يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله ، فان كنا أولادا فاننا ورثة أيضا ، ورثة الله ، ووارثون مع المسيح"[1][2]، " أما تعلمون أنكم هيكل الله ، وروح الله يسكن فيكم "[3] ٠٠٠

ومثل هذه الآيات يعني صراحة أن الانسان والله وحدة ٠ وليس أرفع للانسان ـ في الحقيقة ـ من أن يجعل " صورة الله ومجده "[4] ٠ فمثل هذه الحقيقة عزاء كبير للانسان ، فهو يستطيع أن يصل روحه بالأكوان الفسيحة كلها ، حتى ليخالها تسبح فيه وتدور من حوله ٠ فاذا لقيت هذه الحقائق نفسا معذبة يجلدها القلق والشك والغربة والضياع ، كانت طوق النجاة وشاطئ السلام الذي يثبت قدميه ، ويعطي لنفسه وللحياة من حوله معنى كبيرا يملؤه بالرضى والاستقرار ، على حد ما جاء في الانجيل : " سلاما أترك لكم ، سلامي أعطيكم "[5] ٠٠٠

ومهما يكن حظ الأفلاطونية الحديثة من هذه الآيات ، فقد كانت ـ لاشك ـ آيات من آيات الانجيل التي وقف عندها أدباؤنا المهاجرون ، فأحسوا أنها تعطي حياتهم معنى يرفعها عن المستوى الذي تتخبط فيه حياة الناس المحمومين وراء لقمة العيش وطمع الكسب وذل الحاجة وبذل المفس ٠ وهي ـ فوق ذلك ـ تستجيب لما يحسون من تفتح نفسي عميق صورناه فيما سبق من الفصول ٠ وقد قرب هذه الحقائق الى عقولهم ايمانهم بألوهية المسيح ٠ وليس يعنينا ـ مرة أخرى ـ أن نبحث أثر بعض الفلسفات في هذه العقيدة ، وانما يعنينا أن هؤلاء الأدباء نشأوا على الايمان بهذه

---

(١) انظر رسالة بولس الأولى الى أهل كورنثوس ٦/٨ و ٢٥/١٤ و ٢٨/١٥ وانظر أعمال الرسل ٢٧/١٧ ـ ٢٩

(٢) رسالة بولس الى أهل رومية ١٦/٨ ـ ١٧

(٣) رسالة بولس الأولى الى أهل كورنثوس ٦/٣ وانظر انجيل متى ٢٥/٣٤ـ٤٠

(٤) رسالة بولس الأولى الى أهل كورنثوس ٧/١١ وانظر/الأرقش ص ٢٣ و٣٨ و٤١ التربة نقشا في

(٥) انجيل يوحنا ٧/١٤

الحقيقة والتهيؤ للتسليم بها ، فالانجيل يحفظ هذه الآيات عن المسيح :
" الذى رآنى فقد رأى الآب ، فكيف تقول أنت أرنى الآب ٠٠ ألست تؤمن أنى أنا فى الآب والآب فىَّ؟، الكلام الذى أكلمكم به ، لست أتكلم به من نفسى لكن الآب الحال فىَّ هو يعمل الأعمال . صدقونى ، انى فى الآب والآب فىَّ ٠٠٠ " (١) .
" ان الآب فىَّ وأنا فيه " (٢) . " أجابه اليهود قائلين : لسنا نرجمك لأجل عمل حسن ، بل لأجل تجديف ، فانك وأنت انسان ، تجعل نفسك الها ، أجابهم يسوع : أليس مكتوبا فى ناموسكم ، أنا قلت انكم آلهة " (٣) . " الآن تمجد ابن الانسان وتمجد الله فيه ، ان كان الله قد تمجد فيه فان الله سيمجده فى ذاته ويمجده سريعا " (٤) . " انك من الله خرجت " (٥) . " والذى يرانى يرى الذى أرسلنى " (٦)
" لانه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى فهناك أكون فى وسطهم " (٧) ٠٠٠

وهناك آيات أخرى تجمع بين هذه العقيدة فى المسيح وبين الحقيقة التى أعلنها الانجيل فى وحدة الله والانسان والحياة : " انى أنا فى أبى وأنتم فىَّ وأنا فيكم " (٨) . " أنا الكرمة وأنتم الأغصان " (٩) . " ليكون الجميع واحدا كما أنك أنت أيها الآب فىَّ وأنا فيك ، ليكونوا هم أيضا واحدا فينا " (١٠) .

ان هذه الآيات وغيرها فى الانجيل ، تعنى أن المسيحيين ينشئون وينشأ معهم استعداد أصيل للايمان بوحدة الوجود ووحدة الحياة ، وقيمة الانسان الممتازة فيهما باعتباره الذروة التى يدرك فيها الوجود ذاته . وان الأقانيم الثلاثة الموحدة التى سادت بها المسيحية تشير الى هذه الوحدة التى تبنتها، واتصلت ـ عن طريقها ـ بالفلسفات الشرقية القديمة التى فسرت الحياة والكون هذا التفسير . ان من يقرأ صفحات من البوذية أو الطاوية ـ مثلا ـ ،

---

(١) انجيل يوحنا اصحاح ١٤ آية ٩ ـ ١١
(٢) " " " ١٠ " ٣٨
(٣) " " " ١٠ " ٣٣ ـ ٣٤
(٤) " " " ١٣ " ٣١ ـ ٣٢
(٥) " " " ١٦ " ٣٠
(٦) " " " ١٢ " ٤٥
(٧) " متى " ١٨ " ٢٠
(٨) " يوحنا " ١٤ " ٢٠
(٩) " " " ١٥ " ٥
(١٠) " " " ١٧ " ٢١ ، وانظر ايضا رسالة بولس الى أهل كولوس ١ / ١٤ ـ ١٧ و ٣ / ١١ .

يدرك — في بساطة — وحدة النظرة الأصيلة — في هذه الديانات الثلاث — الى الحياة والكائنات ، وهي نظرة صوفية حالمة تستجيب لها النفس الشرقية في يسر . فالكون — في هذه الديانات — مظهر لقوة خفية شاملة تنتظم الكائنات جميعا ، وتذهب بها من بداياتها الى غاياتها في وعي وادراك . وليس لهذا الكون حقيقة بذاته ، فحقيقته في أنه مظهر لهذه القوة التي سمتها البوذية (دهارما) وسمتها الطاوية (الطاو) وسمتها المسيحية (الآب) . وموقع الانسان من هذه الحقيقة في أعلى السلم ، فهو الذي يعي هذه الحقيقة في ذاته ، ويعرف أنه صورة الله ، وأنه يحمل " تاج الألوهية " . فاذا غفل عن هذه الحقيقة قاد نفسه الى الشقاء والتقسيم، وأضاع مغزى وجوده ، وذلك هو (الوهم) الذي ناضل الانسان في مراحل مختلفة من تاريخه حتى يتخلص منه . ولابد لكل انسان — على كل حال — من أن يناضل هذا الوهم الذي يصور له ذاته الجزئية كيانا مستقلا عن الذات الشاملة ، فيبني لنفسه أسوارا من حديد يسجن فيها ذاته ، ويتوهم لنفسه مصالح خاصة غير مصلحة الحياة الشاملة كلها ، فيقف من الحياة موقف المعادي المكافح عن هذه المصالح ، ضد الكيانات الجزئية المستقلة الأخرى التي يصورها له وهمه ، فيتعذب ويشقى ، وتصبح نفسه — من حيث لا يدري — ميدانا لمعركة رهيبة يصطدم بعضه فيها بعضه الآخر ، لأنه خلق من نفسه عدوا لنفسه " فأوجد حربا حيث لم يكن الا سلام ، وشقاء حيث لم يكن الا غبطة "[1] . فاذا وصل الانسان — بعد كفاح — الى ازاحة هذا الوهم، وعرف أن مصالحه المتفرقة هي مصلحة الحياة الشاملة ، وأن حدوده أبعد من أن تراها العين وتلمسها اليد : فهي الأزل من ناحية ، والأبد من ناحية أخرى ، اذا وصل الانسان الى ادراك هذه الحقيقة نعم (بالنرفانا) البوذية أو (ينبوع الطمأنينة الروحية) كما سمته الطاوية أو (ملكوت السماء) كما سمته المسيحية .

ان الجذر الفلسفي واحد في هذه الديانات الثلاث ، لا تكاد تختلف فيها حتى التسميات . وقد أدرك أدباؤنا في المهجر هذه الحقيقة ، فكتب نعيمة مقالة مطولة بعنوان : " ثلاثة وجوه " يعني بها وجه " بوذا "

---

(١) ميخائيل نعيمة — المراحل ١٢٨

و (لاوتسو) و (يسوع) ـ قال فى آخرها : " ايه بوذا ، ايه لاوتسو، ايه يسوع ، ثلاث منارات على شواطئ الوجود ، تستمد نورها من مصدر واحد ، وتنير سبيلا واحدا الى مرفأ واحد " (١)

وقد وجد هؤلاء الأدباء فى تعمق هذه الحقيقة ، والوصول الى أصولها الفلسفية فى الديانات الشرقية ، ملجأ أمينا ينجيهم من القلق الروحى العاصف الذى عانوه فى المهجر ، وهى الحقيقة التى أحسوها فى قراهم وجبالهم ببساطة وعمق معا ، والتى أخلص لها الشرق كله فى تاريخه الطويل ، فلم تفسدها وثنية الرومان وعقلية اليونان وشهوات الغرب. وقد بلغ من اخلاص الشرق لهذه الحقيقة أن تميزت فى تاريخ الحضارات الانسانية حضارتان : حضارة شرقية تؤمن بالروح من خلال المادة، وتصعد الى عالم مجهول تلتهب فيه الاشواق ، وتتفتح البصيرة ، ويوضع الجسد ـ الذى هو صورة ـ فى خدمة الروح ، ويتمسك بالكمالات والمثل الخلقية، ويكون للارادة الانسانية شأن حاسم فى انتصار الانسان على جسده . وحضارة غربية تؤمن بالجسد والمحسوس والتجربة ، وترفض الاعتراف الحاسم بعوالم غيبية بعيدة مجهولة ، وتقدس العقل ، وتضع الروح فى خدمة الجسد وتستخلص مثلها الخلقية من هذه البدايات . وهذا وحده يفسر ـ فى يسر ـ قلق أدبائنا المهجريين وحيرتهم الروحية العميقة التى أحسوها فى المهجر، فقد كانت تتصارع فى أنفسهم هاتان الحضارتان المختلفتان روحا وهدفا ، فليس عجيبا أن يحسوا الغربة ، وأن يحنوا الى قراهم وجبالهم الهادئة التى تمثل استقرارهم الروحى وعودتهم الى أنفسهم.

وبهذا نفسر ـ أيضا ـ طغيان هذا المضمون الانسانى الروحى فى أدبهم، حتى أصبحت الكتابة فى الانسان وغاياته ومصدره الالهى وحقيقة صلته بالحياة والكون والطبيعة ، والدفاع عن قيمه الخلقية ، وانكار الاعتراف بسلطة الجسد ، أصبح هذا المضمون يشغل من أدبهم حيزا ضخما تتضاءل أمامه المضامين الاخرى . (٢) بل هم لم يستطيعوا أن يكتبوا فى شأن من شئون الحياة والانسان ، الا من خلال هذا الايمان ، فسهل على بعض القراء أن يعتقد

---

(١) ميخائيل نعيمة ـ المراحل ٥٢

(٢) انظر ـ صيدح ـ أدبنا وأدباؤنا .. ٦٠

أنهم — في حقيقتهم — دعاة عقيدة (١)، ومبشرون في ثياب مدنية، وأدباء أحالوا كتبهم معابد ومحاريب، وهم ان كانوا اعتنوا بالأداء الفني فليسهلوا الطريق لهذه العقائد ويفتحوا لها القلوب، كما تستخدم المجامر والمباخر والتماثيل في تخدير حواس المصلين في المعابد .

وسننتهي الى رأي في هذا بعد أن نعرض صورا مختصرة لهذا المضمون الروحي وما يتصل به في كتابات هؤلاء الأدباء، حتى تتبين لنا حدوده في الأطر الفنية التي اختاروها .

(٣)

لقد كانت عودة هؤلاء الأدباء الى الشرق عودة موغلة، نبشوا فيها أعماقه، كأنهم يريدون أن يعمقوا هذه الفواصل بين الحضارتين الشرقية والغربية، ويهدموا بينهما جميع الجسور . فقد أخذوا (بالتناسخ) و (التقمص) وهذه — كما قلنا — غاية ما وصل اليه الشرق في حل معضلات الحياة والانسان والموت . وهي — في الوقت نفسه — غاية ما وصل اليه الانسان في انكار الاعتراف بالكيان الجسدي وبقائه وحدوده الموهومة، وفي الاصرار على خلود الروح وأوليتها وأصالتها . وقد برزت هذه العقيدة في صور أدبهم شعرا ونثرا (٢). على أن شعرهم — رغم شاعرية العقيدة وجمالها — لم يتسع لتقليبها وتفصيلها، وانما اتسع لذلك نثرهم في القصة والمقالة والمثل، على نحو ما سنراه — بالتفصيل — في دراستنا لهذه الفنون في الفصول الآتية .

---

(١) انظر فضل الله ضعون — (من وحي السبعين) ص١٧٦ . يقول عن أدباء المهجر الشمالي : انهم " تجندوا للقيام بالمهمة التي أخفق في تأديتها — على وجهها الصحيح — دعاة المبادئ المسيحية الذين أحلوا العرض محل الجوهر .." ويقول : " أولئك هم الرسل الأمناء الحقيقيون الذين راحوا يبشرون اخوانهم في الانسانية بالمبادئ المسيحية الحقة .. متخذين لهم شعارا الأدب، وهل كان المسيح سوى الأديب المثالي الواجب الاقتداء ....." .

(٢) يقول نسيب عريضة :

يا صديقي، ألم تكن بصديقي	قبل هذي الحياة، في غير حاله
أولا تذكر القديم، أتنسى	يوم كنا في مشرع النور هاله
قد غدونا طيفين في هيكل الليـ	ـل، فهلا عرفتني بالدلالة

الأرواح الحائرة ١٤٥ — ١٤٧ (من قصيدته : ادن مني).

ويقول — في احساسه بوحدة الوجود — :

كلنا أنهار	نلتقي في البحر

(ص ١٢٠)

والحقيقة أن عقيدة التقمص ـ كما قلنا فى السابق ـ أعطت لهؤلاء الأدباء حلا لمشكلة (مسئولية الانسان) فى غير ما حاجة الى الايمان بعالم مثالى مجهول منفصل عن عالمنا الذى نعيشه ، وهو العالم الذى عجز هؤلاء الأدباء عن تصوره والايمان به بعد أن وصلوا الى وحدة الوجود وألوهية الانسان . فعقيدة التقمص تبقى الانسان مسئولا عما يقدم من خير أو شر فى أى عمر من أعماره التى لا تنتهى ، والتى يصفى فى كل منها حسابا ماضيا ويفتح حسابا جديدا .

وأعطت هذه العقيدة ـ من ناحية أخرى ـ اشباعا مسكرا لغريزة البقاء والخلود التى تتصل اتصالا عميقا بالديانات الانسانية كلها ، وتتصل بأكثر الحلول التى قدمها الانسان فى فلسفاته القديمة والحديثة ، فى محاولاته لاطفاء هذا الشوق الغريزى الأصيل الى البقاء ومدافعة الموت . فبالتقمص والتناسخ يستحيل الموت سبيلا الى الولادة الثانية . وعلى هذا النحو فسر هؤلاء الأدباء قول المسيح : " الحق الحق أقول لكم ان لم تقع حبة الحنطة فى الأرض وتمت ، فهى تبقى وحدها ، ولكن ان ماتت تأتى بثمر كثير.. "(١) وقول بولس الرسول : " يا غبى ، الذى تزرعه لا يحيا ان لم يمت "(٢). فالموت ـ اذاً ـ ليس فناء يخافه الانسان ، ولكنه سبيل تجديد الحياة من جديد. وهو ـ من هذه الناحية ـ يشبه النوم " فالموت والنوم ... من مقلع واحد ، نحن بالنوم نتخدر بأتعاب نهار لنصحو وفى استطاعتنا تحمل أتعاب نهار جديد ، ونحن بالموت نتخدر بأتعاب حياة لنصحو وفى استطاعتنا استقبال حياة جديدة ".(٣)

---

(١) انجيل يوحنا اصحاح ١٢ آية ٢٤

(٢) رسالة بولس الأولى الى أهل كونثوس ١٥/٣٦

(٣) من رسالة لنعيمة الى حارث طه الراوى . انظرها فى الأديب : السنة ١٩٤٨ العدد ١١ ص ٥٢ .

يقول جبران فى مقالة له بعنوان (الحروف النارية) : " أهكذا تمر بنا الليالى ؟ ٠٠ أهكذا تندثر تحت أقدام الدهر ؟ ٠٠ أهكذا تطوينا الأجيال ولا تحفظ لنا سوى اسم نخطه على صحفها بماء بدلا من المداد ؟ أينطفئ هذا النور وتزول هذه المحبة ، وتضمحل هذه الأمانى ؟ أيهدم الموت كل مانبنيه ، ويذرى الهواء كل ما نقوله ، ويخفى الظل كل ما نفعله ؟ أهذه هى الحياة ؟ هل هى ماض قد زال ، واختفت آثاره ، وحاضر يركض لاحقا بالماضى ، ومستقبل لا معنى له الا اذا ما مر وصار حاضرا أو ماضيا ؟

أتزول جميع مسرات قلوبنا ، وأحزان أنفسنا بدون أن نعلم نتائجها ؟ أهكذا يكون الانسان مثل زبد البحر يطفو دقيقة على وجه الماء ثم تمر نسيمات الهواء فتطفئه ويصبح كأنه لم يكن ؟

لا لعمرى ، فحقيقة الحياة حياة ، حياة لم يكن ابتداؤها فى الرحم ولن يكون منتهاها فى اللحد ، وما هذه السنوات الا لحظة من حياة أزلية أبدية ٠ هذا العمر الدنيوى مع كل ما فيه هو حلم بجانب اليقظة التى تدعوها الموت المخيف ٠ حلم ، ولكن كل ما رأيناه وفعلناه فيه يبقى ببقاء الله ٠٠٠٠ "(١)، ان حاجتنا الروحية الى الخلود ، والحل الذى تضمه عقيدة التقمص لاشباعها هما عمودا هذا المضمون الروحى الانسانى الذى شغل به معظم كتاب الرابطة القلمية ، حتى غلب على أدبهم جميعا ٠ كأنهم بذلك يعوضون عن احساسهم بالضياع فى هذه الأرض الغريبة ، ويغمسون أرجلهم فى التربة الصخرية التى خلفوها وراءهم ٠ وهم ـ كلما ازداد حماسهم بالغربة ، وحنينهم الى المطلق المجهول ـ ازدادوا تمسكا بهذه العقيدة ورجوعا الى أصولها وفروعها فى الفلسفات الشرقية ، ونشوة بما تتيح لأرواحهم من امتداد فى الأجواء المطلقة ، ولأخيلتهم

---

(١) دمعة وابتسامة ـ مجموعة مؤلفات جبران ـ ٢/١١٨ ـ ١١٩ ، ويصور جبران الوحدة الكونية ـ بأسلوبه الخاص ـ فى ص٩٥ فيقول : " تتبخر مياه البحر وتتصاعد ، ثم تجتمع وتصير غيمة ، وتسير فوق الطلول والأودية ، حتى اذا ما لاقت نسيمات لطيفة ، تساقطت باكية نحو الحقول ، وانضمت الى الجداول ، ورجعت الى البحر موطنها ٠ حياة الغيوم فراق ولقاء ، دمعة وابتسامة ٠ كذا النفس تنفصل عن الروح العام ، وتسير فى عالم المادة ، وتمر كغيمة فوق جبال الأحزان وسهول الأفراح ، فتلتقى بنسيمات الموت ، فترجع الى حيث كانت : الى الله ٠٠ " وانظر ما يقوله ـ فى هذا الموضوع ـ فى البدائع والطرائف ايضا ـ مجموعة مؤلفاته ٣/٢١٠ و ٢١٢ ٠ واعتقد مارون عبود (مجددون ومجترون ص ٢١٠) ـ تبعا لذلك ـ أن (جبران) كان يتصور صيرورة الضباب كيانا انسانيا كما تفعل أساطير الفينيقيين ، وأن هذا التصور قاده الى فكرة التقمص ، وقد انتهى مارون عبود الى أن جبران وثنى عتيق ٠ فماذا يقول الناقد فى تقمص نسيمة ؟ أهو وثنية فينيقية أيضا ؟ وماذا يقول فى التقمص الذى اعتقده بعض كتاب الرابطة الآخرين كعبد المسيح حداد وهو حمصى ؟ وماذا يقول فى (التقمص) على الاطلاق ؟

من التحليق فى فضاء بعيد بعيد ، يمتد من الأزل الى الأبد كما يقول جبران ، فى مقالة له بعنوان : (نشيد الانسان) : " أنا كنت منذ الأزل، وهأنذا ، وسأكون الى آخر الدهر ، وليس لكيانى انقضاء . سبحت فى فضاء اللانهاية ، وطرت فى عالم الخيال ، واقتربت من دائرة النور الأعلى وهأنا الآن سجين المادة ...

سمعت تعاليم (كونفوشيوس) ، وأصغيت لحكمة (براهما) ، وجلست بقرب (بوذا) تحت شجرة المعرفة ، وهأنا الآن أغالب الجهل والجمود . كنت على الطور اذ تجلى يهوه لموسى ، وفى عبر الأردن فرأيت معجزات الناصرى ، وفى المدينة فسمعت أقوال رسول العرب ، وهأنا الآن أسير الحيرة . شاهدت قوة بابل ، ومجد مصر ، وعظمة اليونان ، ولم أزل أرى الضعف والذل بادية فى جميع تلك الأعمال . جالست سحرة عين دور ، وكهنة آشور وأنبياء فلسطين ، وما برحت أنشد الحقيقة . حفظت الحكمة التى نزلت على الهند ، وأستظهرت الشعر المنبثق من قلوب سكان جزيرة العرب ، ووعيت الموسيقا المجسمة من عواطف أهل المغرب ، وما زلت أعمى لا أرى وأصم لا أسمع .

شاهدت وسمعت كل ذلك وأنا طفل ، ولسوف أشاهد واسمع أعمال الشبيبة ومآتيها ولسوف أشيخ وأبلغ الكمال وأرجع الى الله ... "(١)

هذا هو الفضاء الذى حلق فيه أعظم كتاب الرابطة القلمية ، وهذه هى النشوة الحارة التى أحسوها . كأنهم افترشوا الزمان والمكان ، وعاشوا الأعمار وعاينوا تجربة الانسان كاملة منذ انفصل عن ذات الله . وقد كان لهذا الخلود _ فى رأيهم _ غاية ، هى أن يتعلم الانسان من تجاربه الدائمة فى أعماره المتكاملة حتى يبلغ المعرفة الكاملة ، ويصبح الها ، يقول نعيمة :

" لو سألتمونى أن أحدد لكم بكلمة واحدة غاية الانسان من حياته لقلت : المعرفة . ولو سألتمونى ما الذى أعنيه بالمعرفة لأجبتكم : معرفة الانسان . فالانسان بروحه عالم تجمعت فيه كل العوالم من منظورة وغير منظورة ، فهى لا وجود لها الا فيه . وهو ان عرف ما فيه عرف كل شىء . لذلك لا قيمة عندى لكل مجهوداته ، الا على قدر ما تدنيه من معرفة نفسه ...

---

(١) دمعة وابتسامة _ مجموعة مؤلفات جبران _ ٢/٢٢٥ _ ٢٢٦

أن المعرفة التي أكلمكم عنها لا تنال في مدرسة أو مدارس، ولا في فسحة معلومة من العمر ، لا ولا في عمر واحد . بل نحن نلتقطها ـ اذا عرفنا كيف نلتقطها ـ في كل لحظة من وجودنا ، في اليقظة والمنام في الموطن والغربة ، في الحياة والموت . فهي منبثة في الكون انبثاث نور الشمس في كل شيء .... المعرفة كالله في كل مكان ....."(١)

والحياة ـ في رأي نعيمة ـ " مدرسة ومصهر . وهي " مدرسة الهية تعني بتربية الالهة . ولا ينال شهادتها النهائية الا الالهة ..."(٢) . يقول : فبالمعرفة التي ينالها الانسان ، يمزق الحجب عن نفسه ، ويصل الى الحقيقة الكامنة فيها ويتحرر من الأوهام ، على حد ما جاء في الانجيل : " وتعرفون الحق والحق يحرركم"(٣) .ولابد في سبيل ذلك من ألم التجربة ، ولكن " الالم هو معراج النفس الى الانعتاق من الالم " ..."وان طريق الجلجلة تنتهي الى الحرية المثلى والفرح الاقصى"(٤) .

وهكذا يتكامل تفسير كتاب الرابطة لهذه العقيدة ، بما يجعل الحياة في أعينهم وحدة تتقدم في نظام لا خلل فيه ، لغايات لا محيص عنها . وقد بدءوا يتخلصون بهذه العقيدة مما كان يثقل على ارواحهم وأفكارهم من ظلمات الشك والحيرة والقلق . فقد هدموا بها الثنائيات التي كانت تمزق نفس الانسان ، فالخير والشر ، والحياة والموت ، والجمال والقبح ، والغنى والفقر ، والعلم والجهل ، واللذة والالم .. ، كانت مفارقات تعذبهم وتحيرهم . كانوا يتساءلون عن معنى الشر ، والموت ، والقبح ، والجهل ، والالم ، فلما آمنوا بوحدة الحياة وتكامل المعرفة بالتجربة والالم ، وتكامل الانسان بالموت و (مسئوليته) أمام نفسه وأمام الحياة ، بررت هذه العقيدة سلوكهم وأقنعتهم . يقول نعيمة: " عندما قال الانسان أنا ـ والعالم ، عندئذ خلق من نفسه ضدا لنفسه ، واذ خلق لنفسه ضدا ، خلق ضدا لكل شيء ، وأصبح ينظر الى كل شيء بعينين ، عين يرى بها (أنا) وأخرى يرى بها (غير أنا) ، وهكذا ازدوجت الاشياء في نظره وهي واحدة ، فأضحى لايبصر شيئا الا أبصر معه في الحال نقيضه ،

---

(١) زاد المعاد ص ٣٨

(٢) مذكرات الأرقش ص ٥٢ و ٥٣ وانظر ص ٨٣ و ١١٤

(٣) انجيل يوحنا اصحاح ٨ آية ٣٢

(٤) من رسالة لنعيمة الى يوسف عضوب بتاريخ ١٩٢٨ ، انظرها في المكشوف (السنة ١٩٣٧ العدد ٩٢ ص ٢) .وانظر ما يقوله جبران في هذا المعنى ايضا في مقالته (القوة العمياء) ـ دمعة وابتسامة ، مجموعة المؤلفات ٢/ ١٧٩

ولأنّ النقيض يمحو نقيضه ، فالانسان لا يبصر في الواقع الا خيالات أوهامه ·
هكذا جزأ الانسان نفسه التي لاتتجزأ ، وبعثرها في كل أنحاء الكون ·····
وهكذا يسير هذا الانسان المبصر ـ الأعمى متلمسا سبيله في الكون ، وملتقطا
عن جوانب السبيل ذرات نفسه المبعثرة · غير أنه لا يلتقط ذرة من (أنا)
الا التقط معها ذرة من شطرها الثاني الذي يدعوه (العالم) أو (غير أنا)
وكلما التقط ذرة قال في نفسه : سأحتفظ بما في هذه الذرة من (أنـــا)
وأطرح ما (ليس أنا) واذ يحاول ذلك يجد أنه قد طرح (أنا) مع ما
(ليس أنا) ، لأنّ الاثنين لا يفترقان ، فيتألم ويعود يلتقط ذراته من جديد ·

هكذا يلتقط الانسان العافية ومعها المرض ·
والحب ومعه البغض
والايمان ومعه الالحاد
والقوة ومعها الضعف
·················
والحياة ومعها الموت وهلم جرا ·····

وبعد أن يطرح من كل ذلك ما يدعوه (غير أنا) يفتح يده ، فاذا
بها أفرغ من الفراغ ، فيشقى وأي شقاء شقاؤه (١) · أو ما سمعتموه يتكلم عن جهنم
النار ؟ تلك هي جهنم النار ، وهو موقدها وهو وقيدها ·· ولأنه يشقى ، تراه
لم يدع حيلة للتخلص من شقائه الا لجأ اليها · وآخر حيلة هي حيلة
(الخير والشر) ، فقد جلس بعد أن مرت به دهور من العذاب طويلة ، وقال
في نفسه : لقد اهتديت ، لقد اهتديت ، فسأخلص من جهنم النار اذا أنا ابتعدت
عن الشر ولم أطلب سوى الخير · فرتب الانسان لنفسه لائحة بالخير والشر·
ولكنه ما عتم أن رآه في حاجة الى تعديلها ، اذ وجد أن كثيرا مما دعاه
شرا كان خيرا ، وخيرا كان شرا · واذ عدل لائحة الخير والشر مرة ، اضطر
الى تعديلها ثانية وثالثة ، وهو يعدلها اليوم ، وسيبقى يعدلها الى أن يدرك
أنه يستحيل عليه الحصول على الخير دون الشر ، أو نبذ الشر دون الخير ،
لأنّ شره ليس الا خير شطر نفسه الثاني ، وخيره ليس الا شر ذاك الشطر ·

---

(١) انظر اختصار الفكرة في (مرداد) الفصل الثاني ص ٥٣ (في الكلمة المبدعة
" أنا " هي الينبوع والمحور) ·

ومتى اتحد الشطران توازن شرهما وخيرهما ، فكان لا خيرا ولا شرا ، بل كمالا لايحد ..." (١)

(٤)

وتبقى بعد ذلك مسألة تتصل بهذا ، وهي مسألة (الروح والجسد). فقد اضطرب فيها بعض هؤلاء الكتاب اضطرابا عنيفا ، ووقفوا فيها موقفا يكاد يطيح بهذه النتائج الفلسفية التي انتهوا اليها جميعا. فوحدة الحياة واعتبار الانسان صورة الله ، والنظر الى الكائنات باعتبارها مظاهر للقدرة الكلية التي تعمل بها وفيها ومن خلالها ، تستلزم كلها أن يعتبر الجسد مظهرا للروح لايمكن أن يفصل بينهما ، لأن الجسد تكثيف لهذه الطاقة العظيمة التي ندعوها الله . ويكرم الجسد بهذا كما تكرم الروح ، وتنتفي عنه صفة الدنس التي رافقته في معظم الفلسفات والأديان التي جاء بها الشرق ، فقد استذل فيها الجسد ، وألحقت به ضروب الأذى والتنكيل، واعتبر خصما لدودا للروح يجب ألا تهدأ في محاربته واذلاله ، ويجدر ألا يصغى الى نداءاته ومتطلباته ، وأن يقهر ويكبت وتجلد شهواته . ومثل هذا يعني التفريق بين الجسد والروح ، ويعني _ بالتالي _ العودة الى الثنائيات والمتناقضات والصراع ، وتقسيم الحياة والانسان الى ميادين تتصارع فيها الغرائز والميول والمثل . ويبقى الايمان ببهيمية الجسد وقداسة الروح . وقد انتهى (ميخائيل نعيمة) في أحد أحاديثه الى (٢) الى انكار هذا كله والى الايمان بأن الجسد هو عين الروح . وقال في التدليل على وحدة المادة والروح : " ان هؤلاء الذين يفجرون الذرة، سيفكون عقالها ، ولكنهم لن يصلوا الى شيء بعدها فليس بعدها الا الطاقة الالهية ".

ولكن من يرجع الى أدب المهجر يشهد بعد تلك النتائج الفلسفية التي انتهوا اليها ، اضطرابا محزنا ، ووقوفا عند الروح والجسد باعتبارهما كيانين منفصلين يقف واحدهما لحرب الآخر وتحطيمه ، حتى ليعتقد الباحث

---

(١) المراحل ١٣٠ _ ١٣٣ وانظر ما يقوله جبران عن الثنائية في دمعة وابتسامة _ مجموعة مؤلفاته ١٢٣/٢ و ١٣٧

(٢) في حلب سنة ١٩٥٥.

أن صدق هؤلاء الأدباء فى عقيدتهم وعمق مخالطتهم للنتائج الفلسفية التى انتهوا اليها ، لا يلقيان امتحانا أقسى من الامتحان الذى يتعرضان له فى مسألة الروح والجسد . كأن جزرا عجيبا يحسر الموج عن هذا الشاطئ . وهذا يضطرنا الى أن نسأل أنفسنا : كيف تصور هؤلاء الأدباء خلق الانسان . وكيف تصوروا الروح .

لقد كانت أمامهم المسيحية وحلولها المحزنة لمسألة الروح والجسد ، وهى الحلول التى تصور الجسد - هيكل الله - فى هذه الصورة ؛ فيقول المسيح : " الروح هو الذى يحيي ، أما الجسد فلا يفيد شيئا "(١) ، ويقول بولس الرسول : " بل أقمع جسدى وأستعبده "(٢) ، ويقول : " ان كنا نحن قد زرعنا لكم الروحيات أفعظيم ان حصدنا منكم الجسديات ؟ "(٣) ويقول : " فان الذين هم حسب الجسد فيما للجسد يهتمون ، ولكن الذين حسب الروح فيما للروح ، لأن اهتمام الجسد هو موت ، ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام "(٤) ، ويقول : " اهتمام الجسد هو عداوة لله "(٥) ، ويقول : " ولكن ان كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون "(٦) ، ويقول : ان لحما ودما لا يقدران أن يرثا ملكوت الله "(٧) ، ويقول : " ان الناموس روحى وأما أنا فجسدى مبيع تحت الخطيئة "(٨) ويقول : " ليس ساكن فى أى فى جسدى شيء صالح "(٩) ، ويقول : " لهلاك الجسد لكى تخلص الروح "(١٠) ...

---

(١) انجيل يوحنا اصحاح ٦ آية ٦٣
(٢) رسالة بولس الأولى الى أهل كورنثوس اصحاح ٩ آية ٢٧
(٣) " " " " " " اصحاح ٩ آية ١١
(٤) رسالة بولس الى أهل رومية " ٨ " ٥ - ٦
(٥) " " " " " " " ٨ " ٧
(٦) " " " " " " " ٨ " ١٣
(٧) " " " " " كورنثوس " ١٥ " ٥٠
(٨) " " " " " رومية " ٧ " ١٤
(٩) " " " " " " " ٧ " ١٨
(١٠) " " " " " كورنثوس " ٥ " ٥

هذه الحرب العنيفة للجسد ، تتلاقى فيها المسيحية من جديد مع الفلسفات والأديان الشرقية القديمة ، فقد بلغ اذلال الجسد واحتقاره في البوذية حد الاجاعة والتعذيب المتقصد ، (١) ولعل هذا الموقف القاسي الذي وقفته المسيحية من الجسد ، كان سببا في تمرد الفكر الغربي عليها ، أو تحويره لها تحويرا ذهب بروحها ، وهيأ لانفجارات فلسفية كثيرة كان آخرها وأعنفها الانفجار الماركسي . وقد أخذ بعض كتاب الرابطة عن المسيحية موقفها هذا ، ولم يستطيعوا أن يخلصوا بعقيدة وحدة الحياة من هذه المفارقات التي تلبستها ، حتى في أصولها في الفلسفات الشرقية القديمة . وهذا يعني أنهم -في مضمون أدبهم الروحي- لم يحاولوا أن يخلصوا لأنفسهم بعقيدة واضحة منسجمة في أصولها الفلسفية ، قدر ما استجابوا في طواعية ويسر للمسيحية القريبة وأصولها الشرقية القديمة ، وما تأثرت به من بعض فلسفة اليونان وآرائهم في النفس والروح . (٢) فقد رجعوا الى هبوط الروح من عالم المثل الذي تحدث

(١) حتى ان بوذا حين وقع مغشيا عليه من الجوع ، وأدرك أن الحقيقة لا يصل اليها الا عقل حسن التغذية ، فأقبل على التغذية الحسنة ، فارقه حواريوه الخمسة مستنكرين اتجاهه .. انظر
Wells - Esquisse de l'histoire universelle . P: 189
وانظر انجيل بوذا - ترجمة عيسى سابا - ص ٤١ (بوريفيلفا - أو قمع الجسد)

(٢) انظر مقالة لوديع ضومط بعنوان (ساعة مع روح جبران) في الهلال (السنة ١٩٥٣ العدد مايو ص ٤٢ - ٤٣) فهو ينتهي الى أن جبران لم يتكلم الا بما تكلم به المسيح وبوذا ولاوتسو وداود وسليمان وأيوب واشعيا . والعجيب أن بعض النقاد يسميهم فلاسفة ، ويزعم أن فلسفتهم وحدها ربما بقيت بعد حين وانطفأ أدبهم .. (انظر مقالة لخليل تقي الدين بعنوان : (جبران كما أفهمه) في المكشوف ١٩٣٦/عدد ٥٠/ص٢) ويرى (العقيقي) - في مقالة نشرها بعنوان (ميخائيل نعيمة يتقمص ألف مرة ومرة) -: أن نعيمة في عقيدة التقمص لا يتعدى مذاهب البراهمة . انظر المكشوف (السنة ١٩٣٦ العدد ٧٠ ص٨) . ويرى الدكتور جميل صليبا : أن في تصوف المهجريين أثرا من الأفلاطونية الجديدة ، ومن روح التصوف الشرقي الذي نجده عند السهروردي وغيره من فلاسفة الاشراق . انظر (الاتجاهات الفكرية في الشام وأثرها في الأدب الحديث) ١٨٠ . ويرى الدكتور عمر فروخ : أن المهجريين وجدوا مجال شخصيتهم في البوذية الهادئة الوادعة المتشائمة ، أو في الصوفية الفارسية التي تحاول الانعتاق من التقاليد . انظر مجلة الحديث (السنة ١٩٤٩ عدد كانون الثاني ص ٤٦ .) .

عنه أفلاطون. وقرب ذلك الى مخيلاتهم هذه الصورة التي صورها الانجيل لهبوط روح الله : " واذا السموات قد انفتحت له ، فرأى روح الله نازلا مثل حمامة ، وآتيا عليه (١) " ، وأغرموا ـ لهذا ـ بعينيه ابن سينا المشهورة (٢) :

هبطت اليك من المحل الأرفع   حسناء ذات تدلل وتمنع

وهكذا يتضح موقفهم في التفريق بين الجسد والروح (٣) ، ثم تأثرهم بالمسيحية والفلسفات الشرقية القديمة في اذلال الجسد وقهره من أجل خلاص الروح . فنعيمة يجعل من بعض أسلحة الأرقش ضد الألم " كبح جماح اللحم والدم (٤) " ، ويجعله يصارع " البهيمية في نفسه (٥) " ، ويعتبر اللذة الجنسية " لذة بهيمية (٦) " يترمد بها الشوق الى الكمال ، ويقول الأرقش لنفسه : " رب عين دعجاء أعمت عينك ، ورضاب معسول جفف رضابك ، ودم ملتهب بالشهوات ألهب دمك ، فحدت عن طريقك وأنت تحسبك ماضيا فيه وترمدت بنار شهواتك وأنت تحسبك مستعرا بشوقك الى الكمال (٧) " ، ثم يدعو نعيمة ـ في صراحة ـ الى قهر الجسد ، فيقول بلسان مرداد : " انى أبشر بالانسان المتغلب ، الانسان ـ الفينقس ، المنعتق الى حد ألا يكون ذكرا ، والمتسامى الى حد الا يكون أنثى (٨) " ، وهو يعني الانسان المتوحد الذى اجتاز مرحلة الثنائية عائدا الى مرحلة الأحدية فانتفى أن يكون ذكرا أو أنثى . ويعتقد نعيمة أن الطبيعة " تبارك " شهوة

---

(١) انجيل متى اصحاح ٣ آية ١٦

(٢) انظر كلاما عليها لجبران في الفنون : السنة ١٩١٧ عدد ٣ ص ١٨٧ ـ ١٩١ . وانظر البدائع والطرائف ، مجموعة مؤلفات جبران ٣/٢٢٩

(٣) انظر مذكرات الأرقش لنعيمة ص ٥٧ ، فهو يقول : " فالأجساد للأجساد والأرواح للأرواح ، أما الأجساد فلابد من موتها لأنها في حاجة الى الغذاء ... وأما الأرواح فغذاؤها الأرواح .. " ويقول جبران : " نفوس تطلب الانعتاق من أثر المادة ومادة تروم السيادة على النفوس " انظر المشرق . السنة ٣٧ ص ٢٥٠ (مقاطع منقولة من دفاتر جبران لأفرام البستاني) .

(٤) انظر مذكرات الأرقش ١٠٠ وانظر أيضا ٨٠ و ٨٩

(٥) المصدر السابق ٨١

(٦) المصدر السابق ٥٢

(٧) المصدر السابق ٧٩

(٨) مرداد ١٥٩ . وانظر الفصل الثاني والعشرين كله .

اللحم والدم لتخرج بالانسان ـ فى آخر الطريق ـ من تلك المرحلة التى الأحدية . ولكن " التواق الى التغلب والانعتاق " يقهر سلطان اللحم والدم " وان كان " فى حالة اللحم والدم " . يقول : " دعوا غير التواقين يجددون النسل ، أما التواقون فعليهم أن يخلقوا نسلا آخر ـ نسل المتغلبين . ونسل المتغلبين لا ينحدر من الظهر والرحم ، بل يصعد من القلوب المتبتلة التى تقود دماءها ارادة التغلب (١) ... " .

أما جبران ، فقد شف أدبه عن احساس عميق بوحدة الجسد والروح ، ساعد على احكام هزيمته أمام " سلطان اللحم والدم " ، مع غربته فى النضال الى جانب (المثال) الروحى . وقد كان صراعه طويلا مع " اللحم والدم " على نحو ما عرضنا فى فصل المفارقات الشخصية ، وكان يمنى بالهزيمة فى أغلب الأحوال . ولعل قارئ (الأجنحة المتكسرة) يحس بالصراع الدائر وراء الغلائل الرقيقة ، ثم لا يلبث أن يقع ـ فى بعض التعبيرات ـ على دلائل الهزيمة (٢) . وتمثل مقالة (الجنية الساحرة) (٣) هذه المواقف أتم تمثيل ، فقد أعلن جبران ـ فى مطلع المقالة ـ تمرده على عبودية الحب الجسدى " الى اين تسيرين بى أيتها الساحرة ؟ . حتى م أتبعك على هذه الطريق الوعرة ـ المنسابة بين الصخور ، المفروشة بالاشواك ، المتصاعدة بأقدامنا نحو الاعالى ، الهابطة بنفسيتنا الى الاعماق ! .. " . ثم بدأ يحك قيوده : " واليوم .. وقد لقيتك أيتها الساحرة ، وتسممت بقبل يديك ، فقد أصبحت مثل أسير أجر قيودى الى حيث لا أدرى .. " ثم أعلن كسرها : " ولكن قفى قليلا أيتها الساحرة ، فها قد استرجعت قواى ، وكسرت القيود التى بسرت قدمى ، وسحقت الكأس التى شربت منها السم الذى استطيبته .. " ثم ما يلبث أن ينكشف ـ فى قوة عاصفة ـ عن الانهيار الأخير : " اذاً هذى يدى فهزيها بيدك الجميلة ، وهذا جسدى فضميه بذراعيك الناعمتين ، وهذا فمى فقبليه قبلة طويلة ، عميقة خرساء ... "

وهكذا نستطيع أن نقول : ان التفريق بين الروح والجسد قاد نعيمة الى صراع طويل مع الجسد ، نجح ـ منذ البدء ـ فى السيطرة على

---

(١) مرداد ١٦١ (٢) انظر الصفحات ٨ و ٦٦ و ٨٣

(٣) العواصف ـ مجموعة مؤلفات جبران ٣/٣٥ ، ويقول نعيمة فى كتابه عن جبران ان الجنية المقصودة فى المقالة هى امرأة لبنانية عرفها جبران فى نيويورك ، انظر ص ١٦٧

ميادينه المختلفة ، على حين اخفق جبران ـ في هذا اخفاقا ساعد عليه احساسه بالوحدة بين الروح والجسد وسجله أدبه في أمانة ، وانسانية عامرة ٠

(((٥)))

وقد انتهى بنعيمة موقفه من التزام جانب الروح ، الى احتقار الحواس واعتبارها قاصرة عن ادراك الحقيقة ٠ وهو منسجم في ذلك مع الانجيل الذي يقول بلسان المسيح لتوما : " لأنك رأيتني يا توما آمنت ٠٠ طوبى للذين آمنوا ولم يروا ٠٠٠ " (١) ٠ يقول نعيمة على لسان الأرقش : " ومن جهل الانسان أنه يسعى الى المعرفة بحواسه الخارجية لاغير ، وحواسه الخارجية لا تتعدى ظواهر الأمور ، وهي محصورة ومحدودة ، فكل ما تتناوله محصور ومحدود ، وهي خداعة فكل ما تحسه خداع ٠٠٠ " (٢) ٠ أما جبران فقد وقف من الحواس موقفا أكرم ، فربط بين قدرتها وقدرة الروح ٠ وكان ـ في ذلك ـ على انسجام كامل مع احساسه بوحدة الروح والجسد ٠ وقد عبر عن ذلك بلسان (العلوية) (٣) ، فقال : " ليس ما نراه على الأرض ، وما لا نراه ، سوى حالات روحية " و " كل المرئيات والمعقولات حالات روحية " ، هذا في حين ألغى نعيمة ـ في التزامه جانب الروح ـ الجسد الغاء كاملا فقال عن الأرقش انه " فكر متجسد ، لا جسد مفكر " (٤) ٠

ومن هنا جاز لنا أن نستخلص أن نعيمة كان أكثر اخلاصا (لحقائق) الانجيل ، وأكثر تمسكا بها ، من جبران الذي بدا أقدر على التحرر من سلطانها ، وأكثر انطلاقا مع ما تستلزمه العقيدة بوحدة الوجود والوهة الانسان من تقديس للجسد (٥) ٠

على أن جبران ونعيمة كليهما ، آمنا بقدرة الخيال في الوصول الى الحقيقة ، واعترفا بقدرته التي تتخطى قدرة الحواس ، وتجمع ظواهر الطبيعة ، وتوحد بينها حتى ليعتبره نعيمة " العين الوحيدة المبصرة " (٩) ، ويقول عنه : " هو الدليل الأوحد الى الحقيقة ، كل ما تتخيلونه كائن ، وكل ما لا تتخيلونه لا كيان له " (٥) ٠ وهو يرفعه فوق العقل فيقول : " أما العقل الذي

---

(١) انجيل يوحنا ، اصحاح ٢٠ آية ٢٩ (٢) مذكرات الأرقش ٢٦ ـ ٢٧
(٣) انظر (ارم ذات العماد) ـ البدائع والطرائف ٠ مجموعة مؤلفات جبران ٣/٢٧٨
(٤) الأرقش ٢٦ ـ ٢٧ (٩) زاد المعاد ٩ (من مقالة بعنوان : الخيال)
(٥) جبران يصف الجسد بأنه الهي ، ذكرياتي مع جبران للحويك ٢٧

يغالي الناس في تكريمه ، فليس سوى ولد جموح يقوده الخيال من أنفه ..." (١)
ويقول : " يدأب العقل بغير انقطاع في الأودية المكتظة بأشباح الحواس المظلمة ، يتمترهنا ويدب هناك ، ولا ينتهي الى شيء ، أما الخيال فبلمحة الطرف يطوف القمم المشرفة على تلك الأودية ، وكومضة البرق ينير بلحظة أرجاء فسيحة من الحقيقة حيث العقل يتلمس سبيله ، وفي يده الواحدة عصا كسحاء وفي الأخرى سراج بلا زيت ..." (٢) . ثم يقول : " ألا أطلقوا خيالكم من أقفاص العقل وحلقوا معه حيثما حلق بكم ، وعندئذ تجدون أن ليس في الكون أرجاء الا ولكم فيها أثر ، وعندئذ تتذوقون نشوة المعرفة بأنكم والحياة بأسرها وحدة لا تتجزأ ..." (٣) . ويقول جبران بلسان (العلوية) (٤) : " ما أجهل من يتخيل أمرا ويتصوره بشكله ومعالمه ، وعندما يستحيل عليه انباته بالمقاييس السطحية والبراهين اللفظية يحسب الخيال وهما ، والتصور شيئا فارغا . ولكن لو تعمق قليلا وتأمل هنيهة ، لعلم أن الخيال حقيقة لم تتجسم بعد ، وأن التصور معرفة أسمى من أن تتقيد بسلاسل المقاييس وأعلى وأرحب من أن تسجن بأقفاص الألفاظ ... إن مرآة النفس لا تعكس سوى ما انتصب أمامها ، ولو شاءت لما استطاعت ... انما الايمان بالشيء المعرفة بالشيء ، والمؤمن يرى ببصيرته الروحية ما لا يراه الباحثون والمنقبون بعيون رؤوسهم ، ويدرك بفكرته الباطنة مالا يستطيعون ادراكه بفكرتهم المقتبسة ..." .

والتقاء جبران ونعيمة في ايمانهما بقدرة الخيال على تحصيل حقائق أوسع وأعمق من الحقائق التي يحصلها العقل ، مرده الى احساسهما بقدرة الخيال على الامتداد والشمول والتحرر من سلطة المنطق والحس ، وهذه هي سمات النشوة الصوفية التي كانا يشاركان المتصوفة في تذوقها ، والسعي وراءها .

وقد سخر نعيمة من المنطق سخرية مرة في كتابه (مرداد) فقال :
" انما المنطق فكر ما بلغ أشده ، فما يزال يحوك شباكا من الخيتعور آملا أن يصطاد بها بهموت المعرفة . لكنه لا يبلغ أشده حتى يخنق نفسه بشباكه ، واذ ذاك يتحول ايمانا ، والايمان معرفة صوفية . المنطق عكاز للمقعد ، ولكنه عبء على العداء ، وعبء أفدح من ذلك على ذي الجناح ..." (٥)

---

(١) زاد المعاد ٩ [redacted]
(٢) المصدر السابق ١٠ (المقالة ذاتها)
(٣) المصدر السابق ١٢
(٤) (ارم ذات العماد) ـ البدائع والطرائف . مجموعة مؤلفات جبران ٣/٢٨٦ ـ ٢٨٧
(٥) مرداد ١٤٠

وحاول جبران أن ينال من المنطق بمناقشة بعض النتائج التي يتوصل اليها الناس ـ عن طريقه ـ في بعض مسائل ما وراء الطبيعة، فقال : "٠٠ عجبت لمن يثبت بقاء الذوات في الغلافات الخارجية التي تتصورها حواسنا، ولكنه ينكر ما جعلت الغلافات من أجله ٠ عجبت لمن يقرر خلود العناصر التي تتألف منها العين ، ولكنه يشك بخلود النظر الذي اتخذ العين آلة له ٠ عجبت لمن يثبت أبدية المسببات ولكنه يحتم باضمحلال الأسباب ٠ عجبت لمن تشغله المظاهر المكونة ، عن المكون المظهر ٠ عجبت لمن يقسم الحياة الى شطرين ، فهو من بالشطر المدفوع ، ويجحد الشطر الدافع ٠٠" (١) ٠

فأما بعض كتاب الرابطة الآخرين فلم يوغلوا في هذه المباحث ، وانما اكتفى بعضهم بلمحات ترد عرضا لا تكاد تدل على نظرة ثابتة (٢) ٠

(((٦)))

وقد استعانوا على اطلاق خيالهم بالتأمل والصمت ، شأن الصوفية منذ القديم ٠ وكان يلجئهم ذلك الى الامعان في العزلة ، فالأرقش كان يقضي

---

(١) البدائع والطرائف ـ مجموعة مؤلفات جبران ٣/ ٢٨٣

(٢) مثال ذلك قول نسيب عريضة ـ وهو يعني كنوز العالم :

حجبت على من ليس يعـ ـــــــــــــــرف ما الخيال وليس يدري

وقوله :

ما العين الا ما بخيل والعيان سراب قفر

والوهم من طين اليقين وغير ذلك لست أدري

(الأرواح الحائرة ص ٢٢٨ ـ ٢٩ ، من قصيدة : لست أدري)

وقوله :

لو صدق المرء في البرايا لشام ما لا ترى العيون

كم مبصر لا يرى ٠٠ وأعمى يرى ويدري الذي يكون

يا ويح من لا يرون شيئا الا اذا فتحوا الجفون

(الأرواح الحائرة ٨٦ ٠ من قصيدة : رباعيات)

أياما بطولها ساكتا لا يتكلم . وهو يقول : " الناس قسمان : متكلمون وساكتون . أنا قسم الانسانية الساكت ، وما بقى فمتكلمون . أما البكم والرضع فلغاية ختمت الحكمة الأزلية على أفواههم فلا يتكلمون ، فى حين أنى ختمت على فمى بيدى . وقد أدركت حلاوة السكوت ، ولم يدرك المتكلمون مرارة الكلام ، لذاك سكت والناس يتكلمون ... " (١) . وهذه الحكمة الأزلية التى أشار اليها الأرقش هنا ، هى أن " يتصل بالعالم الأعلى ويسير معه " (٢) . والصمت يهيئ لهذا الاتصال ، ولهذا لجأت مريم اليه " استعدادا لميلاد كلمة الله فيها " (٣) فهو يوفر للمتصوف خلوة عميقة ، " وهذه الخلوة هى رجاء عذب ، يتذوقه المرء من الذوق الباطن ، وهى وحدة فى صمت ، فمن شأنها أن تعين على تكوين حكمة جوهرية فى قلب الزاهد العابد " (٤) . وقد أدرك نعيمة حقيقة هذه الخلوة منذ كان صغيرا فى مدرسة الناصرة ، فقد كان يقضى أحيانا/عشرة أيام ينذر فيها السكوت حتى لينقطع عن القاء التحية على رفاقه (٥) ، ويقول ، — فى الصمت — بلسان (مرداد) الى رفاقه : " ان الصمت الذى أود أن أدخلكم اليه هو تلك الفسحة غير المحدودة ، حيث يتحول اللاوجود الى وجود ، والوجود الى لا وجود . هو ذلك الفراغ الرهيب حيث يولد كل صوت ثم يخفت ، وكل شكل ثم يسحق ، وكل حكمة ثم تمحى ، حيث لا شئ الا . وأنتم ما لم تجتازوا تلك الفسحة ، وذاك الفراغ فى التأمل الصامت ، استحال عليكم أن تعرفوا حقيقة وجودكم ووهم عدم وجودكم ، أو أن تعرفوا الى أى حد ترتبط حقيقة وجودكم بحقيقة كل الوجود . ذاك هو الصمت الذى أودكم أن تجوبوا أرجاءه كيما تنزعوا عنكم فى النهاية جلدكم القديم الضيق ، وتنطلقوا فى رحاب لا حدود فيها ولا قيود ... ذاك هو الصمت الذى أوصيكم به ، وهو غير الراحة الموقتة من الكلام للسان أعياه الكلام " (٦) .

---

(١) مذكرات الأرقش ١٣ ، وانظر أيضا ص١٥ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٧

(٢) المصدر نفسه ٦٩

(٣) ماسينيون — مقالة عن الحلاج فى كتاب (شخصيات قلقة فى الاسلام) لعبد الرحمن بدوى . ص ٦٥

(٤) عن ماسينون فى المصدر المشار اليه سابقا .

(٥) من حديثه الى فى القاهرة بتاريخ ١٩٥٧/١٢/١٦ . وانظر بالنسبة لنسيب عريضة وحبه للصمت أيضا — قصيدة (الصمت) التى ترجمها شعرا عن الشاعر الروسى تيوتشف (ديوان الأرواح الحائرة ٢٤) وهو يحض على الصمت لادراك الكون الذى فى القلب .

(٦) مرداد ١٠٥ . وانظر — فى هذا المعنى — مقالة أيها الليل لجبران . العواصف مجموعة المؤلفات ٣١/٣

وواضح أن هذا الصمت الذى يعين على تبين الحقيقة الكامنة فى النفس ــ فى رأى هؤلاء الكتاب والمتصوفة ــ يعنى التمشى مع الفلسفة المثالية التى تؤمن بأن الحقيقة الأزلية مثواها النفس[١]، وبذلك آمنت المسيحية التى تقول : " ملكوت الله داخلكم "[٢] ،والتى اعتبرت الشر فى المجتمع صورة للشر فى داخل النفس : " لانه من الداخل ، من قلوب الناس تخرج الافكار الشريرة "[٣] . فليست هناك فى الخارج حقيقة ليس أصلها النفس : " ليس شئ نجسا بذاته الا من يحسب شيئا نجسا فله هو نجس "[٤] . والله لا يبدو الا لمن صفت قلوبهم : طوبى للانقياء القلب ، لانهم يعاينون الله "[٥] . وقد بدا انصراف بعض هؤلاء الأدباء الى هذه الحقيقة الرئيسية انصرافا جعل " كل مكان وزمان " ــ فى نظر بعضهم ــ " حالة روحية " ، " وكل المرئيات والمعقولات حالات روحية "[٦] . يقول جبران : " فان أغمضت عينيك ، ونظرت فى أعماق أعماقك رأيت العالم بكلياته وجزئياته ، وخبرت ما فيه من النواميس ، وعلمت ما يلازمه من الذرائع وفهمت ما يتلمسه من المحجبات . أجل انك اذا أغمضت بصرك ، وفتحت بصيرتك ، رأيت بداية الوجود ونهايته ... " ~~و~~أن " كل ما فى الوجود كائن فى باطنك ، وكل ما فى باطنك موجود فى الوجود ، وفى حركة من حركات الفكر كل ما فى العالم من الحركات والأنظمة ... "[٦] . ويقول فى موضع آخر : " ان الحياة تنبثق من داخل الانسان ولن تجئ مما يحيط به ... "[٧] " فلو لم يكن فينا ما فينا لما كان فى خارجنا ما فى خارجنا ... "[٨] . ويقول نعيمة : " ان (أنا) لينبوع تتدفق منه الاشياء كلها واليه تعود ... "[٩] ويقول : " وما الطبيعة ــ فى الواقع ــ سوى مرآة الانسان ... فمصباح الطبيعة ليس فى الطبيعة عينها ، بل فى الانسان نفسه " و " من شاء أن يعرف الطبيعة فليعرف نفسه أولا ... "[١٠] .

---

(١) صرح نعيمة ــ فى احدى رسائله الى ، بتاريخ ٩ كانون الأول ١٩٥٨ ــ بتأثره بأفلاطون وسبينوزا .

(٢) انجيل لوقا اصحاح ١٧ آية ٢١ . ولعل ذلك يعود فى الأصل الى تأثير التفكير الهندى الذى يعتقد بأنه يمكن الوصول الى المعرفة عن طريق التنسك والابتعاد عن الناس . انظر Wells - Esquisse .... P : 189

(٣) انجيل مرقس اصحاح ٧ آية ٢١

(٤) رسالة بولس الى أهل رومية اصحاح ١٤ ــ آية ١٤

(٥) انجيل متى اصحاح ٥ آية ٨

(٦) البدائع والطرائف ــ مجموعة مؤلفات جبران ٣/ ٢٧٨

(٧) دمعة وابتسامة ــ مجموعة المؤلفات ٢/ ٢٣٣

(٨) البدائع والطرائف ــ مجموعة المؤلفات ٣/ ٢٨٤

(٩) مرداد ٥٥ (١٠) الأرقش ٨٣ وانظر أيضا ص ١١٤

(((٧)))

وقد اتصل هذا العكوف على النفس ـ لاستجلاء الحقيقة الكامنة فيها ـ بفتنتهم بالطبيعة وجلالها . وهذه دورة تعيدهم الى ماضيهم في وطنهم الجميل الهادئ . وقد أغرموا ـ من الطبيعة ـ بالغاب ، لانه صورة محسوسة لما يتوقون اليه من انطلاق وتمرد على القيود ، ومخالطة للقدرة السارية في الكون والذوبان فيها ، والانتشاء بالاحساس العميق بوحدة الحياة، والاستسلام الى مشيئتها ، والاستراحة الى وعيها ، والايمان بغاياتها ، والتخلص من مفارقاتها الموهومة ومتناقضاتها التي تصطنعها حياة الانسان المزيفة في المدينة . وقد كانت هذه الفتنة بالطبيعة غنى رائعا لهذا الجانب من جوانب المضمون الانساني بدا فيه تأثرهم بأسفار التوراة الشعرية والأدب الرومانسي الشائع آنذاك . فقد فشا وصفهم للطبيعة في نثرهم ، حتى أخذوا منها ألوان صورهم وخيالاتهم ، وغنوها غناء عذبا يملأ القلب شجنا واحساسا بالغربة، وقدسوها ونفذوا الى روحها ، وصوروا ما بينها وبينهم من الصلات والوشائج ، فبدا تأثرهم بالأدب الأمريكي من حولهم ضئيلا (١) لأن علاقة الانسان بالطبيعة مما لا تحفل به كثيرا آداب المجتمعات الضخمة المشغولة بقضايا اجتماعية وسياسية كبيرة ، ويبدو أن أدباءهم ـ الذين التفتوا حينا الى الطبيعة ـ (٢) كانوا يغلبون عقلهم في النظر اليها ويفلسفون صلاتهم بها ، على حين كانوا هم يغلبون احساسهم الفطري وانفعالهم الفني البسيط .

وقد أبصر هؤلاء الكتاب أنفسهم في الطبيعة ، تمشيا مع عقيدتهم في وحدة الحياة ، وكون الطبيعة مرآة للنفس ، فخلعوا عليها احساسهم وفكرهم ، وناجوها واستلهموها ... وتعدوا في وصف جمالها المشهد المنظور الى ما وراءه من معان وأسرار ، فالطبيعة عندهم تحس وتشعر الى أعمق مما تحس وتشعر به الحواس الخمس " (٣) . وهكذا بدت الطبيعة تتنفس في أعينهم بروح الألوهة ، وتزهو بتاجها ، وتقترب منهم حتى تخالطهم عظما وعصبا وروحا .

وقارئ أي أثر من الآثار التي خلفها هؤلاء الكتاب ، يمكنه أن يقع على أمثلة كثيرة لهذه المخالطة (٤) ، فالطبيعة دائما محراب ومجهر ووساد .

---

(١) انظر مقالة لزكي مبارك في الرسالة السنة ١٠ ص ٩١ فقد أشار الى شيء من هذا وان لم يحلله .

(٢) انظر مثلا ما كتبه (هنري تورو) عن الغابة في كتابه (والدن أو وحي الغابة) ترجمة محمد مرسي قنديل .

(٣) جورج صيدح ـ أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية ٦٠

(٤) سنقلل هنا من ايراد الأمثلة لسهولة الوقوع عليها في آثار كتاب الرابطة جميعا .

يقول نعيمة بعد أن عاد الى لبنان : " انظر الى الجبال التى كنت أتسلقها ، فاذا بها تتسلقنى ، والى الأودية التى كنت أهبط اليها ، واذا بها تهبط الى أعماقى ، والى البساتين والكروم والحقول التى أتمشى فيها ، واذا بها تتمشى بين جنبات ضلوعى . وكأن كل غرسة فيها غرست فى داخلى .. أكاد لا ألمس حجرا الا تفجرت منه سيول من الطهر والجمال . أكاد لا أسمع زقزقة عصفور الا سمعت فيها أجواقا من الملائكة ترنم بصوت واحد (قدوس . قدوس . قدوس) أكاد لا أرفع بصرى الى نجم الا تدلت منه سلالم سحرية ، هى سلالم المحبة التى تربط كل ما فى السماء بكل ما على الأرض ...." (١) .

ويقول جبران يخاطب الأرض : " ما أنت أيتها الأرض ، ومن أنت ؟.. أذرة من الغبار تصاعدت من بين قدمى الله عند ما سار من مشارق الأكوان الى مغاربها ؟.. أم شرارة قذفت من موقد اللانهاية ؟...

أنواة طرحت فى حقل الأثير لتشق قشرتها بعزم لبابها ، وتتعالى نصبة ربانية الى ما فوق الأثير ؟... أقطرة من الدم فى عروق جبار الجبابرة أم أنت قطرة من العرق على جبينه ؟...

أثمرة تلوحها الشمس ببط ؟... أثمرة أنت فى شجرة المعرفة الكلية التى تمد عروقها فى أعماق الأزل ، وترفع غصونها الى أعماق الأبد .. أم جوهرة أنت وضعها اله الزمن فى حفنة اله المسافة ؟..

أطفلة أنت فى جفن الفضاء .. أم عجوز ترقب الأيام والليالى ، وقد شبعت من حكمة الليالى والأيام ؟..

ما أنت أيتها الأرض ، ومن أنت ؟.

أنت أنا أيتها الأرض .. أنت بصرى وبصيرتى ، أنت عاقلتى وخيالى وأحلامى أنت جوعى وعطشى ، أنت ألمى وسرورى ، أنت غفلتى وانتباهى .

أنت الجمال فى عينى ، والشوق فى قلبى ، والخلود فى روحى . أنت أنا أيتها الأرض ، فلو لم أكن لما كنت ...." (٢) .

ان المخالطة العميقة للطبيعة هى التى أنطقت هؤلاء الأدباء بمثل هذه الأناشيد ، حتى لقد أبكوا الصخر وأنطقوا الشجر وأطلقوا أسراب الملائكة فى

---

(١) زاد المعاد ٢٦

(٢) البدائع والطرائف ـ مجموعة مؤلفات جبران ٣/ ٢١٩ ـ ٢٢٠

السماء ، ونقلوا الوديان والمياه فأجروها في ضلوعهم ، ونصبوا الى السماء سلالم رأوها بعين بصيرتهم ، وتضاءلت في أعينهم الأبعاد ، فاخترقوا النهايات ووصلوا الى قلب الله في قلب الطبيعة . ونحن نعتقد أن الطبيعة لم تغن في الأدب العربي قديمه وحديثه غناء أحر وأعمق من هذا الغناء .

ولقد شارك بعض كتاب الرابطة الآخرين في الاستراحة الى الطبيعة وغنائها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبلغوا المدى الذى بلغه جبران ونعيمة من حيث قوة الانفعال والعمق في استبطان الظواهر والمرئيات ومن حيث الحرارة في التعبير . يقول نسيب عريضة — مثلا — يصف ربيع سورية : " ألا تعرفون ذلك الربيع — ربيع سورية ؟.. ألا تذكرون السماء زرقاء صافية، بعيدة القصر ؟.. ألا تذكرون اللذة التي يشعر بها الانسان حينما يضطجع على العشب في أحد المروج ، أو على ضفة النهر ، ويضع يديه تحت رأسه ، وينظر الى السماء الزاهرة ليلا ، ويعد نجومها ، ويستغرق في أحلام فردوسية فيشعر بتخدر في نفسه وكيانه ، فلا يدرى الا وقد امتزجت خلاصة روحه بألحان الخرير والحفيف وبصيص النجوم وذرات الأثير ...؟ (١) " .

فالقارئ يحس بأن المخالطة هنا تجرى من وراء ستار ، ستار لا يرى، يحاول الكاتب أن يرفعه دون جدوى ، كأن المخالطة تتم في الخيال لا في أعماق النفس كما يحس ذلك عند نعيمة وجبران . ولكن القارئ ما يزال يحس — هنا أيضا — الجلال والروعة والتفتح .

على أننا يجب أن نعترف — على كل حال — بأن هذا النجاح الذى أصابوه — على ضخامته — لم يصل الى ما وصلت اليه بعض الآداب الشرقية — كالأدب الهندي — في غناء الطبيعة ، فقد يحس القارئ هنا بنشوة عميقة تشق قلب الحياة ، وهى نشوة لم يصل الى مستواها غير الهنود الذين رضعوا البوذية في المهد ، أمثال (تاجور) و (كريشنا مورتى) .

(((٨)))

ونصل الآن الى سؤال صغير لابد أن يخطر على بال القارئ ، وهو : لماذا لم يتصل بعض هؤلاء الأدباء اتصالا عميقا بتجارب المتصوفة من المسلمين — على الرغم من وحدة التفكير الصوفي — وهم قد اتصلوا بفلسفات شرقية وديانات أبعد في الزمان والمكان ؟.. ان تجربة الحلاج الحارة المثالية

---

(١) ديك الجن الحمصي — مجموعة الرابطة القلمية ص ١٠٥

كانت جديرة بأن تلفت أنظارهم فيعودوا اليها فى مصادرها ، والحلاج ـ فيما يقول بعض المستشرقين ـ " يتخذ من العبارة القديمة المأثورة عن اليهودية والمسيحية ـ وهى قولهم ان الله خلق آدم على صورته ـ أساسا لنظريته فى خلق العالم ، ولنظرية مكملة لها فى تأليه الانسان "(١) . يثبت ذلك قوله فى كتاب الطواسين : " فنظر ـ (أى الحق) ـ فى الأزل ، وأخرج من العدم صورة من نفسه لها كل صفاته وأسمائه ، وهى آدم الذى جعله الله صورته أبد الدهر . ولما خلق الله آدم على هذا النحو عظمه ومجده ، واختاره لنفسه ، وكان من حيث ظهور الحق بصورته فيه وبه هو هو"(٢) . وتجربة (أبى يزيد البسطامى) وآراؤه فى وحدة الوجود(٣) كانت جديرة أيضا بأن تستأثر باهتمامهم . وقد أجمع النقاد ـ كما يقول نيكولسون ـ " على أن القول بوحدة الوجود هو أخص مظاهر التصوف الاسلامى "(٤) . ـ وفى الجملة ، كان يمكن أن يجد هؤلاء الأدباء عند كبار متصوفة المسلمين كالحلاج والغزالى وابن عربى وجلال الدين الرومى والجنيد والبسطامى والسهروردى وغيرهم ، زادا صوفيا خصبا لو التفتوا اليه ، وحاولوا أن يقرءوه فى مصادره الأصلية ، أو فى دراسات المستشرقين(٥) (وكانت هذه الأخيرة بين أيديهم فى مكتبات أمريكا الضخمة) . وكان يمكن أن يجدوا فى هذه الكتب وفى غيرها ككتاب (المنقذ من الضلال) للغزالى ، وكتاب (الطواسين) للحلاج الذى نشره ماسينون ، صورا لتجاربهم الحارة التى يعانونها فى الشوق والقلق والسعى الى الحقيقة الكامنة فى النفس ، والانتهاء الى عقائد قديمة جريئة فى الحلول ووحدة الوجود والتناسخ وغيرها من العقائد التى انتهى اليها هؤلاء الأدباء أنفسهم . فلم كادوا ينصرفون عن ذلك كله الى قراءة (الاوبانيشاد) الهندية و (الجيتا) وقراءة بعض كتب الطاوية ولم يتعدوها ؟ .

يقتضينا البحث أولا أن نشير الى أن الحلاج ورد ذكره فى بعض كتبهم مرات قليلة ، وأن أصداء أخرى ترددت لديوان ابن الفارض ، وذكر الغزالى . وسبق أن أشرنا الى اهتمام هؤلاء الأدباء بقصيدة (النفس)

---

(١) نيكولسون : (فى التصوف الاسلامى وتاريخه) ترجمة أبى العلا عفيفى ص ١٣٣

(٢) نقلا عن المصدر السابق ص ١٣٣

(٣) ارجع الى أقواله فى كتابه (تذكرة الأولياء) . انظر المصدر السابق ص ٢٤ ـ ٢٥

(٤) المصدر السابق ص ١٠٤

(٥) انظر مقدمة أبى العلا عفيفى للمصدر السابق (فى التصوف الاسلامى وتاريخه)

لابن سينا . على أن الذى يسترعى النظر أن هؤلاء الأدباء لم يقرءوا هؤلاء المتصوفة ـ باستثناء شعر ابن الفارض ـ فى مصادرهم ، وانما قرءوا عنهم . وقد أقر نعيمة فى حديثه الى بأنه لم يقرأ الحلاج وانما قرأ شيئا عنه ، وعلل ذلك ببعده عن الوطن وصعوبة الحصول على مصادر التصوف الاسلامى الأصيلة.(١)

ومهما يكن فاننا ما نزال نميل الى الاعتقاد ـ فى احتراز ـ بأن التصوف الاسلامى المستند الى مصادر اسلامية أصيلة ، والمتصل بالأجواء الروحية للاسلام ، كان يصدهم عن الاستزادة منه والرجوع الدائم اليه ، فقد كانت ثقافتهم القائمة على الدعائم المسيحية تحجزهم عن التمادى فى أجواء لم يألفوها . ولعلهم لم يعودوا ـ بسبب الظروف التى أحاطت بطفولتهم ونشأتهم فى الوطن كما فصلنا فى المدخل ـ أن ينظروا اليها نظرتهم الى ثقافة يمكن أن تغنى العقل والقلب ، وتتصل بالحياة ، وتحاول أن تفسرها على أصول فلسفية جديرة بالاعتبار . فمن المعلوم أن نظرة الاسلام الى الحياة والانسان لا تلتقى مع نظرة المسيحية الا فى حدود ونقاط لا تسمح باجتماع أصولهما الفلسفية. فالاسلام لا يسمح ـ حتى عن طريق التفسير المجازى ـ أن يتصور الاله فى غير كيانه المنفصل (المنزه) ، البعيد ، القادر على كل شئ . والمسيحية ـ كما رأينا ، وكما تقدمها الأناجيل والرسائل ـ تعلن فى صراحة وحدة الوجود وألوهية المسيح ، ووحدة مشيئته مع مشيئة الله (٢) . والاسلام يعترف بالجسد ، ويحترم حاجاته ويقدسها ، بل يجعل اشباعها (المشروع) نوعا من أنواع العبادة ، على حين تقف المسيحية منه الموقف الذى شرحناه ، ودعمناه بآيات الانجيل . والاسلام شعاره الحقوق والواجبات ، والدفاع عنها ، والمسيحية شعارها المحبة التى تتساهل فى الحقوق ، وقد تلغيها وتلغى معها الواجبات.

ومثل هذا التضارب فى الأصول لا يسمح لهؤلاء الأدباء ـ الذين بينا مادة ثقافتهم وأسلوبها ، والظروف التى أحاطت بنشأتهم وعزلتهم ـ أن يجدوا فى الثقافة العربية المغتذية بهذه الأصول والمنطبعة بهذا الروح ، ما يقربها من أرواحهم ويخلطها بنفوسهم . هذا على حين كانت الأديان والفلسفات الشرقية قريبة من المسيحية لوحدة الأصول الفلسفية بينهما . فلا غرابة أن تربطهم بها ألفة لم تربطهم بالتراث العربى .

لقد أنكر الأستاذ نعيمة هذا الرأى من أساسه (٣) ، وقال : " ان احترام

---

(١) فى بيروت بتاريخ ١٩٥٨/١٢/٥
(٢) انظر أيضا ـ للتفصيل ـ انجيل متى اصحاح ٢٦ الآيات ٣٩ ، ٤١ ـ ٤٢
(٣) فى خلال مقابلتى له ببيروت بتاريخ ١٩٥٨/١٢/٥

أدباء المهجر ، وكتاب الرابطة القلمية ، للثقافة العربية أمر لا يحتاج الى بيان، فقد قرأوا ما اتصل بأيديهم من كتب الثقافة العربية ومصادرها ، ولم يكن في قصدهم الابتعاد عنها ، ولو وجدوها لقرأوها ، وهم كانوا يستمعون دائما الى "نسيب عريضة يقص عليهم قصصا من تاريخ العرب والمسلمين وينقل اليهم أخبارهم" . وقد كنا نحن نفينا أن يكون هؤلاء الأدباء تقصدوا هذه القطيعة ، ودللنا على ذلك باتصالهم الرقيق بالتراث الصوفي العربي . ولكن هذا لا يعني أنهم جميعا سعوا الى هذا التراث وأنهم خالطوه وتأثروا به ، وانما جاء اتصال بعضهم به عارضا خلال مطالعاتهم الأخرى . فاذا كان هذا مبلغ اتصال هؤلاء بهذه الثقافة حتى في الوجوه التي يمكن أن تتفق مع نظرتهم الى الحياة والانسان كالتصوف، وهو الحقل الذي زرعوا فيه سبعة أعشار غلتهم الأدبية والفكرية (١) — فكيف يمكن أن يكون اتصالهم بجوانب هذا التراث الأخرى ؟ . ان لجورج صيدح رأيا مفاده : " أن الثقافة الاسلامية ازدهرت وتمجدت في تلك الأوساط المسيحية — يعني أوساط المهاجرين — وشمت في أدب الكتاب والشعراء اشعاعا عفويا غير مشوب برغبة أو رهبة " (٢) وما أعتقد أن رأيا يمكن أن يورط الأدب المهجري في معركة لم يدعه أحد لخوضها كهذا الرأي . وان ما جاء به صيدح لا يصلح في الرد على الدكتور هيكل (٣) ، وانما الرد أن للأدب المهجري — كما نرى — خصائص في المضمون والشكل متأثرة بأصول الثقافة التي تأثر بها أصحابه وبالظروف التي أحاطت بنشأتهم وبالغايات التي استبقوا اليها ، وبالتفسير الخاص للحياة ، الذي أخذوا به واعتقدوه وحكموه في نظرتهم الى الانسان والحياة والكون . فأما أن نفرض عليه ثقافة معينة لأن خصومه نفوها عنه ، ثم نزعم أنها ازدهرت وتمجدت وشمت ، فذلك — في اعتقادنا — رأي مبعثه الاحساس بالنقص، وهو يقلل من مكانة الثقافات الرفيعة التي نال منها الأدب المهجري غذاءه ، وهي المسيحية وأصولها الشرقية القديمة ، ثم الثقافات الغربية العريقة ، والأدب المهجري في غنى عن هذا كله .

وبقي شيء واحد ، هو تحليل هذه الغربة التي يحسها أحيانا بعض القراء العرب حين يقرأون ما أوغل من أدب المهجر في التأثر بالمسيحية وأصولها

---

(١) لقد بلغ من طغيان المباحث الروحية على أدبهم أن كثيرا من النقاد يعتقدون أنهم فلاسفة أكثر منهم أدباء . انظر مقالة لخليل تقي الدين بعنوان (جبران كما أفهمه) المكشوف السنة ١٩٣٦ / عدد ٥٠ / ص ٢ .

(٢) أدبنا وأدباؤنا ص ٥٢ — ٥٣

(٣) انظر الفصل الثاني من الباب السابق . والاشارة الى قول الدكتور هيكل : " يجب أن يتعاون المجدد والمقلد منا ، والا بقي الفوز في جانب السوريين المتأمركين ، وامحت الثقافة الاسلامية" انظر كتاب صيدح ص ٥٢ .

الشرقية ، والابتعاد عن القيم الفكرية والشعورية التي تقيم شخصية الأدب العربي وتراثه الفني منذ القديم حتى الحديث ، فهل يمكن أن تملل بغير ما عللناه ؟. ثم هل يمكن أن ندل على مواطن ازدهار الثقافة الاسلامية وتمجيدها واشعاعها في أدب الرابطة القلمية بالذات ، ولدى أبرز ممثليه جبران ونعيمة ؟...

لقد كتب الي الاستاذ نعيمة يقول : انه تأثر بالقرآن (١) . وواضح لنا أن القرآن يعكس — في جلاء — نظرة الاسلام التي بسطناها ، والتي لا يستريح اليها متصوفة المهجر . وليس يمكننا — على كل حال — أن نوفق بين قول الاستاذ وبين ما نلقاه في أدبه هو ~~بالصورة~~ ثانية.

(((٩)))

لقد فتن أبرز كتاب الرابطة القلمية — على كل حال — بهذه المباحث الروحية افتتانا يؤكد حاجتهم الدائمة الى التمسك بحقائق المقيدة التي انتهوا اليها ، ليظلوا في نجوة من معايشة المجتمع من حولهم ، ولأنهم أطفئوا بها القلق الذي ثار في أنفسهم ، ووجدوا فيها العودة الى ماضيهم وأصولهم ، والالتصاق بالثقافة التي نشئوا على الايمان بحقائقها والنظر الى الحياة من خلالها والوقوف الى جانبها . وقد علل نعيمة هذا الافتتان (٢) بأنه رغبة في بناء الانسان من الداخل، ايمانا بأن الحقيقة في النفس أولا ثم تنعكس في الحياة (تمشيا مع نظرة الانجيل كما رأينا) . وقال نعيمة : " صحيح أنني شغلت بهذه المباحث حتى أصبحت في سن السبعين ، ولكني أعتبر بناء الانسان من الداخل هو الأصل في بناء عالم أفضل " .

ويجب أن نسأل أنفسنا هنا : هل بدأ كتاب الرابطة يهتمون بهذه المباحث مدفوعين بدوافع ذاتية خالصة ؟. ونجيب : ان كتاب الرابطة التفتوا — وهم يعيشون في ظروف متشابهة — الى الاهتمام بالوصول الى معنى الحياة ، ودور الانسان ومكانته في الوجود ، نتيجة ما أحسوا من زعزعة روحية . ولكن الباحث لا يسعه — مع ذلك — الا أن يعجب لانسياق أكثر هؤلاء الكتاب — على نسب متفاوتة — في مجرى واحد يتصدى حقائق المسيحية الى أصول بوذية تؤمن بالتناسخ والتقمص ، ثم طغيان ذلك على أدبهم حتى ليكاد يحس هذا الباحث بانطفاء شوقه الى المتابعة ، ويعجب — على الأخص — لما يجده من تشابه

---

(١) في رسالته المؤرخة بتاريخ ٩ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٥٨

(٢) في حديثه الي في القاهرة بتاريخ ١٩٥٧/١٢/١٦

كبير بين جبران ونعيمة حتى فى الطريقة الفنية التى تمت بها ـ أحيانا ـ معالجتهما لهذه المباحث ، وقد لفت هذا نظر بعض النقاد فقالوا : " ان نعيمة ما يزال يكرز على طريقة جبران ... فالخبز والادام واحد فى (النبى) و(زاد المعاد) .... " (١)

ان نعيمة حريص دائما على أن يذكر (٢) بأنه انتهى الى التقمص فى جامعة واشنطن قبل أن يعرف (جبران) ، والحق أن (مذكرات الأرقش) التى كتبها فى نيويورك ونشرتها الفنون ، تدل على أن صاحبها فى صراع فكرى عميق ، ولكنه صراع أصيل لم يفرض عليه من خارج ، وانما نبع من الداخل ، ونمى منذ زمن بعيد ، وهو يقبل الآن على أن يختمر وينتهى الى نهاياته ، فكيف يتاح لنا أن نؤمن أن نعيمة ـ وهو صاحب هذه الشخصية القوية الأصيلة ذات التجارب والاطلاع الواسع والميل العميق الى النفوذ الى حقائق الحياة ـ يملى عليه أن يدور فى فلك جبران ، ولما يمض على التقائهما أقل من عام ؟ ان الصحيحة حقا أن يلتقى نعيمة الصوفى المنتهى الى التناسخ والتقمص بجبران الصوفى المنتهى الى التناسخ والتقمص ، ولكنها عجيبة وليست محالا ، وعجيبة ذات مقدمات تهيء لها ، وقد أشرنا اليها فيما سبق ، من وحدة الظروف التى عايشوها فى الوطن ، ووحدة النبع الفكرى (المسيحية) ، وتشابه شخصيتيهما الحارتين النفاذتين الشاعرتين .

فأما بقية كتاب الرابطة ، فلاشك أن تأثير جبران ونعيمة مما عليهم كان واضحا ، وقد أشرنا الى ذلك فى السابق . على أن بعضهم كأبى ماضى ونسيب عريضة ، أخذ من ذلك لمحات ظهرت فى أدبه كالبروق ، مما يكون مثله عادة فى أية رابطة فكرية يتأثر أعضاؤها بعضهم ببعض (٣) . وقد كان جبران ـ لاشك ـ أحدهم

---

(١) مارون عبود ـ مجددون ومجترون ـ ص ٢١٢ ، وانظر أيضا الياس أبا شبكة ـ روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة ـ ص ٢٨١ ، وانظر مقالة لعيسى الناعورى بعنوان (توافق الافكار والتعابير فى أدب الرابطيين) فى الآداب : السنة ١٩٥١ العدد ٤ ص ٣٦ ـ ٣٩ .

(٢) فى أحاديثه المختلفة الى ، المشار اليها فى هذه الرسالة . وأذكر أننى قلت للأستاذ نعيمة ـ فى حلب ، سنة ١٩٥٥ ـ ان آراء ه فى الخياة هى آراء (تاجور) لا اختلاف بينهما على الاطلاق . فأطرق الأستاذ نعيمة قليلا ثم رفع رأسه الى وقال فى حزم : " لا علاقة لى بتاجور وغيره .. " . لقد عاش نعيمة تجربة العقيدة فى حرارة أصيلة حتى استحال عليه أن يؤمن بتأثير الآخرين فيه ، وهو القائل فى احدى رسائله : " وفى الكون حقائق عامة تلتقى عندها الافكار المستقلة ، فى بحثها عن الحقيقة ... " . انظر رسالته الى حارث طه الراوى .

(٣) يجب أن ننتبه الى أن " حرية المعتقد كانت شرطا أساسيا فى الرابطة القلمية " ، وهى دليل الحرية الفكرية التى نعموا بها عن طريق الايمان بوحدة الحياة ، وقد كان لها تأثيرها الكبير على أدبهم ، فى اشاعة الخصب و " اختلاف الطعوم " شكلا ومضمونا . انظر مقالة ـ فى هذا المعنى ـ لجبور عبد النور فى الآداب (السنة ١٩٥٣ ـ العدد ٢ ص ٣٨ ـ ٤٢) .

شخصية وأعمقهم أصالة وفورة وجدان وانطلاق خيال . وكان يدور حول هذه المباحث منذ الصغر . فقد نقل فؤاد أفرام البستاني مقاطع من دفاتره التي تحتفظ بها (بربارة يونج) ، وهو يقول في بعضها : " تجزئة سطح الأرض شغل الساسة ، وتجزئة النفس شغل الفلاسفة ، وتجزئة القلب شغل الشعراء وتجزئة السماء شغل الكهان ، ولقد وجدتني غريبا بطبعي وأحلامي عن هؤلاء المشتغلين بالتجزئة والتقسيم ، منصرفا الى الوحدة النفسية والعقلية والدنيوية والسماوية" (١) .

ويقول : " أما نحن ، نحن الموحدون ، نحن السكارى بخمرة وحدة الحياة وفرديتها، نحن لا نجزئ الأرض الى شرق وغرب أو الى قبلة وشمال ، ولا نفصل بين عنصر من الناس وعنصر آخر . نحن نرى الطبيعة مظهرا واحدا من مظاهر الله الأوحد . نحن نرى الأرض كتلة واحدة ، والبشرية عنصرا واحدا ، وأعمال البشر عملا واحدا.." (٢)

وقد رأى بعض النقاد أن نعيمة يقول في شعره ونثره مثل هذا الكلام ، ثم رأوا أعضاء الرابطة الآخرين يوسعون تجاربهم الى هذه الحدود ، ويرددون أصداءها المتشابهة في شعرهم وفي مقاطع من نثرهم ، فقالوا — عن حق تعوزه الدقة والتمييز — : ان أعضاء الرابطة " اقتربوا من طريقة جبران في التفكير والتعبير " (٣) .

فأما التفكير — الذي يشير اليه هؤلاء النقاد — فقد بينا حدود تأثر كتاب الرابطة بجبران ونعيمة فيه . ولقد وضعنا نعيمة في موضع ممتاز ربما كان فيه أكثر تمسكا بعقيدته من جبران ، وأكثر اخلاصا لها وثباتا عليها .

وأما التعبير — أو الشكل — فموعده الفصل الأخير من هذا الباب .

(((١٠)))

ونسأل أخيرا : ما قيمة هذا الجانب الروحي من المضمون الانساني الذي نال من اهتمام أبرز كتاب الرابطة هذا القدر ، حتى لقد اتهموا بأنهم — كما أشرنا — فلاسفة أكثر منهم كتابا ، وحتى رموا بالهرب من الحياة الى أنفسهم وأزماتهم النفسية وصراعاتهم الفكرية (٤) ؟.

(١) انظر مجلة المشرق السنة ٣٧ ص ٢٥٧

(٢) المصدر السابق السنة ٣٧ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ . وانظر أيضا ص ٢٥٠

(٣) مارون عبود — مجددون ومجترون — ص ٢١٢ . ويجعل عيسى الناعوري كتاب الرابطة كلهم عالة على جبران : انظر الأديب : (السنة ١٩٥١ — العدد ٤ — ص ٣٧)

(٤) يتهم رئيف الخوري (جبران) بأنه " استنام في أيامه الأخيرة ، فأصبح كثير من مادة أدبه أشبه بمادة الترانيم الكنسية " ويتهم نعيمة بأنه " بات لا يختلف عمليا عن تاجر الأفيون ، يخدر أو يلذ وينشط الى حين ، ثم يدفع الى السأم والتثاؤب.. " . المكشوف — السنة ١٩٤٠ العدد ٢٧١ ص ٩ (من مقالته : أمين الريحاني أديب فكر) . وقد بدأ هذا الاتهام — بالنسبة لنعيمة — ايليا أبو ماضي ، فقال : " ان هذه الفلسفة السلبية التي يتمشى عليها النعيمة أو يدعو اليها ، قليل خيرها كثير شرها ، ولا سيما في أمة كأمتنا مضت عليها القرون ، وهي مشغولة بآخرتها عن دنياها " . السمير : السنة ١٩٣٥ العدد ٢٣ .

لاشك أن نعيمة وجبران أبدعا في هذا الباب أدبا انسانيا وضع مشكلة الانسان على مستوى فني مثير ، يخرج القارئ من حياته الرتيبة المعتادة الى يقظة روحية عاصفة في بعض الأحيان . فالايمان بأننا نحمل الله في كل خلية من خلايانا ، ايمان ملهب/يقلب الوجود في أنظارنا فيستحيل شعلا تضيء بالمقدرة المقدسة ، ويقرب منا الطبيعة حتى نخالطها ، ويحبب الينا الحياة لأنها منا ، ويجعلنا ننعم بالايمان بالمشيئة الكونية العامة الجارية فينا وبأيدينا ، والاستسلام الى مفاجآت الحياة واليقين بعدالة الغايات الساعية اليها .

على أن الحقيقة ، هي أن هؤلاء الكتاب لم يقولوا أشياء جديدة في هذا الموضوع ، فهم ليسوا أكثر من أدباء آمنوا (بحقائق) قديمة ، وأسقطوها على وجدانهم الملتهب ، ثم سجلوا — في أمانة وعمق وحرارة — احساسهم وانفعالهم ، ووصفوا العوالم الخفية السحرية التي قادتهم اليها هذه (الحقائق) .

ليست وحدة الوجود والتقمص والتناسخ و حل مشكلات الانسان عن طريق المحبة ، ليست حقائق جديدة ، ولكنها حقائق قديمة مشتركة بين الديانات الشرقية القديمة والمسيحية . فمن ضياع الحدود ~~الفلسفية~~ الفكرية اذاً أن نسمي هؤلاء الأدباء المتأثرين بهذه الثقافات فلاسفة(1) ، ومن الميوعة الفكرية أن يسميهم بعضنا الآخر أنبياء ، فهم لم يعلنوا جديدا ، ولم يتكامل لهم في الحياة مذهب فلسفي كامل ينتظم شئونها الكبيرة والصغيرة ، ويتميز بشخصية مستقلة ، ويشق طريقا جديدة ، بحيث يخلق انسان جديد في كون جديد . فانسانهم هو المسيح(2) أو بوذا وعالمهم هو النرفانا أو ملكوت السموات ، لم ينتهوا الى شيء بعدهما أو قبلهما على الاطلاق ....

فأما من الناحية الأدبية ، فلاشك أنه تطعيم خصب لأدبنا الحديث في هذا الميدان الروحي . وهو تطعيم يجب أن نألفه قبل أن نحكم فيه . فهذا أدب ذو خصائص وطرق خاصة . وهو متأثر بثقافات قديمة غريبة لم يتح لأدبنا الحديث أن يتذوق منها الا على أيديهم . فهو هنا تجديد لاشك ، قد يسيغه أناس وقد ينكره أناس . يسيغه الذين يفتحون أبواب الأدب الحديث لرياح العالم جميعا ، ويرون أنه مدعو الى الوفاء بحاجات الانسان الروحية الى جانب وفائه بحاجاته الأخرى ونحن من هؤلاء . وينكره الذين يتشددون في الحفاظ

---

(1) يقول خليل تقي الدين في مقالته : (جبران خليل جبران كما أفهمه) : " ربما كان جبران فيلسوفا أكثر منه أديبا ، وكانت فلسفته كل ما يبقى منه بعد حين " . انظر المكشوف سنة ١٩٣٦ — العدد ٥٠ ص ٢

(2) أقر الاستاذ نعيمة — في حديثه الي في القاهرة بتاريخ ١٤/١٢/١٩٥٧ — بأن المسيح هو مثله الأعلى . وانظر النور والديجور ص ٢٣٨ .

على القيم الفكرية والشعورية التي تبناها الأدب العربي ولف حولها في القديم والحديث ، والذين يرون أن الأدب يجب أن يحمل راية الدفاع عن حياة الانسان — من الخارج — والمناداة بتحسين شروطها المادية والمشاركة في تطوير المجتمعات، لأن الحياة — في رأيهم — تبدأ من الخارج لا من الداخل ، على عكس ما يؤمن به هؤلاء الأدباء المثاليون .

ولم يتورط هؤلاء الأدباء — في اتجاههم هذا — في جفاف الفلسفة — على كل حال — ، فهم أدباء يتحدثون في الفلسفة بلغة الأدب لا بلغة الفلسفة ، " وعذرهم — فيما يقول الدكتور جميل صليبا — أنهم أدباء لا أصحاب مذاهب فلسفية تنبع من عبقريتهم الخاصة " (١) . وواضح أنه اذا كان هذا نقيصة يعتذر عنها — في رأي أصحاب الفلسفة ، فانه حسنة في رأي أصحاب الأدب ، فهم لو كتبوا الفلسفة بلغة الفلسفة ، لما عدوا فلاسفة ولضاعوا على الأدب جميعا .

ونعتقد — من جديد — أن الكتاب المقدس ، الذي صور حقائق الحياة بلغة الأدب ، كان مثالهم الأول في هذا المضمار . ولعل كتب الأديان كلها تنهج هذا النهج ، فهي حريصة على أن تصل الى عقل الانسان من خلال قلبه ، فتثير عاطفته وتطلق خياله ، ثم تأخذه في هذه الغمرة . وقد لا يمكن أن يرسخ الايمان بالمطلق على غير هذه الدعائم .

وليس التصوف — في رأينا — غير عقيدة شعرية ، وقودها — كما قلنا — الاحساس النافذ بالحياة والخيال النشيط الذي يجمع الأبعاد ، ويقرب بين المفارقات ، ثم يكون اقرار العقل تتويجا لهذه الدورة .

ويصلح في التمثيل على ما نقول — تمثيلا دقيقا — ما كتبه نعيمة على لسان رئيسي الملائكة ، ورئيس الشياطين حين ولد الانسان (٢) ، فقد أدى أفكاره الفلسفية العميقة تأدية شعرية مثيرة شديدة الاثارة :

" يقول رئيسي الملائكة الأول : لقد ولد للأرض مولود عجيب ، فالأرض تتلألأ بالضياء !
فيقول الثاني مؤيدا : لقد ولد للسماء ملك مجيد ، فالسماء تخفق بالحبور ...
ثم تستمر المحاورة على هذا النحو :
الأول : انه لثمرة القران ما بين السماء والأرض
الثاني : انه القران الأبدي ، فهو الأب والأم والمولود في آن معا .
الأول : النهار يهجع في عينيه

---

(١) الاتجاهات الفكرية في الشام ص ١٨٠

(٢) انظر (مرداد) — الفصل الرابع عشر ص ١١٤

الثانـي : الليـل يقظـان في فـؤاده
الأول : صـدره وكـر للمواصـف
الثانـي : حنجرته سلم ألحـان
الأول : ذراعـاه تطوقـان الجبـال
الثانـي : أصابعـه تقطـف الكواكـب
الأول : فـي عظامـه تهـدر البحـار
الثانـي : فـي عروقـه تجـرى الشمـوس
الأول : فمـه مصهـر ومسكـب
الثانـي : لسانه مطرقـة وسنـدان
الأول : حـول رجليـه قيود الضـد
الثانـي : فـي قلبـه مفاتيـح القيـود
الأول : لكنـه مهـدء الـتراب
الثانـي : ولكنـه مقمـط بالدهـور ...."

ثم ينقـل نعيمـة محـاورة رئيسـي الأبالسـة ، فيبـدو لنا الانسـان من وجهه الآخر، ويتوضـح لنـا الصراع الذى سيضطـر هذا الكائن العجيـب الى معاناته حتى يصـل الـى حقيقـة ذاته . " يقـول رئيسـي الأبالسـة الأول :

" لقد انضم الى صفوفنا فارس صنديـد . وبعونه سنغلـب

فيقـول الثانـي :

أحر بك أن تقول : جبان رعديد ، فالخيانة معسكرة على جبينه ، لكن في جبينه أهوالا .
الأول : عينه ضاريـة ، لا تعـرف الخـوف .
الثانـي : أما قلبه فدامع داجن ، لكنه رهيب بدموعـه ودجونـه .
الأول : سيكون خبزنا فولاذا لعضلاته ، وخمرنا نارا لدمـه .
الثانـي : سيأكل خبزنا ، ثم يرجمنا بمعاجننا . وسيشرب خمرنا ثم يحطم خوابينا على رؤسنا .
الأول : ولكن الموت سيكـون قائـدا لمركبتـه .
الثانـي : وهكـذا يصبـح من الخالديـن .
الأول : سنستعبـده بالخـوف .
الثانـي : لكـن الأمـل سيحميـه من الخـوف .
الأول : سنخضعـه بالألـم .
الثانـي : لكن الايمـان سيخلصـه من الألـم .
الأول : سنملأ نومه بأحاجي الأحلام ، ونفرش يقظته بالأشبـاح المبهمـة .
الثانـي : لكن خياله سيحل الأحاجي ، ويبـدد الأشبـاح ...".

لقد يسرت العقيدة والاحساس الصوفي لهؤلاء الأدباء أن يرتقوا الى هذا المستوى الرفيع من الكتابة ، بحيث طرحوا مشكلات انسانية كبيرة وأجابوا عنها اجابات عميقة شاملة ، وعبروا عن هذا كله تعبيرا شعريا بلغ مداه في الحرارة والاشارة.

ويعتقد صبحي – أخيرا – أن " هذا الاتجاه نحو الحياة الروحية والمواضيع المجردة هو أروع ما سجله تاريخ الأدب الحديث من تجديد وبعد نظر " (١) . وقد لا يرضينا هذا الغلو في التعميم ، فلاشك أن الفلسفة المادية وما خلقته من نظريات في الفن والحياة ، كان لها تأثير في أدبنا الحديث لم يقتصر على نتاج أديب أو أديبين ، ولكنه تعدى ذلك الى خلق تيار كامل من التجديد ، جعل أدبنا يسير في اتجاه جديد ، ووصله بثقافات وفلسفات غنية ، ووضع على كتفيه تبعات يزيد باحساسه بها اندفاعا ونموا ومتاعا .

(((١١)))

وننتقل بعد ذلك – في بحثنا للمضمون الانساني – الى حقل آخر هو حقل الدفاع عن كرامة هذا الانسان الذي آمنوا به ، والدعوة الى الاحتفاظ بهذه الانسانية التي هي – في غايتها – ألوهة تحيط بكل شيء وتعرف كل شيء . وقد استفاض أدبهم – ونثرهم بشكل خاص – في هذا الحقل استفاضة رائعة جديرة بكل تقدير . فقد مجدوا الحياة الانسانية وتغنوا بها ، واستنكروا أي لون من ألوان الاعتداء عليها أو تشويهها سواء أكان ذلك من داخل النفس أم من خارجها . وتمسكوا – لذلك – بالفضيلة والعف عن المغانم الرخيصة ، واحتفلوا بالارادة ودورها الخطير في حماية الانسان من الانهيار والجري وراء المطامع والشهوات .

ولعل ايمانهم العميق بكرامة الانسان وقدسية الحياة ، ودفاعهم الحار عنهما ، مما يستدعيه ايمانهم – الذي عرفناه – بمصدر هذه الحياة ، وبغاياتها التي تبلغها بالانسان وحده ، وهو الصورة العليا التي سيقدر لها – حين تعرف ذاتها ، وتتطهر بالألم وتتعلم بالتجربة ، في مدى الأعمار الطويلة – أن تبلغ مرتبة الألوهة التي تتفتح لها مغاليق الكون وأسرار الوجود . ومن هنا يأخذ الموت والألم معانيهما الحقيقية ، ودورهما الخطير في تطهير الانسان وتعليمه ، وفي استمرار الدورات التي يتم فيها ارتقاؤه في فهم ذاته وفهم الحياة الجارية فيه على النواميس الحكيمة التي وضعتها هي للغايات الكبيرة التي قصدتها .

---

(١) أدبنا وأدباؤنا ص ٦٠

وهم يستهدفون ـ في موقفهم من الدفاع عن الانسان وقدسية الحياة ـ أن يوفروا لهذا الكائن ما يحتاجه من استغراق وطمأنينة وصفاء، تساعده كلها على أن يفهم ذاته ويدرك دوره الخطير الذي هيأته له الحياة، وبذلك يتعمق ـ في طواعية ـ مع النواميس التي جرت عليها هذه الحياة، وتتكشف له معاني الأسرار التي تلفه وتحيره، وتتحقق ـ بذلك ـ ارادته على الوجه الأكمل الذي يتمشى مع هذه النواميس التي تنبع من ذاته، فتجري فيه وتستكمل غاياتها في طواعية سعيدة، ليشارك هو في اجرائها ورسم الطرق التي تسلكها. وهذه هي السعادة الحقيقية التي يجهد الانسان في الوصول اليها ويخطئها، فيعطل بذلك نموه ويتألم ويكسره التجربة ويخاف الموت.

وقد قطع هؤلاء الأدباء ـ ليصلوا الى هذه الحقائق العارية ـ طريقا شائكة، وغالبوا أنفسهم وصارعوا الحياة وتألموا. ثم فطنوا الى أن ما يشقيهم هو ضعف الايمان بهذه الحقائق، وغلبة الأوهام التي تجعل من هذه النواميس قضاء مكروها يصدم رغبات الانسان ويتعارض مع نوازعه الأصلية في البقاء والابتعاد عن ألم التجربة. ففهم الانسان لذاته وللحياة الجارية فيه على النحو الذي شرحناه، هو الحقيقة الوحيدة التي يجدر بالانسان أن يؤمن بها ايمانا عميقا يخالط اللحم والعظم، حتى تتكشف له الحياة وتضع في يديه أسرارها وقواها. ولهذا بدا في الانجيل هذا التمجيد الرائع المطلق للايمان: " لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل، لكنتم تقولون لهذه الجميزة انقلعي وانغرسي في البحر، فتطيعكم "(١)، " فالحق أقول لكم، لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك، فينتقل، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم "(٢)، " ان آمنت ترين مجد الله "(٣)، " من آمن بي ولو مات فسيحيا، وكل من كان حيا وآمن بي فلن يموت الى الأبد "(٤).

ويختم الانجيل تمجيده للايمان بهذه الآية الشاملة: " كل شيء مستطاع للمؤمن "(٥). ان مثل هذا الايمان بمكانة الانسان من الكون يوحد ارادة الفرد مع ارادة الحياة، فيبطل التعارض ويتحقق الائتلاف.

---

(١) انجيل لوقا ١٧/٦

(٢) انجيل متى ١٧/٢٠ وانظر انجيل مرقس ١١/٢٣

(٣) انجيل يوحنا ١١/٤٠

(٤) انجيل يوحنا ١١/٢٥ ـ ٢٦

(٥) انجيل مرقس ٩/٢٣

ولاشك أن هذا الايمان يتطلب ارادة قوية قادرة على الثبات للتجربة ، والاحتفاظ بصفاء العقيدة ، وطهارة النفس والفكر · وقد عبر الانجيل عن هذا تعبيرا دقيقا في الآية التي تقول : " اجهدوا للدخول من الباب الضيق " (١) ، وفي الآية التي تقول : ان أراد أحد أن يأتي ورائي ، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني ، فان من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ، ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها ، لانه ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه " (٢) ·

وقد تأثر هؤلاء الأدباء الانجيل ، فمجدوا الايمان تمجيدا حارا ، واعتبروه " معرفة صرفا " (٣) ، ودعوا الى تقوية الارادة للاحتفاظ بهذا الايمان ، والصبر على مشاق الطريق · فجبران يقول بلسان (الصلوبة) : " أجل قد قطعنا الصحارى وقاسينا الجوع والعطش ، وخبرنا مخاوف النهار ورمضاءه وأهوال الليل وسكينته ، قبل أن رأينا أسوار مدينة الله ··· " (٤) ، ويقول بلسانها أيضا : "قل ان آمنة الصلوبة قد وصلت ··· بعد أن قطعت البادية الخالية ، وقاست ألم الجوع ، وحرقة العطش ، وكآبة الوحدة وهول الانفراد ··· " (٥) · وقد كتب نعيمة كتابه (مرداد) ليبشر بالانسان التواق الى الانعتاق المتغلب على نفسه يقول : " اني أبشر بالانسان المتغلب ، الانسان الموحد والمالك نفسه " (٦) ·

وقد أنكر هؤلاء الأدباء أن يقع الاعتداء على الانسان والحياة الانسانية من الخارج ، مهما تكن الأسباب ، كما أنكروا وقوعه من الداخل ، ودعوا الى أن يتحرر الانسان من عبودية الانسان كما يتحرر من عبودية النفس والشهوات · ومن هنا كان موقفهم الرائع في الدعوة الى السلم والمحبة ، والتنكر للحرب وللعنف في صوره المؤذية كلها · وقد استفاض ذلك في نثرهم استفاضة يندر أن نجد معها أثرا خاليا منه ، حتى لقد أصبحت هذه الدعوة الى المحبة والأخوة الانسانية السمة البارزة لنتاجهم الأدبي كله شعرا ونثرا · ولقد ألفوا ـ بها ـ الفروق الطائفية

---

(١) لوقا ١٣/٢٤ (٢) متى ١٦/ ٢٤ ـ ٢٦

(٣) مرداد ص ١٤٠

(٤) ارم ذات العماد ـ البدائع والطرائف · مجموعة مؤلفات جبران ٣/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠

(٥) المصدر السابق ص ٢٨٨

(٦) مرداد ص ١٦٢

والاقليمية والوطنية ، بل ألغوا الفروق الدينية كلها[1] .

يقول جبران يخاطب الانسان : " أنت أخي ، وكلانا ابن روح واحد قدوس كلي ، وأنت مماثلي ، لاننا سجينا جسدين جبلا من طينة واحدة ، وأنت رفيقي على طريق الحياة ، ومسعفي في ادراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم . أنت انسان وقد أحببتك يا أخي .

خذ مني ما شئت ، فلست بسالب غير مال لك الحق بقسم منه ، وعقار استأثرت به لمطامعي . فأنت خليق ببعضه ان كان يرضيك بعضه .

افعل بي ما تشاء ، فلست بقادر على مس حقيقتي . اهرق دمي ، واحرق جسدي ، فلن تؤلم نفسي ولن تميتها . كبل يدي ورجلي بالقيود ، وانزل بي الى ظلمة السجون ، فانك لا تقوى على أسر فكرتي ... أنت أخي وأنا أحبك .

أحبك ساجدا في جامعك ، وراكعا في هيكلك ، ومصليا في كنيستك فأنت وأنا ابنا دين واحد هو الروح ، وزعماء فروع هذا الدين أصابع متلاصقة في يد الالوهية المشيرة الى كمال النفس..."[2] . ويقول : " تقول فكرتكم : الموسوية ، البرهمية البوذية ، المسيحية ، الاسلام . أما فكرتي فتقول : ليس هناك سوى دين واحد مجرد مطلق ، تعددت مظاهره وظل مجردا ، وتشعبت سبله ، ولكن مثلما تتفرع الأصابع من الكف الواحدة[3] "

ولقد اعتبر نعيمة الانسانية " شركة " ، تسير كلها في طريق واحدة ، الى هدف واحد ، هو الظفر بالألوهية وكشف المجهول والتخلص من الألم والقلق . فليس للانسان أعداء في الناس ، ولكن له أعداء في قلبه وقلوب الناس ، وعليهم جميعا أن يشتركوا في حربها والقضاء عليها ، بدل أن يفني بعضهم بعضا ، فيفنوا

---

(١) لقد تمسك أكثر هؤلاء الأدباء بالدين ، واعتبروه حاجة طبيعية في الانسان ، ولكنهم أنكروا " الاستبداد بواسطة التعاليم الدينية " لأنه " ليس من الأمور الطبيعية بل هو بعكسها . " (انظر رسالة جبران لجميل المعلوف ــ الأديب ١٩٥١ العدد ٤ ص ٥٩) ، وانظر مقالة في الرسالة : السنة ١٥ ص ١٣٤٦ في موضوع الدين عند نعيمة لمناور عويس ، وانظر موقف عبد المسيح حداد من الدين في كلامه على الريحاني : الصحبة ٩٤٨ العدد ٥ ص ٣٣ . وانظر مقالة لوليم كاتسفليس بعنوان (الآلهة والأصنام) الفنون ــ السنة ١٩١٧ عدد كانون أول ص ٩٩٤ .

(٢) دمعة وابتسامة ــ مجموعة المؤلفات ٢/٢٣٠

(٣) من مقالته : (لكم فكرتكم ولي فكرتي) . جبران حيا وميتا لحبيب مسعود ص ٦٨ .

أنفسهم عن هذه الطريق . وهو يقول في ذلك : " ألا وسعوا أبواب أرواحكم كيلا يظل أحد خارجا . فان رأيتم أعمى وكنتم مبصرين ، فاعلموا أنكم عميان مثله ما لم تصيروه من بصركم بصرا ، فما زالت طريقه مظلمة فطريقكم مظلمة ، لأن طريقه وطريقكم واحدة . لا تبغضوا أحدا من الناس ، واذا كان لابد لكم من البغض ، فابغضوا كل ما في الناس من ضعف واثم . لا تبغضوا الشرير ، وابغضوا الشر . لأنكم ان أبغضتم الشرير ، أصبحتم أشرارا مثله . أما اذا أبغضتم الشر ، فقد تقتلونه وتهتدون الى الخير .

اني رأيت الناس كالأزهار الشائكة : ان أنت جئتها مغتصبا أدمتك . وان جئتها كالنحلة حاملا اليها سلام الله ومحبة رفيقاتها وأخواتها ، فتحت لك قلوبها ، وأعطتك كل ما فيها من حلاوة . فاحملوا معي سلام الله للناس ، ومحبة الناس للناس ... " (١) ويقول : " انما الأرض كلها تحيا فيكم . وانما السموات وكل أجنادها حية فيكم . فأحبوا الأرض وكل الراضعين من ثديها ان أنتم شئتم أن تحبوا أنفسكم ، وأحبوا السموات وكل أجنادها ان أنتم شئتم أن تكون لكم حياة " (٢) .

وليس يخفى أن أصول هذه الدعوة الى المحبة وكبح جماح الشر بالخير ، انما تشكل خلاصة الانجيل ، وقد تأثرها هؤلاء الأدباء كما تأثروا أصولها الفلسفية الأولى القائمة على وحدة الحياة وتكاملها . ويقول المسيح عن الخاطئة : " قد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيرا ، والذي يغفر له قليل يحب قليلا " (٣) . ويقول بولس الرسول : " البسوا المحبة التي هي رباط الكمال " (٤) . وفي الانجيل آيات كثيرة في هذا المعنى (٥) .

على أنه يجب أن نلاحظ أن بين كتاب الرابطة القلمية من دعا الى الأخوة الانسانية متأثرا بالحرية الفكرية التي وهبتها له ثقافته الواسعة واطلاعه على أصول الأديان والمذاهب الاجتماعية المختلفة . وقد مثل هذا الاتجاه (وليم كاتسفليس) ودلل في نتاجه على ايمان وجرأة في الدعوة اليه . ومجموعة الرابطة القلمية تحفظ له مقالة بلغت حدا من الوضوح والجرأة لا مزيد عليه (٦) . وقد أعطى في هذه المقالة رأيه في الأديان

---

(١) زاد المعاد ص٤٨ ـ ٤٩ (من خطبته : شركة الانسانية)
(٢) مرداد ص ٩٨ (الفصل الحادي عشر ـ المحبة هي ناموس الله)
(٣) لوقا ٧ / ٤٧
(٤) رسالة بولس الى أهل كولوسي ٣ / ١٤
(٥) أنظر مثلا صالحا في رسالة بولس الأولى الى أهل كورنثوس اصحاح ١٣ الآيات الأولى وارجع ـ في تفصيل ذلك ـ الى الفصل الآتي .
(٦) البتترون سنة ١٩٢٠ م ـ مجموعة الرابطة ص ٦٦

جملة ، فسماها (مذاهب فلسفية) ليقطعها بذلك عن أصولها السماوية .

وسنعود الى الكلام فى هذا الموضوع مرة أخرى ، فى بحثنا عن المضمون الاجتماعى .

(((١٢)))

ـ أخيراً ـ

ويتصل بهذا المضمون/ما استغاض فى أدبهم من التعبير عن مشكلة الانسان الذى يمثلونه هم ، الانسان الغريب الذى يعذبه الحنين ، ويفيض قلبه بالكآبة . ثم تعبير كل منهم ـ من خلال ذلك ـ عن ذاته وآلامه الخاصة ، ومشكلاته التى يعايشها فى مجتمعه الجديد ، أو التى خلفها فى الوطن ، بحيث يترك فى أدبه سمات تميز شخصيته واتجاهه النفسى والفكرى . وقد خلف لنا هذا الجانب زادا أدبيا انسانيا رفيعا ، فيه ملامح كثيرة من صورة انسان هذا العصر ، الانسان الموسوم بالقلق وضياع النفس ، واضطراب الضمير وتلمس الطريق . وفيه ـ فوق ذلك ـ ملامح نافرة من تميز الشخصية وانفرادها باتجاهات نفسية خاصة ، بحيث يلتقى الانسان بالناس ، ويتميز منهم فى آن واحد .

وقد كان الأدب المهجرى كله ـ شعره ونثره ـ أدبا ذاتيا ، شديد الصلة بذوات منتجيه ، عميق الاخلاص فى التعبير عن عواطفهم وأفكارهم ، حتى كان بعضهم يكتب فى بعض فنون الأدب التى تتطلب تجردا موضوعيا ، فينتهى الى أن يطفى بسمات تجربته على تجربة البطل فيطمس شخصيته طمسا . فلا نعدم اذاً أن نتلمس هذا الجانب من جوانب المضمون الانسانى فى أكثر ما كتبوه ، وسنجتزئ هنا أمثلة قليلة نتبين بها السمات البارزة .

يرى جبران الأسد فى بعض حدائق نيويورك منفيا سجينا فتفيض نفسه ، ويذكر أنه هو أيضا سجين منفى عن بلده ، ويقترب من الأسد شيئا فشيئا حتى يفتح أمامه جراحه كلها فيه (١) : " خفف عنك أيها المليك الأسير .. فلست فى سجنك أشد بلاء منى فى جسدى .. كلانا منفى عن بلاده ، بعيد عن أهله وأحبابه . فخفض عليك جأشك وكن مثلى صابرا على مضض الأيام والليالى ، ساخرا بهؤلاء الضعفاء الذين يتغلبون علينا بعددهم لا بعزم أفرادهم " . ثم يثور فى نفسه الحنين وتسطع الشمس التى تضئ الجبال : " وانظر أيها السلطان المهيب ، انظر الى تلك القصور والمعاهد ، فهى أوكار ضيقة يسكنها الانسان متفاخرا بزخارف سقوفها التى تحجبه عن النجوم مغتبطا بصلابة جدرانها التى تفصله عن أشعة الشمس ... هى كهوف مظلمة تذبل فى ظلالها أزاهر الشباب ، وتترمد فى

---

(١) من مقالته : (المليك السجين) ـ العواصف ـ مجموعة مؤلفات جبران ٣ / ٢٠ ، والمقتطفات التالية كلها منه .

زواياها جمرة الحب ، وتتحول فى فضائها رسوم الأحلام الى أعمدة من دخان ..."

ثم ينفذ صبر جبران فتبدو ذاته عارية : " فدتك روحى أيها المليك السجين ، فقد أطلت الوقوف لديك وأسهبت بالكلام أمامك ، ولكن هو القلب المخلوع عن عرشه يتعزى بالملوك المخلوعين ، وهى النفس السجينة المستوحشة تستأنس بالسجناء والمستوحشين ..." .

وقد يعبر جبران تعبيرا رمزيا عن هذه الذات الطموح التى عانت آلام الغربة وواجهت مصاعبها ، فى سبيل غايات كبيرة ، فيقول بلسان البنفسجة ـ التى " غرتها المطامع فتحولت الى وردة " ـ وهى تخاطب رفيقاتها : "لقد كان بامكانى أن أعيش نظيركن ملتصقة بالتراب حتى يغمرنى الشتاء بثلوجه ، وأذهب كمن ذهب قبلى الى سكينة الموت والعدم ، قبل أن أعرف من أسرار الوجود ومخبآته غير ما عرفته طائفة البنفسج ... لقد كان بامكانى الانصراف عن المطامع ، والزهد فى الأمور التى تعلو بطبيعتها عن طبيعتى . ولكنى أصغيت فى سكينة الليل ، فسمعت العالم الأعلى يقول لهذا العالم : (انما القصد من الوجود : الطموح الى ما وراء الوجود) ، فتمردت نفسى على نفسى ، وهام وجدانى بمقام يعلو عن وجدانى ، وما زلت أتمرد على ذاتى ، وأتشوق الى ما ليس لى ، حتى انقلب تمردى الى قوة فعالة ، واستحال شوقى الى ارادة مبدعة ...." (١) .

ونستطيع أن نعود الى أكثر القصص التى كتبها جبران ، فنجد فيها صورة لهذا الشاب الثائر الطموح ، كما نجد هذه الصورة فى مقالاته سواء بسواء . وسنعرض لهذا فى الفصل الذى ندرس فيه القصة .

وقد اتسع نتاج نعيمة ـ بسبب عودته الى الوطن ، واستجابته لرغبات قرائه فيه ـ لكتابة مقالات مستفيضة تشبه أن تكون مذكرات شخصية متفرقة صور فيها حياته فى المهجر وطفولته فى بسكنتا وصباه فى روسية وأيامه التى قضاها فى الجبهة فى باريس ، وساعاته التى يقضيها فى الشخروب (٢) . يقول ـ مثلا ـ فى عودته من أمريكا (٣) : " عدت وفى أذنى ضجيج مدنيات لا تحصى ، وفى رأسى براكين من الافكار ، وفى قلبى حنين الى عزلة أستطيع أن أغرق فى صمتها وسكونها وجمالها ، فأطهر أذنى من الضجيج ، وأفرغ عن رأسى مما فيه من البراكين ، وأبرد بعض ما فى قلبى من الشوق والحنين . وكان الشخروب كريما معى الى أقصى حد . فما ضن على بالعزلة التى كنت أنشد ، بل فتح لى قلبه وذراعيه ،

---

(١) من مقالته (البنفسجة الطموح) العواصف ـ مجموعة مؤلفات جبران ١٥٨/٣

(٢) ارجع مثلا الى المراحل ص ٦١ وصوت العالم ص ١٤٢ وفى مهب الريح ص ١٦٠ وانظر كتابه (أبعد من موسكو ومن واشنطن) . وقد دوّن ذلك كله قبل أن يصدر كتابه (سبعون) .

(٣) من مقالته : (لماذا اعتزلت الناس) صوت العالم ص ١٤٢

فرحت أمضي معظم نهاراتي في كهف من كهوفه . فساعات للتأمل وغربلة الماضي وتصرية النفس ، وفتح كوى الروح لنور الله . وساعات للتأليف، وهل التأليف غير مكالمة الناس.. "."

وقد استطاع نعيمة أن يعبر عن أحواله الخاصة وعواطفه بلسان كثير من أبطال قصصه كما سنرى في فصل القصة أيضا.

وصور نسيب عريضة حنينه الى حمص في قصته (ديك الجن) وصور اعتزازه بماضيه العربي في قصته (قصة الصمصامة) . وحدث وليم كاتسفليس عن جوع قلبه في حكاياته التصويرية القصيرة (١) :وصور عبد المسيح حداد غربة المهاجر وآلامه الكبيرة ومشكلاته وهمومه في(حكايات المهجر) . وكان ايليا أبو ماضي كثير الالتفات الى شئون الانسان المهاجر الغريب في المقالات التي يكتبها في (السمير).

وقد اتسعت الرسائل التي نشرت لبعض هؤلاء الأدباء اتساعا كبيرا لهذا الجانب من جوانب المضمون الانساني ، لأنها ـ بطبيعتها ـ انما كتبت لتحدث عن شئون النفس وأحوالها . وسيبدو ذلك واضحا في دراستنا لها في الفصل السادس من الباب الآتي .

ونحن ـ بشكل عام ـ قادرون على أن نجد في هذه النصوص صورا مختلفة يمكن ـ مع اختلافها ـ أن تضم كلها في اطار واحد ، لأنها صورة المهاجر في محنته القاسية وتجربته النافذة قبل أن تكون صورة هذا الكاتب أو ذاك من كتاب الرابطة القلمية. وهي ـ على هذا ـ صورة الانسان الحديث الذي يعذبه القلق والتمرد ، ويرض أعصابه ضجيج الآلة وتعقد العلاقات الاجتماعية .

---

(١) انظر مجموعة الرابطة القلمية ص ١٩٦ (القلوب الجائعة)

الفصـــل الـثـانــــــــي

المضمون الاجتماعـــي

(((١)))

لم يقـرب من اهتمام كتـاب الرابطـة القلميـة بمشكـلات الفـرد الروحيـة الانسانيـة التي رأينـا استفاضتهـا في أدبهـم ، الا اهتمامهـم بمشكـلات المجتمـع وقضاياه • وهم ـ في ذلك ـ لم يقفـوا عنـد حدود المجتمع الذي يعايشونه ، وحدود البيئـات العربيـة التي كونوهـا في المهجـر ، وانمـا ظلـوا على ارتبـاط بمشكـلات المجتمع الذي خلفـوه في الوطـن ، وبقضاياه الكبيرة • ولم تكن مشكلات هذا الوطـن ـ على كل حـال ـ بعيـدة عن مشكـلات البيئـات العربيـة التي كونهـا المهاجـرون في وطنهم الجديـد ، فقـد رأينـا أنهـم حملوا معهـم الى المهجـر ما كان يسـود مجتمعهـم في الوطـن من تعصـب طائفـي وخلافـات اقليميـة وقرويـة في بعـض الأحيـان •

وقـد واجه كتاب الرابطـة هذه المشكـلات كلها ، فدعوا الى محاربة الشعـور الطائفـي الضيـق الذي كان يمـزق وحدتهم في المهجـر والوطن ، وصوروا نتائجه البغيضة في حيـاة الأفـراد والجماعـات • وعنوا عناية خاصـة بتطهـير الحيـاة الروحية في المجتمع فكشفـوا عن مفاسـد بعض رجـال الديـن وصوروا جشعهـم وانهيارهم ، وحاربوا تسلطهم الوهمي على العقـول ، وطالبـوا بالعودة الى تعاليم المسيح النظيفة في الانجيل • ثـم دعوا الأجيـال الشابة الى أن تتحـرر من أوهـام الماضـي ، ومن التقاليـد الباليـة التي تغـل عقولهـا وتعطـل نموهـا و~~التحاطها~~ اكتمروفها مع مرحلتهـا التاريخيـة التي تعيشهـا • ونـادوا باحترام المرأة والثقـة بهـا ، واحترام العلاقـات العاطفيـة التي تقوم بينهـا وبين الرجـل • ووعـوا مفاسـد الاقطـاع الذي كان يدبـر ـ مع الرجعيـة ـ المذابـح ليحتفـظ بنفـوذه ومصالحـه ، فثـاروا برجالـه وممثليـه في شجاعة ، ودعوا الى تحطيمه ، والى بنـاء الحيـاة بنـاء يشبـه أن يكون اشتراكيـا تتكافـأ فيه الفرص أمام المواطنـين جميعـا •

وقـد اتسمـت فنـون النثـر التي عالجوهـا لعـرض هذه المشكـلات وتعميـق الاحسـاس بهـا ووضـع الحلـول لهـا • وكانت المقالـة والقصـة في مقدمـة هذه الفنـون

وان استعانوا بغيرهما أيضا٠ وسنحاول الآن أن نحلل نماذج صالحة تمثل آراءهم هذه في ميادين الاصلاح والبناء الاجتماعيين وتفصح عن نظرتهم في تكوين المجتمعات٠

(((٢)))

لعل القضية الأولى التي شغل بها هؤلاء الكتاب هي ما سميناه الدعوة الى تطهير الحياة الروحية من أدران التعصب الطائفي وتصفية نفوذ رجال الدين التحكمي ووقف تسلطهم على العقول ٠ وقد كتب جبران — في هذه السبيل — صفحات بلغ من عنفها أن أثارت عليه حرب رجال الدين في الوطن والمهجر، فسخروا صحفهم ومجلاتهم لتسفيه آرائه واتهامه بسوء المقاصد وبالرغبة في تحطيم الحواجز أمام شهواته الجسدية العارمة (١) ٠ ووصلوا الى رسومه فجردوها من كل فن ، وزعموا أن جبران يبث فيها الدعارة من حيث يصور الأجساد العارية (٢)٠ ونعى بعضهم على الناشرين اهتمامهم بكتبه ومقالاته ، حتى لا يفسدوا الناشئة وينحرفوا بعقيدتها وأخلاقها (٣) ٠ وقد كانت هذه الحملة التي لا تخلو من طيش

---

(١) يعتقد الأب شيخو اليسوعي الذي يمثل/هذه الحملة أن جبران — بحملته على رجال الدين — دخل من الباب الذي دخل منه الريحاني من قبل (المشرق ٢١/٤٨٨)٠ وقد كان الأب شيخو وبعض رجال الدين وقفوا من الريحاني آنذاك موقفا بلغ الغاية في قصر النظر وضيق الافق ، فاتهمه شيخو " بالكلب اللاديني " ، وزعم أنه " منحاز الى الماديين والدروينيين " ، وسخر من " نصرانيته " واعتبرها هي و " اسلامه " سواء !! (المشرق ٢٢/ ٦٢٤ — ٢٥)٠ وقد ردد شيخو معاني هذه التهم كلها بالنسبة لجبران أيضا ، وزاد عليها أن جبران مسلوب العقل بتمدن العالم الجديد " الذي أعلن ٦٥ في المائة من أهله تجردهم عن كل دين "، وأنه — كالريحاني وفرح أنطون — ينتسب الى الماسونية ٠ (المشرق ٢١/٤٩٣) ثم شدد حملته عليه لما نشر في كتبه من صور " مشاهير الاسلام " وقال : " كان الأجدر به أن ينفيها من كتابه !!" ٠ (المشرق ٢١/٤٨٧)٠ انظر الخيط الاخير في هذه الحملة في كتاب تاريخ الأدب لحنا الفاخوري ١٠٨٦ — ٨٨

(٢) امين خالد — مقالاته (الجوهر الفرد في أدب جبران) ٠ انظر هنا المشرق ٣٠/٥٢٣ سنة ١٩٢٣

(٣) انظر ما قاله الأب شيخو ليوسف توما البستاني (صاحب مكتبة العرب بالقاهرة) الذي نشر/كتابا باسم (بدائع جبران خليل جبران وطرائفه)٠ (المشرق ٢١/٤٨٧)٠ وقد رد (السائح) على الأب شيخو ، فكتب فؤاد أفرام البستاني — الذي كان وقتذاك تلميذا في اليسوعية — مقالة يؤيد فيها الأب شيخو ، وينعى على الجرائد تقريظهم للكتاب (المشرق ٢١/٩١١)٠ والعجيب أن فؤاد أفرام البستاني نفسه كتب بعد ذلك — وفي المشرق نفسها — مقالة ، بمناسبة زيارة بربارة يونج للبنان ، مجد فيها جبران تمجيدا حارا ٠٠ (المشرق ٣٧/ ٢٩٦ وما بعدها)٠

كبير عاملا ضخما من عوامل استفاضة شهرة جبران .

وقد رأى جبران فى القصة مجالا أوسع من مجال المقالة للتعبير عن هذا الجانب من ثورته الاصلاحية (١)، فهو ـ فى القصة ـ قادر على التصوير والتركيب وتقديم النماذج الحية ، ثم على النيل منها نيلا مركزا يملأ الحس (٢) وقد كثر ذلك فى قصصه حتى قاربت أن تكون كلها مصروفة فى هذا الاتجاه . يصف الكاهن ـ مثلا ـ بلسان خليل (بطل قصته خليل الكافر) بقوله : " أتعرفون أيها المستسلمون الضعفاء من هو الكاهن الذى تهابونه وتقيمونه وصيا على أقدس أسرار نفوسكم... هو خائن يحطيه المسيحيون كتابا مقدسا فيجعله شبكة يصطاد بها أموالهم ، ومراء يقلده المؤمنون صليبا جميلا فيمتشقه سيفا سنينا ويرفعه فوق رؤوسهم ، وظالم يسلمه الضعفاء أعناقهم فيربطها بالمقاود ويوثقها باللجم ، ويقبض عليها بيد من حديد ولا يتركها حتى تنسحق كالفخار وتتبدد كالرماد . هو ذئب كاسر يدخل الحظيرة فيظنه الراعى خروفا وينام مطمئنا ، وعند مجىء الظلام يثب على النعاج ويخنقها نعجة اثر نعجة ...

هو نهم يحترم موائد الطعام أكثر من مذابح الهيكل ، وطامع يتبع الدينار الى مغاور الجن ، ويمتص دماء العباد مثلما تمتص رمال الصحراء قطرات المطر ، وبخيل يحرص على أنفاسه ويذخر مالا يحتاجه . وهو محتال يدخل من شقوق الجدران ، ولا يخرج الا بسقوط البيت ، ولص صخرى القلب يبتز الدرهم من الأرملة والفلس من اليتيم .

هو مخلوق عجيب له منقار النسر ، ومقابض النمر ، وأنياب الضبع ، ولابس الأفعى . خذوا كتابه ومزقوا ثوبه وانتفوا لحيته ، وافعلوا به ما شئتم ، ثم عودوا وضعوا الدينار فى كفه ، فيغفر لكم ويبتسم بمحبة . اصفعوا جهه وابصقوا بوجهه ودوسوا عنقه ثم أجلسوه على موائدكم ، فيتناسى متبللا محيا

---

(١) انظر مقالته (رؤيا) (دمعة وابتسامة ـ مجموعة المؤلفات ٢/ ١٢٣). ومقالته (يا بنى امى) (المواصف ٣/ ٤٣).

(٢) انظر قصصه (يوحنا المجنون) (عرائس المروج ـ مجموعة المؤلفات ١/ ٨٩) ، و (خليل الكافر) (الأرواح المتمردة ـ مجموعة المؤلفات ١/ ١٥٢) ، و (الأجنحة المتكسرة) مجموعة المؤلفات ـ الثانى) ، و (الشيطان) و (السم فى الدسم) و (ما وراء الرداء) (العواصف مجموعة المؤلفات ٣/ ١١٥ و ١٥٠ و ١٥٥) .

حزامه لينمو جوفه بمآكلكم ومشاربكم . جدفوا على اسم ربه ، واقذفوا بعقائده واسخروا بايمانه ، ثم ابعثوا اليه بجرة من الخمر أو بسلة من الفاكهة ، فيسامحكم ويبرركم امام الله والناس ..." (١).

ثم يفيض جبران على هذا النحو فيصور تحرق الكاهن الجنسي وسخطه على الشرائع التي حرمته " ملذات العمر " ، وقسوة قلبه وجشعه وكذبه ونفاقه .

ويأخذ على رجال الدين - في موضع آخر من قصصه - تدخلهم في الشئون السياسية ، فيقول في أحدهم : " كان المطران يقف يوم الأحد أمام المذبح ، ويعظ المؤمنين بما لا يتعظ به ، ويصرف أيام الأسبوع مشتغلا بسياسة البلاد " (٢).

ويبين جبران تأثير مسلك رجال الدين الذي صوره في حياة الشعب فيقول في نبرة اصلاحية عنيفة : " كذا تبيد الشعوب بين اللصوص والمحتالين مثلما تفنى القطعان بين أنياب الذئاب وقواطع الجزارين . وهكذا تستسلم الأمم الشرقية الى ذوي النفوس المعوجة والأخلاق الفاسدة ، فتتراجع الى الوراء ، ثم تهبط الى الحضيض ، فيمر الدهر ويسحقها بأقدامه ..." (٣).

وقد ترتبط ثورته على رجال الدين حينا ، بما كان يشهده من اكتناز الأموال في الأديرة (٤) ، ومظاهر العري والجوع خارج اسوارها . وهو هنا يسمي رجال الدين (قياصرة) ، ويقول عنهم بلسان (يوحنا المجنون) مخاطبا المسيح :

" لقد أقاموا يايسوع لمجد أسمائهم كنائس ومعابد كسوها بالحرير المنسوج والذهب المذوب ، وتركوا أجساد مختاريك الفقراء عارية في الأزقة الباردة ، وملئوا الفضاء بدخان البخور ولهيب الشموع ، وتركوا بطون المؤمنين بألوهيتك خالية من الخبز ، وأفعموا الهواء بالتراتيل والتسابيح ، فلم يسمعوا نداء اليتامى وتنهيدات الأرامل . تعال ثانية يا يسوع الحي ، واطرد باعة الدين من هياكلك ، فقد جعلوها مغاور

---

(١) مجموعة المؤلفات ١/١٩١ - ١٩٢ .
(٢) الأجنحة المتكسرة - مجموعة المؤلفات ٢/٥٨
(٣) المصدر السابق ٥٩
(٤) انظر في حال الديرين (اليشاع النبي) و (قزحيا) المجاورين لبشري بلد جبران ما جاء في كتاب جميل جبر (جبران) ص ١١ نقلا عن جون كارن في كتابه (رحلة في لبنان) . وجاء في كتاب (ولاية بيروت ١/٢١) قوله : " يملك رجال الدين في الطائفة المارونية أكثر من ربع الأراضي في لبنان " .

تتلوى فيها أفاعي روغهم واحتيالهم ، تعال وحاسب هؤلاء القياصرة ، فقد اغتصبوا من الضعفاء مالهم وما لله ... تعال وانظر الكرمة التي غرستها يمينك، فقد أكلت جذوعها الديدان ... "(١).

ثم يصف جبران تقسيم رجال الدين وتخاصمهم على الأسلاب والمطامع ، وأثر ذلك في تمزيق الشعب والقضاء على وحدته . ويصور " الأطفال المتكئين على صدور الأمهات الجائعات ، في المنازل المظلمة الباردة " ، على حين يرمي القسس القوت الى " خنازيرهم المسمنة " ، ويدهشون الناس" بلمعان ذهب أوسمتهم وبريق حجارتهم وأطالس ملابسهم" .

والى هنا نتوضح في ثورة جبران أهداف كبيرة عامة ، خليقة أن تشعل ثورة شعبية عاصفة ، لا تطيح برجال الدين وحدهم ، وانما تطيح بالاقطاع كله على اختلاف درجاته ، من حيث هو مسئول عن هذا الفساد العظيم ، وهذه الطبقية المريعة (٢).

وقد يسلك جبران مسلكا آخر ، فيحمل ثورته رجلا من رجال الدين ، لتكون أنفذ تأثيرا ، وأدل على ثقل المفاسد . وهو يختار — هنا — شابا ثائرا ليمثل قوة الثورة وجرأتها كما فصل في قصته (خليل الكافر) التي نقلنا منذ قليل نصا منها . وخليل هذا راهب ثائر يقول محدثا عن حياته في الدير وخروجه منه : " .... نعم خرجت مطرودا من الدير لانني لم أستطع أن أحفر قبري بيدي ، لأن قلبي قد تعب في داخلي من متابعة الكذب والرياء ، لأن نفسي أبت أن تتنعم بأموال الفقراء والمساكين ، لأن روحي قد امتنعت عن التلذذ بخيرات الشعب المستسلم الى الغباوة . خرجت مطرودا لأن جسدي لم يعد يجد راحة في الغرف الرحبة التي بناها سكان الأكواخ ، لأن جوفي لم يعد يقبل الخبز المعجون بدموع اليتيم والأرملة ، لأن لساني لم يعد يتحرك بالصلاة التي يبيعها الرئيس بأموال المؤمنين والبسطاء . خرجت مطرودا كالأبرص القذر ، لانني رددت على مسامع القسس والرهبان آيات الكتاب الذي جعلهم قسسا ورهبانا "(٣).

وخليل الكافر هذا صورة للراهب الفلورانسي الثائر سافونا رولا (Savonarola)

---

(١) مجموعة المؤلفات ١/ ١٠٠ — ١٠١ (والمقتطفات التالية منه أيضا).

(٢) سيأتي موقف أدبائنا هؤلاء من الاقطاعية فيما بعد . وانظر هنا في تصوير تحالف رجال الدين مع الاقطاع قصة (خليل الكافر) .

(٣) مجموعة المؤلفات ١/ ١٦٢.

الذى دعا الى بيع ممتلكات الأديرة وقال : " ان الرهبان ليسوا فى حاجة الى امتلاك أى شىء ، حتى صوامعهم وملابسهم " ، " وحمل الرهبان على العيش الخشن المتقشف ، وحتم عليهم أن يعملوا ليعيشوا بكد هم وجهدهم "(١) . وهاجم رجال الدين فى فلورانسا قائلا عنهم : " ... هم ينادون بحياة الطهر والورع ، مع احتفاظهم بالعاهرات من النساء ، ويحضون غيرهم على الصوم وهم يتناولون أشهى الأطعمة ... هم حطموا الكنيسة الصحيحة وشيدوا بدلها كنيسة باطلة ملونة ، وأخضعوا الكنيسة للمنجمين ، واحتفظوا بالمظاهر والطقوس وحدها ... "(٢) . وهكذا تبدو ثورة جبران برجال الدين فى لبنان حلقة فى سلسلة الثورات التى أشعلها بعض المفكرين الأحرار فى أنحاء العالم جميعا ، ليطهروا الدين من فساد بعض رجاله .

فاذا ذكرنا ما سبق أن بيناه من نفوذ رجال الدين فى لبنان وأثرهم فى تمزيق المجتمع اللبنانى وتفكيك وحدته وتلويث حياته الروحية والسياسية والاجتماعية والعبث بمقدراته والتحالف مع مستغليه من الاقطاعيين والشيوخ ، عرفنا طبيعة الأرض التى يضرب فيها معول جبران ، وقدرنا نتائج ثورته وخطورتها بالنسبة لحياة الشعب فى لبنان ولما يمكن أن يتعرض له جبران من خصومة هؤلاء الرجال .

×× ×× ××

ولم يذهب نعيمة — فى شبابه — هذا المذهب فى مهاجمة رجال الدين ، فهو بطبعه الهادئ الحذر ، بعيد عن أن يدخل يده — دفعة واحدة — فى الجحر الذى أدخلها فيه جبران . وقد نشأ — من ناحية أخرى — فى مدارس دينية تبشيرية عودته احترام رجل الدين على كل حال . وغاية ما نجده — فى المرحلة الأولى من حياته — تمردا على من يأخذ بالحرف من رجال الدين أو سخرية به ، كأن يصور اختلاف كاهنى الكنيستين الشرقية والغربية فى دفن رجل كان يتردد على الكنيستين(٣) . فمن الطبيعى اذاً أن يرخى — فى كهولته — ستارا يهاجم مسلك رجال الدين فى الأديرة من ورائه ، فيقول بلسان (مرداد) الذى يمثله ، يخاطب رفاق الفلك الذين يمثلون رجال الدير :

---

(١) حسن عثمان — سافونا رولا ٨٥

(٢) المصدر السابق ٨٧ — ٨٨

(٣) كان ما كان ٨ (قصته ساعة الكوكو) . وانظر أيضا موقفا ساخرا آخر فى ص ١٠٤ (قصة سعادة البيك) وانظر موقف التمرد فى مسرحيته (الآباء والبنون) ص ٣١ ، وسنشير اليه فيما بعد .

" ما كان مؤسس هذه الفلك مرابيا . ألعله أوصى لكم بمال تدينونه للفير بالربا ؟ أم لعله أوصى لكم بأمتعة تتاجرون بها وأراض تؤجرونها لتخزنوا خيراتها ؟ أم لعله أوصى لكم بعرق اخوانكم ودمائهم ، ثم بالسجون للذين تمتصون آخر نقطة من عرقهم ، وتمتصون آخر قطرة من دمائهم "؟ (١) فنعيمة هنا يسوق الكلام في سخرية لا تذهب بالمرارة ، ولكنها تلطف كثيرا من حدة الهجوم .

ونحن قادرون — على كل حال — أن نرى في هذه الثورة ، عند جبران ونعيمة ، صورة جديدة لموقف المسيح من كهنة الهيكل ، حين أخذ يطردهم قائلا :"مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى ، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص " (٢) . " يا أولاد الأفاعي كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار ، فانه من فضلة القلب يتكلم الفم " (٣) . وفي كلامه لحوارييه : " مجانا أخذتم ، مجانا أعطوا . لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم ولا مزودا للطريق ، ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا ، لأن الفاعل مستحق طعامه " (٤) .

ويجب أن نضيف الى هذا تأثرهما بأدب الدعوة الى التحرر الذي مهد للثورة الفرنسية على يد روسو وفولتير خاصة . وقد كتب جبران رسالة سنة ١٩٠٧ الى صديقه جميل المعلوف أعرب فيها عن أمله بأن يلقاه في باريس ليسيرا معا الى حيث كان الباستيل " شاعرين بملامس روح روسو وفولتير " ، وليكتبا " عن الحرية والاستبداد " ليكونا من المساعدين " على هدم الباستيل القائم في كل بلدة في الشرق " (٥) .

وقد غذى في نعيمة هذه الثورة — التي كبت حرارتها — منذ كان في بولتافا أن يقرأ لتولستوي ويشهد مأساة الرجل الروسي الذي تحالف عليه الاقطاع ورجال الدين (٦) .

على أن نعيمة أبدى اهتماما خاصا — في هذا المجال — بناحية أخرى من نواحي الاصلاح الاجتماعي ، لعلها ألصق بحياة الناس وأفعل في توجيههم ، تلك

---

(١) مرداد ١٢٧ (٢) انجيل متى ٢١/١٣
(٣) المصدر السابق ١٢/٣٤
(٤) المصدر السابق ١١/٨ — ١٠ . وانظر مقالة جبران (يسوع الثائر) — العواصف — مجموعة المؤلفات ٣/٢٥ . وانظر (سبعون) لنعيمة — المرحلة الأولى ص ٢٦٩ .
(٥) جبر — جبران ٦٦
(٦) انظر سبعون ٢٥٤ — ٥٥

هي ـ الدعوة الى فهم الدين فهما واعيا عميقا يبعد به عن التعصب الطائفي والمذهبي ، وهو المرض الذي أصبحنا نقدر خطورته وأثره في المجتمع اللبناني وفي بيئات المهاجرين آنذاك . ويبدو هذا الاهتمام مبكرا في مسرحيته التي كتبها اثر تخرجه من الجامعة (الآباء والبنون) ، فقد كان فهم الدين خطا من خطوط الصراع فيها بين الجيل الجديد والجيل القديم . وقد قال نعيمة فيها بلسان داود ـ الذي يمثله ـ ، يخاطب (أم الياس) التي اتهمته بالهرطقة ، ممثلة في ذلك فهم الجيل القديم للدين : " لست بكافر يا خالتي أم الياس، أنا أومن بالله ورسله وأنبيائه من كل قلبي ... اني أعتبر يسوع وموسى ومحمدا على السواء . في العالم اله واحد وهو اله الجميع ، ليس مسيحيا ولا مسلما ولا يهوديا ... " (١)
ثم يقول ردا على سؤالها : " اني أصلي في قلبي ياخالتي ، لا في كنيسة الروم ولا الموارنة ولا البروتستانت ولا في الجامع ... من لا يقدر أن يعبد ربه الا في الكنيسة فليذهب الى الكنيسة ، ومن لا يقدر أن يخاطب خالقه بسوى لسان كاهن أو شيخ فليتبع كاهنه وشيخه ، أما أنا فاراني في غنى عنهما " (٢) .

وقد كانت عقيدة نعيمة بوحدة الحياة ووحدة الانسان طريقا مباشرا سلكه في الدعوة الى هذا الاصلاح ، اذ لا محل للاختلاف في مثل هذه العقيدة الشاملة كما رأينا في الفصل السابق . وقد أوشك نعيمة أن يرى الوحدة في الدين في الصورة التي صورها للبشرية الجديدة ، اذ قال : " أما الديانات البشرية فان عز توحيدها من حيث الطقس والعقيدة فلن يعز على الانسان الطامح الى الحرية الخلاقة أن ينبذ منها كل ما من شأنه أن يفصل الانسان عن الانسان وعن سائر الأكوان ، وأن يعرقل خطاه نحو هدفه الأسمى ... فكل دين يعمل على انغلاق الانسان لا على انطلاقه ليس بالدين الذي يليق بنا أن نتخذه نبراسا لنا ودليلا الى الحرية . ومن كانت الحرية الخلاقة هدفه من حياته ، شق عليه أن يدين باله يذكي في قلوب عابديه نار الحقد على كل من خالفهم في طريقة عبادته " (٣) ، " فما الأديان ـ على كل ما فيها من تفاوت في الطقس والعقيدة ـ غير وعود للانسان بالانعتاق من ربقة الأرض وشهواتها ، ومن الموت ومخاوفه وأوجاعه " (٤) .

---

(١) الآباء والبنون ٣٠ ـ ٣١
(٢) المصدر السابق ٣١ . وهذا موقف التمرد الذي أشرنا اليه منذ قليل .
(٣) مقالته (بشرية جديدة) . النور والديجور ١٨١ ـ ٨٢
(٤) مقالته (الشباب الحائر) . في مهب الريح ٧٣

ولاشـك أن المحبـة التى تابـع نعيمـة الانجيـل فى الدعوة الى جعلها محـور تفسيرنـا للحيـاة والانسـان ـ كما رأينـا فى السـابق ـ هى مصـدر هذه النظرة فى وحـدة الدين ، لأن المحبـة " قـوة شاملـة لا تقبـل الحصـر والتجزئـة "(١)، " والكون كالحب ، وحـدة لا تتجـزأ ، فمن أحبه بكامله كان حبه كاملا وكان مبصـرا أبـدا " . " ونحن لو كان لنا أن نبصـر كل ما فى الكون على نور الحـب لما أبصرنـا فيه غير الجمال " ، لأن "عالم الحب لا مجال فيـه للمتناقضـات " .

ومثل هذه النصـوص ـ على كل حال ـ بعيـد الدلالـة على ما خلفت ذكريات المذابح والـنزاع الطائفـى فى نفوس المهاجرين من أذى وعبرة وما حفـزت فيهم من قـوى لمغالبة آثارهـا والدعـوة الى التسـامح والمحبـة بين أبناء الوطـن الواحـد(٢) .

ولم يقصـر جبران فى هـذا الميـدان أيضـا ، وإن لم يجار نعيمة . وهو القائل فى حقيقة الدين : " لا ليسـت الحيـاة بسطوحهـا بل بخفاياها ، ولا المرئيات بقشورهـا بل بلبابهـا ، ولا النـاس بوجوههم بل بقلوبهـم . لا ولا الدين بما تظهره المعابـد وتبينـه الطقـوس والتقاليـد ، بل بما يختبئ فى النفوس ويتجوهر بالنيـات ..."(٣) . وقد فصل ذلـك ووضحـه فى المشهـد المسرحى الذى سمـاه (ارم ذات العمـاد)(٤) وضمنه نظرته الفلسفية التى

---

(١) مقالته (هل الحب أعمى) النور والديجور ٤٨ (والمقتطفات التالية منها أيضـا) .

(٢) استشـرى النزاع الطائفى فى المهجر حتى وقع بين أفراد الطائفة الواحدة . انظر صورة لذلك فى النزاع بين أبناء الطائفة الأرثوذكسية : الصرب فى المهجر الشمالى للكفافى ١٠٤ ـ ١٠٦ وانظر رسائل الريحانى ٢٥ . وقد كان لبعض كتاب الرابطة من الأرثوذكسيين حظ فى النزاع. (ذكر لى الاستاذ فيليب كاتسفليس أن بعض أدباء الرابطة منهم شكلوا فى ادارة السائح مجلسا سموه مجلس المستهزئين ، وبدؤوا ينشرون " قراديات " بعنوان : " وانثر يادفعلى الطارة" بدون توقيـع) .

(٣) مقالته (القشور واللباب) . البدائع والطرائف ـ مجموعة المؤلفات ٣/١٧٦ . وقد واجه جبران حالة التقسيم الطائفى فى لبنان ، فى قصته (خليل الكافـر) فقال بلسانه يحمل على الذين يدسون على حيـاة لبنان : " لحفظ عروشهم وطمأنينة قلوبهم قد سلحوا الدرزى لمقاتلة العربى، وحمسوا الشيعى لمصارعة السنى . ونشطوا الكردى لذبح البدوى . وشجعوا الأحمدى لمنازعة المسيحى . فحتى متى يصـرع الأخ أخاه على صدر الأم ؟ والى متى يتبعد الجار جـاره بجانب قبر الحبيبـة ؟ والام يتباعد الصليب عن الهلال أمام عين الله ..." . مجموعـة المـؤلفـات ١/٢٠٥ .

وقد خلف جبران مخطوطه باسم (فلسفة الدين والتدين) نحافيها نحو قصته (خليل الكافـر) وأثبت ـ بلسان بطلهـا الذى سماه خليل بن سالم .. ـ أن الانسان قادر على الاتصال بربه دون توسط الكهنة ، وأن " مصدر الأديان كلها واحد . انما ضعيته مصالح رجال الديـن " وأنه لا حاجة ـ بالتالى ـ الى الطقوس والمراسيم . وقد كان تأثر جبران هنا بامرسون المتصوف الأمريكى واضحا . انظر كتاب جبر ١٠٥ ـ ١٠٦

(٤) المصدر السابق ٢٦٦ . (والمقتطف التالى المنقول ص ٢٨٠)

(٥) مجموعة الرابطـة ١١٥

الحيـاة ، ونقلهـا بلسـان امرأة مسلمـة سماها (آمنة الصلويـة) ، لتزيد في تـأكيـد نظرته في وحـدة الأديـان . وقـد وضـع على لسـانها قولـه : " أجل .. قل الله أكبر ، لا الله الا الله . وقل لاشيء الا الله . قل لا اله الا الله ولا شيء الا الله وكن مسيحيا .. " .

وان بين أيدينـا نصوصـا قليلـة لبعض كتاب الرابطـة الآخرين ، مسوا فيها هـذا الجانب الخطير من جوانب الاصـلاح الاجتماعي . فقد حرص عريضة على أن يضع على لسـان الفتـاة المسيحيـة التي سماها (ورد بنت الناعمة) في قصة ديك الجن الحمصي ، كلاما يصـور الألفـة بين المسيحيـين والمسلمين في القديم ليوحي بالتشبه بهم (١) . وصور الأفراح الـتي اشترك فيها الطرفـان احتفـالا بزواج ديك الجن المسلم من ورد النصرانيـة . وكتب كاتسفليس في مقالته (البـترون سنة ٢٥٢٠ م) (٢) يصف حيـاة النـاس في لبنـان قبل أكثر من خمسة قـرون (أي في أيامنـا هـذه) وينعى عليهم اختلافهم الطائفـي ، سالكا في ذلـك مسلكه التحرري الذي عرفنـاه فيما سبق . يقـول : " من الغريب أن الناس في تلك العصـور كانوا يتوهمون أنهم بلغوا شـأوا كبيرا من التمدن والرقـي ، مع أن آثـارهم تدل على انحطاط وتأخـر ... من ذلك أن المذاهب الفلسفية التي تعرف اليـوم بأسمائهـا القديمـة ، كانت تدعى عندهم أديانـا .. أي أنهم كانوا يعتبرونهـا شرائع منزلة مـن السمـاء يجـب عليهـم اتباعهـا بالحرف ، والمفاضلـة عنهـا ومحاولة اقناع الآخريـن بصحتهـا ، واكراههـم على اعتناقهـا اذا تسـنى لهم ذلك . فكان أتباع المسيح ــ وهـم الأكثرية .. ولهم الصولـة والجـول ــ كثـيرا ما يضطهدون المتمذهبين بمذهب موسـى أو اليهـود في بلادنـا الشرقيـة . كان المسلمون يحتقـرون النصـارى ، وينبذونهم ، وأحيانا يفتكون بهم ، وهم أبناء جنس واحد وبلاد واحدة ، ولغة واحدة ، لغير سبب الا الاختلاف في المذهـب الفلسفـي ... " . " تلك كانت حالتهم في أديـانهم . جهل مطبق يقوده علم فاسـد . فعامة الناس كانت جاهلة كنه الدين ، وزعماء الدين من كهان وشيوخ كانـوا يضرمون فيهـم عاطفـة التعصـب لمذاهبهـم ، والبغضـاء لمن كان خارجـا عنها ليظلـوا في زعامتهم راتعين ، وفي رقـاب العامـة مالكـين . فلو تركوهم وشـأنهم لاهتدوا الـى السبيـل وأدركـوا سريعـا كما أدرك من خلفهـم على الأرض أن الدين هو الأخلاق والأعمال فـان تسـاوت في النـاس بالرقـي كانوا من دين واحـد ومذهـب واحد ، وما دون ذلـك باطـل ، والباطـل عدو الخالـق وآفـة المخلـوق " .

---

(١) مجمـوعة الرابطـة ١١٥

(٢) المصـدر السـابق ٦٦

وليس بعد هذا المذهب فى التحرر مذهب ٠ ولاشك أن كاتسفليس متأثر فيه بآراء مفكرى الثورة الفرنسية وروادها وأدبائها ، وبآراء (فولتير) بوجه خاص ٠

(((٣)))

ومن الطبيعى أن ترتبط الدعوة فى هذا الجانب من جوانب الاصلاح بدعوة أعم هى التخلص من الماضى بأوزاره كلها فى جميع ميادين الحياة ٠ وقد بدت هذه الدعوة عند جبران حادة عنيفة فى كتابه (المواصف) (١) الذى كان جبران واقعا خلال تأليفه تحت تأثير نيتشة فيلسوف القوة (٢) ٠ وبدت لهجته فيه قارعة مرتفعة النبرة كأنه يريد أن يهز أعمدة القديم من الاساس ٠ يقول – مثلا – : " أغرب ما لقيت من أنواع العبوديات وأشكالها العبودية العمياء ، وهى التى توثق حاضر الناس بماضى آبائهم ، وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم ، وتجعلهم أجسادا جديدة لأرواح عتيقة ، وقبورا مكلسة لعظام بالية " (٣) ٠ ويقول : " ان بلية الابناء فى هبات الآباء ، ومن لايحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات ٠٠ " (٤) ٠ ويقول يخاطب قومه : " قلت لكم تعالوا نصعد الى قمة الجبل ر لأريكم ممالك العالم فأجبتم قائلين : فى أعماق هذا الوادى عاش آباؤنا وجدودنا ، وفى ظلاله ماتوا ، وفى كهوفه قبروا ، فكيف نتركه ونذهب الى حيث لم يذهبوا " (٥) ٠ ويصور خوفهم من الجديد بقوله : " قلت لكم تعالوا نذهب الى الساحل حيث يعطى البحر خيراته فأجبتم قائلين : ضجيج اللجة يخيف أرواحنا ، وهول الاعماق يميت أجسادنا ٠٠ " ٠ ويصور حاضرهم التعس وادعاءهم العريض : " سيوفكم مغلقة بالصدأ ، ورماحكم مكسورة الحراب ، وتروسكم مغمورة بالتراب ، فلماذا تقفون فى ساحة الحرب والقتال ؟ دينكم رياء ، ودنياكم ادعاء ، وآخرتكم هباء ، فلماذا تحيون والموت راحة الاشقياء ؟ " ٠ ويختم المقالة أخيرا بهذا الازدراء المر :

---

(١) يمكن أن تتبين أصولها فى (دمعة وابتسامة) ٠ انظر مثلا مقالته (مدينة الماضى) (مجموعة المؤلفات ٢/ ١٧٠) التى يقول فى آخرها بلسان الحياة : " سر فالوقوف جبانة والنظر الى مدينة الماضى جهالة " ٠ ومقالته (يوم مولدى) (المصدر نفسه ٢/ ١٩٥) التى مجد فيها الحرية ونعى على الناس " خضوعهم للأصنام المخيفة التى نحتتها الأجيال المظلمة ، ونصبتها الجهالة المستمرة ، ونعمت جوانبها ملامس شفاه العبيد " ٠

(٢) كان ينهم قومه بالالتفات عن صوته وجوهره وانشغالهم بالسخف والمظهر ٠ انظر مثلا مقالته (بين ليل وصباح) ٠ العواصف ٣/ ٥٢ ٠

(٣) مقالته (العبودية) ٠ العواصف – مجموعة المؤلفات ٣/ ١٨

(٤) مقالته (حفار القبور) ٠ المصدر السابق ٣/ ١٠

(٥) مقالته (يابنى أمى) ٠ المصدر السابق ٣/ ٤٢ (والمقتطفات التالية منها) ٠

" أنا أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة .
أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم .
أنا عدوكم لأنكم أعداء الآلهة . ولكنكم لا تعلمون " .

ثم لا يحجم جبران عن أن يسمي قومه (أبناء القرود) ، ليوازن بينهم وبين من أسماهم (أبناء الآلهة) (١) ، ويقول لقومه : " منذ سبعين ألف سنة مررت بكم فرأيتكم تتقلبون كالحشرات في زوايا الكهوف . ومنذ سبع دقائق نظرت من وراء بلور نافذتي فوجدتكم تسيرون في الأزقة القذرة وأبالسة الخمول تقودكم ، وقيود العبودية تمسك بأقدامكم وأجنحة الموت تصفق فوق رؤوسكم . فأنتم اليوم كما كنتم بالأمس وستظلون غدا وبعده مثلما رأيتكم في البدء .... " .

أما أبناء الآلهة فيقول بلسانهم ، يصور تحررهم من القديم وانطلاقهم : " بالأمس كنا نهدم عروش نفوسنا لنبني منها قبورا لأجدادنا . أما اليوم فقد تحولت نفوسنا مذابح مقدسة لا تدنو منها أشباح القرون الغابرة ، ولا تلامسها أصابع الأموات البالية .. " .

ويعتقد جبران أن مبضعه الحاد الذي يجريه في مواضع العلة من جسم أمته – وإن كرهت – خير من المخدرات والمسكنات التي " يتخذها الأطباء الشرقيون لمعالجة الأمراض العائلية والوطنية والدينية " (٢) ، لأنها " مخدرات وقتية تطيل زمن العلة ولا تبرئها " ، ولكن الشرقيين " يمشون في مسارح الماضي الغابر ، ويميلون الى الأمور السلبية المسلية المفكهة ، ويكرهون المبادئ والتعاليم الايجابية المجردة التي تلسعهم وتنبههم من رقادهم العميق المغمور بالأحلام الهادئة " .

ويعلن جبران – في هذه المقالة نفسها – ثورته الكاسحة بأسلوب الحياة التي يحياها قومه بشكل عام ، (٣) ويضرب الأمثلة المعبرة على تفاهة نظرتهم القديمة الى مشكلاتها " فقد تتعذر الحياة المشتركة – مثلا – بين الزوجين " لأسباب وضعية حيوية " فيلجأ أهلهما الى عقد الصلح بينهما ، " فيعودان قهرا عن ارادتهما الى السكنى تحت سقف واحد " . ليجرعا الغصص الدائمة . وتتمرد طائفة على راعيها " لأمور أولية " لا تصح معها الطاعة ، فيتدخل " عقلاء البلاد " و " يزيلون الخلاف " . و" يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوى فيقول له جاره : اسكت فالعين التي تعاند السهم

---

(١) مقالته (أبناء الآلهة وأحفاد القرود) . العواصف – مجموعة المؤلفات ٣/ ٤٩ – ٥١
(٢) مقالته (المخدرات والمباضع) . المصدر السابق ٣/ ٥٨ (والمقتطفات التالية كلها منها)
(٣) يجمع جبران قومه مع الشرقيين عموما . وستتوضح أصول هذه النظرة في الفصل المقبل (المضمون الوطني) .

تفقأ "• و " يشك القروى بتقى الرهبان واخلاصهم فيقول له زميله : أصمت فقد جاء في الكتاب : اسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم "•" وتمتنع الصبية عن اتباع قواعد العجائز فتقول لها والدتها : ليست الابنة أفضل من أمها، فالطريق التى سلكتها تسلكينها أنت أيضا •••"•

ثم يقول جبران فى أسى وغيظ : " هكذا تمر الليالى ، والشرقى مضطجع على فراشه الناعم ، يستيقظ دقيقة عندما تلسعه البراغيث ، ثم يعود ويهجع جيلا يحكم المخدرات التى تمازج دمه وتسير فى عروقه • فاذا ما قام رجل وصرخ بالنائمين وملأ منازلهم ومعابدهم ومحاكمهم بالضجيج ، يفتحون أجفانهم المطبقة بالنعاس الأبدى ، ثم يقولون متثائبين : ما أخشنه فتى لا ينام ولا يدع الناس ينامون (١) •• ثم يغمضون عيونهم ويهمسون فى آذان أرواحهم : هوكافر ملحد يفسد أخلاق الناشئة ويهدم مبانى الأجيال ويرشق الانسانية بالسهام السامة (٢) "•

ويرد جبران عن نفسه هذه التهم فى استهانة وتمرد أصيلين : " قد سألت نفسى مرات ما اذا كنت من المستيقظين المتمردين الذين يأبون شرب المخدرات والمسكنات فكانت نفسى تجيبنى بكلمات مبهمة ملتبسة ، ولكننى لما سمعت الناس يجدفون على اسمى ويتأففون من مبادئى أيقنت بحقيقة يقظتى ، وعلمت أننى لست من المستسلمين الى الأحلام اللذيذة والخيالات المستحبة • بل من أولئك المستوحدين الذين تسيرهم الحياة على سبل ضيقة مفروشة بالأشواك والأزهار ، محفوفة بالذئاب الخاطفة والبلابل المترنمة "••

×× ×× ××

ولم يبد نعمة هذه الحدة فى الدعوة الى التحرر من أوهام الماضى وأوزاره حتى ليختار أحيانا أن يصور هذه الأوزار تصويرا فنيا ليظهر بشاعتها وتفاهتها،

---

(١) كان جبران يرى فى نفسه مصلح قومه ، وكان يقول فى باريس لصديقه يوسف الحويك: " أكثر الناس يايوسف يعيشون فى لجة من الكذب والخيانة والصفارة •• يدعون أنهم أعداء الشرائع والتقاليد ، أما أنا فعدو النفاق والرياء••• سأقول لهم ذلك ليخجلوا "• ذكرياتى مع جبران ٢٠ وانظر أيضا ١١١• وقال مرة عن نفسه : " مع جبران سيبدأ الشرق يفكر "• المصدر المذكور ٨٥ • وكان يؤمن بتأثير الكتاب فى حياة الشعوب • المصدر نفسه ٨٤•

(٢) يشير الى حملة رجال الدين عليه • وقد أشرنا الى أطراف منها فى السابق •

ثم يترك التقرير للقارئ . وهذا أكثر اتفاقا مع مزاج نعيمة كما رأينا في السابق . وقد فطن – من ناحية أخرى – الى أننا لا يمكننا أن نقطع كل رباط معه بماضينا، " فمن الماضي – كما يقول – ما هو بمثابة الجذور والجذوع . وهذه لاحياة لنا الا بها " (١). وانما نقطع من الماضي " ما هو بمثابة الفروع والأغصان " التي " ينخر بعضها السوس، وبعضها تهشمه العناصر ، فتصبح عبئا لا خير فيه للجذور والجذوع ، وبؤرة يتسرب منها الفساد الى الفروع والأغصان الصالحة " ، " فتقليمها ثم تلقيمها النار أجدى لها وللشجرة ".

وقد بدا نعيمة في هذه الملاحظة على حد جميل من الاعتدال والبصر بأحوال الجماعة وأساليب نموها لم يتح لجبران – في ثورته العاصفة ومزاجه الرومانسي المتمرد – أن يراعيها . ويتضح هذا الاعتدال في قوله بعد ذلك : " أفليس من الأجدر بنا أن نسخر بأنفسنا ونحن نحمل في رؤوسنا وفي قلوبنا وفي بيوتنا وفي معاهدنا العلمية والدينية أشياء كانت فيما مضى عونا لنا في كفاحنا ، ونصيرا في بلوغ ما بلغناه من أهدافنا . أما اليوم فقد باتت أوزارا لا نفع منها . بل باتت أحابيل لأقدامنا ، وأقنعة لأبصارنا ، وفخاخا لأفكارنا ".

وقد خصص نعيمة مقالة للكلام على أوزار الماضي الاجتماعي (٢) التي صور هنا ضررها ،فبدا مصدر نظرته اليها في عقيدته بهدف الانسان من وجوده ، وهو الحرية المطلقة . وقد حدد هذه الأوزار فيما يعطل سبيل الانسان الى هذه الحرية أو يعرقل خطواته نحوها . ومن هنا كان الحاحه على هدم الشرائع والقوانين التي هي " ارث بغيض من ماض ما كان يؤمن بالانسان ومستقبل الانسان ، بل كان يراه وحشا ضاريا لا يروض بغير العصا ، أو جوادا جموحا لا يلين رأسه الا باللجام". وقال : " ان لنا في كل شريعة وزرا وقيدا ، سواء أكانت شريعة سماوية أم أرضية ونحن نطلب الحرية " . وختم المقالة بقوله : " انه لمن الخير للناس المتطلعين الى أبعد من أنوفهم والتواقين الى الانعتاق من الحدود والقيود ، أن يصفوا حساباتهم مع ماضيهم فلا يحملوا من أوزاره ما فات وقت نفعه وما يرهق أبدانهم وأرواحهم فيعرقل خطاهم في سيرهم نحو أهدافهم .. " (٣).

وأكد نعيمة هذا الرأي في مقالته : (الشباب ثروة وثورة) (٤)، وحمل الشباب وحدهم تبعة تطوير الحياة والخروج على التقاليد البالية . ولكنه ذكرهم

---

(١) مقالته (أوزار الماضي) . في مهب الريح ١٢٥ (والمقتطفات التالية منها أيضا).
(٢) مقالته (أوزار الاجتماع) المصدر السابق ١٣٥ (والمقتطفات التالية كلها منها).
(٣) قال نعيمة كلاما يشبه هذا في الأرقش أيضا . انظر ص ١٠٥
(٤) دروب ١٩

بأن من القديم ما يهضم فيستحيل دما من دمنا ولحما من لحمنا ، فقال : " اننا نتوارث التقاليد والنظم والعوائد والعقائد جيلا عن جيل . والتقاليد والنظم والعوائد والعقائد الموروثة من شأنها أن تتحجر وتتعفن وتنقلب تعصبا وكرها في فكر الوارث وقلبه ما لم يهضمها وجدانه ويجعلها دما من دمه ولحما من لحمه . واذ ذاك فمن حقه أن يتناولها بالفحص والتمحيص ، وبالشك والتجريح ، حتى اذا استساغها تمسك بها . واذا لم يستسغها راح يفتش له عن أخرى يستسيغها . فالايمان بالله مثلا — وبغير الله — لا يصح أن ينتقل بالوراثة كما ينتقل المال والمتاع والعقار . فهو عملية باطنية وصلة ذاتية بين المؤمن والمؤمن به . والشك باب الايمان . ومن حقنا أن نشك فيما ورثناه عن أسلافنا ، ومن حق شبابنا أن يشك فيما ورثه عنا " .

ويضع نعيمة ثورة الشباب هذه وشكهم في خدمة أهدافه الانسانية فيقول : " ويقيني أن ما في دم شبابنا من حرارة ، وما في عقله من اتزان ، وما في قلبه من ايمان بالعدل والنظام والاخاء والحرية لكفيل بأن يقطع بنا شوطا بعيدا نحو عالم ألطف جوا ، وأفسح أفقا ، وأعذب صوتا من عالم نعيشرفيه الآن . فليس كالشباب خزانة نأتمنها على آمالنا . وليس كالشباب مجددا لشباب الحياة . وليس كالحرية غذاء للشباب وحافزا له على الخلق والابداع والسير بالقافلة الى الواحات المطمئنة والمراعي الخصبة " .

وهكذا يحصل نعيمة من عقيدته محور آرائه في الاصلاح الاجتماعي ، على حين يتحكم مزاج جبران في آرائه الاصلاحية فيكاد يطيح بأعمدة القديم كلها دون تفريق .

وقد سلك نعيمة — في هذا الميدان أيضا — سبيل التصوير ، الى جانب التقرير المعتدل في المقالة . فكتب مسرحيته (الآباء والبنون) التي مثل فيها الصراع بين القديم والجديد ، وانتصر للجديد وبين منطقه في فهم الحياة وتقريرها ، وشكا القديم وسخر من منطقه وتضجر منه بلسان (الياس) الذي يقول لداود : " اني لأكاد أختنق يا داود . اختنق في دنيا تعيش في ماضيها وعيونها مكفوفة عن الحاضر والمستقبل ، حتى بت أمقت الماضي ، وأمقت الحاضر ، وأمقت المستقبل " (١) ويقول له عن أمه يائسا : " لاتنعو يا صديقي أن أم الياس تمثل جيلا — بل أجيالا — من العقائد والخرافات والأوهام المتأصلة

---

(١) الآباء والبنون ٢٥

في النفوس تأصل الجذور في التراب . وهذه ليس من السهل اقتلاعها ..." (١)

وكتب نعيمة قصته القصيرة (الذخيرة) (٢) في هذه السبيل أيضا ، فصور سيطرة الخرافة على العقل حتى ليحسب الفرد أنه تحرر من أوهام الماضي كلها ، ثم يخضع عقله لهذه الخرافة خضوعا أعمى . (٣) وقد ناقش نعيمة خرافة (الذخيرة) — وهي ، على اختلاف صورها ، منتشرة في مجتمعنا — بلسان الراوية الذي يقول عن صاحب الخرافة : " واذ رأيته في موقف جد حاولت أن أقنعه ببراهين تاريخية وعقلية أن من البهتان أن تكون تلك الخشبة من الصليب الذي سمر عليه الناصري ، وأنه اذا صح أن الصليب الذي وجدته القديسة هيلانة كان صليب المسيح الحقيقي ، فلا يعقل أن يسمح الذين ظفروا بتلك الجوهرة بعد هيلانة بتجزئتها الى كسر صغيرة كالتي معه ، وأننا اذا سلمنا بتحطيم ذاك الصليب فلا نقدر أن نسلم بأن رؤساء الديانة المسيحية في كل الأقطار قد تخلوا عن كسرة منه للعلمانيين ، وأن الذين يحملون أمثال (ذخيرته) يعدون بالألوف وأنه قد مضى على وجود الصليب أكثر من ألف وخمسمائة سنة ، فمن أين له أن يبين أن القطعة التي معه هي من الصليب الحقيقي ... الى ما هنالك من البراهين التي كنت أحسبها كافية لدحض رأي كهذا ... " (٤).

وقد انتهى نعيمة بالقصة الى تصوير المصير الفاجع الذي لقيه هذا الفرد الذي كبل عقله بمثل هذه الخرافة .

وبين أيدينا مقالة لوليم كاتسفليس (٥) شارك فيها في الدعوة الى التحرر من سلطان القديم عن طريق السخرية بالمعتقدات الدينية والاجتماعية الحاضرة بلسان من يراها بعد خمسة قرون . وقد نقلنا مقاطع منها في السابق .

(((٤)))

وتتصل الدعوة المطلقة الى التحرر من أوهام الماضي وأوزاره بالدعوة الى التخلص من المساوئ القائمة في المجتمع ، ومعالجة المشكلات التي تخلقها .

وكانت القصة هي الوسيلة الأولى التي توسل بها جبران ونعيمة في هذه السبيل ، فكتب الأول قصته (مرتا البانية) (٦) يصور فيها تغرير بعض الشبان الأغنياء بالفتيات ، ثم رميهن في الطرقات بعد أن يقضي الوطر منهن وتخلف في

---

(١) الآباء والبنون ٣٥ (٢) كان ما كان ٨٨

(٣) المصدر السابق ١٢ (٤) المصدر نفسه — الصفحة نفسها . والذخيرة هي قطعة خشب يزعم حاملها أنها من الصليب الذي سمر عليه المسيح ، وأنها قادرة على أن تحفظه من كل مكروه //

(٥) هي (البترون في سنة ٢٥٠٠م) . وقد أشرنا اليها في السابق .

(٦) عرائس المروج — مجموعة المؤلفات ٩/ ٧٥

أحشائهن ثمرة الاثم . وقال بلسان (مرتا) تشكو هذا القدر : " أنا مظلومة، أنا شهيدة الحيوان المختبئ في الانسان ، أنا زهرة مسحوقة تحت الاقدام "(١) . وقال يعزيها : " أنت مظلومة يا مرتا ، وظالمك هو ابن القصور ، ذو المال الكثير والنفس الصغيرة "(٢) .

وكتب قصته (وردة الهاني)(٣) يصور ما يتم في مجتمعنا من زيجات قاهرة لا يراعى فيها الحب . فحين تستيقظ نفس المرأة وتتبع فتاها يرميها المجتمع بكل نقيصة . وقد وصف جبران هذه الحال بقوله : " هي حرب هائلة بين شرائع الناس الفاسدة وعواطف القلب المقدسة "(٤) . وأخذ ـ بلسان (وردة) ـ يلمس مواطن الضعف المستورة ويفضح الرياء والنفاق في حياة الناس ـ في صور متعاقبة ـ :

فهذا " غني ورث ماله عن والده البخيل واكتسب أخلاقه من جوانب الأزقة المفعمة بالمفاسد . تزوج منذ عامين بامرأة لم يعرف عنها شيئا سوى أن لوالدها شرفا موروثا ... ولم ينقض شهر العسل حتى ملها متضجرا وعاد الى مسامرة بنات الهوى ... فبكت وتوجعت لأول وهلة ، ثم تصبرت وسلت ... وهي الآن مشغولة عن كل شيء بعشق فتى جميل الوجه حلو الحديث ، تسكب في راحتيه عواطف قلبها وتملأ جيوبه من ذهب بعلها الذي يغض الطرف عنها لأنها تغض الطرف عنه .... " .

وهذا " ينتمي الى أسرة شريفة حكمت البلاد مدة طويلة ، وقد انخفض مقامها اليوم بتوزيع ثروتها وانصراف أبنائها الى التواني والكسل . وقد اقترن بفتاة قبيحة الصورة لكنها غنية جدا . وبعد استيلائه على ثروتها الطائلة نسي وجودها واتخذ له خليلة حسناء ... " .

وهذه جميلة الوجه ، خبيثة النفس ، مات زوجها الأول فاستأثرت بأمواله ، ثم اختارت من بين الرجال رجلا ضعيف الجسم والارادة واتخذته بعلا لتحتمي باسمه من ألسنة الناس ، وتدافع بوجوده عن منكراتها ... " .

وهذا " مادي الأميال ، كثير المشاغل والمطامع . له زوجة كل ما في جسدها

---

(١) عرائس المروج ٨٦

(٢) المصدر نفسه ٨٥ . وقد اشار جبر في كتابه (جبران ص٤٦) الى أطراف واقعية من هذه القصة في حياة جبران .

(٣) الأرواح المتمردة ـ مجموعة المؤلفات ١٠٧ . ويلاحظ هنا انتزاع جبران اسماء شخصياته من محيطه في لبنان ، فهذا أدل على مخاطبة هذا الواقع الذي يسعى في اصلاحه . وقد ذكر عبد المسيح حداد أن أفرادا من أسرة (الهاني) بلبنان شكوا من عبث جبران باسم اسرتهم . العصبة ٩٤٨ العدد ٤ ص٣٧٣ . وذكر جبر ص١٥١ أن جبران أجاب عن سؤال بقوله : " أتمنى العودة الى لبنان، الى بشرى ، لأرى ثانية موطن خليل الكافر ومرتا البانية ويوحنا المجنون .. " .

(٤) المصدر نفسه (والمقتطفات التالية كلها منه) .

جميل وحسن ،وكل ما فى روحها حلو ولطيف ... لكنها كالكثيرات من بنى جنسها قد جنى عليها والدها قبل بلوغها الثامنة عشرة ، ووضع عنقها تحت نير الزيجة الفاسدة ، وهى الآن سقيمة الجسم تذوب كالشمع بحرارة عواطفها المقيدة .. وتصبو حنينا الى معانقة الموت .... لتتحرر من عبودية رجل يصرف الأيام بجمع الدنانير والليالى بعدها ، ويصر أسنانه محدقا على الساعة التى تزوج فيها بامرأة عاقر لا تلد له ابنا ليحيي اسمه ويرث ماله وخيراته ".

وهذا " شاعر خيالى سامى الأفكار ، روحى المذهب ، له زوجة غليظة العقل، خشنة الطباع ، تسخر بأشعاره لأنها لا تفهمها ... وهو الآن مشغول عنها بمحبة امرأة أخرى متزوجة تتوقد ذكاء وتسيل رقة ، وتولد فى قلبه النور بانعطافها، وتوحى اليه الأقوال الخالدة بابتساماتها ونظراتها ".

ثم يحمل جبران — فى القصة — حملته المنيفة على شرائع الناس الذين يدوسون كرامة العاطفة وينكرون شرعيتها ، ويقول — بلسان وردة — : " ان السماء لا تريد أن يكون الانسان تعسا لأنها وضعت فى أعماقه الميل الى السعادة ، لأنه بسعادة الانسان يتمجد الله ". " انني لم أفعل غير مشيئة النفس التى فصلها الله عن ذاته ، ولم أتبع غير نداء القلب وصدى أغانى الملائكة ..(١)".

وينكر جبران — فى آخر القصة — " على الهيئة الاجتماعية " ، أن " تضطهد الأفراد المتمردين على شرائعها قبل أن تستفحص دواعى تمردهم ".

ويعرض فى قصته (صراخ القبور(٢)) ثلاث صور : أولاها لفتى " اعترض قائدا من قواد الأمير وجند له صريعا اذ كان ذاهبا بمهمة بين القرى . وقد قبض عليه والسيف المغمد بدماء القتيل ما زال مشهورا فى يده ". وثانيتها " لامرأة عاهرة، فاجأها بعلها ليلا فوجدها بين ذراعى خليلها فأسلمها للشرطة ". وثالثتها لكهل ضعيف " دخل الدير ليلا فقبض عليه الرهبان الأتقياء ، ووجدوا طى أثوابه آنية مذابحهم المقدسة ". وقد حكم الأمير على الثلاثة بالموت ، فانبرى جبران للدفاع عنهم وكشف زيف هذه الأحكام التى يطلقها البشر مستندين الى " شريعتهم العمياء " ،

---

(١) يصف جبران (فى مقالته : رؤيا . دمعة وابتسامة — مجموعة المؤلفات ٢/ ١١٤) القلب البشرى بأنه " أسير المادة وقتيل شرائع الانسان ". ويقول بلسانه : " أنا القلب البشرى قد حبست فى ظلمة سنين الجامعة فضعفت ، وقيدت بسلاسل الأوهام فاحتضرت ، وأهملت فى زوايا غى المدينة فقضيت ... " ويصف الضعفاء (فى مقالته : يا خليلى الفقير — المصدر نفسه ٢/ ١٤٣) بأنهم " شهداء شرائع الانسان ".

(٢) الأرواح المتمردة — مجموعة المؤلفات ١٢٧.

فقال :

" سفك الدماء محرم ، ولكن من حلله للأمير ؟ . سلب الأموال جريمة ولكن من جعل سلب الأرواح فضيلة ؟ . خيانة النساء قبيحة ، ولكن من صير رجم الأجساد جميلا ؟ . أنقابل الشر بشر أعظم ونقول هذه هى الشريعة ! . ونقاتل الفساد بفساد أعم ونهتف هذا هو الناموس ! . ونغالب الجريمة بجريمة أكبر ونصرخ هذا هو العدل ..! " (١)

" الشريعة – وما هى الشريعة ؟ . من رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء ؟ . وأى بشرى رأى قلب الله فعلم مشيئته فى البشر ؟ . وفى أى جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين : احرموا الضعفاء نور الحياة ، وافنوا الساقطين بحد السيف ، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد ؟.. " (٢)

ثم لا يقبل جبران بهذا الدفاع وحده بل يكشف الستار – فى النصف الثانى من القصة – عن أصول التهم التى رمى بها الثلاثة ، فاذا الأول خطيب دافع عن عرض خطيبته فقتل الراغب فى الاعتداء عليها ، واذا المرأة الزانية زوجة مظلومة بزواجها من رجل تكرهه (٣) ، زارها حبيبها زيارة كان " المضاف ثالثهما " فيها ، فقبض عليهما

---

(١) الأرواح المتمردة ص ١٣٢ . ويذكرنا قول جبران هنا بأقوال المسيح الكثيرة بالكف عن مقاومة الشر بالشر – وقد سبقت الاشارة اليها – ، (انظر متى ٥/٣٨ – ٤٢) ، وبقول بولس الرسول : " لا تجازوا أحدا عن شر بشر " (رسالة بولس الى أهل رومية ١٢/١٧) . " لا يغلبنك الشر بل اغلب الشر بالخير " (المصدر المذكور ١٢/٢١) . ويذكرنا بقول المسيح أيضا : " انى أريد رحمة لا ذبيحة " (متى ١٢/٧) .

(٢) ص ١٣٣ .

(٣) كان جبران شديد التحسس بمأساة الزواج الذى لم يقم على عاطفة متبادلة – على نحو ما بدا فى قصصه منذ قليل – . وقد رمى من وراء ذلك الى ما رمى اليه الرومانسيون من تمجيد العاطفة والاعتراف بشرعيتها ، واحلال القلب مكانه من الشريعة والقانون . وقد عاد الى طرق هذا الموضوع فى قصته (مضجع العروس) (الأرواح المتمردة – مجموعة المؤلفات ١/١٤٠) فصور امرأة تزف الى من تكره على حين يقصد منها غير بعيد الرجل الذى تحب . فلما يضيق بها الحال تواعده فى الحديقة وتنسل اليه . ويتظاهر الحبيب المقهور بأنه سلاها ، فتغمد الخنجر فى صدره ثم تلقى خطبة حارة فى تمجيد العاطفة واحترام رغبات القلب على الجمهور المحتفل الذى هرع اليهما ، وتقول تخاطب زوجها : " أنت أيها الرجل الغبى الذى استخدم الحيلة والمال والخباثة ليصيرنى له زوجة ، أنت رمز هذه الأمة التعسة التى تبحث عن النور فى الظلمة ، وتترقب خروج الماء من الصخرة ... أنت رمز هذه البلاد المستسلمة لغباوتها استسلام الأعمى الى قائده الأعمى . أنت ممثل الرجولة الكاذبة التى تقطع الأعناق والمعاصم توصلا الى العقود والأساور ... " . ثم تغمد الخنجر فى صدرها وترتمى الى جانب حبيبها ، وتقول – وهى تجود بأنفاسها الأخيرة – : " انظر ياحبيب انظر ياعريس نفسى كيف وقف الحساد حول مضجعنا ... قد انتظرتنى طويلا فهأنذا قد كسرت القيود وفككت السلاسل ، فلنسر عن نحو الشمس فقد رفع الحب أجنحته وسبح أمامنا نحو دائرة النور .. " . انظر كذلك مقالته (مخبآت الصدور) . دمعة وابتسامة – مجموعة المؤلفات ٢/١٧٤ .

زوجها ،وترك حبيبها " لأن الشريعة العمياء والتقاليد الفاسدة ، تعاقب المرأة اذا سقطت ، أما الرجل فتسامحه " . أما الثالث فقد كان خادم الدير ، طارده القس حين كبر وضعف ، فدخل الدير ليلا ليحمل"نبيلا من الدقيق " ينقذ به أولاده من الجوع فقبض عليه .

على هذه الصورة يبين جبران - في قصصه الاجتماعية - عمق الهوة التي يمكن أن تنحدر اليها شريعة البشر ، ويبث سخطه عليها . ولاشك أن موقفه هذا من مجتمعه يمثل - أوضح تمثيل - موقف الرومانسيين ، على الاطلاق ، من مجتمعهم (١) . فهم يضيقون ذرعا به وبما يسوده من شرائع وقوانين تحد من فرديتهم وانطلاقهم . ويرون المجتمعات ظالمة آثمة ، فيعطفون على ضحاياها من البائسين ويحكمون عليها باسم المبادئ الانسانية الخيرة التي يؤمن بها الفرد الصالح ، والتي تنبع من القلب . ويعدون العاطفة الهية، لأنها التعبير الفطري السليم عن الطبيعة الصالحة . ويعتبرون طرداء المجتمع ومرتكبي الآثام " طائفة من الضعفاء سدت دونهم طرق الفضيلة ، وجرى عليهم القدر بما لا حيلة لهم فيه ، أو جرتهم النظم القائمة الى مسلكهم الأثيم . وقد يكونون في دخيلة أنفسهم نبلاء النفس والشعور ، كبار الهمة " (٢) . ويبدى الرومانسيون استخفافهم - من ناحية أخرى - بممثلي السلطان في مجتمعهم من ملوك وقسس وحكام وقضاة لأنهم يمثلون العقبات في سبيل التقدم الانساني . ويدعون الى تخليص المجتمع من القيود التي تعطل حرية الفرد لتتاح لمواهبه أن تتفتح وتؤتي ثمارها ، وليختفي بذلك الجهل والفقر ، وتختفي الفروق الكبيرة بين الطبقات ، وهي أسباب كل الشرور الاجتماعية في نظرهم .

×× ×× ××

وقد تأثرت ثورة جبران الرومانسية - التي تبدت في قصصه الاجتماعية على نحو ما رأينا - بتعاليم نيتشة حينا ، فبدت مروعة قاسية ، وفقدت بذلك طعمها الانساني المميز . ويتجلى هذا الانحراف - كما أشرنا سابقا - في (العواصف) . فقد دعا الى تحطيم كل نظام وكل شريعة وكل عقيدة ، والى اقتلاع الضعف والضعفاء من تربة المجتمع (٣) . فالزواج - عنده - " عبودية الانسان لقوة الاستمرار " و " ما حياة المرء بين زوجته وأولاده سوى شقاء أسود مستتر وراء طلاء أبيض " ، " فان شئت أن تتحرر طلق امرأتك

---

(١) انظر الفصل الذي عقده الدكتور محمد غنيمي هلال بعنوان (القضايا الرومانتيكية العامة - الفرد والمجتمع) في كتابه (الرومانتيكية) ٩٢ - ١١٤

(٢) المصدر السابق ١٠٠ . وأكثر ما قلناه هنا مأخوذ منه .

(٣) مقالته (حفار القبور) . العواصف - مجموعة المؤلفات ٣ / ٩ (والمقتطفات المنقولة كلها منها)

وعش خاليا " . و (الله) و (الانبياء)و (الفضيلة) و (الآخرة) التي نردد اسماءها " الفاظ رتبتها الأجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين شفاهنا ". والحقيقة أن الانسان " اله نفسه " . وان علينا أن نتزوج من بنات الجن ليأتي نسلنا قويا وتنقرض " المخاليق والأموات الذين يختلجون أمام العاصفة ولايسيرون معها ". فأما الآن ، فأكثر الناس أموات يجب أن يدفنوا .

وقد صور جبران الانسان المثالي (١) – في هذه الفترة – الها مجنونا لا يعبأ بالحكمة لانها " صفة من صفات البشر الضعفاء " ، وقويا " تميد الأرض تحت قدميه ويقف فتقف معه مواكب النجوم "، ومعاشرا للأبالسة وملوك الجن وجبابرة الليل يأخذ عنهم " الاستهزاء بالبشر " و " أسرار الوجود والعدم "، " فيجدف في الصباح على الشمس ، ويلعن البشر عند الظهيرة ، ويسخر في المساء بالطبيعة، ويركع في الليل أمام نفسه ويعبدها " ثم لاينام كما لا ينام الزمان والبحر ، ويأكل أجساد البشر ويشرب دماهم ويتحلى بلهاثهم .

واصطبغت الحياة في عين جبران – في هذه الفترة – بالسواد حتى ليراها قفص عبودية قائمة (٢) ، ويرى الناس فيها منذ الأزل " عبيدا مستسلمين وسجناء مكبلين .. أيامهم مكتنفة بالذل والهوان ، ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع " ، ورقابهم منحنية تحت الأثقال ، وسواعدهم موثقة بالسلاسل ، وركبهم جاثية أمام الأصنام . ويرى علاقات الناس بعضهم ببعض سلسلة عبوديات قائمة " فالعامل عبد للتاجر ، والتاجر عبد للجندي ، والجندي عبد للحاكم ، والحاكم عبد للملك ، والملك عبد للكاهن ، والكاهن عبد للصنم ، والصنم تراب جبلته الشياطين ونصبته فوق رابية من جماجم الأموات ".

ولم تعد في الحياة قيمة لم تستتر بها العبودية – في رأيه – ، فهي الله والملك والنبي والشريعة والوطنية والاخاء والمساواة والمال والتجارة . وهي أنواع وأشكال ، " فالعبودية العمياء " هي الارتباط بالماضي ، و " العبودية الخرساء "

– في هذه الفترة –

(١) أصبح المسيح في نظر جبران/عاصفة ثائرة داعية الى الثورة والتمرد . انظر مقالتيه (يسوع المصلوب) و (مساء العيد) . العواصف ٢٣/٣و ٨٠ . وقد صور المسيح على هذا النحو أيضا في كتابه الانجليزي (يسوع ابن الانسان) . انظر فصل (السيدة الملتحية) من كتاب نعيمة (جبران) ٢٣٩ . وقد اعتمد جبران في ذلك انجيل لوقا الذي صور المسيح – في مواضع كثيرة – في صورة الثائر الذي جاء ليلقي نارا على الأرض. انظر الاصحاح ٤٩/١٢ – ٥٣ و الاصحاح ٢٦/١٤ – ٢٧ .

(٢) مقالته (العبودية) . المصدر السابق ١٦/٣ (والمقتطفات منها) .

هى التى تملق أيام الرجل بأذيال الزوجة التى يمقتها ، وتلصق جسد المرأة بمضجع الزوج الذى تكرهه " ، و " العبودية الصماء ... التى تكره الافراد على اتباع مشارب محيطهم والتلون بألوانه ، والارتداء بأزيائه " ، و " العبودية العرجاء ... التى تضع رقاب الاشداء تحت سيطرة المحتالين ، وتسلم عزم الاقوياء الى أهواء الطامعين بالمجد والاشتهار " ، و " العبودية الشمطاء ... التى تهبط بأرواح الاطفال من الفضاء المتسع الى منازل الشقاء حيث تقيم الحاجة بجانب الغباوة ، ويقطن الذل فى جوار القنوط ، فيشبون تعساء ، ويعيشون مجرمين ويموتون مرذولين " ، و " العبودية الرقطاء .. التى تبتاع الاشياء بغير أثمانها ، وتسمى الأمور بغير أسمائها ، فتدعو الاحتيال ذكاء والثرثرة معرفة والضعف لينا والجبانة اباء " . " و " العبودية العرجاء ... التى تحرك بالخوف ألسنة الضعفاء فيتكلمون بما لا يشعرون ويتظاهرون بما لا يضمرون " . و "العبودية الجدباء ... التى تقود قوما بشرائع آخرين " ، و " العبودية الجرباء ... التى تتوج أبناء الملوك ملوكا " ، و " العبودية السوداء ... التى تسم بالعار أبناء المجرمين الأبرياء ... " .

أما الحرية – فى نظر جبران – فهى " شبح هزيل يسير منفردا محدقا الى وجه الشمس " ، وقد ذهب اولادها " فواحد مات مصلوبا ، وواحد مات مجنونا ، وواحد لم يولد بعد . " .

والناس – فى عينه – حيوانات ساقطة " فمنهم من يشبه الأرنب بضعف قلبه ومنهم من يماثل الثعلب باحتياله ، ومنهم من يضارع الافعى بخبثه . ولكن ليس بينهم من له سلامة الأرنب وذكاء الثعلب وحكمة الافعى " . وفيهم الخنزير قذارة أما لحمه فلا يؤكل ، والجاموس خشونة أما جلده فلا ينفع ، والحمار غباوة ولكنه يمشى على اثنتين ، والغراب شؤما ولكنه يبيع نعيبه فى الهياكل . وفيهم من تشبه الطاووس تيها أما ريشها فمستعار .. وهم – على الاجمال – " حيوانات داجنة المظاهر ، معطرة الأذناب ، مصقولة القرون ، لا تقضى شرائعها ببقاء الانسب بل بدوام الأروغ والأحيل ، ولا تؤول تقاليدها الى الافضل والاقوى ، بل الى الاخبث والاكذب ، أما ملوكها فمخاليق عجيبة لهم مناقر النسور وبراثن الضبع وألسنة العقارب ونقيق الضفادع " .

وقد علل جبران هذه الثورة الجامحة بقوله يخاطب قومه : " كنت أشفق على ضعفكم يا بنى أمى ، والشفقة تكثر الضعفاء وتنمى عدد المتوانين ولا تجدى الحياة شيئا . واليوم صرت أرى ضعفكم فترتعش نفسى اشمئزازا وتنقبض ازدراء .. كنت أبكى على ذلكم وانكساركم .. ولكن دموعى لم تغسل أدرانكم الكثيفة بل أزالت الغشاء عن عينى ... وأذابت الجزع فى قلبى " (١) . وذلك لأن جبران أصبح " من القائلين

(١) مقالته (يا بنى امى) . العواصف ٣ / ٤٢

بمنسة النشوء والارتقاء " التى " تتمرد عليها القلوب الضعيفة " ، والتى ترمى الى غرض " أعلى من مرام الجماعة " وتصفى " الى صوت يغمر بهوله وعذوبته تنهدات المنكوبين وغصات المتوجعين "[1] .

على أن هذه الغمرة التى وقع فيها جبران ما تلبث أن تنقشع ، ويعود اليه صفاؤه ، فيقرر بأن الزمن متصل ماضيه بحاضره[2] وأن " فى الهنيهة الحاضرة كل الزمن بكل ما فى الزمن مما يرجى وينجز ويتحقق " وأنه " ليس بأرفع من الصعاليك ولا أدنى من الجبابرة " وأنه " كون مما كون البشر منه " ، " فان أذنبوا فهو المذنب ، وان أحسنوا عملا فاخر بعملهم " وان نهضوا نهض واياهم ، وان تقاعدوا تقاعد معهم " ، وأن السراج الذى يحمله ليس له ، والاغنية التى ينشدها لم تتكون فى أحشائه .

×× ×× ××

وانصرف نعيمة فى أكثر قصصه القصيرة الى النقد الاجتماعى أيضا . واتجه هذا الاتجاه فى كتابتها منذ كتب قصته الأولى (سنتها الجديدة) سنة ١٩١٤[3] ، وعالج فيها مسألة الانثى فى الاسرة ، وكراهة الأب لها . ثم كتب قصته (العاقر)[4] فطرق موضوعا شديد الحساسية ، بعيد التأثير فى حياة كثير من الاسر فى مجتمعنا . وصور المرأة العاقر ، وما تلقى من الأذى فى بيئتها وبيتها تصويرا رائعا ، حتى انتهى بها حل المشكلة الى الزلل فالانتحار بعد أن خلفت رسالة لزوجها كشفت فيها عن مأساتها وصورت أوجاعها العميقة ، ونقدت سلوك المجتمع وقسوته – من خلال نقدها لسلوك زوجها وقسوة أهله – وناقشت منطقه الخاطئ فى النظر الى هذه المأساة ، وأكدت له قيمة المرأة باعتبارها انسانا ، بصرف النظر عن مسألة الانجاب التى لا يد لها فيها . وقالت : " أنت لم ترض بى وحدى ... وأنا قبلت بك وحدك دون بقية العالم .. سعادتى تمت بك وبحبك ولكن سعادتك لم تتم بحبى ...

أنت الى الآن لا تدرك أن المرأة انسان ولها قيمة محصورة فيها ومستقلة عن أولادها . هل ظننت أنى شاذة عن سنة الطبيعة ؟ . هل حسبت أنى – وأنا

---

(١) مقالته (الجبابرة) . المصدر نفسه ٣/ ٨٦
(٢) مقالته (وعظتنى نفسى) . البدائع والطرائف – مجموعة المؤلفات ٣/ ٢٠٠ (والمقتطفات التالية منها) .
(٣) كان ما كان ٤٠
(٤) المصدر السابق ٥٤ .

امرأة ــ أبغض الأولاد ؟ .. آه لو تدري كم ليلة حلمت أن طفلا على ذراعي. كنت أراه كذلك في اليقظة يمتص ثديي ، وأسمع دقات قلبه الصغير وأرى يديه الصغيرتين تلعبان في الهواء . كم مرة رأيته يدرج أمامي في الدار . كم مرة سمعته يناديني (ماما) . كم مرة جلست بقرب سريره الصغير وغنيت له لينام محدقة الى وجهه الملائكي وعينيه السماويتين .

أنت لا تدري كم ذرفت من الدموع في خلواتي ... أنت لا تدري كيف كان يقطر قلبي دما لما كنت أراك تهرب مني وتميل نظرك عني كأنني هواء أصفر . أمك وأبوك كانا يشتهيان أن يقذفني عزرائيل عنك لعلك تقدر أن تأخذ لك امرأة (ولادة) . وهأنا أحذف نفسي من حياتك ، فربما وجدت أحسن وأخصب مني ". (١)

ثم كتب سنة ١٩١٩ قصته (سعادة البيك) (٢) فصور فيها مرضا اجتماعيا ما زال يفتك بالمجتمع اللبناني ومجتمعاتنا كلها ، وهو السعي وراء الألقاب الفارغة. ولقد أثر ذلك في نفوس الأفراد فانقلب مرضا نفسيا طاغيا.

وكتب قصته (أصغر الشاب) (٣) فصور الشحاذ ، ونظرة الناس اليه ، وما يلقى في مجتمعه من أذى حتى " تتهشم نفسه وتتمزق .. فكأنه ممسحة على عتبة ، أو لصين في بستان ".

وصور في قصته (هدية الحيزبون) (٤) حب الانسان للمال حتى ليبيع به ولده . وسخر في قصته (البنكاروليا) (٥) من الشهادات وقيمتها وحمى السعي وراءها وصور ما أدخل ذلك في حياة الأسر الشعبية من مفارقات مؤلمة .

وملأ قلوبنا في قصته (أكابر) (٦) حبا بأبناء الريف البسطاء وعطفا عليهم، كما ملأها سخطا على المدينة وجمود قلبها وأثرتها وترفعها . وصور في قصته

---

(١) نذكر هنا أيضا أن جبران ــ في قصته الأجنحة المتكسرة ــ أخر حمل بطلة قصته بعد زواجها ليفسح مجالا للكلام على (العقر) ومهاجمة أنانية الرجال الذين يكرهون المرأة العاقر لأنهم " يطلبون النسل ليظلوا خالدين على الأرض ". مجموعة المؤلفات ٢/٨٦ .

(٢) المصدر السابق ٩٩

(٣) النور والديجور ٢٠٩

(٤) في مهب الريح ٢٠٨

(٥) دروب ١٢٥

(٦) أكابر ٠٧ وستأتي دراستها في الباب الثالث (ف ٢)

(مصرع ستوت)[١] ما نذرت بعض المجانين نفوسهن له من الغيبة والنميمة والنيل من كرامة الناس وأعراضهم ٠ وهاجم فى قصته (صادق)[٢] الكذب المفرط فى حياة الناس حتى ليضيع الصادق فيهم٠ وشكا فى قصته (ذنب الحمار)[٣] من بعض الزوجات اللواتى يرهقن أزواجهن المستورين بطلباتهن الفارغة حتى يودين بهم٠

ولقد بدا – من خلال هذا النقد الاجتماعى فى القصة – توكيد نعيمة المطلق لانسانية الانسان ، ودعوته لالغاء كل ما يستر حقيقته عن عين نفسه وعين المجتمع ، وسخريته بأى زيف يدخل حياته ٠ فالعاقر انسان فى ذاتها والانثى كالذكر في القيمة الانسانية ، ويجب أن تكون كذلك فى المجتمع ٠ والالقاب زيف وبهرج يغطى حقيقة الانسان ويخفى سماته الكبيرة ويغطى عيوبه التى يجب أن يجهد فى اصلاحها ٠ والشحاذ انسان ينبغى ألا يلغى كشكوله انسانيته الطافحة٠ والمال صنم يمكن أن يفنى الانسان فى عبادته حتى يبيع به أثمن قيمة ويغفل عن نفسه ٠ والشهادات طلاء لا ترفع الانسان ولا تحطه ٠ والفلاح فى الريف انسان بكل ما فى هذه الكلمة من عمق وجمال ٠ ويمكن أن نزداد ايمانا بهذه الانسانية كلما ازداد فهمنا لمشكلاته واطلاعنا على مسلكه فى تقبلها وحلها٠ والنميمة والغيبة والحقد والكذب تصرف الانسان عما يجب أن يوجه أنظاره اليه وهو نفسه وتطهيرها ٠ والحلى والحرص على الشكل يؤثران فى حقيقة الانسان ويضيعانه ٠

وقد انصرف نعيمة – فى كثير من مقالاته أيضا – الى بسط هذه الحقائق فى النقد الاجتماعى ٠ وحسبنا أن نشير هنا الى أنه كتب فى ذلك كتابا صغيرا سماه (الأوثان) وتكلم فيه على المال والقوة والسلطان والرأى العام والقومية والكلمة المطبوعة والعلم ، فصراعها كساها الناس وأظهر تعبدهم لها وضياع حقائقهم فيها ، فقال فى المال : " لقد فعل الفلس ما لا تستطيع فعله لا الابالسة ولا الملائكة ٠ اذ أقام أثمانا فردية للجهود الفردية ، فجعل الواحد بمقام الألف – وأحيانا بمقام المليون ٠ وجعل قيمة البعض صفرا عن اليسار٠ ههنا السر ههنا الفخ والمزلقة ٠ ههنا منبع هائل من منابع البغض والحسد والنزاع بين الناس "[٤] ٠

وقال فى القوة : " لئن لم يكن بد من عبادة القوة فاعبدوا ايمان الانسان فهو القوة التى ما انهزمت بعد من وجه قوة ٠ أما أن تعبدوا الفرس دون فارسه ٠

---

(١) أكابر ص ١٩
(٢) المصدر نفسه ص ٧٩
(٣) المصدر المذكور ص ١٢٣
(٤) الأوثان ص ١٨ .

والسيف دون ضاربه ، والملك دون مالكه فصار عليكم وأى عار ...".(١)

وقال في السلطان : ان " سلطان الانسان على الانسان وثن قزم دميم زنيم ، وهو للتحطيم لا للتكريم . وأنا أربأ بما في أعالي الانسان النيرة من طهر وقوة وجلال أن يتمرغ بما لا يزال راسبا في أغواره من حمأة وضعة وصغارة ".(٢)

وقال في الرأي العام : " لئن جاز لنا أن نقيد ذوي السلطان وأبناء الشارع بعبادة وثن ندعوه الرأي العام فمن الاثم أن نقيد بها الذين يستقون حتى الحياة من مناهل لا يعرفها الشارع ولا كرسي الحكم ".(٣)

ثم قال أخيرا : " ما أسخفنا وميراثنا الحياة ، كل الحياة بجمالها وجبروتها ـ ننصرف عن ميراثنا الى عبادة أوثان ليست من الانسان الا بمثابة مفروزات الجسد من الجسد ، والى التناهش من أجل ماتهبنا الأرض ، وما الأرض الا محطة من محطات كثيرة نمر بها في طريقنا الى ميراثنا ".(٤)

على هذا النحو تتصل دعوة نعيمة في النقد الاجتماعي بدعوته الانسانية حتى تصب فيها وتعتبر جزءا منها ، كما صبت فيها واعتبرت جزءا منها في جوانب الاصلاح الاجتماعي الأخرى . وهي كلها تقوم على مبدأ تحقيق المجتمع الصالح عن طريق " بناء الانسان من الداخل " و العناية بقلبه وفكره تحقيقا لقول المسيح : " الانسان الصالح من كنز قلبه يخرج الصلاح ، والانسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشر ".(٥) وفي ذلك يقول نعيمة : " ياليت من في أيديهم هندسة الحياة البشرية ينصرفون الى تنقية قلوب الناس وأفكارهم ثم الى اختيار البذار الصالح لها مثلما ينصرف المهندسون الزراعيون الى تنقية الأرض وتسميدها واختيار البذور والأغراس الصالحة لها ".(٦) و " لو أن البشرية تعلمت كيف تعنى بقلوبها وأفكارها عنايتها بحقولها وبساتينها لكان في مستطاعها أن تقول : اني أريد السلم والعدل والحرية ، فيكون لها السلم والعدل والحرية ".

وهكذا يبدأ نعيمة بالفرد الصالح ليصل الى المجتمع الصالح ، كما فعل المسيح ، على حين يبدأ جبران بالمجتمع الصالح ليصل الى الفرد الصالح كما فعل الرومانسيون وفلاسفة الرومانسية .

---

(١) الأوثان ٢٨
(٢) المصدر السابق ٣٤
(٣) المصدر المذكور ٣٨
(٤) المصدر نفسه ٦٧
(٥) لوقا ٦/٤٥
(٦) مقالته بذار السنين ـ البنور والديجور ٢٤٧ (والمقتطف التالي منها أيضا) .

وليس لأحد بعد الآن أن يقول ان نعيمة لا ينصرف فى أدبه الى خدمة الحياة والمجتمع ، فهو ، بانصرافه الى خدمة الفرد ينصرف الى خدمة المجتمع والحياة على السواء ، والذين يتهمونه بالتقصير فى هذا المجال ، ويؤذونه بهذه التهمة ، لم يقدر لهم أن يفهموا طبيعة دعوته ويتحسسوا أبعادها فى حياة الناس والمجتمعات ، ولم يقدروا مدى احساسه بتبعة الكلمة التى يحمل رسالتها ، ويقول فيها : " يقولون لكم ان الأدب فن تنحصر غايته فى ذاته . كأن يبنى الواحد بيتا ليتمتع بمنظره لا بسكناه ، أو أن يخيط ثوبا لينعم بجمال صنعه لا بلبسه . ذاك قول هراء . فالفن الذى لا يجمل حياة صاحبه وحياة الناس ليس فنا جميلا .

يقولون لكم فى الأدب أشياء وأشياء ، ولكنهم يندر أن يقولوا لكم ان مهمة الأدب هى جمع الناس لا تفرقتهم . هى بناء عوالم جديدة أرحب وأجمل وأكثر نورا من عالم نحن فيه .

وهاهو عالمنا قد تهدم حوالينا ، وتكاد أنقاضه تسحقنا سحقا . فعلينا ــ نحن رجال الأدب ، ولا عدة لنا الا الكلمة ــ أن نطلقها مشحونة بالصدق والمحبة ، منزهة عن خساسات السياسات والقوميات ، صماء دون جنون الغوغاء ، مكهربة بايماننا بالانسان ، طاهرة من الخوف والشك والتردد . فالحياة صدق للصادقين ، ومحبة للمحبين ، ويقين للموقنين "[(١)] .

وفى مقالات نعيمة النقدية الاجتماعية ، المنثورة فى كتبه ، تأكيد كامل لاحساسه بهذه التبعة ، ونهوضه بهذه الرسالة ، بما يتفق مع نظرته التى عرفناها الى الحياة ، وكشفنا منها هنا عما يتصل بحياة الفرد فى المجتمع . ففى مقالته (الخيط الأبيض والخيط الأسود)[(٢)] مثلا ، يحمل على كل ما من شأنه أن

---

(١) الأوثان ٥٢ ــ ٥٣ . وانظر أيضا مقالته (ماهية الأدب ومهمته) ــ دروب ٥٨ وما بعدها . وقد أجاب نعيمة مرة على سؤال أحد الصحفيين بقوله : " لست من القائلين بالأدب للأدب أو بالفن للفن . فالأدب الذى لا يساعد الانسان على الانتقال من حسن الى أحسن وعلى تفهم المجهول من حياته وكيانه لا قيمة له على الاطلاق " (جريدة الجمهورية ١٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٧) . على أن من رأى نعيمة أن يسعى الأديب فى رفع الجماهير الى مستواه لا أن يهبط الى دركهم . (المحقق ــ ميخائيل نعيمة يتقمص الف مرة ومرة ــ المكشوف ١٩٣٦ عدد ٧٢ ص٦) . وهذا ما جعل بعض النقاد يرميه " بالتعالى " الذهنى والاعتداد " . (اسماعيل أدهم ــ الحديث ١٩٤٤ ص ٣١٢) . وقد قال صاحب المصدر الأخير عن نعيمة : " تجده يقف موقفا وسطا بين مذهب القائلين بأن الفن خادم لحاجات البشرية ، وهو فى هذا يرسم خطوط تفكيره من مراجعات غوركى النقدية التى هى أساس فى فهم الأدب الاشتراكى العالمى " . المصدر المذكور ص ٣١٠

(٢) دروب ٣٦ وفى مهب الريح ١٥٢

يحبث بضمير الفرد ويعطله أو ينيمه كشرب الخمرة وتعاطى المخدرات ، والحسد والبغض والحقد والنميمة والجشع والكبرياء والغرور وحب الظهور والغضب والذى يخافه نعيمة من العبث بالضمير وتعطيله أن يفقد الفرد قدرته على التمييز بين الخير والشر فيسيء الى نفسه والى الناس من حوله . وفي مقالته (الشرف الرفيع)[1] يسخر من اقتتال الناس في سبيل هذه الكلمة التي تتلاعب بها مصالحهم المتبدلة ، ويرى أن الشرف الوحيد الذى يجدر بالانسان أن يعتز به هو " شرف الألوهة التي مهرت به الحياة قلبه " . وفي مقالته (صغار النفوس وكبارها)[2] يتكلم على النبل ليدفع به الغيبة والتبجح والغرور والتظاهر والنيل من الغير ثم ليصل الى قوله في توسيع النفس : " انك لو بحثت عن أى خصام يقوم في الأرض .... لوجدته يعود في الأساس الى صغارة في نفوس المختصمين . فما اختصم اثنان الا لأن صدر الواحد ضاق بالآخر . والصدر يضيق أو يتسع على قدر ما تصغر النفس أو تكبر . ففى حين أن النفس الصغيرة تضيق بالكبيرة فتناصبها العداء تتسع الكبيرة للصغيرة فتقابلها اما بالصفح واما باللامبالاة . لذلك كان صغار النفوس مبعث الفساد والقلق في الأرض " .

وفي مقالته (الناجحون والراسبون)[3] يدعو الى الغاء الامتحانات المدرسية ليترك للحياة وحدها أن تحكم على نجاح الفرد ، لأن مقاييسها غير مقاييسنا في الحكم على صلاح الفرد للغايات التي أوجدته لها . وفي مقالته (دود الجبن)[4] يحمل الشعب والحكومة في لبنان على السواء تبعة ما يتخبط فيه بلدهم من قلق واعوجاج في الحكم ، ثم يرى فساد الشعب مصدر فساد الحكومة اذ " كيف لحكام شعب تعفنت ضمائره أن يكونوا أنقياء الضمائر " وينتهي بذلك الى أن مصدر البلاء هو فساد الفرد : " دود الجبن منه وفيه " .

وقد عبر نعيمة — في مواضع كثيرة — عن احساسه العميق بتبعة هذه الرسالة التي ما زال يحملها فقال مرة يخاطب قلمه : " لقد كنت آنا مبضعا وآنا مرودا ، وآونة قارورة بلسم . وقط ما كنت ناب أفعى . بك سبرت أعماقى ، وبك تسلقت أعالى ... "[5] . وقال في رسالة له : " لا يليس بنا أن نزوغ الحزن والكآبة

---

(١) دروب ٧٦ (٢) المصدر نفسه ٨٣

(٣) المصدر المذكور ٨٩ (٤) [illegible] في مهب الريح ١٤٢

(٥) [illegible] الأرقش ٨٤

والوجع للناس ، وبامكاننا أن نزرع لهم الفرح والسرور واللذة "(١) ·

×× ×× ××

ولقد شارك معظم كتاب الرابطة الآخرين فى نقد ما لمسوا من مساوئ المجتمع فى الوطن والبيئات العربية فى المهجر ، فكتب وليم كاتسفليس مثلا قصته الشعرية القصيرة (قصة أم)(٢) يحمل على الرجال الذين يقدمون على الزواج وفيهم أمراض وراثية يخلفونها للنسل البرئ يشقى بها حياته كلها أو يموت بها · وكتب عبد المسيح - مثلا أيضا - فى شأن المرأة السورية فى المهجر وخروجها لبيع السلع فى البيوت ، وأثر ذلك فى خلقها(٣) · وكتب كتابة (حكايات المهجر) فصور فيه واقع المهاجرين الاجتماعى وخلق نماذج كثيرة للانحرافات الشخصية ذات الدلالة الاجتماعية البليغة التى تنبئ بتخلف اجتماعى حمله المهاجرون معهم الى الوطن الجديد · فهذا - مثلا - رجل يهاجر " ليبلص " المال من المهاجرين بدعوى بناء كنيسة فى الوطن ·· وهذا يغير اسمه كأنه يريد أن يغير ماضيه ويستبدل بشخصية أخرى · وهذا يعلق فى شباك فتاة اميركية تسلبه ما جمع من المال بكد النفس ، فهو يمثل انهيار المجتمع المكتوم · وهذا يلجأ الى حيل كثيرة لجلب المال كالتأمين على المحال التجارية واحراقها أو اشهار الافلاس وطمس الأمانات · وهذا يلجأ الى الزواج من أرملة غنية · وهذا يترفع عن العمل والكد الخ ····(٤)

ولاشك أن هذه الصور النقدية التى كتبها عبد المسيح تحقق قول صيدح فى رسالة الأدب المهجرى الاجتماعية التى أداها فى المهجر نفسه(٥) ·

---

(١) من رسالة له الى حارث طه الراوى ·

(٢) بلاغة العرب فى القرن العشرين ١٨٤ · وسننقل مقاطع منها فى فصل القصة ·

(٣) مقالته (السوريون) · العرب فى المهجر الشمالى ٩٣ ·

(٤) انظر - على التوالى - فى الصفحات ٣٥ و ٩٤ و ٢٥٠ و ٩٦ - ١٠٠ و ١٦٤ - ١٦٥ و ٣١ و ١٧٨ و ١٦٥ و ٦٨ ·

(٥) أدبنا وأدباؤنا ٧٦ · يقول فيها : " سهر الأدباء على وطنية المغتربين ، وعلى منزلتهم الاجتماعية ، فكانوا الداعين لتوحيد الصفوف فى وجه التيارات الأجنبية ، دعاة التعاون والتفاهم بين أفراد الجالية ، دعاة التسامح فى العقائد المذهبية ، دعاة التعامل الشريف مع الأجانب كى لا تحوطهم الكراهية ، دعاة الانسجام بالمظاهر والعادات مع المحيط الذى يعيشون فيه ، حتى لا يحق عليهم ازدراء الغرباء " ·

وعالج أبو ماضي في مجلته (السمير) بعض مشكلات الحياة الاقتصادية في المهجر، فكتب في صناعة الفحم والتنك والحديد . وخاطب التجار وأصحاب الأملاك في مقالات كثيرة . وصور الأزمات التي كانت تنزل برجال الأعمال أفدح الأضرار " فتظهر في الأسمال جسوم كان يؤثر في أديمها الديباج والخز . وقنع بالحصول على ما يسد الرمق ويستبقي الروح في الجسد أناس كانوا لا يقنعون من المجد بما دون النجوم .. "(١) . وطرق أبو ماضي موضوع الصراع وبين الجيل القديم والجيل الجديد فدعا الأول الى أن يفهم حاجات الانسان المتطورة، ودعا الثاني الى أن يقدر حكمة الحياة التي جعلت لكل شيء وقته(٢) . وقد كان أبو ماضي يعالج في مثل هذه المقالة موضوعا هو في حياة كل اسرة، ولعله في حياة الأسرة المهاجرة أكبر وأضخم، اذ تصطدم فيها حضارتان - لكل منهما تقاليدها الخاصة : حضارة الشرق التي يمثلها الأبوان - وهي تؤمن بالحشمة والاتزان وعدم التبذل -، وحضارة الغرب ويمثلها الأولاد، وهي تؤمن بالانطلاق ولا ترى في الجمود رزانة ورجاحة "، ولا في " الكآبة حكمة ومهابة ". والتفت أبو ماضي الى محيط الصحافة الذي يعيش فيه فأنكر على بعض " السفهاء والأدعياء " أن " يقتحموا الصحافة " في المهجر ويعيثوا فيها فسادا(٣) .

ودعا - من ناحية أخرى - الى أن نأخذ عن الغرب " قليلا من النشاط في طلب المحسوسات والمرئيات "، و " الاهتمام بالآلة " من أجل ما سماه " استعباد الطبيعة "(٤)، حتى لا يبقى الشرق " نائما قاعدا بينما الغرب سهران وعامل ".

(((٥)))

ولم يقف الأمر بزعيمي الرابطة جبران ونعيمة عند حد النقد السلبي لما بيناه من المساوئ الاجتماعية(٥) ، بل كانت لهما آراء ايجابية، يتصل أكثرها بما

---

(١) السمير ٩٣٣ العدد ٢٤ (الافتتاحية).
(٢) مقالته : (كلمة الى الآباء والأمهات) السمير ٩٣١ العدد ١٥ (الافتتاحية). وسننقل مقاطع منها في فصل المقالة .
(٣) مقالته (السرطان لا يداوى بالمراهم)، السمير ٩٣٤ العدد ٦ (الافتتاحية) وسنعود اليها في فصل المقالة .
(٤) السمير ٩٣١ العدد ٣ (الافتتاحية).
(٥) انظر - زيادة على ما ذكرناه - مقالة جبران (الأضراس المسوسة) (العواصف - مجموعة المؤلفات ٣/٧٨)، ومقالته (ياخليلي الفقير) (دمعة وابتسامة ٢/١٤٣) . ومقالته (العهد الجديد) . (البدائع والطرائف - مجموعة المؤلفات ٣/٢٥٥). وقد كاد - في مقالته الأخيرة - يشمل جميع ميادين الحياة في المجتمع بالنقد : السياسة والتجارة والدين والصحافة والقضاء والأسرة والفن .

نقداه ، اذ كانا يعالجان المسألة الاجتماعية بالهدم والبناء معا.(١) وكثيرا ما كانت تمس هذه الآراء مشكلات اقتصاديةواجتماعية كبيرة كان مجتمعهما في الوطن ـ خاصة ـ يعيشها ، مثل مشكلة المرأة وموقفها من المجتمع ، وموقف المجتمع منها، ومشكلة الفقر والطبقية القائمة . ولقد كانت لهما أقوال مثيرة في الدعوة الى المساواة الاجتماعية ومحو الطبقية محوا كاملا ، وفي الانتصار للمرأة واحلالها محلها في المجتمع .

وجدير أن نذكر هنا الحال التي غادر عليها الكاتبان وطنهما ، فقد كانت تأخذ بعنقه اقطاعية مرهقة تقوم بها طبقية فظيعة . وقد صور جبران ذلك في مقالته (في مدينة الأموات) التي كتبها في وقت مبكر من هجرته(٢) وانتهى بها الى أن الحياة هي " للأغنياء الأقوياء " وأن " مدينة الأموات " وحدها تستقبل الفقراء ، فأما موطن " الفقير الضعيف " فهو وراء " الغيوم المتلبدة المتلونة أطرافها بذهب من أشعة الشمس الجميلة " . وكان جبران يكرر معنى هذه الصور في كثير من مقالاته ـ في هذه الفترة ـ كأن يقول : " رأيت الفقراء المساكين يزرعون والاغنياء الاقوياء يحصدون ويأكلون ، والظلم واقف هناك والناس يدعونه الشريعة"(٣) أو يدعو قائلا : " أشفق يارب على الفقراء واحمهم من قساوة البرد القارس واستر جسومهم العارية بيدك . انظر الى اليتامى النائمين في الأكواخ وأنفاس الثلج تكلم أجسامهم . اسمع يارب نداء الأرامل القائمات في الشوارع بين مخالب الموت وأظفار البرد . امدد يدك يارب الى قلب الغني وافتح بصيرته ليرى فاقة الضعفاء المظلومين . ارفق يارب بالجائعين الواقفين أمام الأبواب في هذا الليل الظلوم ..."(٤) أو يقول بلسان الأرملة الفقيرة تخاطب طفلها : " ليس عندي يا وحيدي الا الدموع فهل تتغذى بها بدلا من الحليب ؟ . وهل تلبس ذراعي العاريتين عوضا عن النسيج ؟

---

(١) يتضح ذلك في مقالة جبران (العهد الجديد) المشار اليها في الحاشية السابقة ، فرجل السياسة مثلا " نبتة طفيلية " ان سعى الى الانتفاع و " واحة في صحراء " ان سعى الى النفع . والتاجر " محسن " ان عدى عن الاحتكار وسهل التبادل بين الناس ، و " مجرم " ان احتكر . والصحفي " بثور وقروح " ان باع فكره ومبدأه وولغ في أعراض الناس ، و " دواء وبلسم " ان حفظ كرامة عمله . والحاكم " زوان " ان قبل الرشاء و " بركة " ان سهر على مصالح الشعب الخ ...

(٢) دمعة وابتسامة ـ مجموعة المؤلفات ١٠٤/٢

(٣) مقالته (رؤيا) . المصدر السابق ١٢٣/٢

(٤) مقالته (الأرملة وابنها) . دمعة وابتسامة ـ مجموعة المؤلفات ١٣١/٢

صغار الحيوان ترعى الأعشاب وتبيت في أوكارها آمنة ، وصغار الطير تلتقط البذور وتنام بين الأغصان مغتبطة ، وأنت ياولدي ليس لك الا تنهداتي وضعفي "(١)، أو يقول بلسان الشاب الفقير يخاطب الموت : " هأنذا أيها الموت الجميل ، اقتبل نفسي ياحقيقة أحلامي وموضوع آمالي .. ضمني ياحبيب نفسي فأنت رحوم ، لا تتركني ههنا . انت رسول الآلهة ، أنت يمين الحق ، فلا تتخلى عني . كم طلبتك ولم أجدك ، وكم ناديتك ولم تسمع . قد سمعتني الآن ، فلا تقابل شغفي بالصدود . عانق نفسي ياحبيبي الموت "(٢). أو يقول في تقرير يعزي نفسه به : ان يوما " صرفته النفس آسفة على موت حقوق الفقير ، متأوهة على فقدان العدل ، لهو أجل وأفضل من عمر يضيعه الانسان مسرورا على مائدة الشهوات .. "(٣). أو يعود الى التصوير حينا فيقول : " قد ارتعشت نفوس أطفال الحي ، وأقلقهم الجوع وتسارعت تنهدات الأمهات المضطجعات على أسرة الهم واليأس ، وأراعت أحلام الصوز قلوب الرجال المقعدين ، فسمعت نواحا مرا وزفيرا متقطعا يملأ الضلوع نديما ورثاء "(٤).

وقد يحذر جبران من مغبة هذه الحال فيصور انحراف الفقير — حين تسد بوجهه الأبواب — الى الجريمة ، ويقول : " كذا يبتدئ الانسان من المسكين سفاحا باستمساكه ، ومن ابن السلام قاتلا بقساوته "(٥). أو يتنبأ بتحول الأمور ، كأنه يوشك أن يهدد ، : "ان القوة التي زرعتها أيها الفقير ، واستغلها الغني القوى ، سوف تعود اليك ، لأن الأشياء ترجع الى مصادرها بحكم الطبيعة ، والأسى الذي عانيته أيها الحزين ، ينقلب فرحا بحكم السماء . سوف تتعلم الأجيال الآتية المساواة من الفقر ، والمحبة من الأحزان "(٦).

ولاشك أن جبران كان — في تلك الفترة — يبكي نفسه ، وهو المهاجر الفقير المتمرد ، من خلال بكائه الفقراء التعساء في مجتمعه . وهو اذ يجعل المجتمع مسئولا عن حال الفقير وانحرافه وتمرده — يمثل موقف الرومانسيين كما رأينا . ولكن جبران كانت تغنيه هذه الثورة المكبوتة — في بعض الأحيان — فينصرف الى تعزية نفسه : " خليلي ان الفقر يظهر شرف النفس ، والغنى يبين لؤمها "(٧). " لو علمت ، ياخليلي الفقير ، أن الفاقة التي تقضي عليك بالشقاء ، هي التي توحي

---

(١) مقالته (طفلان) . المصدر السابق ٢/ ١٥٠

(٢) مقالته (ميتان) . المصدر السابق ٢/ ١٨١

(٣) مقالته (على ملعب الدهر) . المصدر السابق ٢/ ١٨٢

(٤) مقالته (مناجاة أرواح) . المصدر المذكور ٢/ ٢٠٥

(٥) مقالته (المجرم) المصدر نفسه ٢/ ١٦٥ // (٦) مقالته (خليلي) . المصدر نفسه ٢/ ١٨٤

(٧) المقالة السابقة ٢/ ١٨٣ و ١٨٤

اليك معرفة العدل وتبنك ادراك كنه الحياة ، لرضيت بقسمة الله ...."[1].

" لو باد الفقر ونأى الحزن لأصبحت النفس صحيفة خالية الا من أرقام تدل على الانانية ومحبة الاكثار "[1]." ان الساعة التى تصرفها ، أيها الفقير ، مع رفيقتك وصغارك بعد مجيئك من الحقل ، لهى رمز العائلة البشرية المستقبلة ، هى عنوان سعادة الأجيال الاتية . والحياة التى يصرفها المثرى بين الخزائن لهى حياة دنية تحاكي حياة الدود فى القبور ، هى رمز الخوف"[1].

ولكن جبران لا يلبث طويلا عند حد الشكوى والبكاء والتفجع والصبر ، بل يتصدى ذلك – مع نمو التجربة واتساع فورة الشباب – الى تلمس أسباب الفقر الحقيقية وادراك النظام الطبقى القائم فى الوطن على أسس اقطاعية تتعاون المؤسسات الرجعية والسياسية – القائمة آنذاك – فى دعمها . ويبدأ هذا الموقف يتضح فى مقالته (السرجين المفضض)[2]. فان (فريد بك دعيبس) فيها يمثل الطبقة التى سماها جبران (طبقة الرئاسة) ، وهى الطبقة التى ليس للفرد فيها من عمل " سوى الجلوس فى صدور المحافل ، وتعداد مآتى أسرته المجيدة ، ومزايا محتدة الكريم " . وقد كان (لدعيبس) هذا – فى مقالة جبران – "أقوال مأثورة " منها : " ان الله خلق الناس طبقات متفاوتة : منها للرئاسة ، ومنها للخدمة " ومنها : " انما الشعب حمار حرون لا يسير الا اذا علوت ظهره ".

وكان (دعيبس) " يتمجد متغطرسا ، ويتجبر متعجرفا ، ويزهو مختالا متبذخا متبجحا " . ويبين جبران سر ذلك على النحو التالى : " فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، بينما كان الأمير بشير الشهابى سائرا بكوكبه من رجالة بين أودية لبنان ، مر بقرب القرية التى كان يقطنها (منصور دعيبس) جد (فريد بك دعيبس). وعلم منصور دعيبس بذلك، فنادى جيران الفلاحين ... فساروا وراءه .. حاملين أطباق التين والعنب وجرار اللبن والخمر والعسل . ولما بلغوا المكان تقدم منصور دعيبس وقبل أطراف أذيال الأمير ، ثم نحر كبشا أمامه وهتف قائلا : (هذا من خير أميرنا وولى نعمتنا) . فسر الأمير باريحيته وخلع عليه قائلا : " ستكون منذ الآن وصاعدا شيخا على هذه القرية مشمولا بنظرى الخصوصى . وقد أعفيت سكان قريتك من الأموال الأميرية فى هذه السنة .

---

(١) مقالته / (خليلى) . ~~[illegible]~~ المركبة ١٨٣/٢ و ١٨٤

(٢) العواصف – مجموعة المؤلفات ٦٥/٣ .

وفي تلك الليلة ... اجتمع في بيت (الشيخ) منصور دعيبس جميع سكان القرية ، ونادوا به رئيسا مطاعا في السراء والضراء ـ رحمهم الله جميعا .. " .

انه اذا الاقطاع الذي تقيمه المؤسسات السياسية وتتحالف معه لاذلال هذا الشعب واستغلاله وسرقة أرضه . فليس الفقر اذاً قدرا يشتكى منه ، ولكنه واقع ينظر في أسبابه ويتمرد عليه ويسعى في اصلاحه . وقد نال (الشيوخ) مناصبهم وألقابهم وأصابوا ثرواتهم بالتزلف والتملق للسلطان الجائر فأقطعهم القرى وأجاز لهم التصرف بمصائر أهلها .

وقد كان الكهان ورؤساء الأديان عونا للاقطاع على الشعب " فالأمير يقبض على ذراعي الفلاح المسكين ، والكاهن يمد يده الى جيبه . الحاكم ينظر الى أبناء الحقول عابسا ، والمطران يلتفت نحوهم مبتسما ، وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع . الحاكم يدعى تمثيل الشريعة والكاهن يدعى تمثيل الدين ، وبين الاثنين تفنى الأجساد وتضمحل الأرواح "(١).

وقد عرض جبران هذه الحقائق في جرأة مكنه منها شعوره بالحرية في المهجر وتجاربه المريرة التي عاناها في الوطن(٢) ، ومزاجه المتمرد على الواقع .

يقول : " منذ ابتداء الدهر الى أيامنا هذه ، والفئة المتمسكة بالشرف الموروث تتحالف وتتفق مع الكهان ورؤساء الأديان على الشعب . هي علة مزمنة قابضة بأظافرها على عنق الجامعة البشرية ، ولن تزول الا بزوال الغباوة من هذا العالم عندما يصير عقل كل رجل ملكا ويصبح قلب كل امرأة كاهنا "(٣).

" وفي لبنان ـ ذلك الجبل الغني بنور الشمس ، الفقير الى نور المعرفة ـ قد اتحد الشريف والكاهن على الفقير الضعيف الذي يحرث الأرض ويستغلها كيما يحمي جسده من سيف الأول ولعنة الثاني . ابن الشرف الموروث يقف في لبنان بجانب قصره ويصرخ باللبنانيين قائلا : قد أقامني السلطان وليا على أجسادكم . والكاهن ينتصب أمام المذبح هاتفا : قد أقامني الله وصيا على أرواحكم . أما اللبنانيون فيظلون صامتين لأن القلوب المغلقة بالتراب لا تتكسر ، لأن الأموات لا يبكون . " .

---

(١) قصته (خليل الكافر) . مجموعة المؤلفات ١٧٨/١

(٢) انظر ما يقوله الحويك عن دسيسة أحد رجال الاكليروس على والد جبران والقبض عليه ومعاقبته بقسوة (كتاب جبر ١٩ ، هامش) . وانظر موقف خوري الرعية من جبران في مسألة زواجه من (حلا الظاهر) (المصدر نفسه ٢٧) . ولعل (يوحنا المجنون) صورة (لأسعد الشدياق) الذي اعتنق البروتستانتية ونقل العهد الجديد الى العربية العامية ، فقبض عليه وعذب عذابا وحشيا من قبل رجال الاكليروس . وسارت قصته في لبنان واشتهرت . (المصدر المذكور ٤٦ ـ ٤٧)

(٣) قصته (خليل الكافر) ١٧٨/١ (والمقاطع الأخرى تالية له في الأصل) .

ان جبران يرى اذا دواء هذه الحال البائسة فى المعرفة ، فهى التى تحرر العقول فتبصر واقعها وتتمرد على جور السلطان وخداع الكاهن ، وتحرر القلوب فتهتدى بفطرتها الى الحق والمحبة . وقد قدر الحاكم والكاهن خطر المعرفة فتعاونا على قتلها وعلى احياء الطاعة والرهبة فى النفوس .

ولكن جبران يريد أن يكشف هذا الحجاب ، فيقول بلسان خليل الكافر يخاطب جموع الشعب : " قد اخترتكم قضاتى لأن ارادة الشعب هى مشيئة الله ، فأيقظوا قلوبكم ، واسمعونى جيدا ..ألا يوجد بينكم شيوخ يعلمون أن الأرض التى تحرثونها وتحرمون غلتها هى لكم ، وقد اغتصبها والد الشيخ عباس من آبائكم عندما كانت الشريعة مكتوبة على حد السيف ؟ أما سمعتم بأن الرهبان قد احتالوا على جدودكم وامتلكوا مزارعهم وكرومهم عندما كانت آيات الدين مخطوطة على شفتى الكاهن ؟ ألا تعلمون أن ممثلى الدين وأبناء الشرف الموروث يتعاونون على اخضاعكم واذلالكم واستقطار دماء قلوبكم ؟ أى رجل منكم لم يلو عنقه كاهن الكنيسة أمام سيد الحقول ؟ وأى امرأة بينكم لم يزجرها سيد الحقول ويستحثها لكى تتبع مشيئة كاهن الكنيسة (١) " ؟

" لماذا تخافون مشيئة الله الذى جعلكم أحرارا الى هذا العالم ، وتصيرون عبيدا للمتمردين على ناموسه ؟ كيف ترفعون أعينكم نحو الله القوى وتدعونه أبا ، ثم تحنون رقابكم أمام الانسان الضعيف وتدعونه سيدا ؟ كيف يرضى أبناء الله أن يكونوا عبيدا للبشر ؟ أما دعاكم يسوع اخوة فكيف يدعوكم الشيخ عباس خدما ؟ أما جعلكم يسوع أحرارا بالروح والحق ، فكيف يجعلكم الأمير عبيدا للحيف والفساد .. (٢) " ؟

×× ×× ××

ولن ننتظر — على الاطلاق — أن يثور نعيمة مثل هذه الثورات ، فهو لا يطيقها . وهو — على كل حال — ضعيف الثقة بالجماهير والرأى العام ، يفضل — دائما — أن يخاطب عقل الفرد وقلبه ويصل اليهما فى هدوء وثبات . يقول : " لوفرضنا أن الرأى العام رأى حر لا يتأثر بعوامل مصطنعة ، فماذا يؤهله لطاعتى وطاعتكم ، واحترامى واحترامكم ؟ متى كانت الجماهير أكثر من قطعان تساق الى

---

(١) قصته (خليل الكافر) ١/١٨٧ و ١٩٠

(٢) ص ١/١٩٥

المسلخ بمثل السهولة التى تساق بها الى المرعى ؟ بل متى كانت الجماهير تميز بين راعيها وجزارها ؟ وهذا تاريخها حافل بالشواهد على تنكيلها برعاتها واستسلامها لجزاريها "(١) . و " الواقع الذى لا مندوحة من الاعتراف به هو أن شأن الجماهير الجمود "(٢) .

أما الشعب – عنده – فهو " مجموع مبهم حائر صابر متألم مؤلم مترقب أبدا طلائع الفرج "(٣) . وهو ساذج يسهل أن يتلاعب بارادته أصحاب السلطان .

نقطة البدء عند نعيمة هى الانسان ، وعنده تنتهى النهاية . أما الشعب فهو " مجموع أصم أبكم " مبهم لا يحد ولا يستقر ولا يعرف طريقه(٤) . فهو اذاً لا ثقة فيه ، وانما الثقة بالانسان الذى وعى انسانيته وعرف حدودها ومعناها . فهو وحده قادر على أن يفصل شيئا دون أن يعبأ بالرأى العام ويخشاه(٥) . وفى سبيل هذا الانسان المتحرر المدرك يسود نعيمة الصفحات ، وعن طريقه يرجو الخير ، وفى يده يصنع الزمام ، ليقود الجماهير من رقابها الى خيرها الذى لا تصرفه(٦) .

ومن هنا كان ايمان نعيمة ، بالفرد المتميز أو " بالانسان التواق الى التغلب " كما سماه(٧) ، أو " بالنبى "و " العبقرى " الذى " يثب " ويتخطى " جمود الجماهير "(٨) . ولا يمكن لانسان هذا ايمانه بالشعب أن يثور ، ويلجأ الى الثورة فى اصلاحه . وانما هو يسلك دائما طريق بناء . هذا الفرد المتميز ، ويحاول أن يثير وجدانه ويحرك قلبه وأشواقه وخياله ويقوى ارادته ، ليحقق هذا الفرد بالاقتناع و بالثبات وبالسلم هذا الاصلاح . وهذه هى الطريق التى يعتقد نعيمة أن المسيح سار فيها وتبعه حواريوه الذين بناهم فردا فردا .

ان شعب " أبتصار " – فى كتاب مرداد – لم يفصل شيئا ، وانما فصل كل شئ " أمير تبصار " ، ضل فضل شعبه ، واهتدى فاهتدى شعبه ، هذا هو المثال الذى ضربه نعيمة(٩) . أما جبران فقد قضى عمره يخطب – فى أدبه – من فوق المنابر ، ويتحدث عن ارادة الشعب ، ويجعل من نفسه صوتا وصدى له ، ومن هنا كان انصرافه الى الجماهير يجمعهم من حوله وينادى فيهم بالثورة . على حين يركز نعيمة – على رأس الجبل – فى ثمانية من " التواقين الى التغلب على أنفسهم "

---

(١) الأوثان ٣٧
(٢) المصدر السابق ٣٨
(٣) المصدر المذكور ٣١
(٤) المراحل ١٠٣
(٥) المصدر السابق ٣٨
(٦) المصدر نفسه ٣٧
(٧) مرداد ٤٧
(٨) الأوثان ٣٨
(٩) انظر الفصلين السابع والعشرين والثامن والعشرين ١٩٠ – ٢١٦

ثم يرتفع الى السماء في فسطاط من النور . كما فعل المسيح (١) .

بهذا المنطق عالج نعيمة مشكلة الفقر والطبقية ، باثارة انسانية الفرد وتذكيره بأنه لايمكن أن يشبع اذا جاع أخوه ولا أن يرتوى اذا عطش أخوه ، فهو لا يأكل بما تمضغه اسنانه ويستوعبه بطنه فحسب ، وانما بما تمضغه أسنان اخوانه في الناسوت وشركائه في الأرض ،وبما تستوعبه بطونهم أيضا ، " فليس أمض من جوع الذى لا يشبع الا اذا جاع جاره . ولاأقسى من عطش الذى لا يرتوى الا اذا عطش شريكه في الماء . ولا أمر من موت الذى يحاول أن يحيا بموت من جعلته الحياة دعامة لحياته . وأى الناس ليس دعامة لحياة كل انسان ؟ انما تحيون بعضكم ببعض ، فكيف لا تحيون بعضكم لبعض ؟ وانما ترضعون كلكم الحياة من ثدى الأرض ، فكيف لا تخجلون من أن تمزقوا الثدى الذى منه ترضعون " (٣) ؟

ان الحياة عنده شركة انسانية ، و " الناس عائلة واحدة (٤) "، فعليهم اذا أن يعيشوا في اشتراكية انسانية كاملة لتكون الأرض " حقلهم ومخزنهم العائلى (٤) "، و " مثلما أشتغل أنا بالمؤونه ،هكذا يجب أن يشتغل كل الناس . أما الأطفال والعجز فيجب أن يعيشوا من كد الاقوياء والمقتدرين (٤) " .

وقد صور نعيمة عالمه المثالى هذا في صورة متكاملة فقال بلسان الأرقش:

" لو ألقت البشرية مقاليدها الى ، لجعلت منها جيشا واحدا منظما كأحسن ما تنظم الجيوش ، ومدربا بأخير تدريب ، ومسلحا بأفضل ما استنبطه الانسان حتى اليوم من الأدوات والآلات والحيل لتسهيل معيشته على الأرض . ولأعلنتها حربا شعواء على الأرض فوصلت قاصيها بدانيها . وجعلت مجاهلها معالم وذللت جبالها ووعورها وصحاريها . وفجرت ينابيعها فكسوت عاريها بالغاب والبساتين والرياحين ، ولقحت عقيمها بالخصب ، ونثرت في أرجائها المزارع والدساكر ، ومحوت الحدود منها والسدود وقلت لأبناء الأرض : (اسرحوا وامرحوا وكلوا واشربوا من طيبات ما خلقت أيديكم . لكم الغنم وعليكم الغرم . وأنتم في الاثنين سواسية . وما دمتم جنودا في خدمة العمل الخلاق وتحت لوائه فلا يهتمن أحد بماذا يأكل ويشرب ويكتسى وأين يسكن . فذلك كله موفور لكم بفضل القوة الخلاقة فيكم ، وبفضل

---

(١) قصته المشار اليها (مرداد) وسيأتى الكلام عليها فيما بعد .

(٢) الأرقش ١٢٥ (٣) المصدر نفسه ـ الصفحة نفسها .

(٤) المصدر نفسه ٤١ . ويبدو لنا أن تأثره بتولستوى هنا قوى . وكان نعيمة قرأ منذ كان في بولتافا رسالته المطولة (الخطيئة الكبرى) التى " يعالج فيها قضية الأرض والاجحاف في توزيعها " . سبعون ١٩٠ .وقد بدا في مذكراته التى كتبها حينذاك ميل قوى الى السعى في انصاف الفقير من الغنى (ص ٢١٩)، بل ورد فيها لفظ الاشتراكية صريحا في قوله :"أريد أن أنشر في بلادى روحا تتحسس القيم الانسانية العالية وتنهج نهجا اشتراكيا في حياتها " . سبعون ٢٢٩ ـ ٢٣٠ . وقال عن نفسه فيما بعد : " .. نفسى ـ منذ الصغر ـ لا يؤلمها شئ على قدر ما يؤلمها أن ترى الفقر في الأرض يملأ مركبة البطر بالخيرات تجنيها يداه ،ثم يجرها صاغرا وسياط البطر تلهب لحمه وعظمه ،فلا يباح له أن يتلفظ بأى شكوى ، أو أن يقول أكثر من : شكرا ياسيدى " . المصدر نفسه ٢٥٥ .

حنو الأرض والسماء عليكم) "(١).

ثم يقول : " وعندما تتحد أيدى الناس وأفكارهم وقلوبهم فى عمل واحد ، ثم ينفق نتاج ذاك العمل بالمساواة على الجميع مثلما تنفق مؤونة الجيش على الجنود ، فأى مبرر بعد للتزاحم والتحاسد والتكالب والتناهش "(١) ؟

واذا فليست هناك ثروة خاصة عند نعيمة ، فالثروة " هى جميع مقومات الحياة البشرية التى تقدمها لنا الطبيعة بغير انقطاع فلا نستطيع التمتع بها الا بانفاق جهد جليل أو ضئيل ، قد يكون من أعصابنا ، وقد يكون من أدمغتنا . وهذا الجهد جهد مشترك يستحيل على انسان واحد أو جماعة واحدة من الناس القيام به . انه لجهد الانسانية فعلى بكرة أبيها من آدم حتى اليوم ، ومن أعلم عالم حتى أجهل جاهل ... فلا يقوم عمل – مهما يكن نوعه ، الا بمجموع ما سبقه من الاعمال . اذن كانت الثروة نتيجة لجهد الانسانية بأسرها .. وليس فى استطاعة بشر أو ملاك أن يميز فى القيمة أو الأهمية بين جهد انسان وانسان أو جهل وجيل ، أو شعب وشعب مادام الكل ينتهى بتقديم حياته فى سبيل الكل . ومن منكم يجرؤ أن يثمن الحياة ؟ اذن كانت الثروة الحياة "(٢).

ولكن الفلس – وهو رمز هذه الجهود الانسانية المشتركة المبذولة – " أقام أثمانا فردية للجهود الفردية "(٣) وميز بينها فرفع بعضها على بعض ، وبذلك " أصبح فى استطاعة انسان واحد أن تكون له حصة ألف انسان فى ثروة البشرية المشتركة ، وأن يكون ألف انسان بدون حصة واحدة . لقد نتج عنها استعباد الانسان للانسان ، وانقياد الجماهير للفرد ، واستثمار من حالفهم الفلس لمن عاداهم "(٤).

على هذا النحو يحاول نعيمة أن يضع حلا للمشكلة ، نابعا من عقيدته الانسانية التى فصلنا الكلام عليها فى الباب السابق ، فيدعو الى أن نعتبر الانسانية شركة متعاونة لا تمييز بين أفرادها . فمن حق كل فرد أن يبذل جهده وينال طعامه ولباسه ومأواه . وحينذاك لن يكون فينا زارع جائع وناسج عريان وبناء شريد لا مأوى له وعامل عاطل ،(٥) ثم لن يتاح لنا " أن نستر خزينا وحيفنا وعارنا بستار واه من فضيلة جوفاء ندعوها الاحسان "(٦).

---

(١) الارقش ١١٧ – ١٨

(٢) الأوثان ١٦ – ١٨ . وانظر ايضا الأرقش ١١٧

(٣) [illegible] ١٨

(٤) المصدر نفسه ٩٨ – ١٩

(٥) المصدر السابق ١٩

(٦) المصدر نفسه ٢٠ .

" انما الحياة حق من عل لا صدقة من أسفل . وللبطن فيها والكسيح والضرير والابرص مثلما للسريع والقوى والمبصر والسليم . أما الحسنة فتخدير لضمير المحسن وقتل لوجدان المحسن اليه . فلتكن حسنة الانسانية الى المعوزين من أبنائها أن ترد لهم حقهم فى خيرات الحياة المشتركة . وأن تجعل من المال - ان لم يكن منه بد - شهادة من الانسان للانسان بأن عرق الاثنين ودمهما قد امتزجا فى النضال ، وأن للواحد من الحق فى الغنيمة مثلما للآخر (١) ".

وينبغى أن نذكر أن ما نقلناه هنا من آراء نعيمة فى مشكلة التفاوت الطبقى، يكاد يجمع ما قاله فيها جميعا ، فقد شغله الانصراف الى الانسان من الداخل ومعالجة روحه ، عن الاهتمام بمشكلاته المادية . ويحقق هذا الموقف - فى رأينا - قول المسيح : " لذلك أقول لكم لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون . أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس (٢) ".

ولكن نعيمة أطال الانصراف - من ناحية أخرى - الى تمجيد الطبقة العاملة وتصوير حياتها ومشكلاتها فى أكثر قصصه القصيرة وفى بعض مقالاته . وبلغ اعتزازه بهذه الطبقة حدا سخر معه من الثقافة والمثقفين الذين أدركوا " بفكرهم " قشور الحياة على حين أدركت هى " بايمانها " جوهر الحياة (٣) . وقال : " ان هذا الشعب الأصم الذى يفهم ما تقول الارض والسماء ، وتفهم السماء والارض ما يقول ، لأفصح منا ، وأعقل منا ، وأقرب الى الله منا بما لا يقاس (٤) ".

ووازن بين حياة هذه الطبقة وحياة الطبقة المترفة التى تزيف الحياة وتبتز أتعاب الطبقة العاملة ثم قال : " ان العجب كل العجب أن ترانا نترفع عن هذا الشعب ونبتعد عنه كما لو كان وباء وحماة . بل نحن نحتقره ولا نحسبه بشىء ، وهو منا كالجذور من الفروع والاغصان ، بل كالتربة من الشجرة .

هذا الشعب ، شعبك وشعبى . شعب لبنان وسورية ، هو مستودع كل قوانا الروحية . هو الخزان الذى اذا نضبت غدران وحينا عدنا اليه نستمد الوحى . هو التربة التى اذا قاضت مراعينا عدنا اليها نلتمس قوت الحياة . هو الضرع التى عندما تجف آمالنا نعود اليها نرضع الأمل . نحن منه واليه ،

---

(١) المصدر السابق - الصفحة نفسها . (٢) متى ٦ / ٢٥

(٣) مقالته (الواحة الحية) المراحل ١٠٦

(٤) المصدر السابق ١٠٤

فهو كالأرض كل ما عليها منها واليها " (١) .

ومن المؤسف أن يصل حب نعيمة لهذه الطبقة الى هذا الحد ، ثم لا يجعله ذلك يكف عن اعتبارها " صماء بكماء مبهمة " لا قدرة لها على أن تكون رأيها وتشق طريقها وتفرق بين راعيها وجزارها كما قال .

(((٦)))

وقد كانت الحركة النسوية في الشرق ضعيفة في مطلع هذا القرن ، حين بدأ جبران ينشر قصصه ومقالاته فينتصر فيها المرأة ويطالب بالاعتراف بحق قلبها ويمجد عاطفتها . وقد أحدثت كتابته أثرا كبيرا في الوطن ، فأقدمت زوجات على مفارقة أزواجهن – كما أشرنا في السابق – متأثرات بوردة الهاني (٢) . وكتب بعضهن اليه شاكرا مثبتا . ويبدو أن جبران سار في هذه الطريق الى أبعد مما كانت تطلبه زعيمات الحركة النسوية آنذاك ، بدليل الرسالة التي أرسلتها اليه (مي) تأخذ على قصته (الأجنحة المتكسرة) تمردا على سنن اجتماعية " تصون العائلة وتقدس الزواج " (٣) .

والحق أن جبران تخطى في مطالبه الاصلاحية في هذا الميدان حواجز ضخمة حتى جرؤ – مثلا – أن يقول – وهو الماروني – باقرار الطلاق . وأباح للمرأة المتزوجة أن تصغى الى نداء قلبها فتجتمع الى حبيبها في غفلة عن زوجها (٤) . وأغراها أن تتمرد على كل شريعة في هذه السبيل فتقيم من قلبها كاهنا (٥) .

وكانت ثورة جبران في سبيل اقرار شريعة الحب وتقديسها ممثلة لثورته بجميع الشرائع وتمرده على قيودها ، اذ كان يدعو بها الى احترام رغبات القلب مهما صدمت القوانين القائمة ، بل لأنها تصدم هذه القوانين التي يحس جبران بدوافع عميقة الى كسرها والارتفاع عنها استجابة لمزاجه الرومانسي المتمرد . وقد جعل الحب – في قصته خليل الكافر – يغزو قلب رجل الدين فيطهره ويصهره ويميل به الى الزواج ، فسخر بذلك من قوانين الكنيسة كلها .

---

(١) مقالته (الواحية الحية) المراحل ١٠٥ . وقد مجد نعيمة العمل – بلسان الأرقش – تمجيدا حارا وحيا العاملين أين كانوا فقال : " أيها الضاربون في الأرض وجها وبطنا الوائدون أيامهم وأحلامهم في الظلمات والفلوات الناثرون بسماتهم ودموعهم على مفارق الطرق المرضضون أمانيهم من دماء قلوبهم المطحمون من عضلاتهم جياع الصخر والشوك الباذرون أشواقهم في المحابر وأقواس السحاب الناشرون أعمارهم على الأمواج والرمال يا سجناء أقفاص المصارف والمصانع الدافنون أبصارهم وأسماعهم في بطون السجلات والمذيبون أدمغتهم أرقاما حمراء وسوداء يامن أغانيهم صرير الدواليب وهدير المطامع ورقصتهم رقصة الفلس والدينار . أيها العاملون كبارا وصغارا ، رجالا ونساء ، مهما يكن عملكم وحيثما قضت الأقدار ان يكون . ههنا عامل حقير في مقهى حقير ، يمد لكم يده ويفتح قلبه ، ويعرف قيمة العمل فيبارك ما تعملون . (الأرقش ١١٥ – ١١٦) .

(٢) كتاب جبر (جبران) ٧٤ (هامش) (٣) المصدر السابق ١١٢

(٤) قصته (وردة الهاني) ١٥/١١٧ (٥) في قصته (الأجنحة المتكسرة) وسيأتي الكلام عليها .

ولم يخط جبران حرفا واحدا يدين به المرأة في انحرافها أو تمردها في مجتمعه ، بل حمل الشرائع تبعة ذلك ، وجعل الرجل مسئولا عنه الى حد كبير. وهو يقول في ذلك : " رأيت المرأة كالقيثارة في يد رجل لايحسن الضرب عليها، فتسمعه أنغاما لا ترضيه "(١). ويفسر ذلك في قوله للزوج يحضه على الاهتمام بزوجه والاعتناء بها : " أزوج يستبيح لنفسه ما يحرمه على زوجته ، ويسرح ويمرح وفي حزامه مفتاح سجنها ، ويلتهم ما يشتهيه حتى التخمة وهي جالسة في وحدتها أمام صحفة فارغة ، أم رفيق لا يسير الى أمر الا ويده بين رفيقته ، ولايفصل أمرا الا ولها فيه فكرة ورأي ، ولا يفوز بأمر الا لتساهمه أفراحه وأمجاده ؟

ان كنت الأول فأنت ممن بقي حيا من قبائل انقرضت وهي تسكن الكهوف وتلبس الجلود . وان كنت الثاني فأنت في طليعة أمة تسير مع الفجر نحو ظهيرة العدالة والحصافة "(٢). أما المرأة المغرر بها فهي فقيرة ـ على الغالب ـ يستعان على كسر قلبها بالغنى والذهب(٣). أو صغيرة تفرض عليها ارادة أبيها(٤). أو ساذجة يحتال على خيالها(٥). ولكنها ليست خاطئة أبدا .

وهي ـ حين تقدر قدرها ـ خليقة أن تنقل الرجل من حال الى حال بأصابعها السحرية وكنوز قلبها الكبير : " أي ياصديقي ان الروح قد حل على وقدسني الحب العظيم قد جعل قلبي مذبحا طاهرا . هي المرأة يا خليلي ، المرأة التي ظننتها بالأمس ألعوبة الرجل قد أنقذتني من ظلمة الجحيم ، وفتحت أمامي أبواب الفردوس ، فدخلت . المرأة الحقيقية قد ذهبت بي الى أردن محبتها وعمدتني . تلك التي احتقرت اختها بغباوتي قد رفعتني الى عرش المجد . تلك التي دنست رفيقتها بجهلي قد طهرتني بعواطفها . تلك التي استعبدت بنات جنسها بالذهب ، قد حررتني بجمالها ... تلك التي أخرجت آدم من الجنة بقوة ارادتها وضعفه ، قد أعادتني الى تلك الجنة بحنوها وانقيادي "(٦).

---

(١) مقالته (رؤيا) . دمعة وابتسامة ـ مجموعة المؤلفات ٢/ ١٢٣

(٢) مقالته (العهد الجديد) . البدائع والطرائف ـ مجموعة المؤلفات ٣/ ٢٥٧

(٣) يكثر في مقالات جبران وقصصه معنى قوله : " وأنت أيتها المسكينة التي وهبها الله جمالا رآه فتى العصر فاتبعك وغرك وتغلب على فقرك بالذهب فاستسلمت له وغادرك فريسة ترتعد بين مخالب الذل والتعاسة " . مقالته (ياخليلي الفقير) . دمعة وابتسامة ـ مجموعة المؤلفات ٢/ ١٤٣ . وانظر قصته (مرتا البانية) .

(٤) كما في قصته (الأجنحة المتكسرة) و (وردة الهاني).

(٥) كما في قصته (مضجع العروس) .

(٦) مقالته القصصية (حكاية صديق) . دمعة وابتسامة ـ مجموعة المؤلفات ٢/ ١٤١

ويقر جبران بأثر المرأة الكبير في حياته منذ احتواه قلب أمه وأخته ، وأحمد قلب (حلا) و (ميشلين) ، ورعاه قلب (ماري هاسكل) ، وأرساه أخيرا قلب (مي) ، فيقول : " أنا مديون بكل ما هو (أنا) الى المرأة منذ كنت طفلا حتى الساعة • والمرأة تفتح النوافذ في بصري والأبواب في روحي • ولولا المرأة الأم ، والمرأة الشقيقة ، والمرأة الصديقة لبقيت هاجعا مع هؤلاء النائمين الذين يشوشون سكينة العالم بغطيطهم "(١) • ومن هنا — في رأينا — جاء قوله في (الأجنحة المتكسرة) : " ان الرجل يشتري المجد والعظمة والشهرة ، ولكن هي المرأة التي تدفع الثمن "(٢) وقوله : " ان قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحول مع الفصول • قلب المرأة ينازع طويلا ولكنه لا يموت • قلب المرأة يشابه البرية التي يتخذها الانسان ساحة لحروبه ومذابحه فهو يقتلع أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويغرس تربتها بالعظام والجماجم ، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة ويظل فيها الربيع ربيعا والخريف خريفا الى نهاية الدهور "(٣) •

هذه هي المرأة الشرقية في أدب جبران : كائن ذو " جسد الهي "(٤) ظلمته الشرائع وداست قلبه وفرضت عليه ظلمة القفص وتحكم الرجل ، وهو في حاجة الى انسان ذي قلب جريء يأخذ بيدها ويفكك عنها أغلالها(٥) • وقد وجد خصوم جبران في دعوته هذه مجالا خصبا للطعن في مراميه وغاياته الشهوانية ورغبته في التمتع بجسد المرأة دون أن يقف في طريقه قانون أو شريعة أو عرف(٦) • وقارئ سيرة جبران التي كتبها نعيمة لا يكاد ينكر بعض هذه التهم(٧) ، وسنعرض لهذا — على كل حال — في مواضع أخرى من هذا البحث •

×× ×× ××

وينظر نعيمة الى المرأة من خلال عقيدته أيضا فلا يقر بأنها مظلومة حتى يقر بأن الرجل مظلوم بظلمها لأن " الرجل والمرأة جناحا طائر واحد هو البشرية ، وكفتا ميزان واحد هو النظام السرمدي ، وأقنوما كائن واحد هو الله • فما صفقت البشرية بجناح الا صفق أخوه معه ، ولا هوت كفة الرجل يوما الا هوت في الحال كفة المرأة

---

(١) انظر (مي في حياتها المضطربة) لجبر ١٢٨
(٢) الأجنحة المتكسرة — مجموعة المؤلفات ٢/٧٩
(٣) المصدر نفسه ٢/٩٨
(٤) الحويك — ذكرياتي مع جبران ٢٧
(٥) يقول جبران ليوسف الحويك في باريس : " سن الكهان شرائع للجسد فكهربا نفسي لأنها مستوحاة من
(٦) الجهل والكبرياء والظلم والعبودية • فالمرأة المسكينة مضطرة للخضوع ، فهم لم يشاوروها غداة وضعوا الشرائع والقوانين في أمر يهمها أكثر مما يهمهم ، ثم راحوا ينسبون شرائعهم للخالق ، والخالق بريء منها ، لأنها متى حللت وجدت بعيدة عن روح العدالة الالهية " • ذكرياتي مع جبران ١٣٤ •
(٦) مقالات أمين خالد (الجوهر الفرد في أدب جبران) المشرق ٣٠/٦٦٢ ويقول حنا الفاخوري أيضا " كانت الأثرة والشهوة أساس اجتماعيات جبران " (تاريخ الأدب العربي ١٠٨٧)
(٧) سبق أن أشرت الى أن نعيمة قال لي : "ان جبران لم يكن يعف عن شيء" • انظر أيضا (يوم مع ناسك الشخروب) لفوزي سليمان ، المجلة ١٩٥٩ العدد ٣٥ ص ٥١

الى مستواها ، أو ارتفعت كفة المرأة الا ارتفعت كفة الرجل فوازتها "(١) . فان كان الرجل وأد المرأة يوما فقد وأد قلبه معها " فما كل من تحت التراب أموات ولا كل من فوق التراب أحياء " ، أو لقد اشتركا معا في حفر القبر " فما مات انسان الا كان الاثنان شريكين في تلك الميتة ، وما انقضت صاعقة على بيت فهدته الا كان للبيت في هذه ما للصاعقة "(٢) ولأن الطرفين ينفذان مشيئة الارادة الكلية التي لا تغفل عن شئ . ومن هنا قول نعيمة : " لست أرى ذنبا استغفر عنه المرأة الا رأيت من العدل أن استغفر عنه الرجل "(٣) . و" من أجل ذلك أقول لكم ان كل مقارنة بين الرجل والمرأة بقصد التفضيل والترجيح هي ضرب من البلاهة . وكل تحاسب بينهما بقصد تثبيت رصيد حساب لها أو له هو عبث وفضول وتعكير مياه عكرة ، فالمجال مجال أخذ بغير حساب وعطاء بغير حساب ، لا مجال لوم وعتاب وتشنيع وتقريع "(٣) .

ومن هنا أيضا اعتبر نعيمة حرية المرأة مرتبطة بحرية الرجل ، " فكلاهما ما دام مقيدا بالآخر — حر بحرية رفيقه وعبد بعبوديته . أو تحسبون حارس السجن أكثر حرية من سجينه ؟ انه لسجين مثله وان لم يقيد بسلاسله . أم تحسبون أن أعمى يرافق مبصرا ويظل أعمى ؟ انه ليستمد من بصر رفيقه بصرا وان لم يكن في حدقتيه نور "(٤) .

وبهذا المنطق اعتبر نعيمة الرجل مستعبدا لأن المرأة تطالبه بحريتها ، و " لأن الحر لا يستأثر بحرية أحد " . فالحجاب الذي يستر وجه المرأة " تهكم من الرجل على خالقه ، واقرار منه بأن الحيوان فيه ما يزال سيد الانسان " . فهو اذاً " على بصيرة الرجل السافر مثله على بصيرة المرأة المحجبة ، فعليها وعليه أن يعملا معا على تمزيقه "(٤) .

وعلى المرأة أن تدرك أن الحقوق التي تطالب بالتمتع بها كحق التصويت وحق الدخول مع الرجل في ميادين الحياة العملية ، لا تقربها ولا تقرب الرجل معها من حريتهما ، ولا تهديهما الى نظام يقيهما الجوع والفاقة وويلات الحروب وانما يقربهما من هذه الحرية ويهديهما الى هذا النظام طريق واحدة هي طريق المحبة الشاملة التي تحترق في أتونها الأحقاد والشهوات والمخاوف(٥) .

---

(١) خطبته (جناحا البشرية) . زاد المعاد ٦٤
(٢) المصدر المذكور ٦٥ — ٦٦ (٣) المصدر نفسه ٦٦
(٤) المصدر نفسه ٦٦ — ٦٧ (٥) المصدر نفسه ٦٧

والمحبة تظهر نفس المرأة والرجل فتكونا " آنية صالحة لبلسم الحياة "، " فما ظهرت امرأة صالحة على الأرض الا أصلحت رجالا كثيرين ، ولا مشى رجل طاهر تحت السماء الا طهر نسوة كثيرات "(١). على أن المرأة ستبقى " رحم البشرية الخصبة ، وثديها الفياض ، وحضنها الرحب ، وساعدها الحنون ، وقلبها النابض في قلب الله "(١).

الى جانب هذا المنطق – الذى نراه يميع قضية المرأة وينحرف بها عن أهدافها الاجتماعية – كتب نعيمة قصصا عرض فيها لبعض القضايا الاجتماعية التى تذهب المرأة ضحيتها ، فنصرها نصرا لا تردد فيه ولا ضعف ولا تمييع . وقد أشرنا سابقا الى قصة (العاقر) التى دعا فيها الى أن تكون للمرأة قيمتها الذاتية مجردة عن كونها رحما منجبة ، والى قصة (سنتها الجديدة) التى سخر فيها من تقاليد بعض البيئات بتفضيل الذكر على الانثى .

ووقف هذا الموقف الصريح أيضا فى مسرحيته (الآباء والبنون) ، وأعطى المرأة – فى اصرار – حق التفتيش بنفسها عن سعادة قلبها ورسم مصيرها دون أن يفسد ذلك ارادة أم أو أب . كما أعطاها فى قصته (زلزال)(٢) حق تكوين عقلها وتحديد هدفها ، وجعل منها بطلة ثورة فى سبيل مبدئها .

ويبدو أن هذا الموقف الصريح كان فى مطلع حياة نعيمة الأدبية قبل أن يحط به تيار عقيدته الجارف بعيدا عن الطرق التى يسلكها الناس فى تفكيرهم ورسم الحلول لمشكلاتهم(٣) .

على أن نعيمة – فى الحالين – لم يبدل موقفه الغالى من الزواج . فقد استمر على افكاره حتى رمى المخادع الزوجية – فى كتاب مرداد – بالدعارة(٣) . فأبعد بذلك حتى خرج على قول الانجيل

(١) المصدر السابق ٦٨ (٢) فى مهب الريح ٢١٨

(٣) يمثل موقف نعيمة في الدعوة الى المحبة ، وجلعها الحل الكامل لجميع المشكلات الاجتماعية قول بولس الرسول الى أهل كورنثوس : " ان كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لى محبة فقد صرت نحاسا يطن أو صنجا يرن . وان كانت لى نبوة وأعلم جميع الاسرار وكل علم وان كان لى كل الايمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لى محبة فلست شيئا . وان أطعمت كل أموالى وان سلمت جسدى حتى أحترق ولكن ليس لى محبة فلا أنتفع شيئا . المحبة تتأنى وترفق . المحبة لا تحسد . المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تقبح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالاثم بل تفرح بالحق وتحتمل كل شئ وتصدق كل شئ وترجو كل شئ وتصبر على كل شئ . المحبة لا تسقط أبدا .. " . رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس ١٣ / ١ – ٨

وقد لجأ كاتسفليس حينا الى معالجة بعض مساوئ مجتمعه بعلاج المحبة أيضا . وقال : " ما عمر الأكوان الا المحبة . والقلب ان لم يسع الدنيا فهو وعاء صغير " . مقالته (واجعلوا الحلم جميلا – مجموعة الرابطة ١٥٠) . وانظر أيضا مقالته (القلوب الجائعة) . المصدر نفسه ١٦٦

(٢) ص ١٦٠

نفسه : " ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل : انه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا . ولكن ان لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزوج أصلح من التحرق "(١).

ونعتقد أنه لا يمثل رأى من آراء نعيمة جانب السلبية في موقفه من الحياة كما يمثله هذا الرأى(٢). ولن يفوتنا أبدا — من الناحية الاجتماعية — تأثيره الخطر المخرب . ولئن صدق هذا الكلام — على نحو ما — في رجال الدين الذين " خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات "(٣) فكيف يصدق في الناس جميعا ؟ وكيف تستمر الحياة ؟ وكيف ينمو الانسان ؟ وكيف تقوم علاقة الرجل بالمرأة(٤) وكيف يمكن أن نتصور النتائج ؟

×× ×× ××

هذه صورة سريعة للمضمون الاجتماعي في نثر كتاب الرابطة القلمية نرجو أن يتهيأ لنا اغناؤها باطلاعنا على مصادر لم يتيسر لنا الآن الوقوع عليها .

ونعتقد أن الكتاب الأربعة : عريضة وعبد المسيح وكاتسفليس، وأبا ماضي ظلموا شيئا هنا ، لأن ما وقع في أيدينا من نثرهم لم يعطنا فكرة كافية عن مواقفهم الاجتماعية .

ومهما يكن فانا انتهينا هنا الى أن جبران ونعيمة حملا رسالة اجتماعية ضخمة شارك في بعض أعبائها كتاب الرابطة الآخرون . وقد بدا جبران شديد الاستجابة — في ثورته الاصلاحية وتمرده الاجتماعي — لمزاجه الرومانسي الذى قربه حقا من الرومانسيين ومن آرائهم في مجتمعهم وموقفهم منه بعد الثورة الفرنسية على حين بدا نعيمة شديد الالتصاق بعقيدته الداعية الى المحبة ، لا يتخلى عنها

---

(١) رسالة بولس الأولى الى أهل كورنثوس ٧/٨ — ٩

(٢) سيزداد هذا الرأى ايضاحا في دراستنا لقصتي نعيمة (مذكرات الأرقش) و (مرداد) الفصل الثاني من الباب الثالث . وانظر مقدما الفصل الثاني والعشرين من كتاب مرداد ١٥٥ — ١٦٣

(٣) متى ١٩/١٢

(٤) انظر تفصيلا لنظرة نعيمة الى المرأة وتكوينها وغاياتها من حياتها ، في مقالته (لغز المرأة) . النور والديجور ٧٧

في النظر الى أي قضية من قضايا مجتمعه (١) .

وقد اتفق هؤلاء الكتاب على الدعوة الى التطور الاجتماعي بحيث يلحق مجتمعهم - في أنظمته وموقفه المرن من الحياة واستجابته لغاياتها الكبيرة - بالمجتمعات التقدمية التي تسودها الحرية والطمأنينة والعدل والمساواة واحترام كرامة الانسان.

ولا غنى عن الاشارة هنا الى أن زعيمي الرابطة وقفا في الشطر الأول من حياتهما مواقف صريحة في ميدان النضال الاجتماعي ، ثم لان جبران الى حد ما في الشطر الأخير من حياته ، واتبع نعيمة طريقا لا يغنينا الايمان بمثاليتهما عن اخفاقهما في الوصول معاً الى أهدافنا الاجتماعية في سرعة ووضوح .

---

(١) يمثل موقف نعيمة في الدعوة الى المحبة ، ويجعلها الحل الكامل لجميع المشكلات الاجتماعية قول بولس الرسول الى أهل كورنثوس : " ان كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبة فقد صرت نحاسا يطن أو صنجا يرن . وان كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم وان كان لي كل الايمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لي محبة فلست شيئا . وان أطعمت كل أموالي وان سلمت جسدي حتى احترق ولكن ليس لي محبة فلا أنتفع شيئا . المحبة تتأنى وترفق . المحبة لا تحسد . المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تقبح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالاثم بل تفرح بالحق وتحتمل كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء . المحبة لا تسقط أبدا ... " . رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس ١٣/١ - ٨

وقد فجأ كاتسفليس حينا الى معالجة بعض مساوئ مجتمعه بصلاح المحبة أيضا . وقال : " ما عمر الأكوان الا المحبة . والقلب ان لم يسع الدنيا فهو وعاء صغير " . مقالته (واجعلوا الحلم جميلا - مجموعة الرابطة ١٥٠) . وانظر أيضا مقالته (القلوب الجائعة) . المصدر نفسه ١٩٦ .

الفصـــل الثـالـــث

المضمـون الوطــنى

(((١)))

ان البحث فى هذا الجانب من مضامين النثر المهجرى يتطلب يقظة وتسامحا كبيرين ،حتى نستطيع أن نتفهم موقف أدبائنا هؤلاء مما نعده اليوم أولى قضايانا . فما أيسر ان تنزلق الى أحكام صارمة – قد لا تخلو من أن تكون جائرة فى بعض الأحيان – اذا لم نحسن فهم المقدمات الفكرية التى تحكمت فى نظرتهم الى معانى الوطنية والقومية . وقبل أن نقدم هذه المقدمات يحسن أن نذكر طبيعة الظرف التاريخى الذى أحاط بحركة المهاجرة ، منذ أعطت هذه الحركة الحلول التى ارتضوها لمشكلتهم النفسية والاقتصادية فى وطنهم الأول. فقد انتهينا الى أن هؤلاء المهاجرين حملوا معهم ارثا بغيضا من الاضطهاد وأذى التعصب الطائفى . وقد كانوا أقلية صغيرة فى دولة لم يتسع صدرها لطموحهم ، بل كانت تعدهم مصدرا رئيسيا من مصادر الشغب والتآمر ، وقد تأخذهم بثورات المسيحيين من أهل البلقان . ويزيد على ذلك أنهم كانوا – فيما بينهم – أحزابا وشيعا وطوائف متنافرة .(١)

---

(١) عبر أبو ماضى عن حال المهاجرين النفسية تعبيرا عاريا فى قصيدته (وداع وشكوى) فقال:

(نيويورك) يا بنت البخار ، بنا اقصدى ... فلعلنا فى الغرب ننسى المشرقا
وطن يضيق الحر ذرعا عنده ... وتراه بالأحرار ذرعا أضيقا
ما ان رأيت به أديبا موسرا ... فيما رأيت ، ولا جهولا مملقا
مشت الجهالة فيه تسحب ذيلها ... تيها ، وراح العلم يمشى مطرقا
شعب كما شاء التخاذل والهوى ... متفرق ويكاد أن يتمزقا
لا يرتضى دين الاله موفقا ... بين القلوب ، ويرتضيه مفرقا
وحكومة ما ان تزحزح أحمقا ... عن رأسها ، حتى تولى أحمقا
راحت تناصبنا العداء كأنما ... جئنا فريا أو ركبنا موبقا
وأبت سوى ارهاقنا فكأنما ... كل العدالة عندها أن نرهقا
أصبحت حيث النفس لا تخشى أذى ... أبدا وحيث الفكر يغدو مطلقا
نفسى اخلدى ودعى الحنين فانما ... جهل بعيد اليوم أن نتشوقا

(أبو ماضى شاعر المهجر الأكبر) ص ٤٠ – ٤٦

وقد هبط المهاجرون الأول أميركا ليجمعوا المال ويستثمروه في الوطن، ثم سرعان ما قرروا الاقامة في وطنهم الجديد وتجنسوا بالجنسية الأميركية . " وكانت الصحف العربية في المهجر تهاجم الذين أبقوا على جنسيتهم الأولى ، وتتهمهم بأنهم مبقون عليها لأنهم مناصرون لتركية ، حريصون على دوام حكمها في بلادهم"(١). وأغرتهم نعمة الحرية التي بدءوا يذوقون طعمها ، وعرفوا معنى الديمقراطية التي تؤمن بكرامة الفرد وبحقه في الحياة ، فبدا الماضي أشد ظلاما . وأحسوا أنهم مدعوون الى المشاركة في تحرير الوطن الذي يجمع أهلهم ، من المظالم والاستعباد ليذوقوا من نعمة الحرية والكرامة والديمقراطية ما ذاقوا هم في مهجرهم، ، فأسسوا الجمعيات السياسية وأصدروا المنشورات ، واشتركوا في بعض المؤتمرات القومية التي كانت تعقد في العواصم الأوروبية(٢) . واتصلوا بمجالس الحلفاء بعد الحرب ليبلغوها مطالبهم السياسية(٣) . وحملت صحفهم ومجلاتهم آراءهم هذه فناقشوها واقتتلوا حولها(٤) .

وقد كانت النكبة التي أصابت الوطن في الحرب الأولى ، سببا في اجتماع معظم أعضاء الرابطة وتكوينهم لجنة (الاعانة)(٥) وتناديهم الى جمع التبرعات واثارة وجدان المهاجرين . وقد أصدروا في هذه السبيل عددا خاصا من مجلة الفنون يصح أن يسمى (عدد النكبة)(٦) . فلما اشتركت الولايات المتحدة في الحرب لاحت لهم مطامع كبيرة عبر عنها الريحاني في عدد من رسائله الى بعض المواطنين وأعضاء الرابطة(٧) . وهو يقول في احداها : " في السنة الماضية أسسنا لجنة اعانة المنكوبين . وفي هذه السنة يجب أن نؤسس لجنة تحرير سورية . وأول واجبات هذه اللجنة وأعمالها حث السوريين على التطوع ، بل تأليف فرقة سورية أميركية . ثم تسعى اللجنة لدى الحكومة في واشنطن أن ترسل هذه الفرقة الى سورية تحت قيادة ضباط أميركيين ، أو أن تنضم الى الفيلق الذي تسعى فرنسا في تأليفه (فيلق الشرق) ليحتل سورية . وليس هذا بحلم يا أخي ، بل رأي أوحته الحوادث ، ولا يخرج من دائرة المحتمل الممكن .....

---

(١) الكفافي ـ العرب في المهجر الشمالي ٨٧

(٢) كان لهم في مؤتمر باريس الذي عقد سنة ١٩١٣ ثلاثة ممثلين . يقظة العرب لأنطونيوس ص ١٢٥

(٣) سيأتي ذكر المذكرة التي رفعتها جمعياتهم السياسية الى امين سر مؤتمر الصلح . وفي (رسائل الريحاني) أشارة الى (لائحة وطنية) يراد أن ترفع بعض بنودها الى الدول المتحالفة . ص ١٧٥

(٤) كانت جريدة (الهدى) لنعوم مكرزل و (النسر) لنجيب بدران ، و (مرآة الغرب) لنجيب دياب ومجلة (السائح) لعبد المسيح حداد (و(الفنون) لنسيب عريضة أبرز هذه الصحف وكانت تمثل كل منها اتجاها سياسيا تدافع عنه .

(٥) لعل هذه اللجنة هي التي عناها عبد المسيح حداد في قوله ليوسف البعيني رئيس تحرير (العصبة): انهم أنشأوا الرابطة في غضون الحروب الأولى وكان الريحاني من الداعين اليها . العصبة ٩٤ العدد ٣٠.

(٦) العدد الخامس من سنة ١٩١٦ . وانظر (العرب في المهجر الشمالي) للكفافي ص ١١١

(٧) رسائل امين الريحاني ص ١٦٨ ـ ١٧٤ (رسالتاه الى شكري بخاش وعبد المسيح حداد).

فتدبيره واخواننا أصحاب الرأى وأولى الوطنية "(١)

ويؤكد الريحاني هذه المطامح في رسالة أخرى أرسلها الى عبد المسيح حداد وقال في آخرها : " .. هذا هو السعي العظيم الجميل الذى يجب أن نسعى اليه . لنجرد أقلامنا اذا .. لنجرد أنفسنا من كل النزعات سوى النزعة الوطنية " ، " ولا يفوتنكم أن خلاص سورية عن يدنا – عن يد أبنائها ، انما هو خلاصها الحقيقي الدائم، أما خلاصها عن يد أمة أخرى ، فخلاص تتبعه سيادة أجنبية ، والسيادة الأجنبية – مهما كانت عادلة صالحة مفيدة – لا نرضاها الى الأبد ... "(٢)

ولم يتحقق حلم الريحاني بتأليف فيلق أميركي من المهاجرين العرب ، ليحتل سورية مع الجيش الفرنسي(٣) ، ولكن تحقق قيام لجنة تحرير سورية ولبنان – التى رأسها الدكتور (أيوب ثابت) وأصبح كاتما سرها جبران ونعيمة وانضم الى عضويتها عبد المسيح حداد ونسيب عريضة ووليم كاتسفليس ووديع باحوط(٤)." وكان

---

(١) من رسالته الى شكرى بخاش . رسائل الريحاني ص ١٧٠ – ١٧١

(٢) المصدر السابق ١٧٣ و ١٧٤

(٣) يبدو أن باب التطوع فيما سمى " الحملة الشرقية " فتح في المهجر ، وأخذت الحكومة الفرنسية تساعد في تسهيل السفر للمتطوعين ، ولكن عددهم كان قليلا . انظر رسالة لجبران الى نسيبه نخلة جبران يقول في آخرها : " ان حركة التطوع في الحملة الشرقية لم تزل سائرة على قدم وساق في هذه البلاد . ولجنة تحرير سورية ولبنان التى تأسست في هذه الغرفة تهتم بمعاونة الحكومة الفرنساوية في تسفير المتطوعين الى سورية . ولكن السورى حتى الآن لم يتعلم كيفية اظهار حماسته بصور فعلية . ومع أنه يوجد في الجيش الأميركي خمسة عشر الف جندى سورى فنحن للآن لم نبعث الى الشرق غير العدد القليل القليل بالنسبة الى عظمة الأسباب التى جعلتنا نقوم بحركة التطوع . ولكن قام السورى بواجبه أو لم يقم فالمستقبل يبتسم لسورية . وفى الأسبوع الغابر قد زال كل شك في انعتاق بلادنا من الحكم العثماني والمظالم العثمانية ". جبران حيا وميتا ٢٤١

(٤) الكفافي – العرب في المهجر الشمالي ص ١٢٣ (نقلا عن السائح في ٣ تموز ١٩١٩) . وقال لى نعيمة ان جبران كان أمين السر للمراسلات الأجنبية ، على حين كان هو (أى نعيمة) أمين السر للمراسلات العربية . (من حديثه الى في بيروت بتاريخ ٥/١٢/١٩٥٨) .

برنامج هذه اللجنة يتلخص في مادتين :

الاولى ـ أن تنشأ في سورية حكومات نيابية اقطاعية (١) ، منها لبنان بحدوده الطبيعية والشام وحلب ، تحت رعاية فرنسا وحمايتها (٢) .

الثانية ـ استقلال المسألة السورية عن المسألة الحجازية (وبعبارة أخرى : مقاومة مملكة عربية تضم سورية والحجاز) (٣) .

وأصدرت هذه اللجنة ـ لتأييد اتجاهها ـ " بحثا تاريخيا يثبت أن السوريين هم من أصل سرياني فينيقي مع خليط يوناني وروماني وعربي " (٣) . ورفعت مذكرة الى أمين السر بمؤتمر الصلح جاء فيها : " ان موقعي هذه المذكرة عمدة لجنة تحرير سورية ولبنان في أميركا الشمالية ، يتشرفون برفع احتجاجهم البليغ على ادعاء المندوب الحجازي لمؤتمر الصلح (٤) بأن السوريين راضون عن انشاء حكم عربي في سورية وفلسطين . أما الحقيقة فهي خلاف ذلك . فهم واثقون أشد الوثوق بأن السكينة في سورية الغد قد أمست مهددة كل التهديد ، بالنظر الى احتلال الفرق الحجازية الأراضي السورية ، وأن هذا الخطر يبلغ الدرجة القصوى اذا طال أمد هذا الاحتلال . بل هم واثقون أن سيادة الحجاز الاسمية على سورية البالغة حدا بعيدا من التمدن المصري، أو على قسم منها على أساس الجامعة العربية الموهوم ستكون عقبة في مسير البلاد الى التمدن والارتقاء في مجاراة الأمم الحية الراقية .

---

(١) " يقصد حكومات نيابية محلية تقوم في مقاطعات " (التعليق للدكتور الكفافي في هامش ص ١٢٣) .

(٢) يقول الدكتور الكفافي معلقا على هذه المادة : " أما المادة الأولى ، فهي ـ كما فهمتها من عبارتها ، ومن المذكرة التي رفعتها الى (كاتم السر العام بمؤتمر الصلح) ـ تنص على انشاء مقاطعات لها حكومات مستقلة يجمعها اتحاد عام كما هو الشأن في الولايات المتحدة الاميركية " . العرب في المهجر الشمالي ص ١٢٤ (وانظر هامشها أيضا) .

(٣) الكفافي ـ العرب في المهجر الشمالي ص ١٢٣ (نقلا عن عدد السائح المشار اليه سابقا)

(٤) هو الملك فيصل الذي كان يدعو الى انشاء مملكة عربية في الشام .

ان السوريين ليسوا بعرب[1] . واللغة العربية التى يتكلمون بها اضطرهم الفاتحون الى استعمالها بدلا من اللغتين الآرامية الوطنية واليونانية ، اللتين كانتا اللسان الشائع فى البلاد السورية " .

ثم تقول المذكرة : " .. وان ما بين فرنسه وسورية من التقاليد التاريخية والعلائق الأدبية والاقتصادية ، ولاسيما أن ما قامت به فرنسة سنة ١٨٦٠ من العمل الكبير الذى أدى الى انقاذ الاقلية فى البلاد من الانقراض والفناء ، قد أوجد فينا عاطفة امتنان وولاء لا يمحى نحو الدولة الافرنسية ، ولذلك نحن نلتمس من سعادتكم أن تعرض على فرنسا مسألة اتخاذ المسئولية لرعاية سورية وحمايتها أثناء المدة اللازمة لاستقلال البلاد بشكل حكومة جمهورية[2] " .

ويلوح لنا أن هذه اللجنة لم تؤسس وفق برنامج يستجيب لرغبات الريحانى التى أبداها فى رسائله[3] . وكان الريحانى - بعد أن كتب الرسائل وهو فى أسبانيا - سافر الى باريس فاتصل بزعماء القضية العربية هناك ، واطلع - عن كثب - على مطامع الحلفاء ورغبتهم فى اعتبار سورية بعض غنائم الحرب التى كسبوها ، فعاد الى نيويورك وهو مؤمن بضرورة تحرر سورية من أى احتلال . ولم يوافق عن برنامج اللجنة التى أسست وأعلن معارضته لها . وقد اتهم عبد المسيح حداد الريحانى - فيما بعد - بأنه " لم يكن مستقرا " ، وقال : ان الريحانى كان يتنقل آنذاك بين اميركا وباريس ، ويتصل بشكرى غانم وغيره ، لتأييد الانتداب الفرنسى على سورية ولبنان ، " وكانت بدأت فى اميركا حركة لتأييد الحماية الفرنسية ، وكان من زعمائها جبران وأيوب ثابت وميخائيل نعيمة ، ونصوم مكرزل وعبد المسيح حداد وسواهم " .

ووصل بعد الحرب الريحانى من باريس فبدءنا حال وصوله بفكرة جديدة هى

---

(١) مما يذكر هنا أن نعيمة أشار - فيما بعد - الى أصله العربى الصميم . (فى مهب الريح ٢٠)

(٢) الكفافى - العرب فى المهجر الشمالى ص ١٣١ و ١٢٤ (نقلا عن السائح المشار اليه) .
وقد حدد جبران - فى رسالة له - الغاية المطلوبة من حماية فرنسا اللازمة لاستقلال سورية بقوله فى انتهاء مدة الحماية :" عندما يصبح السوريون أهلا لذلك . أى عندما تبلغ الناشئة الجديدة أشدها " . وأضاف : " وقد يتم الامر بعد مرور خمس عشرة سنة " . من رسالة الى أميل زيدان . الهلال ٩٣٤ - عدد آذار (مارس) ص ٥١٣ .

(٣) ينبغى أن نذكر هنا اتجاه الريحانى العربى الواضح واعتزازه بالعروبة ، وسعيه فى جمع شملها . وقد سلك هذه السبيل - فيما بعد - فى رحلاته المتتابعة الى البلاد العربية ، وعبر عنها فى معظم كتبه . (انظر مثلا كتاب ملوك العرب وبعض رسائله الى الملك فيصل وابن السعود - رسائل الريحانى ص ١٨٥ و ٢٣٢) . انظر كلاما على ذلك فى كتاب صيدح ص ٦٦ ، وفى مقالة كتبها فارس الخورى عن الريحانى بعنوان (رجل عديم الأبناء ، كثير التلاميذ) . المكشوف ٩٤١ العدد ٣١٣ ص ٢ .

السعى الى تحرير سورية ولبنان من ربقة الحكم الفرنسى . وقد عجبنا من تصرفه لأنه كان معروفا بنزعته الفرنسية وميله الى الأدب الفرنسى "(١).

ولم يكن الريحانى وحده الذى " تغير " فيما يبدو ، فان عبد المسيح حداد نفسه كان يحمل فى السائح سنة ١٩١٧ وبعدها بقليل على الداعين الى تقسيم سورية أقاليم متفرقة ، ويسخر من زعمهم (نعوم المكرزل) الذى بنى " حدوده الوهمية " (٢) - كما يقول عبد المسيح - فى عقول " المكرزليين "من أتباعه ويقول لهم : " تبا لكل مفرق . وقبح الله من يسعى لغاية له خصوصية غير مكترث بغاية الأمة العامة . نحن اليوم ننتظر نعمة سماوية وموعدنا بها المستقبل القريب ... ولكن أرباب الفتن فى هذا المهجر - أصحاب الغايات الصغيرة الذين يقودون هذا الشعب كما تشاء أطماعهم ومآربهم - هؤلاء يفرقون بين المجموع ليسودوا ...

وبدلا من أن نعمل بيد واحدة وقلب واحد لتوثيق عرى الاتحاد بين هذه الأمة التى يبتسم لها المستقبل عن شئ عظيم ... بدلا من أن نسعى للظهور أمام الغرباء قوة كبيرة ، قام فينا من ضرب حزمة الوطن فى هذا المهجر ضربة قوية ، فذهب عنها المتمسكون بأهداب طوائفهم وتخلى عنها المبالون لمقاطعاتهم ...

لننظر الى حالتنا فى هذا المهجر ، فنتكلم عنه ، ونترك الوطن وشأنه ، فاننا نعلم أنما يفرقه (نعوم) فى هذا المهجر هو بالحقيقة ملتئم تمام الالتئام فى ذلك الوطن التاعس . فهناك والمصائب حولهم - قلوب متجمعة بعد اختلاف طويل ، هناك المسلم يفدى النصرانى بحياته اليوم ، هناك ابن حوران يهدر دمه انتقاما لأخيه فى لبنان وحلب وفلسطين ..."(٣).

---

(١) من حديثه الى يوسف البعينى - العصبة ١٩٤٩ العدد ١ ص١٠٣٢ - ١٠٣٣

(٢) الكفافى - العرب فى المهجر الشمالى ص١٢٥ (نقلا عن السائح : ٢٤ أيلول ١٩١٧).

(٣) من مقالته (حريتنا فى اتحادنا) . المصدر السابق ص ١٢٥ - ١٢٦ (نقلا عن السائح المشار اليه سابقا) . وقد نشبت معركة قاسية بين (الانفصاليين) الذين تمثلهم (جمعية النهضة اللبنانية) التى يرئسها نعوم مكرزل صاحب (الهدى)، و (الاتحاديين) الذين تمثلهم (لجنة تحرير سورية ولبنان) . انظر أطرافا من هذه المعركة فى كتاب الكفافى ص ١١٧ - ١٣٠

ثم غير عبد المسيح بعد ذلك موقفه من الوحدة بعد أن تم تقسيم سورية على أيدى الحلفاء • وكتب يقول ، كأنه يوشك أن (يبرر) ما وقع : " من المعلوم أن حل مسألتنا السورية من أصعب الصعاب على السياسيين • وقد يكون مستحيلا اذا عنى أولو الأمر باتفاق يكفل رضاءنا جميعا • ولهذا يجب أن نكون شكورين لذهاب النير التركى الثقيل عن كواهلنا ... بلادنا مهد الديانات ، ومنبع الخلافات القومية والمذهبية ، ولهذا يعسر على الحكم ارضاء الكل ، فهناك الطوائف التى لا عدد لها ، وكل واحدة تأخذ لنفسها شكلا من القومية يختلف عن سواه • ولولا أن اللغة تجمعنا لكنا فى تلك البلاد الصغيرة أمما شتى لا قرابة بين الواحدة والأخرى ... نحن راضون بما رضى به الذين أنقذونا من التركى ..." (١) •

ويخيل الينا أن نسيب عريضة - العضو فى اللجنة نفسها - كان أكثر مجاراة من عبد المسيح لاتجاهات زملائه فى المهجر ، فقد كان اتجاهه العربى ودعوته الى اتحاد العرب واضحين فى مجلته (الفنون) حتى سنة ١٩١٨ • وقد جاء فيها هذه السنة - حين قارب جيش فيصل أن يدخل سورية - : " وهانحن المهاجرين من العرب المسيحيين النائين ، بل المنفيين من بلادنا بحكم مظالم التورانيين نترقب من وراء البحار الشاسعة ... حينونة ذلك اليوم العظيم ، يوم اتحاد العرب أجمعين ، وتقدمهم ليأخذوا مركزهم الرفيع المعد لهم بين أمم التاريخ الحديث ، وننظر بقلوب ملأى من الأمل الى جيوش الحجاز التى أصبحت على أبواب سورية ، وأقل ما نؤمله فيها المساعدة فى انقاذ أهل قطر الشام من نير الترك الذين كادوا أن يفنوهم بالحيف والسيف ...

والآن ، وقد مرت على نهضة ملك الحجاز سنتان تكللت فيهما مساعيه بالنجاح ، وأخذت الغيوم المتلبدة فى سماء العرب بالانقشاع ، نهب نحن المهاجرين الذين ، وان تسمينا بسوريين ولبنانيين وفلسطينيين ، فانما نحن عرب رغم تعدد الأديان والبلدان ، تجمعنا العصبية العربية التى نسيناها واللغة التى ما نسيناها - ونمد أيدينا لمصافحة اخواننا أحرار الحجاز ، راجين لهم الثبات فى جهادهم حتى النهاية • نصافحهم جذلين غير آسفين الا على أمر واحد هو أن المسافات البعيدة تمنعنا من الانضمام اليهم فى جهادهم الفعلى " (٢) •

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٨ (نقلا عن السائح ١٩١٨ عدد ٧ تشرين الثانى)•

(٢) العرب فى المهجر الشمالى للكفافى ص ١١٦ (نقلا عن الفنون ١٩١٨ العدد ٧)

لسنا ندرى كيف يمكن أن يتفق هذا الكلام مع موقف لجنة تحرير سورية ولبنان ـ ونسيب عضو فيها ـ من عروبة سورية الأم • أيمكن أن يجوف التيار انسانا على مثل هذا الايمان بوحدة العرب ووحدة قضاياهم السياسية والقومية

الذى يبدو لنا أن المهجر كان يعانى ـ بطوائفه واتجاهاته ـ حالة من الاضطراب الفكرى يهيئ لها ما حمله المهاجرون معهم من الوطن من اتجاهات متضاربة واختلاف طائفى حاد ويزيدها وضوحا بعدهم عن الوطن وتمتعهم بحرية القول فى أوسع معانيها •

وقد كان اختلافهم ـ كما يقول الدكتور الكفافى ـ " يرجع فى غالب الأمر الى اختلافهم فى عقائدهم الدينية • فقد كان المسلمون لايريدون وصاية دولة أوروبية ، ويفضلون قيام مملكة عربية • وكان المسيحيون فى غالب الأمر يعارضون قيام مملكة عربية فى سورية ، ويريدون اسناد الوصاية على بلادهم الى احدى الدول الأوروبية • واختلف المسيحيون على اختيار الدولة التى يعهد اليها بالوصاية ، فكان كل فريق يختار الدولة التى يسود فيها مذهبه الدينى ، فاختار البعض فرنسا واختار البعض الآخر انجلترا واختار فريق ثالث أمريكا لأسباب أخرى "(١) •

ومهما يكن ، فان معظم كتاب الرابطة اشتركوا فى تأسيس لجنة تحرير سورية ولبنان(٢) ، ودعوا بدعوتها القائمة على المطالبة بتأسيس حكومات محلية فى " اقطاعات " سورية المتحدة تحت حماية فرنسا • وكان انضمامهم الى هذه اللجنة مقدمة لتأليفهم

---

(١) العرب فى المهجر الشمالى للكفافى ص ١١٨ وقد أرجع جبران هذا الاختلاف فى اختيار الدولة الوصية الى اختلاف الثقافات " فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانجليزية يريدون أميركا أو انجلترا •• والذين درسوها باللغة الفرنسية يطلبون فرنسا " • من رده على استفتاء الهلال حول (مستقبل اللغة العربية) • البدائع والطرائف ـ مجموعة المؤلفات ٣/ ٢٤٣

(٢) قال نعيمة فى حديثه الى بتاريخ ١٩٥٨/١٢/٥ ببيروت : " جاءتنى ـ وأنا ما أزال طالبا فى الجامعة بأميركا ـ رسالة مغفلة من التوقيع تدعونى الى الانضمام الى جمعية سرية تدعى (سورية الحرة) • وقد انضممت اليها وعملت فيها مدة سنتين • ثم انفرطت لأسباب مادية وغير مادية ، ولم يبق لها أثر " • ومعنى هذا أنه سبق لنعيمة أن عمل فى الحقل الوطنى قبل انضمامه الى لجنة تحرير سورية ولبنان فى أواخر الحرب • وقال نعيمة ـ وهو يسر الى بهذا النبأ : " انك أول من يعرفه " • وجاء فى كتاب (جبر) ص ١٠١ أن جبران دعا بعد عودته من باريس الى " انشاء رابطة أدبية سياسية تجمع شمل المثقفين اللبنانيين والسوريين فى الولايات المتحدة ، وتسعى لتحرير الشرق الأدنى من النير العثمانى والنهوض به عن طريق الثقافة الصحيحة " • فتأسست باسم (الحلقات الذهبية) ، واتبعت النظام الماسونى من حيث التكتم ، وألقى جبران فى اجتماعها خطبة ثورية خرج الأعضاء على أثرها وقد دب بينهم الانشقاق •• ثم قضى على الرابطة • فاذا صح هذا فهو فاتحة عمل جبران القومى لاشك •

(الرابطة القلمية) فيما بعد ، سنة ١٩٢٠ .(١)

ولما قضى الأمر واحتلت فرنسة سورية ولبنان ، وبدأت تنفيذ سياستها الاستعمارية فيهما ، وشبت الثورات المتتابعة في أنحاء كثيرة منهما ، بدأ بعض المهاجرين من أنصارها يحيدون النظر في موقفهم منها. ثم ما لبث أن ارتفعت في الصحف أصوات النقد و " أعلن عن تكوين حزب جديد في مدينة نيويورك هو (حزب تحرير سورية) "(٢) ، قام على أساس المناداة بمناهضة الاحتلال الفرنسي. ولكنه لم يسمح لكتاب الرابطة من أعضاء لجنة تحرير سورية ولبنان السابقة صوت في استنكار أساليب الاستعمار الفرنسي . وبرز في هذا الميدان أبو ماضي في مجلته (السمير) ، فأشبع الاحتلال ورجاله تهكما ، وسخر من أساليبهم وندد بأعمالهم . وكان مما نشره (كتاب مفتوح الى الكونت دي مارتيل)(٣) المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان ، قال فيه يخاطبه : "حياك الله وبياك وسلمت يداك ورجلاك ، وأبقى لنا ولك أباك وأخاك وحماك ، والرأسماليين الذين يشدون أزرك في باريس.

انا نحييك يا كونت ، يا مفوض ، يا مندوب ، تحية معترف بالجميل ، مقر بالفضل فانك قد فعلت ما لم يفعله قبلك أحد من أسلافك المفوضين ، وفيهم القادة المغاوير، والمسيوات المشاهير ". وبعد أن يصور له آثار سياسته التي جرت الخراب على سورية ينهي مقالته بقوله : " أما أنت يا سيدي الكونت ، فلك منا السلام المعطر . انك أخرجت هذا الثعبان من كمك . الشكر من قمم لبنان . والشكر من ضفاف بردى . والشكر من المهاجرين ، فانهم لم يرفعوا صوتا بالشكوى ، وهم

---

(١) ذكر الكفافي (ص ١٢٩) نقلا عن السائح ١٩١٨ عدد ١٠ نيسان) : أنه " أعلن في السائح عن انشاء جمعية تدعى سورية الجديدة تعمل على أن تكون (سورية للسوريين مستقلة غير متجزئة ، تحميها أمريكا) . ونشرت بعد ذلك كتابات تؤيد هذا الاتجاه ". ولسنا ندري هل انضم كتاب الرابطة اليها أم لا . وأهداف هذه الجمعية ـ على كل حال ـ لا تتعارض مع أهداف لجنة تحرير سورية ولبنان . (دعا جبران الى وضع سورية تحت حماية أميركا في رسالة أرسلها الى اميل زيدان . الهلال ٩٣٤ عدد آذار (مارس) ص ٥١٣).

(٢) الكفافي ـ العرب في المهجر الشمالي ص ١٣٧

(٣) السمير ٩٣٥ العدد ٢٠ (الافتتاحية) .

(١)
الذين سلختهم معاهدة (لوزان) عن جنسيتهم .. فلله درك يا كونت . انك قد فقت سميك (تشارل مارتيل)وستخلد مثله ، لانه اذا كان هو قد جمع كلمة الزعماء ، ونازل العرب ، ومنعهم من التوغل في فرانسة ، فأنت قد جمعت كلمة السوريين واللبنانيين لا في لبنان وسورية وحدهما ، بل في كل قطر ومصر ... والله لو لم تكن مفوض فرنسا ، لجعلناك مفوض سورية ولبنان ..." .

هذا عرض للأحوال السياسية التي تأثر بها كتاب الرابطة في المهجر، ننتقل بعدها الى استخلاص المقدمات الفكرية التي تحكمت في نظرتهم الى الوطن ، ومعناه وحدوده ، ورسمت سمات المضمون الوطني في نتاجهم الأدبي .

(((٢)))

لقد نظر هؤلاء الأدباء — في الاجمال — الى معنى الوطن ، على ضوء مقدمات أربع :

الأولى : عقيدتهم التي اعتقدوها في الانسان ومكانه من الكون وانطوائه على الألوهة . وهي العقيدة التي انتهت بهم الى وحدة الوجود ، وتأثروا بها — كما رأينا — على نسب متفاوتة .

الثانية : تأثرهم بما عانوا في وطنهم الأول من أذى فكري ومادي ، وبما ورثوا من ذكريات الاضطهاد الطائفي ، وما أحسوا من غربة ووحشة في ظلال الحكم العثماني . وما غذى هذه الاحساسات من دعاوات أصحاب الأغراض من المستعمرين وأجرائهم . تأثرهم — مع هذا — بما توالى على قومهم في الوطن من نكبات قاسية على يد المستعمرين الاقويا .

الثالثة : فقد ردتهم هذه النكبات الى التفكير في الوطن الذي خلفوه ، وفي صلاتهم به وارتباطهم بقضاياه .

الرابعة : حنينهم العميق الفطري الى أوطانهم وقراهم . وقد قوى هذا الحنين شعورهم بالضياع في مجتمعهم الجديد ، وبقسوة الحياة وتعقدها فيه ، وبالنفرة من القيم التي تبناها . و[illegible] ردهم هذا الشعور الى تعميق اتصالهم بالمقدمة الأولى ، وأخذهم بفلسفات الشرق وتفسيرها للحياة والانسان .

وكان تأثر كتابنا بهذه المقدمات على نسب متفاوتة ، تحكمت في تقديرها

مجموعة المفارقات الشخصية التى تكلمنا عليها فيما سبق . وسيتضح ذلك بالنظر فى المضمون الوطنى فى نتاج كل كاتب منهم .

(((٣)))

فأما جبران فقد بدا تأثره بهذه المقدمات مجتمعة ، قويا . وقد وفق بينها فى نفسه ودلل عليها فى مواضع مختلفة من نتاجه الأدبى . يقول مثلا يعرف بنفسه ، من مقالة بعنوان (الى المسلمين من شاعر مسيحى) :

"أنا لبنانى ، ولى فخر بذلك . ولست بعثمانى ، ولى فخر بذلك أيضا .
لى وطن أعتز بمحاسنه ، ولى أمة أتباهى بمآتيها . وليس لى دولة أنتمى اليها
وأحتمى بها .
أنا مسيحى ، ولى فخر بذلك ، ولكنى أهوى النبى العربى وأكبر اسمه ، وأحب
مجد الاسلام وأخشى زواله .
أنا شرقى ، ولى فخر بذلك ، ومهما أقصتنى الأيام عن بلادى أظل شرقى الأخلاق
سورى الأميال ، لبنانى العواطف .
أى بشرى يرى العزم راقدا ولا يطلب ايقاظه ؟
أى فتى يرى العظمة راجعة الى الوراء ولا يخشى انحجابها ؟
اذاً ماذا يغرّكم أيها المسلمون بالدولة العثمانية ، وهى اليد التى هدمت مبانى
أمجادكم ، بل هى الموت الذى يراود وجودكم ؟
أو لم تنته المدنية الاسلامية ببدء الفتوحات العثمانية ؟
أو لم يتقهقر أمراء العرب بظهور سلاطين المغول ....."(١)

فجبران ينكر – فى صراحة – التبعية العثمانية ، ويدعو المسلمين الى انكارها ويذكرهم بما جنى العثمانيون على أمجادهم وتاريخهم وحضارتهم . ولكنه يفرق بين (العثمانية) و (الاسلامية) ،لأن الأولى تمثل السيطرة الغاشمة ، والاضطهاد الطائفى على حين تمثل الثانية حضارة ومجدا لا صلة لهما بما كان يجرى على يد العثمانيين – باسمها – من أذى . ويبدو هنا تأثر جبران بالمقدمة الثانية واضحا ، فان الحكم العثمانى الذى كان يتخذ من الاسلام راية حرب تخدع السذج من المسلمين أشعر جبران – والمسيحيين – بالغربة والعزلة ، ورمى فى أنفسهم أن الاسلام (جنسية) ، وليس عقيدة فحسب . ثم نفذ أصحاب الأغراض من الباب الآخر فزعموا

---

(١) الفنون – ١٩١٣ العدد ٨ ص ٠٣٧

أن العروبة هي الاسم الثاني للاسلام ،وبذلك خرج المسيحيون في تلك الفترة عن الدرب : فلا هم عثمانيون حقا ولا هم عرب حقا.

وقد استطاع جبران ــ بتفريقه بين العثمانية والاسلامية ــ أن يكشف أول الطريق ، ولكنه لم يتبين نهايتها في رأينا ، ونحن قادرون على أن نستشف ذلك في النص ، فقد وصف النبي بأنه عربي في أول النص ، ثم لازم بين الاسلام والعروبة في آخر النص ملازمة توحي بأنه كان لا يفرق ــ في الحقيقة ــ بينهما.

وقد كان يتكلم على امجاد الاسلام كأنها أمجاد غريبة لا تخص غير المسلمين.

فكأن جبران سار في الطريق شيئا ثم غلبته الآراء الدائرة من حوله فبدا له وطن اقليمي هو لبنان وأمة لا يعرف كيف يسميها ، وينتسب اليها فهو " سوري الأميال لبناني المواطف " !(1)

ان اعتبار لبنان وطنا يحل عقدة كبيرة ، فهذه أرض ينتسب اليها جبران و " يعتز بمحاسنها " . وهي أرض تجمع المسيحيين وتشعرهم بالتآلف والأمان. ولكن لبنان لم يكن وطنا متميزا يمنح جنسية متميزة ، وانما كان جزءا من سورية الطبيعية . وكان المهاجرون المسيحيون في المهجر يعتبرون أنفسهم من وطن واحد ، يتكلمون لغة واحدة ، ويعانون واقعا واحدا ، وتجمعهم مصلحة واحدة وتاريخ واحد ومستقبل واحد. لم يكن نسيب عريضة ــ مثلا ــ يحس أنه من وطن غير الوطن الذي ينتسب اليه جبران أو نعيمة أو كاتسفليس. كلهم من سورية الأم.

وقد كان الجيش الفرنسي الذي نزل لبنان بعد مذبحة الستين ، وضع خريطة ضمت الجبل والاقضية الأربعة ــ كما عرفنا ــ ، وكان غرض الفرنسيين أن يخلقوا (لبنان الكبير) بحدوده التي سموها (طبيعية) ، ليحققوا كيانا سياسيا قائما منفصلا عما حوله . وقد بقيت هذه الخريطة من بعد مهوى أفئدة كثير من اللبنانيين المسيحيين في الوطن والمهجر . وقد مرت بنا الاشارة الى ذلك.

فكيف يوفق جبران اذا بين هذه الحقائق النفيسة التي ذكرناها كلها

---

(1)يبدو هذا الموقف في قوله لمخالفيه أيضا : " لبنانكم ينفصل آنا عن سورية ويتصل بها آونة ، ثم يحتال على طرفيه ليكون بين معقود ومحلول . أما لبناني فلا يتصل ولا ينفصل ولا يتفوق ولا يتصاغر " ! من مقالته لكم لبنانكم ولي لبناني . البدائع والطرائف ــ مجموعة المؤلفات ٣/ ٢٠٤

بعد أن خرج عن العثمانية ولم يتيسر له الطريق الى العروبة ؟ التوفيق أن يعتبر نفسه مواطنا في دولة سورية متحدة تقوم فيها حكومات (اقطاعية) ، تكون احداها في لبنان (الطبيعي)(١) وهو التوفيق الذى أخذت به لجنة تحرير سورية ولبنان كما رأينا فيما بعد ٠

وقد بدا في النص احساس جبران العميق بشرقيته بعد أن صدمته قيم المجتمع الغربي (تأثره بالمقدمة الرابعة) ٠ وقد عبر المهاجرون جميعا في هذا الاحساس ـ كما رأينا ـ عن تمسكهم بالتفسير الذى اختاره الشرق للحياة والانسان وبالقيمة التى أعطاها لهما ، حتى انتهى كتاب الرابطة ـ عبر الانجيل ـ الى فلسفات الشرق القديم ودياناته ٠ على هذه الصورة البادية في النص عرف جبران بنفسه فهو: مسيحي لبناني سوري شرقي ،٠

×× ×× ××

ولقد تغنى جبران بلبنان وسورية أعذب الغناء ومجد تاريخهما ، وسكب على جروحهما روحه وشعره ، وانتزع من طبيعتهما صوره وألوانه ٠ يقول بلسان (ابنة مصر) تخاطب (فتى لبنان)(٢) :

" ما أجملك بين الفتيان يابن عشتروت ، وما أكثر شوقي اليك
محبتي تحاكي أرزك فلن تغلبها العناصر يا حبيبي
عظماء الارض/ يجيئون ليسكروا من رحيق جمالك وسحر معانيك ياحبيبي
ان ذراعيك منبع الحياة العذبة ، وأنفاسك نسيمات منعشة ياحبيبي
الأرز على صدرك وسام شرف أثيل ، والأبراج حولك تروى بطشك واقتدارك ياحبيبي
آه ما أكرمك خليلا ، وأوفاك حليلا ، وما أجمل هداياك وأنفس عطاياك ٠٠٠ " ٠

ويتصور في مقالته (الدهر والأمة)(٣) راعية لبنانية يتمثل لها الدهر في صورة " شيخ يتدلى شعره الأبيض على صدره وكتفيه ، حاملا بيمينه منجلا سنينا " ،

---

(١) كتب جبران في رسالة له يقول : " هناك أمور رئيسية يجب علينا المطالبة بها بالحاح واستمرار وهى وحدة سورية الجغرافية والحكم الأهلى النيابي والتعليم الاجباري وجعل اللغة العربية الأولية والرسمية في كل آن ٠٠ " الهلال ١٩٣٤ عدد آذار (مارس) ص ٥١٤ (نثرات من رسائل لم تنشر لجبران)٠

(٢) من مقالته (لقاء)٠ دمعة وابتسامة ـ مجموعة المؤلفات ٢/ ١٧١ ـ ٧٢ وانظر مقالته (لكم لبنانكم ولى لبناني) ٠ البدائع والطرائف ـ مجموعة المؤلفات ٣/ ٢٠٢

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٣٣

فيقول لها : " سلام على سورية " . فترد عليه وهي تومئ " نحو أغنامها " : " ماذا تبتغي الآن مني أيها الدهر ؟ هذه بقايا قطيع كان يملأ الأودية . هذه فضلة مطامعك ، فهل جئت لتستزيد منها ؟ هذه هي المسارح التي أجدبها دوس قدميك ، وقد كانت منبت الخصب والرزق . كانت نعاجي ترتعي رؤوس الأزهار وتدر لبنا زكيا ، فها هي الآن خمص البطون ، تقضم الأشواك وأصول الأشجار مخافة الفناء " . ثم تطلب منه أن يتركها ويذهب الى الغرب " حيث القوم في عرس الحياة وعيدها " . فيقول لها الشيخ : " ما أخذت منك يا سورية الا بعض عطاياي . وما كنت ناهبا قط بل مستعيرا أرد ، ووفيا أرجع ... لك يا سورية أسوة بجاراتك مصر وفارس واليونان اذ لكل منهن قطيع يشابه قطيعك ، ومرعى نظير مرعاك . ان ما تدعينه انحطاطا يا سورية أدعوه نوما واجبا يعقبه النشاط والعمل ، فالزهرة لا تعود الى الحياة الا بالموت ، والمحبة لا تصير عظيمة الا بعد الفراق ".

ولكن حبه لسورية ولبنان واعتباره نفسه لبنانيا سوريا لم يقفا في طريق حبه للعالم كله ، واعتباره " الأرض كلها وطنه ، وجميع البشر مواطنيه " (١) (المقدمة الأولى) . وهو يقول في ذلك بلسان الشاعر : " البشر ينقسمون الى طوائف وعشائر وينتمون الى بلاد وأصقاع . وأنا أرى ذاتي غريبا في بلد واحد ، وخارجا عن أمة واحدة . فالأرض كلها وطني ، والعائلة البشرية عشيرتي ، لأني وجدت الانسان ضعيفا ومن الصغر أن ينقسم على ذاته ، والأرض ضيقة ومن الجهل أن تتجزأ الى ممالك وامارات ...

أحب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي . وأحب بلادي بقسم من محبتي لأرض وطني . وأحب الأرض بكليتي لأنها مرتع الانسانية روح الألوهية على الأرض ... " (٢)

وهو - بهذا الحب الذي يسع الانسانية - يكره أن تنشب الحرب بين وطنين باسم الوطنية ويقول : أحن الى بلادي لجمالها . وأحب سكان بلادي لتعاستهم . ولكن اذا ما هب قومي مدفوعين بما يدعونه وطنية وزحفوا على وطن قريبي وسلبوا أمواله وقتلوا رجاله ويتموا أطفاله ورملوا نساءه وسقوا أرضه دماء بنيه ، وأشبعوا

---

(١) مقالته (يا لانسى) . دمعة وابتسامة - مجموعة المؤلفات ١٦١/٢

(٢) مقالته (صوت الشاعر) . المصدر السابق ٢٢٧/٢ و ٢٨ و ٢٩

ضواريه لحوم فتيانه ، كرهت اذ ذاك بلادى وسكان بلادى "[١].

وهو يريد أن يكون وطنه مأوى وقوتا لعابر الطريق ، فاذا امتنع أن يكون كذلك أصبح فى نظر جبران " أحق البيوت بالهدم والخراب "[١].

ان حب جبران لوطنه لا يمنع أن تكون المحبة ـ بأوسع معانيها ـ شعار الحياة والناس فى كل الأوطان . وهو يقول فى ذلك : " ان كان بقائى يوجب فناء سواى ، فالموت اذن ألذ لدى وأحب . وان لم أجد من يقتلنى شريفا ومحبا منزها ، تمتعت بتقديم ذاتى بيدى الى الأبدية ، قبل أوان الأبدية "[٢]. ويقول مخاطبا الانسان فى كل وطن : " أنت أخى وأنا أحبك . والمحبة هى العدل بأسمى ظواهره ، فان لم أكن عادلا بمحبتى لك فى كل المواطن ، كنت مراوغا ساترا بشاعة الأنانية بثوب المحبة البهى "[٣].

×× ×× ××

وقد شارك جبران وطنه فى محنة المجاعة مشاركة بلغت مداها فى الاخلاص والصدق وحرارة الدعوة الى تعبئة القوى لانقاذه[٤]. ومقالته (مات أهلى) التى نشرت فى عدد (الفنون) الخاص بالمحنة ، مشهورة سكب فيها دم قلبه ودمع عينه (المقدمة الثالثة) :

" لو كنت سنبلة من القمح نابتة فى تربة بلادى ، لكان الطفل الجائع يلتقطنى ويزيل بحباتى يد الموت عن نفسه .

---

(١) المقالة نفسها ـ المصدر السابق ٢/٢٢٨. على أن جبران كتب فى موضع آخر يمجد الشهادة فى سبيل الوطن ، فقال بلسان حبيبة كتبت الى حبيبها بعد أن غادرها ليدافع عن وطنه : " لما وحد الحب قلبينا .. نادتك الحرب فاتبعتها مدفوعا بعوامل الواجب والوطنية ما هذا الواجب الذى يفرق المحبين ويرمل النساء ويتم الأطفال ؟ ما هذه الوطنية التى من أجل أسباب صغيرة تدعو الحرب لتخريب البلاد ؟.. اذا كان الواجب ينفى السلم من بين الأمم ، والوطنية تزعج سكينة حياة الانسان ، فسلام على الواجب والوطنية .. لا ، لا ياحبيبى ، لا تحفل بكلامى ، بل كن شجاعا ومحبا لوطنك ، ولا تسمع كلام ابنة أعماها الحب وأضاع بصيرتها الفراق .. اذا كان الحب لا يرجعك الى فى هذه الحياة ، فالحب يضمنى اليك فى الحياة الآتية .. ". (مقالته بنات البحر ـ المصدر السابق ٢/١٠٧). وهذا معنى ما يقوله جورج صيدح : "جبران رغم انسانيته المثالية التى تتعالى على الحدود والفروق والعصبيات ، لم يتجرد من العاطفة الوطنية، بل جرى فيها قلمه مرارا بأحد اللهجات وأعنفها " . أدبنا وأدباؤنا ص ٦٧ .

(٢) مقالته (صوت الشاعر) المشار اليها سابقا ٢/٢٣١ ـ ٣٢

(٣) المقالة نفسها ـ المصدر السابق ٢/٢٣٢

(٤) العواصف ـ مجموعة المؤلفات ٣/٨٨ . وانظر كذلك مقالته (فى ظلام الليل) . المصدر نفسه ٣/ ٧٣

لو كنت ثمرة يانعة فى بساتين بلادى لكانت المرأة الجائعة تتناولنى وتقضمنى طعاما.

لو كنت طائرا فى فضاء بلادى ، لكان الرجل الجائع يصطادنى ويزيل بجسدى ظل القبر عن جسده.

ولكن ـ واحر قلباه ـ لست بسنبلة من القمح فى سهول سورية ، ولا بثمرة يانعة فى أودية لبنان. وهذه هى نكبتى . هذه نكبتى الصامتة التى تجعلنى حقيرا أمام نفسى وأمام أشباح الليل.

هذه هى المأساة الموجعة التى تعقد لسانى وتكبل يدى ، ثم توقفنى بلا عزم ولا ارادة ولا عمل". ثم يقول ، كأنه يصرخ فى كل أذن ، ويسخر من كل فضيلة :

" مات أهلى على الصليب

ماتوا وأكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب . وعيونهم محدقة الى سواد الفضاء.

ماتوا صامتين لأن آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم.

ماتوا لأنهم لم يحبوا أعداءهم كالجبناء ، ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين

ماتوا لأنهم لم يكونوا مجرمين

ماتوا لأنهم لم يظلموا الظالمين

ماتوا لأنهم كانوا مسالمين

ماتوا جوعا فى الأرض التى تدر لبنا وعسلا

ماتوا لأن الثعبان الجهنمى قد التهم كل ما فى حقولهم من المواشى ، وما فى أهرائهم من الأقوات.

ماتوا لأن الأفاعى ، أبناء الأفاعى ، قد نفثوا السموم فى الفضاء الذى كانت تملؤه أنفاس الأرز وعطور الورود والياسمين ...".

ويقول فى مصير سورية خلال الحرب وقد اطبقت عليهما المطامع من كل جانب : وما عسى تصير اليه بلادكم وبلادى ؟ وأى من الجبابرة يضع يده على تلك التلال والهضبات التى أنبتتنا وصيرتنا رجالا ونساء أمام وجه الشمس ؟

هل تبقى سورية مطروحة بين مغاور الذئاب وحظائر الخنازير ، أم تنتقل مع العاصفة الى عرين الأسد أو ذروة النسر ؟

وهل يطلع الفجر فوق قمم لبنان ..." (١) ؟

---

(١) مقالته (الجبابرة) . العواصف ـ مجموعة المؤلفات ٣/ ٨٥

وقد دعا جبران بلاد الشرق الى أن تتمسك بشخصيتها ، ولكنه رأى أن أسباب ضياعها الحقيقية ـ تجاه الغرب ـ تكمن في تبعيتها الفنية والاقتصادية لأن " الامة المستعبدة بروحها وعقليتها لا تستطيع أن تكون حرة بملابسها وعاداتها "(١).

وقال ـ في أديب كتب مقالا يحتج فيه على موظفي باخرة فرنسية اضطروه الى خلع طربوشه أثناء جلوسه الى مائدة الطعام ـ : " أجل يعجبني أن أرى الشرقي متمسكا ببعض مزاعمه ، قابضا ولو على ظل من ظلال عاداته القومية. ولكن اعجابي هذا لا ولن يمحو ما وراءه من الحقائق الخشنة المستتبة المتشبثة بذاتية الشرق ومنازع الشرق ومزاعم الشرق .

لو فكر ذلك الأديب الذي استصعب خلع طربوشه في الباخرة الافرنجية بأن ذلك الطربوش الشريف قد صنع في معمل افرنجي لهان خلعه في أي مكان في أية باخرة افرنجية ...

لو فكر أديبنا بأن جده السوري كان يبحر الى مصر على ظهر مركب سوري ، مرتديا ثوبا غزلته وحاكته الأيدي السورية لما تودي بطلنا الحر الا بالملابس المصنوعة في بلاده ، ولما ركب سوى سفينة سورية ذات ربان سوري وبحارة سوريين.

مصاب أديبنا الشجاع أنه قد اعترض على النتائج ولم يحفل بالأسباب ، فتناولته الاعراض قبل أن يستميله الجوهر . وهذا شأن أكثر الشرقيين الذين يأبون أن يكونوا شرقيين الا بتوافه الأمور وصغائرها ، مع أنهم يفاخرون بما اقتبسوه من الغربيين مما ليس بتافه أو صغير "(٢).

وهذه دعوة جبران الى استقلال الروح والفكر والاقتصاد الى جانب التمسك بالعادات والتقاليد القومية . وتبدو في هذه الدعوة رغبته في تحرير روحه من طغيان قيم الغرب وسيطرته المادية (المقدمة الرابعة) . وفي ذلك يقول :

" الفطرة المبدعة في نفس الشرقي قيثارة دقيقة الأوتار ، ذات قرارات تختلف بطبيعتها عن كل قرار في كل وتر من كل قيثارة غربية . والشرقي لا يستطيع الجمع بين نبرات وسكنات نغمين متباينين بدون أن يفسد أحدهما أو كليهما "(٣).

---

(١) مقالته (الاستقلال والطرابيش). البدائع والطرائف ـ مجموعة المؤلفات ٣/ ٢١٤

(٢) مقالته السابقة (المصدر السابق ٣/ ٢١٣ ـ ١٤

(٣) كلمات مأثورة لجبران بمناسبة وفاته . الهلال ١٩٣١ عدد حزيران ص١٢١٥ ـ ١٢١٦ . وان موقف جبران من المدنية الغربية هو موقف نعيمة نفسه منها . وسنفصل الكلام عليه هناك ، لأن نعيمة أطال في بسط هذا الرأي وفي الرد على الآراء المخالفة له .

ويقول فى اقتباس الشرقيين لعناصر المدنية الغربية : " هذا منتهى الغباوة والعماية ، لأن الشرقيين فى غنى عن الاستعطاء (١) " ، وانما نحتاج الى تعلم فن الترتيب وحده من الغرب ، لنرتب كنوزنا . ذلك أن " فى الشرق ، فى منزلنا القديم ، كنوزا وذخائر وطرائف لا عداد لها ، ولكنها مشوشة ، متراكمة ، محجوبة بغشاء من الغبار (٢) " .

وينبغى ألا يفوتنا أن نبصر فى قوله عن الشرق " منزلنا القديم " حنينا طفوليا عميقا يؤكد احساسه الموحش بالغربة والضياع .

وقد بلغت حماسة جبران للشرق ، وبلغ نفوره من الغرب – فى بعض الأحيان – حدا غبدت معه مدنية الغرب لباسا مبهرجا يزين نقائصه . " فليس ما تحسبه رقيا فى الغرب – كما يقول – سوى شبح ... من أشباح الغرور الفارغ . فالرياء يظل رياء وان قلم أظافره ، والغش يبقى غشا وان لانت ملامسه ، والكذب لا يصير صدقا اذا لبس الحرير وسكن القصور ، والخداع لا يتحول الى امانة اذا ركب القطار أو اعتلى المنطاد ، والطمع لا ينقلب قناعة اذا قاس المسافات أو وزن العناصر ، والجرائم لا تصبح فضائل وان سارت بين المعامل والمعاهد ... لا . ليس الغربى أرقى من الشرقى ، ولا الشرقى أحط من الغربى ... (٣) " .

ولكن هذه الحماسة تفتر سريعا ويعود جبران الى الاعتراف بسبق الغرب ، والى مطالبة الشرقيين بأن يأخذوا من حضارته ما يمكنهم هضمه وتمثله و " تحويله الى كيانهم " ويقول : ان روح الغرب صديق وعدو لنا . صديق اذا تمكنا منه وعدو اذا تمكن منا . صديق اذا فتحنا له قلوبنا وعدو اذا وهبنا له قلوبنا . صديق اذا أخذنا منه ما يوافقنا ، وعدو اذا وضعنا نفوسنا فى الحالة التى توافقه (٤) " .

---

(١) كلمات مأثورة لجبران بمناسبة وفاته . الهلال ٩٣١ عدد حزيران ص ١٢١٥ – ١٢١٦ . [illegible]

(٢) رده على استفتاء الهلال . مجموعة المؤلفات .

(٣) قصته (العاصفة) . العواصف – مجموعة المؤلفات ٣ / ١١٠ (انظر رأيه فى المدنية اجمالا بعد هذا الكلام) .

(٤) رده على استفتاء الهلال حول (مستقبل اللغة العربية) . البدائع والطرائف – مجموعة المؤلفات ٣ / ٢٤١ وقد عبر جبران مرة أخرى عن موقفه هذا من الغرب والحضارة الغربية ، فى رسالته الى الفيكونتس (سيسيليا اوف لوتنبرغ) فقال : " أنا انظر الى سورية نظرة الابن الشفوق الى أمه المريضة بعلتين هائلتين : علة التقليد وعلة التقاليد ، التقاليد يا سيدتى تجعل المرء كالأعمى السائر فى نور النهار والتقليد يجعله كالبصير السائر فى ظلمة الليل " . (الفكر العربى الحديث / رئيف خورى ٢٦٢) وأبان جبران – فى هذه الرسالة – عن انتسابه – فى موقفه – الى طبقة ثالثة ، غير طبقة المحافظين وطبقة المعاصرين ، وقد وصفها بقوله : " هى طبقة مستقلة بأخلاقها ومداركها ومزاياها ، شرقية بأميالها وأهوائها . تتكلم العربية فى مجتمعاتها لانها تحسن اللغة العربية وتتعمق فى درس اللغتين الافرنسية والانجليزية ... " (المصدر السابق ٢٦٣) .

وقد أبدى جبران مثل هذه الحماسة في الدعوة الى الاحتفاظ باللغة العربية لغة رسمية في الوطن (١) · ولم تكن هذه الدعوة عنده موصولة بآفاق قومية واسعة، أوسع من حدود سورية الاقليمية، وانما هي لون من ألوان المحافظة على الخصائص والتقاليد والشخصية السورية فحسب · ويتضح ذلك في قوله من رسالة له : " اذا كنا لا نريد أن نمضغ ونبلع ونهضم، فعلينا أن نحافظ على صبغتنا السورية حتى وان وضعت سورية تحت رعاية الملائكة (٢) " ·

وقد كانت (الفكرة العربية) عنده - كما سماها - ملاصقة (للفكرة الشرقية) العامة، فكأنه يرى فيهما وسيلة من وسائل التقوية للوقوف في وجه (الغرب) والتحرر من سيطرته لا أكثر · وهو يقول في ذلك : " وأنا أعتقد أن الفكرة الشرقية عموما والعربية خصوصا ، سيكون لها الشأن العظيم في المستقبل القريب ··· (٣) " · وعلى هذا النحو (الموضوعي) صور يقظة (الذات العربية) كما سماها · يقول : " أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصي في القرن الثالث قبل الاسلام، ولم تتمخض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل ما يقف في سبيلها · ولما بلغ العباسيين تربعت على عرش منتصب فوق قواعد لاعداد لها أولها في الهند وآخرها في الأندلس · ولما بلغت عصارى نهارها - وكانت الذات المغولية قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق الى الغرب - كرهت الذات العربية يقظتها، فنامت ولكن نوما خفيفا متقطعا · وقد تعود وتفيق ثانية لتبين ما بقي خفيا في نفسها كما عادت

---

(١) أشرنا الى ذلك منذ قليل · ويقول جبران أيضا : " ··· وأنا من القائلين بأن تكون اللغة العربية هي الأولية في المدارس الرسمية في جميع دوائر الحكومة " · انظر المصدر في الحاشية المقبلة - الصفحة نفسها · وانظر هنا المصدر الذي ذكرناه في الحاشية السابقة ·

(٢) من رسالة له الى اميل زيدان (نترات من رسائل لم تنشر لجبران) · الهلال ١٩٣٤ عدد آذار (مارس) ص ٥١٤ · وقد أخلص جبران الدعوة الى الحفاظ على هذه الصبغة، فطالب بأن تكون مؤسسات التعليم في الوطن وطنية حتى لا تصبح سورية " مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق ·· كل مستعمرة منها تشد في حبل احدى الأمم الغربية، وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها " · من رده على استفتاء الهلال حول (مستقبل اللغة العربية) · البدائع والطرائف - مجموعة المؤلفات ٣/ ٢٤٣ · ويؤكد ما قلناه من أن دعوته الى الاحتفاظ باللغة العربية لم يكن يتصل بآفاق قومية واسعة تتعدى حدود سورية، عطفه على اللهجات العامية وقوله : " ·· اذا ما ظهر في الشرق الأدنى عظيم ووضع كتابا عظيما في احدى تلك اللهجات تحولت هذه الى لغة فصحى ·· " · من رده على استفتاء الهلال المشار اليه في حاشية سابقة ص ٢٤٦/٣

(٣) المصدر السابق ص ٥١٥

الذات الرومانية فى زمن النهضة الايطالية المعروفة بالرنسانس،واكملت فى البندقية وفلورنسا وميلانو ، ما ابتدأت به قبل أن تباغتها الشعوب التوتونية فى بدء الأجيال المظلمة "(١).

فجبران هنا يتكلم على (الذات العربية) كأنه يقرر حقيقة تاريخية لا يقف هو فى لجتها ، وأقصى ما يبصر من يقظتها التفتح الفكرى الذى لا يتصل بالسياسة ولا بالقوميات ووحدتها.

(((٤)))

أما نعيمة الذى بلغ اخلاصه لعقيدته فى وحدة الوجود وألوهة الانسان حدا جعله يعيشها فى صدق ونشوة فقد بدا تأثره بالمقدمة الأولى طاغيا حتى ليتميز — فى ذلك — من جبران تميزا واضحا.

يقول : " الناس يدعون المكان الذى يولدون فيه وطنا . وهذه الكلمة مقدسة فى عرفهم . فهم يذرفون الدمع لفراق أوطانهم ويذوبون حنينا اليها. ولماذا لانهم ألفوها ، فالوطن ليس أكثر من عادة ، والبشر عبيد عاداتهم .ولأنهم عبيد عاداتهم تراهم قسموا الأرض الى مناطق صغيرة يدعونها أوطانهم ... والسيف ما يزال يحصد أعناق البشر من يوم استعبدوا لعادة الوطن ، ولصنم يعبدونه باسم الوطنية ... "(٢). ثم يقول بلسان الأرقش : " أما أنا فما أدرى ، ولا يهمنى أن أدرى أين ولدت ، أو ممن ولدت . لذاك لا وطن لى . ولو كان لى وطن لتبرأت منه ، فأنا ابن العالم الأوسع ، لا ابن جرم صغير ندعوه الأرض ... ولو كانت الأرض بكاملها لى ، ثم جاءنى زنجى من أفريقيا يزاحمنى على فتر منها لتخليت له عنها بأسرها ..."(٣).

فهذه هى نظرة المتصوفة المؤمنين بوحدة الوجود ، الذين يعتبرون حدود الأوطان أوهاما لا حقيقة لها :

" أصبحت منعتقا من جميع القيود
لا أنتسب الى وطن
ولا توقفنى حدود "(٤)

---

(١) مقالته (الأمم وذواتها) . العواصف — مجموعة المؤلفات ٣/ ٩٤
(٢) الأرقش ٢٩ — ٣٠ (٣) المصدر السابق ٣٠ — ٣١
(٤) كريشنا مورتى ٥٩

والأصل النفسي لهذه النظرة يكمن في التحرر المطلق الذي تهبه الصوفية لمتذوقيها :

" لقد تحررت من الزمن
وأضحيت لا تشملني محدوديات المكان
فأصبحت شبيها بقطرة الندى
التي تنشأ منها البحار الواسعة (١) ... "

وقد قال لي نعيمة ردا على بعض الأسئلة (٢) : " ما هو العالم العربي ؟ انه نقطة في بحر الانسانية . والانسانية نقطة في بحر الكون . لا أستطيع أن أنظر غير هذه النظرة . " .

وليس فيما نقوله هنا جديد يضاف الى ما قلناه في الفصل السابق ، فنعيمة يؤمن بأن غاية الحياة هي " الانطلاق من كل انطلاق (٣) " ، وأن غاية البشرية يجب أن تساير غاية الحياة ، فلنحمل " حملة شعواء على كل ما من شأنه أن يفصل الانسان عن الانسان وعن سائر الأكوان "، ولنمح " من قواميسنا كلمة (الوطني) ونقيضها (الأجنبي) . اذ كيف يكون (أجنبيا) عني ــ كما يقول ــ من جهزته الحياة بمثل ما جهزتني ، وجعلته شريكا لي في الكفاح ، وبسطت الأرض والسماء ميدانا لي وله ؟ كيف يكون (أجنبيا) ــ في أية بقعة من بقاع الأرض ــ من ليس أجنبيا عن التراب وعن الهواء وعن الشمس وعن نسمة الحياة التي بها يحيا كل ما في السماء وما في الأرض ؟ "

ويصور نعيمة عالمنا ، وقد ألغيت فيه الحدود وزالت القيود ، هذه الصورة المثالية المعبرة : " وعندما لا يبقى في الأرض (أجنبي) بل يصبح الكل (وطنيين) ،" فقد زالت الحدود والسدود . فلا جوازات سفر ، ولا جمارك ، ولا قيود على تبادل الأفكار والبضائع ، ولا شرائع تجعل من الأرض زرائب محصنة ، ومن البشر بهائم تساق بالسوط والعصا ، وتدرب على النباح والنطاح ، وتحقن بالكره لكل زريبة غير زريبتها ، وبالحذر من كل بهيمة لا تتسم بسمة كسمتها .. " .

أما انسان اليوم ، انسان الأوطان ذات الحدود والسدود والجوازات

---

(١) كريشنا مورتي ٥٦
(٢) في مقابلتي له في القاهرة بتاريخ ١٦/١٢/١٩٥٧
(٣) مقالته (بشرية جديدة) . النور والديجور ١٨٠ (والمقتطفات التالية منها أيضا) .

والجمارك والقيود والشرائع ، فهو ــ عند نعيمة ــ انسان " يعامل معاملة البعير والحصان والحمار والكبش والتيس ، فيوسم هذا القطيع من البشر بهذه السمة ، وهذاك بهاتيك ، مثلما توسم قطعان الماشية سواء بسواء "٠

ان السمة الوحيدة التى يجدر بالانسان أن يحملها ــ فى رأى نعيمة ــ ويتميز بها هى "أنه انسان ، وأنه ، بتركيبه الجسدانى والنفسانى ــ يتميز أبدا عن أخيه الانسان ، وعن كل ما احتواه الكون من الاشكال والالوان ٠٠"٠

ويتنبأ نعيمة بقدوم اليوم الذى " تتوحد فيه البشرية ، فتغدو هذه الدول ، وهذه الدويلات التى يكتظ بها سطح الارض دولة واحدة لا منافس لها فى الحكم والسلطان الا الطبيعة (١) وستتحول حينذاك القوى التى تهدرها الشعوب " فى المحافظة على كيانها القومى والسياسى والاقتصادى " " الى أسلحة بناءة كريمة " لانها ستستعمل فى " ابتزاز خيرات الطبيعة "٠

ويقول فى ايمان : " لابد من يوم تتمزق فيه غشاوات التعصب الاقليمى والعرقى والدينى عن أعين الناس ٠٠٠ فيدركون أن ما ينفع أمة ينفع كل الامم ، وما يضير أمة يضير كل الامم ، وأن الارض ليست موطنا لشعب دون شعب ٠ وخيراتها ليست وقفا على دولة دون دولة " ٠ ان غلبة الانسان على الطبيعة " تتم بجهود جميع الامم وجميع الناس " ، " فهى غلبة الانسانية لا غلبة دولة بعينها أو انسان بعينه " ، " فالغنيمة هى للكل بالسواء "(٢)٠

ويسخر نعيمة " بالخرق الملونة (٣) " التى تدعوها أعلاما وبنودا " أغلى من الدم وأقدس من الحياة ، وأشرف من الانسان " ، وبجوازات السفر التى تكون لحاملها " بمثابة الروح أو أغلى " ، وبالنقد الذى يبيع به الناس " نتاج قلوبهم وأفكارهم وعضلاتهم "، و " بالقبعات الثقيلة الوزن الغريبة الشكل " التى ندعوها تيجانا ، ثم يقول : أما كفى الناس " أنهم نبتة ربانية جذورها فى الازل وفروعها فى الابد "

وينتهى نعيمة ــ بهذا المنطق ــ الى انكار ما نسميه (الاستقلال) ، اذ " كيف تستقل أمة عن أمة فى عالم تشابكت مصالحه ومجارى حياته تشابك الشرايين فى الجسد الواحد ؟ وكيف تتحرر أمة من أمة ، وأنفاس الواحدة فى صدر الاخرى ، ويد هذه فى جيب تلك ، وأفكار تلك فى رأس هاتيك " (٤) ؟

(١) مقالته (أرض جديدة) المصدر السابق ١٨٤ (وبعض المقتطفات التالية منها أيضا)٠
(٢) يكرر نعيمة هذه المعانى فى مقالات كثيرة : أنظر مثلا مقالته (صوت العالم ــ ٨٥ وما بعدها)
(٣) المقالة السابقة ــ المصدر السابق ص ٩٠ ــ ٩٢
(٤) مقالته (عالم جن جنونه) المصدر السابق ص ٤٠ (والمقتطفات التالى منها أيضا)٠

أما الحرية الحقيقية فهي " لاتكون الا بالمعرفة · والمعرفة لا تكون الا بالتعاون· والتعاون لا يكون الا بالمحبة ···"·

المحبة اذن ، لا الحرب هي التي تقود الناس الى الحرية ، فأما الموت الذى ندعوه " بسالة واستشهادا في سبيل الاستقلال والحرية " (١) ، والذى تدفع اليه باسم " الوطنيات والقوميات والبيارق والكرامات وما اليها من الترهات والمخرقات " (٢) فهو " قتل الفكر والخيال والوجدان ، ونصرة الاستبداد والفوضى والحرب والظلام على الحرية والنظام والسلم والنور " ، وهو المشي " فى عرس البهيمة وفى جنازة الانسان "·

وعلى هذه الصورة يقودنا منطق نعيمة – فى بساطة ووضوح – الى الانجيل ، والى الفلسفات الشرقية الأخرى التى جعلت من المحبة أساس نظرتها الى الحياة والانسان كما سبق أن رأينا فى الفصل الأول من هذا الباب ·

×× ×× ××

ونرى الآن أن نعطى رأينا فى هذا (المنطق) ، من خلال تطبيقه على أخطر قضايانا القومية التى نعيشها ، وهى قضية فلسطين · وانما اخترنا ذلك لأن نعيمة نفسه طرقها فى غير موضع من كتبه ، وطبق (منطقه) هذا فى بناء الحلول التى اختارها لها·

لقد استنكر نعيمة دعوة الداعين منا الى استكمال أسباب القوة بعد وقوع النكبة ، وقال (٣) : " لاعجب أن تدمى قلوبنا لفلسطين الدامية ، وأن نتألم لآلامها· ولكن العجب كل العجب ، الألم كل الألم فى أن الانسان ما اهتدى حتى اليوم الى حبر يسطر به تاريخه غير الدم "· ثم دعا الى أن نتمسك (بقوة الحق) وحدها وقال : " لئن ضاع معنى الحق على الناس فى سائر أقطار الأرض فمن الحيف أن يضيع علينا فى هذا الشرق الذى كان أول من بشر العالم بالحق " ، و " من العار علينا – ونحن ورثاء ثلاث من أسمى وأبدع الديانات فى الأرض ، ألا نعرف أن الحق ميزان يستحيل أن يطرأ عليه أقل خلل ، ونظام لا يتبدل ولا يتحول قيد شعرة " ، و " من الخير لنا كلما قامت فى حياتنا

---

(١) مقالته (أرض جديدة) التى أشرنا اليها · ١٩١
(٢) مقالته (النور والديجور) · المصدر السابق ص ٢٧ (وما بعدها من المقتطفات منها أيضا)
(٣) فى مقالته (عند الشدائد) · المصدر السابق ١١٩ (والمقتطفات التالية منها أيضا) ·

مشكلة أن نتفحصها على ضوء ايماننا بالحق "." فنحن لو تفحصناها بنور الحق لوجدنا أننا المسئولون عنها قبل سوانا ، وأن علينا أن نلوم أنفسنا قبل أن نلوم الغير ".

ثم قال : " تأتي المشاكل ومفاتيحها فيها . الا أن الذين لا ايمان لهم بحق غير حق السيف والساعد ، يلجون في حلها لجاجة تنتهي بأن تخلق من كل مشكلة مشكلات . أما الذين يؤمنون بحق أقوى من الساعد والسيف ، فايمانهم يهديهم الى مفتاح كل مشكلة . واذا بها امتحان لهم لا محنة ، ودرب لا معذب وقرص من الشهد لا كأس من العلقم ".

واذن فان علينا أن نؤمن أننا نحن المسؤولون عن هذه المشكلة في حياتنا ، لأنه " ما سلب لص رجلا الا من بعد أن درب المسلوب خطى السالب ، فكان شريكه في السلب ".(١) وقد وقعت هذه المشكلة في حياتنا لنمتحن ايماننا بالحق وبعدل (الارادة الكلية) التي تصب فيها ارادات الأفراد . لأن هذه (الارادة الكلية) هي القدر الجاري في الناس . وعلينا أن نقبل جريانه فينا مؤمنين بأن " ظلم الناس للناس هو عدل الارادة الكلية في الناس ".(٢)

فاذا أظهرنا مثل هذا الايمان ، امتنعنا عن استعمال السيف ، لأن " الحق ميزان يستحيل أن يطرأ عليه أقل خلل ، ونظام لا يتبدل ولا يتحول قيد شعرة " واستعمال السيف خليق أن يعقد المشكلة لأن " كل الذين يأخذون بالسيف ، بالسيف يهلكون ".(٣)

---

(١) مرداد ١٤٩ (٢) المصدر السابق ٢٤٧

(٣) انجيل متى ٢٦/٥٢ . وقد سألت الأستاذ نعيمة (في بيروت بتاريخ ٤/١٢/١٩٥٨) عن رأيه في قضية فلسطين ، فبدأ يحدثني عن اليهود ودخولهم فلسطين بقيادة يشوع بن نون خليفة موسى ، وما ارتكبوا من جرائم الحرق والتقتيل والابادة (وهي الأخبار المذكورة في التوراة . انظر سفر يشوع - الاصحاح الثامن وما بعده). ثم قال : فسلط الله عليهم نبوخذ نصر فأخرجهم منها أذلة ، (التوراة . أخبار الأيام الثاني - الاصحاح ٣٦) وهاهم الآن يعودون الى فلسطين بالأسلوب نفسه ، أسلوب العنف ، ولا بد أن يؤخذوا بالسيف كما أخذوا به . فلما سألته : هل يعني سيف العرب ؟ قال : ولم يحب العرب أن يأخذوا بالسيف أيضا !

أما (حل) المشكلة فسيهدينا اليه ايماننا بالحق وبعدل الارادة الكلية. وقد اهتدى نعيمة -عند نفسه- الى فهم المشكلة على هذا الضوء الذى هدته اليه عقيدته بوحدة الحياة ، فقال[1] : ان " المشكلة - فى أساسها - ليست مشكلة أرض وبحر وسماء ، ولا مشكلة شعوب وثقافات وأديان . بل مشكلة (وطنى)و (أجنبى). وهى مشكلة الناس منذ أقدم العصور ... والذين خلقوها ما كانوا اليهود ولاالعرب ولا الفرس ولا الروم ".." ان مشكلة فلسطين لفقرة من سلسلة عديدة الفقار ، وقد كتب على كل واحدة منها : (أجنبى) . ذاك هو العمود الفقرى الذى منه تتفرع جميع مشاكل الناس. ولا سبيل الى حل واحدة منها حلا لا رجوع عنه الا بقصم ذلك العمود ، حتى لا يكون فى الأرض أى انسان (أجنبيا) فى أى بقعة من الأرض ".

لايسعنا أن نتريث فى اعلان افكارنا لهذا الحل بجميع مقدماته ونتائجه . فأما مقدماته التى تقول : اننا وحدنا المسئولون عن هذه المشكلة لأن المسلوب يدرب خطا السالب . وان المشكلة هى امتحان لايماننا بالحق وبعدل الارادة الكلية. فهذا يعنى ايمان المظلوم بعدالة الظلم الذى يحل به ، وبضرورة الكف عن نضاله ومدافعته . فهو اذاً اقرار بعجز الانسان عن التأثير فى مصيره ، واستسلام مطلق لارادة الظالمين ، بل عون على اجرائها فينا. وهو - من ناحية أخرى - الفناء لأعمق غرائز النفس فى الدفاع عن ذاتها وكيانها. وليت نعيمة وقف - فى المقدمات - عند حد النضال السلبى الذى أعلنه غاندى " ضمير الشرق المستيقظ " فى الهند[2] ، دون أن نؤمن بعدالة ما يجريه الظالمون فينا ، فتقدم أعناقنا للنطع ونحن نسبح باسم الارادة الكلية التى أرسلت (رسلها) الظالمين لتتحقق فينا. ثم ان مجرد ايماننا بالحق لا يكفى فى قيامه وتحققه ، وليس للحق قدمان ينهض عليهما ، وانما يعلو الحق بسواعد المؤمنين به ويمشى بأرجلهم. واذا كان الظالم (رسول) الارادة الكلية فى تحقيق الظلم -لغايات قدرتها قد لا تصل نحن الى ادراكها - فالمظلوم (رسولها) أيضا فى رده ، حتى يتحقق بذلك معنى انتصار الحق على الباطل .

وأما النتيجة التى تقول : ان أساس المشكلة هو تفريقنا بين (الوطنى) و(الأجنبى) ، " فى أرض ما وجدت الا لتكون موطنا للجميع "[3] فهذا حل لمشكلة

---

(١) فى مقالته (مشكلة المشاكل) . النور والديجور ص ١٥٨ (والمقتطف التالى منها أيضا).

(٢) عنوان مقالة لنعيمة . فى مهب الريح ١١٣

(٣) مقالته (مشكلة المشاكل) المشار اليها سابقا.

يمكن أن تقوم في الجمهوريات المثالية التي صورتها مخيلات الفلاسفة في الشرق والغرب ، فأما في دنيانا التي تختلف فيها الامم باختلاف الأرض والطبيعة والظروف الاقتصادية والبشرية والتاريخية ، وما يكون لهذا كله من تأثير خطير في الفكر والعاطفة في النظر الى الحياة وتفسيرها ، وفي اللغة التي تعبر عن هذا التفسير ، فأما في دنيانا هذه فلايمكن أن يصلح هذا الحل أساسا في النظر الى أي مشكلة من مشكلاتها ، لأنه لا يقوم على مخاطبة واقعها وتقديره قدر

(١) دعا نعيمة الى " خلق " اللغة العالمية الموحدة ، " التي يتفاهم بها الناس أينما كانوا " . وقال – في سذاجة – : " متى أتيح للناس أن يتخالطوا ويتعارفوا بغير صاحب أو رقيب ومن غير أن تكون فوق رؤوسهم سيوف مصلتة ، سهل عليهم أن يخلقوا لغة يتفاهمون بها . فبشرية خلقت مئات اللغات على مر العصور ، لا يصعب عليها أن تخلق لغة واحدة في جيل واحد ..." . النور والديجور ١٨١ (من مقالته : بشرية جديدة) . وانظر أيضا ص ٦٦ (من مقالته : التعاون والتنابذ) .

(٢) يعتبر نعيمة الشعور القومي امتدادا للشعور القبلي " يوم كانت القبيلة وحدة منكمشة على ذاتها تأبى التخالط مع غيرها من القبائل " (الأوثان ٤١) ، وهو – بهذا – يعد القومية متخلفة عن الانسانية التي تسير اليها الحياة المتطورة (المصدر نفسه ٤٢) . والناس – في رأيه – " سائرون نحو الوحدة الانسانية بخطى قد تكون وئيدة الا أنها ثابتة " . (المصدر نفسه – الصفحة نفسها) . ولم يبق اليوم من القومية – كما يقول – الا " هيكل أجوف لا غير " (المصدر نفسه ٤٤) . والذي ساعد على بقائه الاستعمار خالق القوميات (المصدر نفسه ٤٥) . وعلى هذا الأساس أقام نعيمة تفكيره السياسي فاعتبر الكيانات الدولية امتدادا للكيانات القبلية السابقة . وقال : ان " دول اليوم تتزاحم وتتنافس وتتباغض وتتحارب كقبائل الأمس . ثم هي تقيم من حولها السياجات وتقسم باقي الدول الى أصدقاء وأعداء . كما كانت تفعل القبائل سواء بسواء . ولا فرق الا في أن القبيلة كان يحكمها شيخ أو أمير في يده التشريع والقضاء والتنفيذ ، في حين أن دولة اليوم تحكمها هيئات ثلاث : هيئة للتشريع وهيئة للقضاء وهيئة للتنفيذ " . (مقالته أوزار الاجتماع – في مهب الريح ١٣٨) . واعتبر الأغراض القومية أغراضا " زمنية أرضية ، اذا حصر الانسان همه فيها لم يبق من عظيم فرق بينه وبين الحيوان .. " (مقالته الدين والمدرسة – المصدر السابق ٦٥) .

ونعتقد أن نعيمة في حاجة الى دراسة القوميات من جديد ، على أساس مجاراتها للانسانية لا على أساس تخلفها عنها (انظر في تفسير هذا الاساس مقالة لميشيل عفلق بعنوان " القومية حقيقة حية ذات مضمون ايجابي انساني " . معركة المصير الواحد ص ٥٥) .

ما يقوم على مخاطبة فكرة أخرى لايمكن أن تكون الا حلما من أحلام الفكر (١) .

وقد انتهى هذا الحل بنعيمة الى الاستخفاف بهذا الواقع كله استخفافا بلغ مداه في الخطورة على قضايانا القومية والسياسية في هذه الفترة حتى قال : " كذب القائلون للناس : أن تحكموا شرف ، وأن تحكموا عار .. أليس أن سائق الحمار مقود بذيل حماره ؟ أليس السجان أسير سجينه ! حقا ان الحمار ليسوق قائده ، والسجين ليسجن سجانه .

كذب القائلون للناس : السباق للسريع ، والحق للقوي ، فالحياة ما كانت يوما سباق عضلات وأعصاب ، فكم من كسيح أو مشوه بلغ القمة قبل الصحيح ، وكم من بعوضة صرعت مصارعا " (٢) .

فمثل هذا المنطق - وهو ابن النتيجة التي انتهى اليها نعيمة - يعني أن نلغي واقعنا كله ، ونبني واقعا جديدا نؤمن فيه أن المظلوم يظلم ظالمه وأن المستعمر يستعمر مستعمره ، وأن المحكوم يحكم حاكمه ، وأن المضطهد يضطهد مضطهده ، كما نؤمن " أن الحمار يسوق قائده " ، وأن " السجين يسجن سجانه " فأما في واقعنا الذي نعيشه مادة وفكراً وقوانين ، فالظالم يظلم حتى ترتفع في وجهه كف مصممة على رد الظلم ، والمستعمر الدخيل يستنزف خيرات الأرض وثرواتها البشرية والطبيعية حتى يفيق المستعمَر ويعي واقعه وذاته ويتمرد على الجوع والعرى والبؤس فيطالب بحقه المسلوب . ولن يغني المظلوم والمستعمر في رد الظلم أن يؤمنا بأن الظالم والمستعمر (وطنيان) لهما الحق في التصرف بروحي المظلومين وأرضيهما ، بل ان هذا الايمان خليق أن ينيم فيهما قواهما ، حتى يتحقق السلام الذي يريده نعيمة ، ولكن سلام الرضى بالذل والظلم والسلب ، وهزيمة القيم الكريمة التي تمجد عزم الانسان وحبه للحياة وانتفاعه بقواها ، ونموه بمعانيها الانسانية القائمة على الحرية والكرامة والعدالة والمساواة ، وسلام تغلب الأذى والظلم والاستعمار .

فهل يعتقد نعيمة أن مثل هذا المنطق يحقق مشيئة (الارادة الكلية) وهي - كما يقول دائما - عدل كلها وكرامة وحرية ومحبة وانعتاق ؟

---

(١) العجيب أن نعيمة الذي ينكر هنا كل حد ، يقيم - بين الشرق والغرب - حدودا تجعل منهما عالمين منفصلين ، وسيتضح هذا في الصفحات المقبلة .

(٢) مرداد ٢٤٧

ويعتقد نعيمة أن النظرة الى المشكلات على هذا النحو الذى صوره ، والمنطق الذى أجراه فى بناء الحلول لها ، هما نظرة الشرق ومنطقه ، وهو ـ بهما ـ يتميز من الغرب ، ويكون لنفسه رسالة تاريخية مجيدة كانت الديانات الثلاث بعض مراحلها . والناظر فى كتب نعيمة يلمس بوضوح الحاجة فى تمجيد هذه الرسالة ودعوة الشرق الى التمسك بها والرد على خصومها والداعين الى النظر فى الحياة على أساس الواقع المتحكم .

ويكاد يكون موقف نعيمة هذا من الشرق هو الموقف الوحيد الذى أبدى فيه حماسة يصح أن تسمى (وطنية) ، اذ كان يحس احساسا عميقا بأن الشرق هو " منزله القديم " ـ على حد تعبير جبران ـ . وقد عقد فى كتابه (البيادر) سلسلة من المقالات بالعنوانات التالية : " التوأمان : الشرق والغرب ـ شرق بصير وغرب مبصر "(١) ، " شرق يقيم الأهداف ، وغرب يمهد السبيل اليها "(٢) ، " غرب حاكم وشرق محكوم "(٣) . ثم ختم ذلك بمقالة عنوانها : " غرب يضرب وشرق يشرق "(٤) .

وقد أبدى نعيمة فى هذه المقالات الآراء التالية :

" لقد اتبع الشرق هدى البصيرة ، واتبع الغرب هدى البصر ، فأنجب الأول الأنبياء ، وأنجب الثانى العلماء . فكانت هدية الأنبياء الى العالم أديانا ترفع الأرض الى السماء ، وكانت هدية العلماء علوما تهوى بالسماء الى الأرض "(٥) .

" من ذا يفكر أن من بصيرة الشرق قد فاض على العالم مد جارف من الكمالات والجمالات الروحية " ، " وأى سلطان يتوخاه انسان على انسان ، أقوى من السلطان على القلب والفكر والوجدان ؟ . وماهى بالهدية الطفيفة أن تهدى الى العالم بأسره الها ، ومع الاله اليقين بأنه أبوك الشفوق الرحوم العادل ، ومع اليقين الرجاء بالانعتاق من ربقة الموت وآلام الموت "(٥) .

مدنية الغرب المبصر " حلاوة يتذوقها الحس "(٦) ، " ففيها ما يدغدغ الذوق ، ويسلى العين والأذن ، ويلهى الانسان عن نفسه . مثلما فيها غذاء ـ أو بعض الغذاء ـ للبهيمة فى الانسان . أما القلب فتتركه فارغا ، وأما الروح فتعلقه على مشنقة الشك والحيرة والابهام "(٧) . " أما حلاوة المدنية القائمة على

---

(١) البيادر ١٢٠
(٢) المصدر السابق ١٢٧
(٣) المصدر نفسه ١٣٥
(٤) المصدر نفسه ١٤١
(٥) ص ١٢٢
(٦) ص ١٢٤
(٧) ص ١٢٥

البصيرة ، فدون تذوقها شق النفس وقهر الجسد . لذلك كانت الأولى أقرب الى متناول الناس وأذواقهم من الثانية (١) ".

" الذى فعله الشرق حتى اليوم ، ما كان أكثر من وضع أهداف له وللعالم أجمع . وتلك الأهداف تتوحد كلها فى هدف واحد هو هدف الكمال لهذا المخلوق الذى ندعوه انسانا ـ هدف الانفلات من قيود اللحم والدم ، والتغلب على الحيرة ... والموت ... والتسلط على طلاسم الوجود ، ثم الانطلاق فى حياة لا حدود لها ولا قيود فيها ، يرف عليها سلام المعرفة ، ويتألق فى جوها بهاء الألوهة ، ويندمج فى قبضتها النقيض بالنقيض ، ويتلاشى فى فضائها الزمان والمكان (٢) ".

" ان الغرب لعاجز عن خلق مثل ذلك الهدف ، بل عن خلق أى هدف للانسان يقوى على الزمان وتقلباته . ذلك لأن الغرب سائر على ضوء بصره . والبصر لا يثبت على حال ، لأن الأشياء التى يتناولها لا تثبت على حال (٢) ".

" لقد حصر الغرب همه فى درس هذا العالم المحسوس والسنن التى يتمشى عليها . ثم راح يطبق ما اكتشفه من تلك السنن على حياته اليومية . فكانت علومه وكانت فنونه . وكان منها ذلك السيل من المخترعات ... الذى اذا ما بلغ يوما حده ، فسيعود حتما بالانسان من المحسوس الى غير المحسوس ـ أى من البصر الى البصيرة (٣) ". " ان تكن رسالة الشرق البصير خلق الأهداف ، فرسالة الغرب المبصر هى تعبيد الطرق اليها (٤) ".

عندما تبلغ علوم الغرب أقصى مداها . عندما تفلق الذرة ، أو ترتد عاجزة عن فلقها ، ستراها وجها لوجه مع ما يجعل المادة مادة وليس بمادة ـ مع القدرة التى أسماها الشرق الله ، ورفعها هدفا للانسان المخلوق على صورتها ومثالها . وبكلمة أخرى ، سينتهى الغرب من المحسوس الى غير المحسوس وبذاك تنتهى مهمته فى هذه الدورة من حياة الانسانية وتبتدئ من جديد مهمة الشرق (٥) ".

" ومهمة الشرق ـ اذ ذاك ـ ، وقد مهد الغرب له الطريق الى الهدف ، هى جلو ذلك الهدف كيما يظهر فى كل بهائه ، نقيا من السفاسف والترهات التى حجب الجهل بها سناء وجهه باسم الله والدين ، وما هى من الدين

---

(١) ص ١٢٤ (٢) ١٢٨ ـ ٢٩ (٣) ص ١٣١
(٤) ص ١٣٤ (٥) ص ١٣٧

والله لا بخمر ولا بخل . ثم لم شمث الانسانية التائهة ما بين بصرها وبصيرتها وبث النشاط في مفاصلها المفككة ، وبعث الايمان الدفين في قلبها بجمال ذلك الهدف وحكمته وعدله ...(١)".

" ماذا عساكم تقولون فيمن يقول لكم ان مشكلة الحكم ما بين الشرق والغرب ليست بالمشكلة التي تتوهمون . فالغرب لا يحكم اليوم الشرق أكثر مما يحكم الشرق الغرب . لكنما المؤسف ... ألا يكون في هذا ما يشرف أو يمجد الاثنين ، فهو لا يقوم على مودة وأخوة ومحبة حرية بأن تربط التوأمين ، بل على منافع موهومة ...(٢)".

" ان دولاب الزمان ما ينفك يدور . وان البشرية العالقة به لابد من أن يعلو بعضها هنا ، وينخفض هناك . ثم لا يلبث المنخفض أن يعلو ، والعالي أن ينخفض فصبغكم الدولاب بالدم البشري لن يسرع في دورانه لحظة ولن يبطئ لحظة(٣) " .

" لابد لهذه الانسانية المقصودة بمقاصد البغض والجشع من صوت يهيب بها الى حقن دمائها الزكية والاحتفاظ بما تبقى منها لغايات أنبل وأسمى من استبدال حكام بحكام ، وتخوم بتخوم وأوبئة بأوبئة . ان هذا الصوت سيخرج من الشرق ...(٢)".

" مجد الشرق الحقيقي سيكون في أنه لن يطلب مجدا على الاطلاق، بل يقول مع الناصري : " من أراد منكم أن يكون سيدا فليكن للكل خادما " . أجل سيكون الشرق خادم العالم . وسيخدم الانسان أينما كان لا بتحريره من حكم جاره ، بل تحريره من حكم نفسه ...(٤)".

" ان تسألوني عن ثقتي بهذا الشرق من أين منبعها أجبكم : من الحكمة التي فاضت على لسانه من زمان ، والتي يبلى الزمان وجدتها لا تبلى، وتبور كل سلطة وسلطتها لا تبور . وهذه الحكمة لن يجلوها من جديد الا الشرق ، ولن يحسن الحكم بها الا الذي خلقها من نفسه ثم حكمها في نفسه . فلها ستكون السيادة في العالم المزمع أن يولد ، وعلى حدودها ستمشي قوافله جيلا بعد جيل(٥) ".

---

(١) ص ١٣٤ — (٢) ص ١٣٧
(٣) ص ١٣٩ — (٤) ص ١٤٠
(٥) ص ١٤١

" لما حمل الشرق مشعل الدين الى العالم حصر جل همه فى قلب الانسان وما انطوى عليه من الاشواق المحرقة لمعرفة من هو ، من أين ، والى أين ، ولماذا . أما عقله فقلما أعاره اهتماما . والعقل هو الدرجة الاولى فى سلم المعرفة "..." (١) فما أن دار الزمان دورته وفترت الحماسة الدينية ، حتى أحست البشرية خللا فى التوازن بين قلبها وعقلها ..."(٢).

غير أن مدنية الغرب " لشدة مغالاتها فى الأمانة للعقل ، واندفاعها فى خدمته ، قد أهملت القلب البشرى وحنينه الابدى الى ما وراء المعقول والمحسوس . فهى قد صرفته أو حاولت صرفه عن الدين ، ولكن من غير أن تعطيه جوابا أفضل من جواب الدين على أسئلته الملحة ... فما ان بلغت أقصى مداها ، حتى عادت البشرية فأحست من جديد خللا فظيعا فى التوازن بين عقلها وقلبها ..."(٣).

" كانت الحرب الأولى خاتمة لعهد وفاتحة لعهد من حياة البشرية على سطح هذى الأرض . فبدخولها دخل الغرب طور التصفية ، فأخذت أمواجه فى الانكفاء . ودخل الشرق طور التعبئة فأخذت أمواجه فى الامتداد "(٤)، " وانى لأبصر أعنة البشرية التائهة ما بين سمعها وبصرها ، تنتقل من يد الغرب - وهو توأمها الماشى على ضوء البصر - الى يد الشرق - وهو توأمها السائر على هدى البصيرة - ، وانى لأرى هذا الشرق يعبئ قواه منذ الآن للقيام بمهام القيادة الملقاة اليه "(٥).

لقد بلغ تأثر نعيمة بالمقدمة الرابعة أقصى مداه حتى وقف من الغرب هذا الموقف ، فجرده من (البصيرة) وسخر من قيمه ، وأخذ عليه استهانته بالانسان ، وتنبأ بأفول نجمه ، وانتقال زمام القيادة الى الشرق . ولم تعد حال العالم اليوم - فى رأينا - تحتمل هذا التفريق المطلق بين الشرق والغرب، فقد " اختلط حابل الناس بنابلهم "(٦) - كما يقول نعيمة نفسه ، وأصبحت " دماء هذه الأمة فى تراب تلك ، وبذار هاته فى أرحام تلك " ، وأصبحت " يدا كل شعب فى جيوب كل الشعوب ، وفمه على آذانها ، وفكره على اتصال دائم بأفكارها ". وقد " اجتازت التجارة والطيارة والراديو الحدود واخترقت السدود ..."، فأى

---

(١) ص ١٤٤ (٢) ص ١٤٥
(٣) ص ١٤٥ (٤) ص ١٤١
(٥) ص ١٤٩
(٦) من مقالته (مشكلة المشاكل) التى سبقت الاشارة اليها (والمقتطفات التالية منها أيضا) .

معنى يبقى لهذه الفواصل الحاسمة التي نريد أن نقيمها بين شرق وغرب

ثم ليس في حقيقة الانسان عقل أو بصر يعملان في نجوة من تدخل القلب أو البصيرة ، فعقل الغرب وقلبه يعملان معا في تحقيق هذه الانتصارات الرائعة في ميادين المادة والفكر والفن وقد عمل عقل الشرق وقلبه معا في الوصول الى النتائج التي وصل اليها ، وانما تختلف النظرتان باختلاف الوراثات والأحوال التي تكتنف كلا منهما في جميع ميادين الحياة ، وهو ما يحاول نعيمة انكاره في مجال آخر[1].

وبعد هذا ، فهل يمكن عقل الانسان أن ينكفئ - كما يقول نعيمة - بعد أن حقق هذا النصر الضخم في الوصول بالانسان - كما يقر نعيمة نفسه - الى دائرة اللامحسوس ؟ ولم نفضل طريقا أوصلنا الى اللامحسوس بالغيب على طريق أوصلنا اليه عيانا ؟

ثم ما مصير الشرق ان بقي متخلفا مترددا في الأخذ بنتائج انتصار الغرب في ميادين الحياة كلها ؟ وهل يمكن أن يتردد طويلا في الاستفادة منها وتطبيقها في حياته ؟

لقد أثرت حال الشرق في الريحاني تأثيرا معاكسا فدعا - منذ مطلع هذا القرن - الى أن يكف الشرق عن غيبياته ونشواته ويأخذ بأسباب القوة المادية[2]. وتابع أبو ماضي الريحاني في نظرته هذه ، فقال في مقالة عنوانها (خيالنا وخيالهم)[3] : " حلمنا بنقل الجبال ، ولكننا لبثنا في دائرة التصور ، وتركنا نقلها للايمان وحده. وحلموا هم بنقل الجبال واستخدموا عقولهم وقلوبهم وسواعدهم ، فتحركت وانتقلت . حلمنا بالفردوس ، ذلك العالم السعيد، فزهدنا في هذه الدنيا وازدريناها ، ولم نبال بما فيها من محاسن ، فصارت بلادنا من جراء الاهمال نصب طلول ... وحلموا هم مثلنا بالفردوس فانصرفوا الى جعل هذه الدنيا مثله جمالا وطلاوة واشراقا ، فحيثما سرت في بلادهم رأيت صورة مصغرة للفردوس ... " ثم ختم المقالة بقوله : " أما نحن ، فاننا على كثرة ما عندنا من الأحلام والأحابيل نمد أيدينا ، فلا نكاد نلمس حقيقة واحدة ذات شأن كبير في الحياة ... ان خيالنا كالآل يخدع ولا يروى ، فمتى يصير كالماء يروى ولا يخدع " ؟

---

(١) مجال حدود الأوطان - ارجع الى الصفحات السابقة .

(٢) أشرنا الى ذلك في السابق . وانظر مقالة لعمر فروخ بعنوان (نزعات الأدب المهجري) في الحديث ٩٤٩ عدد ك٢ ص ٤٦ - ٤٧ .

(٣) يعني خيال الشرقيين والغربيين . السمير - ١٩٣٢ العدد ١٢ (الافتتاحية) على أن أبا ماضي يعترف في مقالة أخرى (السمير ١٩٤١ العدد ٣ : الافتتاحية) بأن ما سماه " المدنية الاميركية " - على ضخامتها وفخامتها - " يعوزها قليل من الطمأنينة الروحية التي تغمر الشرق " .

وقد رد نعيمة على هذه الاقوال في مقالاته التي أشرنا اليها في البيادر، ردا عنيفا ساخرا فقال : " .. واما عجبتم لمشهد غريب ، فاعجبوا معي لهذا الشرق ، وقد أهدى الى العالم المحبة والقناعة والتضامن والتآخي ، يقف اليوم على مفرق طريق البصيرة والبصر كسير القلب ، ذليل الجفن ، ضامر الصدر والبطن ، ويمينه الفارغة ممدودة نحو الغرب ، وفي يساره قائمة بأسفاره المقدسة وأسماء أنبيائه ، ثم اسمعوه يستعطي بصوت متهدج فيه الانسحاق ، وفيه المسكنة والاندحار . وماذا عساه يستعطي؟ انه ليستعطي طيارات ودبابات ومدمرات ومدافع وقنابل . واني لأسمعه يقول : (من يقايضني قنبلة محرقة بآية منزلة وطيارة أو دبابة بسفر مقدس؟ بل من يقايضني مخترعا واحدا بعشرة أنبياء؟).

ماهذا ، ماهذا أبصيرة تستجدي بصرا؟ أشمس تستضيئ بذبالة؟ "[1].

ولاحاجة أن نقول ان نعيمة خرج بدعوة الريحاني وأبي ماضي عن مقاصدها وصرفها فيما يؤيد موقفه ويسند نظرته ، على حين لم يرم الأولان الى غير دفع الشرق في طريق القوة ليحمي نفسه من تسلط الغرب واستعماره ، في عالم واقع لا يرحم فيه الضعيف وان كان نبيا[2] .

×× ×× ××

على أن نعيمة شارك مشاركة فعالة في المساعي التي كان يبذلها المهاجرون

---

(١) مقالة (شرق بصير وغرب مبصر) . البيادر ١٢٥ . وانظر ايضا رده على استفتاء مجلة الهلال حول (نهضة الشرق العربي) (المراحل ٥٨ وما بعدها) فهو يردد فيه هذا الكلام ،ويزيد عليه قوله : " ان الشرق لفي غنى عن اقتباس حرف واحد من المدنية الغربية اذ ليس الاقتباس الا تقليدا . وكل من يقلد سواه لايكون مخلصا لنفسه ، لانه يخفي حقيقته ليظهر بحقيقة سواه . وفي كل امة - مثلما في كل فرد - حقيقة كل جمالها في أن تظهر كما هي . لذلك لا أرى كيف يمكننا أن نقلد الغرب في أمر من الأمور دون أن نخون أنفسنا ونمسخ الحقيقة التي فينا ".

وانظر تصويرا لهذا الرأي في مقالته (مشهدان) . المصدر نفسه ٦١ .

(٢) لفت بعض الباحثين نظر نعيمة الى هذه الحقيقة . انظر مثلا مقالة بعنوان (هل ناسك الشخروب صاحب رسالة روحية) ليوسف الخال . المكشوف ٩٣٧ العدد ٨٥ ص٧

للدفاع عن وطنهم والدعوة الى تحرره خلال الحرب الأولى[١] . وكانت مشاركته عن ايمان بقيمة العون الذى يستطيع المهاجرون أن يقدموه للوطن . وقد كشف عن ذلك فى رده على الذين كانوا يرون أن ينصرف المهاجرون عن النظر فى شئون الوطن الذى خلفوه ، فقال : " ان نصف أهل سورية ولبنان أو أكثر فى المهاجر ، وأكثرهم لا يزال يحن للعودة الى بلاده ، غير أنه يترقب فرصة مناسبة (الى أن تتحسن حالة البلاد) ، فمن الحيف أن يقرر المتخلفون فى سورية هيئة حكومة البلاد ، دون أن يستشيروا فى ذاك اخوانهم فى المهاجر . وبين المهاجرين من اكتسبوا علما وخبرة واتساع نظر ، فلماذا تحرم البلاد من رأيهم . . . "[٢]؟

وكتب فى المجاعة التى حلت بالوطن فى أواخر الحرب قصة باسم (مهرجان الموت)[٣] صور فيها البؤس الذى تردى فيه حتى لتبيع الفتاة عرضها من أجل رغيف يرد الموت عن أخيها الصغير ، وقد جاء على لسان هذه الفتاة تخاطب الراغب فى شراء شرفها :

" ـ موسى افندى ! . . أخى يموت وأنت قادر أن تنشله من بين مخالب الموت . أخى يموت جوعا ، ورغيف خبز يرده الى الحياة . وعندك كثير من الخبز ، فهلا تجود على برغيف لم يبق عندنا شئ للبيع ، وما بقى لا يشتريه أحد . البارحة بعت حذائى ، وهذا آخر ما كان عندى . الحكومة أخذت البقرة الأخيرة التى كان حليبها يرد عنا بعض الجوع . أبى مات . . . جوعا لانه انقطع عن الأكل كى لايموت أولاده أمام عينيه . . . أمى مفلوجة لا تقدر الا على البكاء . . أختى الصغيرة تقضى نهارها فى جمع الأعشاب فى البرارى . أخى

---

(١) كان نعيمة كتب فى مذكراته وهو ببولتافا سنة ١٩٠٨ : " يا ألله . . فى تركيا دستور . وبلادى حرة . الا أننى أخشى أن تنتزع منها هذه الحرية بمثل السرعة التى جاءتها بها . . . وهل تكون لمواطنى المقدرة على الانتفاع بتلك الحرية ، بطريقة تجعلهم والأتراك فى مستوى واحد من الكرامة والحقوق ؟ وهل يشعر المسيحيون بعد اليوم بأنهم مواطنون كباقى المواطنين؟ وهل تتحرر صحافتنا المسكينة من قيود المراقبة البغيضة أم تراها ألفت قيودها فلا تطمع فى أى تحسين؟ سأسافر فى الصيف المقبل الى الوطن ، وسأرى بأم عينى كيف استقبلت سورية ولبنان هذه الحرية وماذا سيكون شأنهما فى تطور حياتهما السياسية والفكرية . وانى لأدعو الله أن يجعلها بادرة خير كليهما " سبعون ٢٠٩ وكتب أيضا : " ان لبنان رفض أن يرسل ممثلا عنه الى مجلس (المبعوثان) ، وآثر أن يبقى مستقلا عن الدولة العثمانية . اللهم آمين . . بلادى تجتاز اليوم مرحلة من أدق مراحل حياتها وهى فى أمس الحاجة الى رجال مثقفين يوجهون خطاها ، ويكشحون الظلمة عن عينيها ، وأنا أريد أن أكون واحدا من أولئك الرجال . . " . المصدر نفسه ٢٢٩ . وكتب أيضا : " . . جميل أنت يا لبنان فى عريك وبساطتك . ولكن النير التركى شئ قبيح . . " . المصدر المذكور ٢٣٨ ـ ٣٩

(٢) مقالته (راحت السكرة وجاءت الفكرة) . العرب فى المهجر الشمالى ١٢٠ (نقلا عن السائح ٩٢٠ ـ ٢٦ آيار)

(٣) الفنون ١٩١٦ ـ العدد الخامس ـ ص ٣٩١

بطرس .. فرخ لم يكتس بعد بالريش ... ماذا أقدر أن أفعل؟ من أين آتية بقوت الحياة ؟ ... الجوع يحصد الناس من حوالي شيوخا وأطفالا ، رجالا ونساء ..... من عنده كسرة خبز يضن بها على سواه ، ويحفظها لنفسه أو لعياله . ومن ليس عنده يقتات بالاعشاب ويموت ... " .

ثم أنهى نعيمة القصة على النحو التالي بعد أن ماتت الفتاة : " جرس مار بطرس ينتحب دن ـ دن ـ دن .. في زاوية بيت من بيوت القرية المذعورة من صولة الموت ، عجوز مفلوجة تسكب آخر دمعة في عينيها ، وقد شعرت بيد الموت تطوق عنقها . وفي نيويورك لجنة تنادي : (أغيثوا أهلكم يا أبناء سورية ولبنان) فيصعد اليها نداؤها كصدى صرخة في واد عميق ... " .

وقد ألح نعيمة في كثير من مقالاته وقصصه على ضرورة الكف عن الهجرة وصور حال المهاجرين الذين أضاعوا سعادتهم في التيه ، ومجد الأرض تمجيدا حارا وجعلها " الفاتحة في مصحف الوجود " (١) . يقول على لسان (خطار) المهاجر يناجي نفسه في قصته (ساعة الكوكو) ، فيصف ماضيه الجميل في القرية اللبنانية وحاضره الثقيل في المهجر : " لقد كنت رجلا بين الرجال ، لك زند قوي مفتول ، وصدر عريض مكين ، وقلب شجاع سليم . وكنت سيدا في بيتك وفي حقلك وفي كرمك . وكنت محبوبا من والديك مكرما من أهل قريتك . أما اليوم فمن أنت ؟ سجين معلق بدواليب مركبة لا تهدأ طرفة عين ، تكو وتكو وتكو .. والله يدري الى أين . اذا أنت قطعت رباطك منها وقعت مهشما على الطريق ، واذا بقيت معلقا بها رأيت روحك بعينيك تتسلل منك وتسحق رويدا رويدا تحت الدواليب أنت أحقر من لولب ، وأحقر من مسمار في هذه الآلة الجهنمية ، ويحك ياخطار ، فقد كنت كل هذه السنين كالهر يلحس المبرد ، فيتلذذ بطعم الدم السائل من لسانه جاهلا أنه دمه ...

وماذا تملك ياخطار . كان زمان وكان لك ثيران وأغنام ، وحقول وكروم وبيت كان بحق بيتك . أما اليوم ... في بابل الجديدة بناية هائلة ، وفي تلك البنائية غرف عديدة ، وفي بعض تلك الغرف رفوف وعلى تلك الرفوف منسوجات غريبة لاتدفع الحر ولا القر عن مخلوق . وتلك المنسوجات هي ملكك ، لكنك لن ترتق بها خروق فؤادك ،

---

(١) من قصته (ساعة الكوكو) . كان ما كان ١٤ .

(٢) كان ما كان ٢٩ ـ ٣٠ . وانظر مابعدها أيضا .

ولن تحوك منهـا أحلاما جديدة ،ولن تكفن بها أفكارك السود ...

وفي مصرف من مصارف بابل الجديدة ، خزانات من فولاذ ،وفي احدى تلك الخزانات أوراق وسندات ورهون ماليسة . هي ملكك كذلك . لكنك لن تبتاع بها نعاسا لأجفانك ، ولا صفاء لفكرك ، ولا حرية لروحك ، ولن تستعيد بها والديك ولا (زمردا) ..." (١)

على هذا النحو صور نعيمة المهاجرة وحذر الراغبين فيها من الاقدام عليها ، ودعاهم الى تعميق صلتهم بالأرض ، وقناعتهم بخيراتها ، ليوفروا على الوطن بعض ثروته البشرية التي هدرتها المهاجرة ،حتى كادت القرى تقفر ـ كما رأينا ـ من سكانها .

وتغنى نعيمة بلبنان فأحاله قصيدة حالمة من الشعر ـ وقد أشرنا الى ذلك في الفصل السابق ـ ووصف بيوته النظيفة وصور عادات اللبنانيين وأخلاقهم في الساحل والجبل (٢) ، وكسا خياله من ألوان مشاهده واستعار صوره من طبيعته الفاتنة. وكان لبعده عنه أثر كبير في نفسه منذ كان صغيرا . يقول في مذكراته التي كتبها وهو طالب في السمنار ـ ببولتافا في الروسيا : " لو كنت شاعرا لغنيت فتنة محاسنك يا لبنان ، يامهد صباى وقبلة أفكارى ..

لغنيت شماريخك البيض

وأغوارك الساحرة

حيث لي بيت وأهل

وحيث الأرز يخبر عما كان

والجداول تتدفق فضة

والعيش طيب في بساطته

والجمال لم تشوهه يد الانسان .." (٣)

وينبغي أن نذكر أخيرا أن نعيمة استجاب لتيار الوعي الجارف في الوطن العربي ، فبدأ يتلمس الصلات بين لبنان و " سائر الدول العربية " ، ويعالج المشكلات العربية العامة ـ على نحو ما فصل في قضية فلسطين ـ . وقد أخذ على العرب تعلقهم الشديد بماضيهم وتبجحهم بما يسمونه أمجادا (٤) . وذكرهم بأن

---

(١) كان ما كان ٢٩ ـ ٣٠ . وانظر ما بعدها أيضا .

(٢) انظر ـ مثلا ـ مقالته (لبنان) ـ النور والديجور ١٠٣

(٣) سبعون ١٧٩ ـ ٨٠ (وقد كتب نعيمة الأبيات بالروسية) .

(٤) محاضرته (في مهب الريح) . في مهب الريح ٧ (والمقتطفات كلها منها) . وانظر أيضا مقالته (رسالة العالم العربي). صوت العالم ١١١ .

لهم فى التاريخ ــ الى جانب الصفحات المشرقات بالعدل والبطولة والنبل والاباء والايمان بقدسية الحياة ــ " مجلدات سودا تنضح بالظلم والجبن والخساسة والذل والكفر بالحياة "، و " من شأن تفنيهم بماضيهم أن يصرف هممهم عن خزى فيهم الى مجد ليس لهم "٠

ومن رأى نعيمة أن ننصرف الى حاضرنا فنعترف بأن " الذل والهوان متفشيان اليوم فى الجسم العربى تفشى السرطان " وأن تغنينا " بالاعلام العربية التى خفقت فى سالف الازمان من حدود السند حتى حدود الغال " لن تنفعنا فى شىء٠ وانما ينفعنا ــ فى رأيه ــ أن نلتفت الى معجزة العرب الكبرى (القرآن) نستمد منها قوة " أين منها قوة الاساطيل البحرية والجوية والقنابل الجهنمية ، وأين منها قوة المال والرجال "، فقد أقامت هذه المعجزة " للعرب ــ ولغير العرب ــ هدفا من حياتهم ، وكانوا بغير هدف٠ واختطت لهم طريقا الى الهدف، وكانوا بغير طريق " و " برهنت لهم بحياة النبى وصحبه أن ذلك الهدف مستطاع بلوغه على من سار فى الطريق "٠ (الاتجاه نحو المقدمة الأولى)٠

ولكن قلوب العرب ــ فى رأيه ــ " غدت مغلقة دون معجزة العرب منذ أن حكموا دنياهم فى دينهم " ودانوا بقيم الغرب وارتبطوا بعجلته ٠ (المقدمة الرابعة)٠

ولم يتجاوز نعيمة حدود هذه الدائرة فيما كتبه عن العرب ، وهو ــ فى رأينا ــ لا يعنى شيئا أكثر من استجابته للواقع السياسى والاقتصادى والفكرى الذى يعيش فيه لبنان ، استجابة صادقة الصلة بعقيدة نعيمة فى بناء الانسان والدولة الانسانية (١) ٠

(((٥)))

أما وليم كاتسفليس فقد أحسن الاخلاص لمبادئ لجنة تحرير سورية ولبنان السياسية حتى بدا شديد التحمس فى الدعوة الى قبول الحماية الفرنسية ، فكتب ينعى على المسلمين رفضهم لها ، وقال بلسان خطيب (البترون) سنة ١٩٢٠ م:

" ٠٠ فى الجيل العشرين ، وفى بلادنا هذه عينها ، ثارت ثائرات القوم وهدرت الدماء لانتداب فرنسا الوصاية عليهم ، مع أن فرنسا كانت أرقى أمم تلك العصور ٠ وما ذلك الا لأن أغلب سكان سورية كانوا من المحمديين ، فرغبوا عن فرنسا لا لذنب ارتكبته ، او لقصور أظهرته ، بل لانها على غير مذهبهم الفلسفى الذى كانوا يسمونه دينا ٠٠" (٢) ٠

---

(١) انظر مقالته (رسالة العالم العربى) المشار اليها ٠ صوت العالم ١١٥

(٢) مقالته (البترون سنة ١٩٢٠ م) ٠ مجموعة الرابطة ٧٢

ويبدو أن ثقافته الفرنسية كانت شديدة التأثير في موقفه من تأييد الحملة الفرنسية على سورية ولبنان[(١)] . وليس في نتاجه الأدبي - على كل حال - اشارة واحدة الى قضية عربية أو كلمة عطف عليها ، فقد اكتفى بالايمان بالقضية السورية[(٢)] .

وقد كتب في المهجر يؤيد فكرة رجوع المهاجرين الى وطنهم ، فقال في مقالة عنوانها (أهلك ولا تهلك)[(٣)] : " أنا من الذين يعتقدون أن الوطن خسر بنزوح أبنائه عنه خسارة عظيمة قد لا تعوضها الأيام . فالمال الذي أرسله المهاجرون والدور التي بنوها أو بناها أهلوهم في قرى سورية ولبنان لا تغني فتيلا عن الأيدي العاملة والعقول المفكرة والثروات الكامنة في أفراد المهاجرين ومجموعهم .

ومن تجول في البلاد الأميركية يعلم أن هؤلاء السوريين واللبنانيين يحافظون على عاداتهم كل المحافظة ، حتى ما كان منها قد أبطل في بلادهم ، فهم في بيوتهم ومجتمعاتهم ومآدبهم وأعراسهم ومآتمهم سوريون أقحاح لا غبار عليهم ، يعتبرون ذواتهم ويعتبرهم الأهلون غرباء .

وهم أكثرهم في كفاف من العيش عن غير سعة ، لأن العامل قد يستطيع أن يجمع قليلا من الدراهم لليوم الأسود بحسن الادارة والاقتصاد . ولكنه لا يستطيع أن يبلغ الثروة مهما بالغ في التوفير والتقتير . ثم لو أنت درست طريقة معيشتهم بالتدقيق ، لوجدت أنهم لا يتنعمون بالحياة أكثر مما يتنعم أمثالهم في سورية ولبنان ، ولوجدت أن معدل مدخول العامل فيما سوى بعض المدن كنيويورك وشيكاغو وديترويت حيث غلاء المعاش يوازن بين الكسب والانفاق ، لا يتجاوز العشرين الى الخمسة وعشرين ريالا في الأسبوع . وهم - مع ذلك - يتوقون الى بلادهم ، ولا ينقطعون عن ذكرها والحنين اليها . وقد زادتهم الغربة واحتكاكهم بالشعوب المتباينة ، بل المعادية ، تمسكا بوطنيتهم وحبا لأبناء جنسهم .. " .

ففي المقالة اخلاص لقضية الوطن الذي خسر بمهاجرة أبنائه خسارة لا تعوضها الأموال المرسلة اليه ، ودعوة للمهاجرين أن يعودوا الى أحضانه ليغنى "بالأيدي العاملة والعقول المفكرة والثروات الكامنة في أفرادهم ومجموعهم " . وفيها

---

(١) كان تأثير الثقافة الفرنسية ماثلا في نفس أخيه الاستاذ فيليب ، فقد أخبرني أنه عمل مع الفرنسيين في سورية ، وكان معهم في جبل الدروز أيام الثورة السورية .

(٢) للريحاني قوله لكاتسفليس قالها في رسالة ارسلها الى اللجنة التي ألفت لتكريم كاتسفليس سنة ١٩٢٧ : " وليم كاتسفليس أديب حر الفكرة ، شريف النزعة ، عربي اللهجة .. " ولسنا ندري - على التحقيق - معنى الكلمة الأخيرة في الجملة .

(٣) كتبها في الرد على استفتاء اجرته مجلة السمير . انظر العدد ١ لسنة ١٩٣١

تصوير لأحوالهم الضيقة فى المهجر واشارة لحنينهم ووطنيتهم ، كأنه يستعين بهذا على أنفسهم .

وقد مجد كاتسفليس الوطنية فى مقالته (الآلهة والأصنام)[1] واعتبرها الهة " سجدت لها الأقوام من قدم وقدمت على مذابحها قرابين لوجمعت لتألف منها عالم بل عوالم ". وعدها ظاهرة " بها تتجلى عند ظهور حقوق الفرد وحريته فى الهيئة الاجتماعية ". ولكنه فى مقالته (البترون سنة ٢٥٢٠م)[2] نحا نحوا انسانيا عالميا ، فحمل على الرابطة الوطنية وعدها قيدا ابتدعه " شيطان العالم ، لما فرغت يداه من سلاح الدين "، " لتظل الانسانية راسفة فى قيوده تحت قدميه "، وقال : " ان بعض الدول التى كانت تدعى التفوق وضعت الوطنية فوق الدين ، أى أنها هربت من الدلف الى تحت المزراب . فبدلا من أن تنحر باسم الدين صارت تنحر باسم الوطنية بطريقة أعم ".

فأما كلمة الوطن – عند كاتسفليس ، فى هذه المقالة – فينبغى ألا تفسر تفسيرا ضيقا ، وانما توسع حتى تشمل الأوطان كلها .

ووقف كاتسفليس – فى نظرته الى الوطن – عند هذه الحدود القلقة ، ولم يتعدها على الاطلاق . وقد قلنا فى السابق انه أخلص للقضية السورية ودافع عنها ضد (الانفصاليين) ، ونقلنا أمثلة من هذا الدفاع تمثل موقفه تمثيلا حسنا .

أما عريضة وأبو ماضى ، فقد أخلصا للقضية العربية ، فدعا الأول الى ربط القضية السورية بعجلة القضية العربية ، وكتب فى ذلك مقالة نقلنا قسما منها فيما سبق .

وقد جعل من مجلته (الفنون) صوتا عربيا صافيا يذكر المهاجرين بتاريخهم وتراثهم وامجادهم . وكتب قصصا انتزع موضوعاتها من تاريخ العرب القديم وأدبهم ، فعبر بذلك عن ألفته لهذا التاريخ وحبه لهذا الأدب واعتزازه به . ولاشك أن قصته التى اسماها (قصة الصمصامة) وكتب فيها سيرة سيف أبى عبد الله الصغير ، آخر أمراء العرب فى الأندلس ، حنين عميق القرار – الى ماضى العرب المجيد وتذكرة به[3] . ونعتقد أن انتسابه

(١) الفنون ١٩١٧ عدد كانون الأول (ديسمبر) ص ٩٩٤

(٢) مجموعة الرابطة ٦٦

(٣) سيرد ذكر القصة مع تحليل موجز لها فى الفصول التالية . وقد حمل عريضة شعره عواطفه القومية الملتهبة على نحو أوسع مما اتسع له نثره القليل . انظر مثلا قصيدته التى قالها فى المجاعة سنة ٩١٧ (الأرواح الحائرة ص ٦٦).

للجنة تحرير سورية ولبنان كان مجاراة لأصدقائه من أدباء المهاجرين واتفاقا معهم على هدفهم السياسي الضيق واستجابة لدواعي الاضطراب الفكري التي أشرنا اليها في السابق ، دون أن يعني ذلك تخليه عن ايمانه بالقضية العربية واخلاصه لها .

وأسهم عريضة في نصرة وطنه والدعوة الى اغاثته حين النكبة ، فخصص عددا من أعداد مجلته الفنون - كما أشرنا - لتحمل أصوات الأدباء الداعين الى الاغاثة وكتب مقالة بعنوان (أنة عاجز)(1) ، صور فيها آلام وطنه وأنب المهاجرين لتغافلهم عنها وقال : " في سكون الليل سمعت بأذني رنة المطرقة على مسامير الصليب فذرفت دمعي وأنا أنظر الى (الجلجلة) من بعيد ...

رأيت سورية تقاد الى الصلب عريانة مهانة ، تجلد بسياط السخرية وتكلل بأشواك العار وتشرب من مرارة الهلاك .

كم من مرة سيقت سورية الى الصلب فاستشهدت على عيون التاريخ . وكم مرة صعدت الى المحرقة فكانت ذبيحة تكفير عن وجودها . وكم مرة دفنت حية في أعمق الأرماس . ولكن طغاة الفاتحين ... لم يعبثوا بسورية بعض ما عبثت بها يد النكبة الآن ، ولم يدقوها بسنابك خيلهم كما أدقتها وطأة وحش الجوع والويل " .

وكتب مقالة أخرى بعنوان (صبر أيوب - حديث خرافة)(2) صور فيها تعاسة سورية في ظلال الحكم العثماني . وقد نقل في هذه المقالة (أيوب) الى سورية وجعله يتعرض لمصائب حياتها في تلك الفترة : سحب أولاده الى الجندية ، الاستيلاء على مخزنه لاطعام الجيش الجائع ، ابتزاز المال منه بدعوى مساعدة أمته ، محاكمته وسجنه والاستيلاء على ممتلكاته ودفع بنيه الى الاستجداء وبناته الى بيع أعراضهن ، اشتداد وطأة المجاعة في البلد وموت امرأته جوعا ، هلاك ابنه في الدردنيل ، شنق ابنه الآخر لفراره من الجندية ، غرق ابنه الثالث في البحر وهو يحاول السباحة الى مصر ، موت ابنته في بيت الريبة بعد أن قبض عليها وهي تدافع جنديا عن نفسها ، انتحار بعض بناته الأخريات وبيع الباقيات في سوق الاماء . وقد حاول أيوب أن يصمد للمصائب في أول الأمر ، ولكنها حين بلغت هذا الحد " لطم كأس الصبر المترعة فأطارها شظايا وأهرق ما فيها على رمال الويل المحرقة "

---

(1) الفنون ١٩١٦ العدد ٥ ص ٤٤١ (وهي مقالة لم توقع باسم)

(2) المصدر نفسه . ص ٤٢٤ (وهي مقالة وقعت باسم : مالك)

وقال : " أف ان احتمال البرص والجلوس على المزبلة والاحتكاك بشقفة خزف لخير من هذه الحالة الشقية " ، وجدف على الله ..

وبرز أبو ماضي ـ كما أشرنا ـ في مناهضة الاحتلال الفرنسي حتى كاد يكون الصوت الوحيد الذى وصل الينا من أصوات كتاب الرابطة في هذا المجال. وجارى عريضة في ألفته لتاريخ العرب وآدابهم ، فنقل صفحات كثيرة منهما في مجلته (السمير)[1] ، وكتب دراسات عن بعض أعلامهما ، ووسع صدره أن تكتب في هذه المجلة مقالات اسلامية ضافية[2] ، فضلا بذلك على التيار الجارى من حوله . ولاشك في أن اقامته في مصر مدة طويلة ذات تأثير كبير في اتجاهه هذا الاتجاه .

وهكذا انقسم كتاب الرابطة فريقين : تبنى الأول الفكرة السورية ووقف عندها ، ويمثل هذا الفريق جبران ونعيمة وكاتسفليس وعبد المسيح حداد ، وتبنى الثاني الفكرة العربية من وراء اخلاصه للقضية السورية ، ويمثل هذا الفريق عريضة وأبو ماضي . على أنهم جميعا أحبوا وطنهم ونصروه في محنته وشببوا بمحاسنه واصروا على الاحتفاظ بلغته العربية وتقاليده وشخصيته ، واستوحوا تراثه القديم وأعلو من شانه وشأن أدبه ولغته وفكره[3] ، وخلفوا ـ في هذه السبيل ـ نتاجا أدبيا رائعا . وقد تميز جبران ونعيمة بتشوفهما الى قضية انسانية عامة استغرقت نعيمة استغراقا كاملا ، على حين بقيت لجبران اطلالات وطنية بلغت مداها في الحرارة والصدق . واجتمع الاثنان كلاهما على نزعة شرقية غذاها مقامهما في مجتمع غربي غريب القيم ، وقربها انفتاح الانجيل على الفلسفات الشرقية التى تمجد الانسان وتغسل قلبه من القلق والأوجاع.

---

(١) سنذكر أمثلة لها في فصل (المقالة) الآتي .

(٢) انظر مثلا مقالة عن (البراق) في العدد ٢ لسنة ١٩٣٢ . القليلة

(٣) يجب أن نذكر هنا ـ بصورة خاصة ـ أعمال جبران الأدبية والفنية/ التى استوحى فيها التراث العربي والاسلامي القديم . (انظر مثلا المشهد المسرحي: ارم ذات العماد ، الذى اختار فيه اسم آمنة العلوية لتتحدث بلسانه . البدائع والطرائف ـ مجموعة المؤلفات ٣/٢٦٦ . وانظر مقالاته عن ابن سينا وقصيدته العينية وعن الغزالي وابن الفارض ـ المصدر السابق ٣/٢٢٩ و ٢٣٣ و ٢٥٣) ونذكر أن جبران سمى نبيه في كتابه الانجليزى (المصطفى) . وخلف لوحات تصويرية لبعض أعلام التصوف والفلسفة والدين في الاسلام . ولكن ذلك لم يتجاوز في رأينا ـ بالنسبة اليه ـ مجال الاستيحاء الفني السمح دون أن يختلط بعواطف قومية عربية يعبر عنها بهذا الاستيحاء . وقد بينا هذا الرأى خلال الفصل .

الفصـــل الـــرابـع

الصـورة الادبيـة

(١)

كان لابـد لحركات التبشـير الاجنبيـة التى انتشـرت مؤسسـاتها التعليميــة فى لبنـان وسـورية فـى وقـت مبكـر من القـرن التاسـع عشـر ، أن تخـرج جيـلا عربيـا متصـلا بالثقافـة الغربيـة اتصـالا مباشـرا ، ولعل (فرانسـيس مراش)١٨٣٦ـ١٨٧٣ خـير مـن يمثـل هـذا الجيـل الذى أعلـن فـى مجتمعـه قيـم الحضـارة الغربية لأول مـرة (١) . وقـد أباحـت الحكومـة العثمانيـة لهذه المؤسـسات أن يدرس طلابها علومهم بلغتهم القوميـة ، فيسـرت لهذا الجيـل أن يعـبر عـن أهـدافـه باللغـة العربيـة . ونقل الانجيليـون (البروتسـتانت) ـ مـن ناحيـة اخرى الانجيـل الـى العربيـة ، تحقيقـا لرسـالتهم فى أن يتصـل المسـيحى بربـه عن طريق نفسـه لا عـن طريـق رجال الاكلـيروس وحدهم ، فتلقـف اليسـوعيون (الكاثوليـك) الفكـرة ، وسـارعوا هـم أيضـا ـ الـى وضـع ترجـمة عربيـة أخـرى للانجيـل ترضيهـم . ونشـب بـين الارسـاليـات ـ علـى هذا النحـو ـ تنافـر حـاد جنـت منـه الحركـة التعليمية العربيـة أطيـب الثمـار . وقـد اشـاع ذلك فـى لبنـان خاصـة حركـة فكـرية أيقظـت الفئـة المحافـظة ودفعتها الـى أن تتحـسس كيانها وتـدرس واقعها الجـديد وتعـود الى أسـلحتها المطمـورة فتروحهـا وتجلـو عنهـا الصـدأ .

وبـرز مـن رجال هـذه الفئـة ناصيـف اليازجى ١٨٠٠ ـ ١٨٧١ (صاحب المقامات المسـماة مجـمع البحـرين) ، وابنـه ابراهيم (١٨٤٧ـ١٩٠٦) ، وقـد رفـع كلاهمـا صوت التراث العربى القـديم فى وجـه الثقافـة الغربيـة الداهمـة .

ثـم كان لابد من ذلك ان يكـون ، وهـو نشـوء مدرسـة معتدلـة تعنى بالـتراث القديم

---

١) اعتمدنا فى تخطيط هذه المقدمـة مجموعة مـن الأمـالى المخطوطة للدكتور خلدون الكنانى وفصـلا بعنوان (La Littérature Arabe Moderne) .
لهنرى بـيريـس (نحو) . والغرش التاريخى مـن كتاب (القصة فى الأدب العربى الحديث) لنجـم .

وتأخذ بحظ جهد من الثقافة الغربية . وقد مثل هذه المدرسة المعلم بطرس البستاني ١٨١٩ - ١٨٨٣ (صاحب محيط المحيط ، ودائرة المعارف) تمثيلا بلغ به مداه من الاتساع والعمق معا .

وقد بدأت الصحف تصدر في هذه الفترة ، ويكتب فيها رجال من هذه المدرسة ، صمموا على ان يطوعوا العربية لتخوض تجربتها العلمية الواسعة في نجاح . وقد ساعدهم على بلوغ الهدف انتشار التعليم وتقدير بعض ولاة الاتراك في هذه الفترة الحرية الفكر ، ثم دخول لبنان في عهد المتصرفية الذي أبعده الى حد ما - عن قبضة الترك المتحكمة . وكانت هذه الصحف تعنى بالترجمة عناية ملحوظة (١) .

وقد أثمرت هذه الحركة ثمرتها المرجوة فنشأ كتاب كبار مبدعون بدءوا ينظرون الى ماضينا وتراثنا نظرة جديدة ، ويعرضونها عرضا جديدا مستفيدين من أسلوب الغرب في النظر الى تراثه وحياته . ونذكر منهم هنا جميل المدور (صاحب حضارة الاسلام في دار السلام) الذي تأثر (فينيلون) Fénelon في (تليماك) Télémaque وجورجي زيدان الذي تأثر في رواياته التاريخية (ديماس) الاب و (والترسكوت) ومارون النقاش وأديب اسحاق ونجيب الحداد الذين (سرحوا) مآسي (كورني)Corneille و (راسين) Racine وملاهي (موليير Molière ونذكر قبل هؤلاء جميعا أحمد فارس الشدياق الذي تأثر (رابليه ... Rabelais وأصاب نجاحا شخصيا في تطويع التركيب العربي القديم وتطريته للتعبير عن حاجات نفسه الأصيلة ، في كتابة مغامراته في (الساق على الساق)

كانت هذه هي حدود الموقف الادبي في لبنان حين بدأت الهجرة تنشط الى الامريكتين بعد ان وقع في دست الحكم السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٨)

---

١) - انظر في اتساع حركة الترجمة هذه كتاب (القصة في الادب العربي الحديث) لنجم ص ٦٩ - ٧٧ . وقد كان لهذه الحركة أثرها الكبير بعد ذلك في تهيئة النفوس لظهور الحركة الرومانسية التي سيمثلها جبران في أدبنا الحديث

وانتشر الارهاب وعم خنق الحريات .

أما حدود الموقف الادبي في مصر فقد كانت في أواخر القرن الماضي ماثلة ، يهزها الصراع الدائر بين الثقافتين العربية والغربية ، وهو الصراع الذي مثل فيه الافغاني ومدرسته الدور الأول . وقد تمخض عن ميلاد مدرسة أدبية مجددة ذات شقين أولهما مدرسة الجريدة التي أسسها أحمد لطفي السيد سنة ١٩٠٧ وبرز من أعضائها محمد حسين هيكل ومنصور فهمي وطه حسين ومصطفى عبدالرازق ، وقد تأثروا جميعا بالثقافة اللاتينية . والشق الثاني كونه عباس محمود العقاد وابراهيم عبدالقادر المازني اللذان تأثرا بالثقافة السكسونية . والمدرسة بشقيها لم تسع في تجديدها الى قطع صلتها بالقديم وانما حاولت أن توفق بينه وبين الحديث بأن تخلق — في الأدب والحياة — " مذهبا وسطا متصلة جذوره الحية بالماضي الخصيب ، متطلعة جذوعه وأوراقه وأزهاره الى أنوار المدنية العصرية الساطعة " (١) .

ونمضي الآن في بحثنا لنرى رأي أدبائنا المهجريين ، في هذا الموقف الأدبي الذي بينا حدوده في لبنان ومصر وأثرهم فيه (٢) .

ونعتقد أنه من المفيد جدا أن نعود قليلا هنا فنقف على طريقة التعليم التي جرى عليها أدباؤنا المهاجرون قبل هجرتهم . وسنحاول أن نفهد الى أقصى حد من النصوص القليلة التي وقعت في أيدينا .

لقد بدأ نعيمة وجبران دراستهما في مدرسة القرية . وقد خلف لنا الأول صورة طريفة لأسلوب الدراسة وموادها في هذه المدرسة في كتابه الذي أصدره منذ ثلاثة شهور وترجم فيه للمرحلة الاولى من حياته (سبعون) . يقول نعيمة (٣) ان وجهاء الطائفة الأرثوذكسية في بسكنتا هم الذين هيأوا لطائفتهم هذه المدرسة بعد أن كانت ملحقة بالكنيسة . وكان المعلم فيها رجلا نصف

---

١)— أمالي الدكتور الكتاني

٢)— من المفيد ان يرجع الى فصل النقد — في الباب الثالث — ليستعان به على الاحاطة بآراء أدبائنا في المهجر ،في اللغة والأدب . وسيساعد ذلك على فهم صورتهم الأدبية فهما حسنا .

٣)— ص ٥٥ وما بعدها .

أمس لا يتقاضى أن راتب فوق (خبزه الجوهرى) " . وكان أسلوب التعليم يقوم على تهجئة الكلمات بفك حروفها وتغييبها فى الذاكرة حرفا حرفا . فأما مادة الدراسة ووسيلتها معا فكراس " فيه مختارات من مزامير داوود النبى . وأولها المزمور الذى مطلعه : (طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الكفرة) " وقد سمى هذا الكراس (كراس طوبى) .

ويبدو أن هذا الأسلوب كان شائعا فى مدارس القرى اللبنانية كلها ، فهو لا يختلف أبدا عن أسلوب التعليم فى مدرسة بشرى الذى صوره لنا (حبيب مسعود)(1) مواطن جبران بقوله : " وكانت طريقة تعليمه - أى القسيس - أن يفرض على الولد دراسة صفحة كاملة من المزامير ، فاذا ما جاء دور التسميع ، انتصب الولد أمامه فما يكاد يقرأ بضع كلمات حتى يغفو القسيس ، فلا يفيق الا حين يسكت التلميذ " .

فأما الأدباء الآخرون فلسنا نعرف على التحقيق كيف بدءوا تعلمهم . ونعتقد أن أبا ماضى - فى قريته المحيدثة - دخل مدرسة القرية وقرأ (كراس طوبى) . وأن عريضة وعبد المسيح درسا فى حمص فى مدرسة طائفية على نحو ما فعل كاتسفليس فى طرابلس .

ومن هنا يبدو أن أسلوب الكتاب المقدس المترجم الى العربية هو المثال الأدبى الاول الذى انفتحت عليه عيون أدبائنا ، فقد كانت بعض كراريس التوراة آلة الدراسة ، وتغييب آياتها مادتها ، وتهجئة كلماتها طريقتها .

ثم تابع هؤلاء الأدباء بصورة عامة تعلمهم فى مدارس طائفية كانت تضع الكتاب المقدس - لا شك - موضعا مرموقا . وتفرقوا هنا : رحل نعيمة الى روسية وأجاد الروسية قبل أن يهاجر . ورحل جبران الى أمريكا فتعلم الانجليزية ثم عاد منها الى مدرسة الحكمة التى أسسها الكاثوليك ليتعلم " لغة قومه " . ورحل عبد المسيح وعريضة بزادهما من كلية المعلمين بالناصرة . وأجاد كاتسفليس الفرنسية وقرأ جانبا من أدبها قبل أن يهاجر . وبقى أبو ماضى فى مصر زمنا طويلا ثم هاجر بدوره .

---

(1) كتاب (ما أجملك يا لبنان) ٨١

وكان ما حصله هؤلاء الأدباء في فترات دراستهم هذه من العربية هو ذخرهم الذي أنفقوا منه طيلة اقامتهم بالمهجر (١). ومازال نعيمة — الى حد ما — وعبد المسيح ينفقان منه الى يومنا هذا .

وسنقبل الآن على دراسة الصورة الأدبية لدى كل أديب من هؤلاء الأدباء بعد تسجيل الملاحظات التالية :

١)— لقد أجملنا القول فيما سبق ، وستتضح لنا المفارقات الكثيرة الآن بحيث يصعب ألا نميز في أحكامنا العامة تمييزا واضحا .

٢)— ساعد انتشار الصحافة — كما بينا في مطلع الفصل — على أن يجد معظم هؤلاء الأدباء بين أيديهم نماذج أدبية حية مرنة قبل أن هاجروا، وقد كان نعيمة مثلا مشتركا في مجلة الهلال ، ترد اليه أعدادها في بولتافا (٢) . ولا شك أنهم استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم رأيا في اتجاهات الحياة الأدبية ومستواها قبل أن يرحلوا .

٣)— يجب ألا نغفل عن أن المدارس الطائفية الخاصة والروسية — وهي المدارس التي تلقى فيها هؤلاء الأدباء دراستهم الثانوية — كانت تعنى عناية حسنة بالعربية . وكان بعضها يضع بين يدي الطلاب نصوصا جميلة في أدبنا القديم والحديث (٣) .

٤)— انقطع هؤلاء الأدباء — بعد هجرتهم — عن موطن العربية الى بلد بعيد تختلف فيه الحياة في جميع وجوهها — عن حياة وطنهم . وليس يصلهم بهذا الوطن الا الصحف المتفرقة وأعداد من المجلات الصادرة فيه ، ورسائل كانت تتناقص شيئا فشيئا لتتركهم أخيرا الى مصيرهم المحتوم في المهجر الغريب .

٥)— لم يتح لمعظم هؤلاء الأدباء أن يقرءوا العربية في المهجر ويطلعوا على تراثها القديم ، فقد انصرفوا الى الانجليزية . وكان الحديث في شئون الفكر والأدب يجرى بين زعمائها بالانجليزية (٤) .

---

(١) يقر نعيمة بذلك في مقالته (أدب المهجر) . الحديث ٩٤٩ عدد ٢ ك (يناير) ص ٢٤ . ولكن لأبي شادي رأيا مخالفا يقول فيه " ان أدباء المهجر ، لا يقل اطلاعهم اللغوي عن اطلاع اقرانهم في الأقطار العربية " مقالته (خصائص الأدب المهجري) الأديب ٩٥٢ عدد ١١ ص ١٢ . (٢) سبعون ١٩٠ . (٣) المصدر السابق ٧٥

(٤) من حديث نعيمة الي في بيروت بتاريخ ١٩٥٨/١٢/٥ . وانظر كتابه (جبران) ١٩٧ .

وقد سبق أن أشرت الى أن مكتبة جبران تكاد تخلو من الكتب العربية .

٦) — أتيح لجبران وتحيمة — بصورة خاصة — الاطلاع الواسع على الآداب الشرقية والغربية . واتصلا بأدباء كبار من الشرق والغرب فتأثرا بهم تأثرا بالغا .

(٢)

وقد اشتبكت عوامل كثيرة في تكوين الصورة الأدبية عند جبران . أولها في رأينا — أنه رسام رحب الخيال ، فهو يعجز عن أن يتمثل الفكرة ويتملى الاحساس دون أن يتصورهما ، فكأنه يفكر ويحس من خلال الصور وحدها . ما تكاد تلمع في رأسه خاطرة حتى تشف عن صورة ، ولا يتم انفصاله ولا يستنفد حتى يتجسد في صورة أو أكثر . فالصورة عمود التعبير عنده ، وتوشك أن تكون غاية التعبير أيضا في كثير من الاحيان . ثم قد لا تكفيه صورة الفكرة او الاحساس فيلجأ الى تشبيهها بصورة أخرى . ومن هنا كثرت التشابيه في كتابته واعتبره بعض النقاد رساما أكثر منه كاتبا (١) .

وحسبنا الآن أن ننظر في أي صفحة كتبها جبران حتى نلتقط الامثلة الكثيرة . الزمن عنده — مثلا — يتحرك من خلال الصور ، ففي المساء " ينتزع المغرب دقائق النور من الفضاء (٢) " ، واذا سكن الليل " رقدت الحياة " واذا انتصف " ألقت السماء بذور الغد في أعماق ظلمة الليل (٣) " . كأن نفس جبران لوحة حساسة ريشتها خياله المستوفز ، فالمجردات عنده كالمحسوسات قائمة يمسكها الحس ويتمثلها الخيال . وبذلك صور جبران الموسيقا فقال : " هي جسم من

---

(١) أشارت مجلة الزهور منذ سنة ١٩١٠ الى هذه الخاصية في كتابة جبران . السنة الاولى العدد ٤ ص ١٤٥ . وانظر في هذا المعنى مقالة بعنوان (جبران هل كان غامضا) لحبيب جاماتي . الهلال ٩٤٩ عدد نيسان (أبريل) ص ٥٩ . وفي رأي عبد المسيح حداد أنه من الصعب ان نفصل بين جبران الأديب وجبران الرسام . العصبة ٩٤٠٨ ، العدد ٤ ص ٣٧٥ . ويقول فؤاد أفرام البستاني : " الرسم والكتابة مقترنتان في نظر جبران ، لا فرق بينهما في أداء الفكر " (المشرق ٣٧ / ٢٤٧) . وانظر ايضا مارون عبود — مجددون ٢٠٨ ، والأب شيخو — المشرق ٢١ / ٤٨٨ —

(٢) مجموعة المؤلفات ١ / ٨٩

(٣) المصدر نفسه ١ / ٦٦

له روح من النفس وعقل من القلب (١) " .

ولا شك أن نفاذ الحس يساعد على اطلاق الخيال ، فهو غذاؤه وجناحه ، يعمق الفكرة بأن يضور الاحساس بها حتى تلتهب النفس فيشب الخيال وتتداعى صور الحياة المتقاربة فيزيد بها الحس نفاذا ، وتتم الدورة : الحس يغذى الخيال والخيال يغذى الحس . وقد وقع ذلك لجبران على أوسع معانيه . يثيره الظلم مثلا فيسرى الانفعال فى أعصابه مسرى الدم حتى لتغيم الحياة فى عينيه فينطلق الخيال بالحال ليصور عالما يستجيب لوقدة الاحساس ويغذيها فى وقت واحد ، حتى تبلغ ذروتها فيتم بذلك استنفاذها : " انظر يايسوع الناصرى الجالس فى قلب دائرة النور الأعلى . انظر من وراء القبة الزرقاء الى هذه الأرض ، التى لبست بالأمس من عناصرها رداء . انظر أيها الحارث الأمين ، فقد خنقت أشواك الوعر أعناق الزهور التى أنمشت بذورها بعرق جبينك . أنظر أيها الراعى الصالح ، فقد نهشت مخالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذى حملته على منكبيك ، انظر فدماؤك الزكية قد غارت فى بطن الارض ، ودموعك السخينة قد جفت فى قلوب البشر ، وأنفاسك الحارة قد تضعضعت أمام رياح الصحراء ، وأصبح هذا الحقل الذى قدسته قدماك ساحة قتال تسحق فيها حوافر الأقوياء ضلوع المنطرحين وتنتزع أكف الظالمين أرواح الضعفاء ... (٢) . "

المسيح هنا فى قلب دائرة النور يطل من وراء القبة الزرقاء (عالم يرمز للطهر والجمال والخير) فيرى الشوك لوى أعناق الزهر الذى وضع بذوره . ومخالب الوحوش نهشت ضلوع الحمل الذى حمله على منكبيه . ويرى دماءه غائرة ودموعه جافة وأنفاسه متضعضعة أمام ريح الصحراء (عالم كله ضغينة ونكران وعدوان) . عالمان جديدان متقابلان يراهما جبران رأى العين: فى الأعلى حياة من نور وزرقة وفى الأسفل حياة من شوك ومخالب ودم ودموع وأنفاس مرتعشة . فاذا امتلأ احساسه بهذه المشاهد المتداعية التى طاف بها خياله وجمعها فى قوله الاخير : " أصبح هذا الحقل الذى قدسته قدماك ساحة قتال تسحق فيها حوافر الأقوياء

---

(١) ١/٤٦ . وقد وصف عبدالمسيح حداد خيال جبران بأنه " كالبحر فى مده وجزره " . العصبة ٩٤٨ العدد ٤ ص ٣٧٤ .

(٢) مجموعة المؤلفات ١/١٠٠ — وكان جبران منذ الصغر يصرف قدرته الفائقة على التخيل . وقد خلف فى دفاتره القديمة بيتا يقول فيه :

وأقمت من الخيال صروحا عاليات يخرقن صدر السحاب (المشرق ١٤/٢٥١)

ضلوع المنطرحين ، وتنزع أكف الظالمين أرواح الضعفاء ،" في هذا الاحساس وانتهى الى ذروته فاخذ جبران يسمع حقا " صراخ البائسين المتصاعد من جوانب هذه الظلمة " ، و " نواح المحزونين " ... وبذلك تكامل الاحساس بتكامل الصورة فغذاها وتغذ بها ، واستنفد بذلك طاقته الصارمة ... .

وهذه بلا شك موهبة الرسام الذي يجسد احساسه أو فكرته في لوحة لأنه — في الأصل — عاجز عن تمثلهما الا من خلالها . ولا يمكن — في مثل هذه الحال — أن تنجح الصور القديمة في استيفاء هذه الاحساسات البكر والافكار الأصيلة ، لأن هذا الاستيفاء لا يتم بالصورة قدر ما يتم بينهما ، واختيار موادها وبتداعيها تداعيا عفويا يمس اطراف الحياة التي تجمعها عينا الفنان نفسه ويحرك تجربته الذاتية . ولهذا كثرت الصورة والتشابيه الجديدة في أدب جبران حتى اعتبر في ذلك علما وحده . اذا تكلم مثلا على الحب قال : " رأيت روحا واحدة سماوية متمثلة أمامي بجسدين يجملهما الشباب ويسربلهما الاتحاد وقد وقف بينهما اله الحب باسطا جناحيه ليحميهما من لوم الناس وتعنيفهم" (١) ويتكلم على ظلم الأمير والدير فيقول : " وقفت متنهدا . ولو لامست شعلات تنهيداتي أشجار ذلك الحقل لتحركت وتركت أماكنها وزحفت كتائب كتائب وحاربت بقضبانها الأمير وجنوده ، وهدمت بجذوعها جدران الدير على رؤوس رهبانه " (٢) . واذا توارت الشمس سكب جبران نفسه وألمه في هذه اللوحة : " توارت الشمس اذ ذاك وراء الشفق كأنها ملت متاعب البشر وكرهت ظلمهم ، وابتدأ المساء يحوك من خيوط الظلال والسكون نقابا دقيقا ليلقيه على جسد الطبيعة" (٣) .

فالصورة الأولى تستبطن احساس جبران الخاص بموقف المجتمع من الحب وضرورة حمايته . والصورة الثانية تحكي تمرده الرومانسي على الحكام والكهنة . والثالثة تـ

---

(١) مجموعة المؤلفات ١/١٢٣

(٢) المصدر نفسه ١/١٣٨

(٣) " " ١/١٣٩ .

يكشف عن حبه لليل وهدوئه الذى يتيح له العودة الى نفسه .[1]

على هذا النحو يجسد جبران احساسه الأصيل الى الصورة الجديدة الاصيلة ، كأنه يخضب قلم الكاتب فى ريشة الرسام ، فالشجاعة الضائعة " سيف أغمد بالتراب "(٢) ، والحب المظلوم " زهور لفحتها النيران "(٣) ، والعدل المفقود " صلبت غمرته ظلمة الليل "(٤) والنفس المترقبة " زهرة لينة فى مهب ريح التقادير ، نسمات الصباح تهزها وقطرات الندى تلوى عنقها "(٥) .

فأصالة الصورة اذا استجابة لاصالة الاحساس أو الفكرة . وقد بلغ ذلك عند جبران حدا أصبحنا معه قادرين على أن نرى لبنان بقممه ووديانه وضبابه وحقوله وزهوره وغيومه وعواصفه وسواقيه من خلال صوره فالنعاس ـ مثلا ـ يلامس الحواس بأطراف ثيابها نقابه " مثلما يلامس الضباب اللطيف وجه البحيرة الهادئة "(٦) . والعواطف النائمة فى النفس " مثل بذور الزهور المختبئة تحت أطباق الثلج "(٧) . والحبيبة تمر كالنسيم الحامل أنفاس الحقول "(٨) وتلامس الحواس فتهتز " كأوراق الاشجار "(٩) وأشباح الليل تنسل " كأنها أبخرة متولدة "(١٠) . والعواطف تتولد " مثلما يتولد العطر فى أعماق الزهرة "(١١) . والفتاة فى السادسة عشرة تعتبر نفسها " مثل مرآة صقيلة تعكس محاسن الحقول ، وقلبها شبيها بخلايا الوادى يرجع صدى كل الاصوات "(١٢) . والقامة المهزولة المنحنية " غصن من الورد الأصفر الذابل بين الاعشاب النضرة "(١٣) .

---

(١) نحن نعد هذا التجديد فى التعبير ـ الذى هو ثورة على التعبير القديم ـ صفة رومانسية جارية على غرار التجديد فى كتابة الرومانسيين الكبار . وقد أعطى جبران اللغة بذلك ـ كما يقول صيدح ـ : " امكانية جديدة فى التنسيق والبيان للتعبير عن الجمال . ورسم صورا جديدة فى كل موضوع عالجه " . (أدبنا وأدباؤنا ٧١ـ٧٢) وسيتضح لنا ذلك اتضاحا كافيا بعد قليل . وقد اعطى صيدح جبران بهذه الصفة لقب " رائد التجديد الاول وأستاذه الاكبر" . (المصدر نفسه ٧١) . (٢) مجموعة المؤلفات ١/١٣٩ (٣) المصدر نفسه الصفحة نفسها (٤) المصدر نفسه ـ الصفحة نفسها . (٥) ١/٤٧ . (٦) ١/٦٦ . (٧)

(٨) (٩) (١٠) ١/٧٠ . (١١) ١/٧٦ . (١٢) ١/٧٦ـ٧٧ . (١٣)

والتعزية تنير الوجه المصفر " مثلما تنير أشعة المغرب اللطيفة خلايا الغيوم"(١) والغاضب يسكت " سكوت العاصفة بعد تكسيرها الأغصان المتشامخة والانصاب ... اليابسة "(٢) . وسلطة الزعماء دائمة " أشبه شيء بأشجار السرو ذات الاخضرار الأبدى "(٣) والحياة الشريرة " واد تدب فى جوانبه الثعابين المخيفة "(٤) ومبغضو التقاليد " مثل كهوف الأودية الخالية يرجعون صدى أصوات ولا يفهمون معناها "(٥) والافكار تتضعضع " مثلما تتوارى خطوط الشفق بالضباب "(٦) . وصراخ المظلوم ينبثق " انبثاق الضباب من خلايا الأودية "(٧) .

* * *

والنظر فى اصالة التعبير عند جبران يستدعى الانتقال الى العامل الثانى فى تكوين صورته الأدبية وهو عقيدته بوحدة الحياة واتصال الكائنات كلها بروابط خفية واعتبارها ظواهر لحقيقة هى الأصل فيها . ولاشك أن هذه العقيدة تزيد فى نفاذ الاحساس ورهافته حتى يجمع المشاهد المتفرقة فى مظاهرها ، على وحدة أصولها . والاحساس العميق بهذه الوحدة يعرى الأشياء فى بعض الاحيان من منطقها الظاهر الذى يبدو لعامة الناس ، ليحكم بينها منطقا خفيا ذاتيا تعجز اللغة عن بيانه فتلجأ الى الرمز لتوحى به ايحاء . ومن هنا كان قول (كارلهل " المخيلة — فى منطقة تصوفها الملهئة بالعجائب — لا تتجسد الا بالرموز . ان فيما نسميه رمزا تنقشع اللانهاية بعض الشيء وتتجسد . وبالرمز يمتزج اللا متناهى بالمتناهى ، فيصبح ملموسا .. "(٨)

ولهذا يرى جبران والرمزيون كلهم الأشياء من خلال ذواتهم ، فيحكمون بينها الصلات والروابط ويفسرونها تفسيرا ذاتيا صرفا على أساس احساسهم بالحقيقة .

---

(١) ٨٥/١ . (٢) ...... (٣) ٩٩/١ (٤) ١٠٢/١ (٥) ١١٧/١
(٦) ١٣٠/١ (٧) ١٣٨/١ . وقد اشارت معظم المصادر الى استعداد المهجريين لصورهم وتشابههم من بيئة بلادهم . انظر مقالة للويس الريس بعنوان (صور الأدب المهجرى) الثقافة ١٩٤١ العدد ١٤٣ ص٢٨ . وانظر مارون عبود — مجددون ص٢٠٨ وما بعدها . وهو يعتبره (فى مقالة له بعنوان " الخيال اللبنانى " فى الاديب ١٩٤٢ العدد ٣ ص٥٥) خير مثال للعرق والبيئة اللبنانية قديما وحديثا " ويقول " ان جبران فى خلقه وخلقه لبنانى أصيل . وكأنى بالعرق اللبنانى قد تجمع كله فى هذا الرجل ليجعله مثلا لثقافته وخياله .. "
(٨) أنطون غطاس كرم — الرمزية لدى أدبنا العربى الحديث ص٢٩ . وانظر أيضا فى الصلة بين عقيدته ورمزيته مقالة بعنوان (جبران خليل جبران ورسمه الرمزى) لعدنان الذهبى الاديب ١٩٥١ العدد ١ ص١٠ـ١٢ . وانظر مقالته الاخرى (الرمزية فى أدب جبران) العدد ٣ من السنة نفسها ص١٦ـ١٩ وهو يرى فيها أن رمزية جبران تنبع من خياله القوى ونزوعه الصوفى .

التى تجمعها وتوحد بينها فى الأصل كأنهم بهذا التفسير يعبرون عن نزوعهم الى المطلق الذى تلتحم فيه هذه الأشياء . ويقوم الخيال الذى رأينا شبوبه فى أدب جبران بدور هام فى تصوير العلاقات وتقريب المشاهد المتفرقة .

جبران اذاً يتغلغل وراء الأشياء ليعبر عن الحقيقة الكامنة فيها ، فهو يقول مثلا : " هنا قد طلعت الشمس وغرد الهزار والبلبل وتصاعدت أرواح الآس والمنثور . وأنا أريد الانعتاق من لحف الكرى لأسير مع الحملان البيضاء . فلا تعنفنى يا لائمى ولا تخفنى بأسد الغاب وصل الوادى لأن نفسى لا تعرف الجزع ولا تنذر بالسوء قبل مجيئه "(٢) . فهذه حال نفسية من النزوع الى المطلق والفناء فيه والتمرد على الحدود والقيود . وقد جمعت هذه الحال مشاهد متفرقة توحدت كلها فى هذا النزوع الى التحرر والفناء فى المطلق والاستهانة بكل عقبة . وقد أثار جبران فى القارئ حالا نفسية مشابهة لحالته بأن رمز لهذه الحال بطلوع الشمس التى لا يقف فى طريقها شئ وتغريد البلبل الصفوى وتصاعد أرواح الآس والمنثور الفطرى وانطلاق الحملان البيضاء الفرحة الخفيفة التى لا يثقل خطاها شئ . وهو يكره القيد كرها عميقا ويريد ان يوحى بكرهه المماثل ... للقارئ ، فهو " أسد الغاب " المرعب وهو " صل الوادى " المرهب . ان " الصورة الرمزية بحسب ما يحددها (كانت Kant) توحى الشئ الذى ترمز اليه . وهذا الايحاء لا يتأتى بواسطة تشابه فى المظاهر المحسوسة بين الصورة المجردة والشئ ، بل بواسطة علاقات داخلية بينهما من مثل النظام والانسجام والتناسب وغيرها "(٣) . ولا شك أن هذا الايحاء يوسع فى امكانية اللغة للتعبير عن حاجات النفس الخفية التى لا يتهيأ للتعبير المحدد أن يمسكها . ويفسح فى دلالات .. الألفاظ حتى تسع برنينها أن تجوس مناطق غامضة فى النفس .

ويوغل جبران أحيانا فى عالمه الرمزى الخاص الذى يعيش فيه وينسجه من نفسه ، فيصوره لنا " حقل تصورات ، أنهاره طيبة كالخمر ، وأطياره تسبح

---

(١)

(٢) مجموعة المؤلفات ٢/١٦٠

(٣) أنطون كرم — الرمزية فى الأدب العربى الحديث ٩

كالملائكة ، وأزهاره فائحة العبير ، فلا يدوسه غير ابن الاحلام " (١) . وليس هذا العالم الا رمزا لأحلامه وأشواقه التي هي – في حقيقتها – حال نفسية لا تنقل الا عن طريق الايحاء .

ويصور جبران دخوله هذا العالم فيقول : " لما جاء الليل وتشاركت المخلوقات المتنابذة بارتداء ثوب السكينة ، شعرت بأن في الاثير المحيط بي سيالا يضارع البخور عطرا ، ويعادل الخمر فعلا . فصرت أجرعه محكوما وأحس بأيد خفية تتسامى عاقلتي وتثقل جفني وتحل نفسي من سلاسلها . ثم مادت الأرض واهتز الفضاء ، فوثبت مدفوعا بقوة سحرية ، فوجدتني في رياض لم يتخيلها بشر قط ، مصحوبا بجوق من العذارى لم يرتدين بغير الجمال يمشين حولي ولا تلمس أرجلهن الاعشاب ، وينشدن تسبيحة منسوجة من أحلام الحب ، ويضربن على قيثارات من العاج ذات أوتار ذهبية . ولما وصلت الى منفرج قام في وسطه عرش مرصع بالجواهر بين مسارح تنسكب منها ألوان بلون قوس قزح ، وقفت العذارى على اليمين واليسار ورفعن أصواتهن عن ذي قبل ونظرن الى جهة تنبعث منها رائحة المر واللبان ، فاذا بمليكة ظهرت من بين الأغصان الزاهرة – ومشت ببطء نحو العرش ، واستوت عليه فهبط اذ ذاك سرب حمام كالثلج بياضا ، واستقر حول قدميها بشكل هلال ....

صار هذا والعذارى يغنين مجد المليكة سورا ، والبخور يتصاعد لتكريمها أعمدة ، وأنا واقف أرى ما لم تر عين انسان ، وأسمع ما لم تعه أذن .. بشرى ... " (٢)

فجبران هنا يصور في هذه الرؤية الشعرية حالة نفسية خاصة تصويرا خياليا يرمز فيه الأشواقه الى الحب والكمال والجمال والطهر والانطلاق من أسر الواقع (٣) ، بهذا الحلم الجميل الذي يقضيه في الرياض بين العذارى السابحات

---

(١) مجموعة المؤلفات ٢/١٥٨ (٢) مجموعة المؤلفات ٢/١٥٧ – ٥٨

(٣) عبر أبو ماضي عن ذلك بقوله : " كانت ريشته تلمس الحقيقة فاذا هي خيال ، والخيال فاذا هو حقيقة " . السمير ١٩٣١ العدد ١ (من كلمة بمناسبة نعيه) .

فـي الجـو المنشـدات تسبيحات منسـوجة مـن أحـلام الحـب ، حتى يصل الى ملكـة الخمـال — وهى رمـز المطلـق — التى يقـوم عرشـهـا المرصع بـين أقواس قـزح وروائـح المـر واللبـان ، والتى يهبط عنـد قدميها سـرب مـن الحمام الابيض — رمـز الطهـر ويحـلق بشـكل هلال — ومـز السـماء ...

وقـد نجـح جـبران فى ان يوحـى الينـا بهذا الجـو النفسـى عن طريق هـذه الرؤيـة الـرمزيـة ، فنقلنـا الى عالمـه العجيـب الساحـر الذى لا يخلو مـن الغموض لمـا تحتمـل هـذه الرمـوز مـن تفسـيرات مختلفـة (١) .

وقـد اعتمـد جـبران — لاحكام الايحـاء بالحالـة والعدوى بالجو — موسـيقا لفظيـة باديـة فى النص ، كالأثـير المحـيط والسـهال الذى يضـارع البخور وجـوق العذارى والتسبيحـة المنسـوجة من أحـلام الحب وقيثارات العاج ذات الاوتـار الذهبيـة والعرش المرصـع بالجواهـر وألـوان قوس قـزح وروائـح المـر واللبـان وسـرب الحمام الابيض الـخ .... وهـو بذلك يلتقـى مع الرمـزيـين الذين يعتمـدون موسـيقا اللفـظ فى اثارة الأحـوال النفسـية والعدوى بهـا ...

وتكـثر فـى أدب جـبران هذه التعبـيرات الرمزيـة الموسـيقيـة مثـل قولـه :

" عندما أكمـل الليل تنميـق ثوب السماء بجواهر النجوم تصاعدت من وادى النيل حـورية محفو فـة بأجنحـة غـير منظورة وجلسـت على عرش مـن الغيـوم مرتفع فـوق بحـر السـروم مفضض مـن أشـعة القمـر . فمـر من أمامـها جـوق أرواح سـابحة فى الفضـاء صارخة : قـدوس ، قـدوس ، قـدوس ابنـة مصـر مجـدها ملء كل الأرض .

وتصاعد من أعالى فم الميزاب المحيط بغابة الأرز طيف فتى مكتنفا بأيدى الساروفيـم وجلـس على العرش بقرب الحورية ، فعادت الأرواح ومرت من أمامها هاتفة : قدوس ، قـدوس

---

(١) يتهم حبـيب جاماتى الآخذين على جبران غموضه بأنهم لا يدركون معانى مؤلفاتـه لأنهـم لا يريدون أن يدركوها ! (مقالته " جبران .. هل كان غامضا " المشار اليها سابقـا) على أن جـبران نفسه وصف مقالته (الضائع) بأنها غريبة مبهمة فى موضوع مبهم وغريب " وقال "لقد احسسـت أثناء كتابتها كأننى أحاول صنع تمثال من الضباب ، بيد أننى أظن أن الكتابة فى هذه المواضيع لمن الأمـور المفيدة للناشئة الشرقية لأنها تنبه الميل الى استفسـار المبهم والخفى ! " (من رسائله الى اميل زيدان . الهلال) ومـن أجل ذلك قـال بعض الباحثين فى غلو : " جـبران أشبه ما يكون بالحلم المريح ، تحس به وتحياه بعض الوقـت ولكنك لا تستطيع أن تلمسه ولا أن تستبقيه فى نفسك " ، "فهو قلما يترك فى رأسك أثرا صريحـا سوى أثر الاعجاب .. " (جـبران بين المسيح والمرأة — مقالة لسمعان زخريا — المكشوف : عدد جـبران ص ٩

قدوس فتى لبنان ، مجده ملء كل الدهور .... الخ (١) " .

ولا شك أن جبران الذي يكره الواقع ، ويحب أن ينظر الى الحياة دائما من خلال سحابة من الدخان — كما يقول الرمزيون (٢) — كان يجد في الرمزية متنفساه ، فهي بالتنغيم والتهويم والألوان والخطوط — قادرة على ان تنقله الى جوائه المسحورة المفضلة ولكن ذلك خلف في أسلوبه مسحة خفيفة من التحمل والصنعة يحسها القارئ احساسا يغلبه عليه جمال الصورة وارتفاع حدة الخيال (٣)

---

(١) كان جبران يعد الكلام كله رموزا ويقول : ان الانسان " يرسم لشعوره رموزا تدل بمعانيها على خفايا نفسه ، ويجسم خياله بالكلام والانغام والصور والتماثيل التي تظهر بأشكالها أقدس ميوله في الحياة واجمل مشتهياته بعد الموت (الأجنحة المتكسرة — مجموعة المؤلفات ٢/ ٧١) . وكان لهذا يكثر من التفتيش عن الكلمة الموحية في كتابته فيكثر في مسودات كتبه الشطب والتنقيح والاصلاح وابدال المفردات (فؤاد افرام البستاني — المشرق ٣٧/ ٢٤٧ ٢٥٣ وما بعدها) . وقد أثر ذلك في شباب عصره أثرا سيئا لأنهم كلفوا بغموض صوره دون ان يكون لهم موهبته وخياله فأمعنوا في " الألوان والمجازات والاسنادات والاغراق في تعبئة الجملة " كما يقول مارون عبود (مجددون ٢١٣ — ١٤) .

وأصبح جبران " مثل عبد الوهاب في الموسيقا : الكل يحاول تقليده " (فاضل سعيد عقل — مقالته " الرومانتيكية اللبنانية " في المكشوف ٩٤٢ العدد ٣٤١ ص ٥) . فنحوقت الاقلام — فني — سيل من هذه الكلمات الجبرانية : عرائس الحقل ، يستحم في النور ، أصابع الفجر ، رياح الشهوة ، خشوع الأودية ذيل الضباب وسواها .. " (الياس أبو شبكة روابط الفكر والروح ١٠٤) .

وقد أخذ زكي مبارك على جبران اسرافه " في الزخرف والبريق " ووصف أسلوبه بأنه " زهرة لا شجرة " وأعاد كلفه بهذا الى انه اراد ان يصرف اخوانه في الشرق بأنه يعرف خصائص العربية وهو في أمريكا (مقالته في الرسالة) ، وغني عن البيان ان الناقد لم يقرأ الجبران ما يهيئ له أن يرتدع عن هذا الظن الجائر بأن يتذوق التآلف القائم في تعبير جبران بين الاحساس البالغ والتعبير الحار .

(٢) فن الشعر لاحسان عباس ٦٢ .

(٣) يعتقد مارون عبود ان جبران مقل مجود متعمد ، ولكن صقله الدائم لعبارته أخفى تعمله ، فكاد انشاؤه أن يكون طبيعيا لا تحس أثر الصنعة فيه . (مجددون ٢٠٩) .

ويبدو هنا تأثر جبران بأسفار التوراة الشعرية واضحا (١) ، حتى لتختلط على القارئ — في بعض الاحيان — رموزه برموز التوراة . ويمثل كتابه (الموسيقا) ذروة هذا التأثر . كما يبدو تأثر جبران — من ناحية أخرى — (بنيتشة) و (تاجور) .

وزاد اعتماد جبران الموسيقا في صياغة صورته الأدبية ، فيما كتب من نثر شعري (٢) شديد الشبه بشعر التوراة . ونأخذ مثالا على ذلك مقالته الشعرية (بين ليل وصباح) فهو يبدؤها بقوله :

" أسكت يا قلبي فالفضاء لا يسمعك .
أسكت فالأثير المثقل بالنواح والعويل لن يحمل أغانيك وأناشيدك
أسكت فأشباح الليل لا تحفل بهمس أسرارك ومواكب الظلام لا تقف أمام احلامك
أسكت يا قلبي . اسكت حتى الصباح ، فمن يترقب الصباح صابرا يلاقي الصباح قويا ، ومن يهوى النور فالنور يهواه .
أسكت ياقلبي واسمعني متكلما .
في الحلم رأيت شحرورا يغرد فوق فوهة بركان ثائر
ورأيت زنبقة ترفع رأسها فوق الثلوج

---

(١) مارون عبود — المكشوف : عدد جبران ص ٢ . وقد عين التوراة اليازجية بذاتها .

(٢) العواصف — مجموعة المؤلفات ٣ / ٥٢ . وقد عد فؤاد صروف هذا الضرب من النثر مدرسة قائمة بذاتها في أدبنا الحديث أستاذها جبران . المقتطف ٩٣١ عدد آيار (مايو) ص ٦٣٢ (نص جبران) . والحق ان الذي بدأ كتابه النثر الشعري — متأثرا بشعر (والت هويتمان) هو الريحاني لا جبران . ولكن جبران جوده ، وأغناه وتمدد فيه — كما رأينا .

ورأيت حورية عارية ترقص بين القبور
ورأيت طفلا يلعب بالجماجم وهو يضحك .
رأيت جميع هذه الصور في الحلم ، ولما استيقظت ونظرت حولي رأيت البركان
هائجا ولكنني لم أسمع الشحرور مغردا ولا رأيته مرفرفا .
ورأيت الفضاء ينثر الثلوج على الحقول والأودية ساترا بأكفانه البيضاء أجسام
الزنابق الهامدة .
ورأيت القبور صفوفا منتصبة أمام سكينة الدهور وليس بينها من يتمايل راقصا ولا من
يجثو مصليا .
ورأيت رابية من الجماجم وليس هناك من ضاحك سوى الريح .... "

لقد خوبت اليقظة حلم جبران وعالمه الجميل المتسق الذي انمحت فيه المفارقات ، وأعادته الى الواقع القاسي القائم على الغلبة والقوة . الواقع الذي لا يطيقه.. جبران ولا يطيق العيش فيه . ومن هنا بدا ألمه العميق اليائس في مطلع المقالة وهو ألم صوره جبران تصويرا رمزيا موحيا استعان فيه بالعنصر الموسيقي في اللفظ استعانة كاملة بدت في تكرار الفصل الحاسم (اسكت) وتوازنه مع النداء (يا قلبي) وفي توازن الجمل واختيار الألفاظ ذات الرنين الفاعل في النفس : الأثير المثقل بالنواح والعويل ، أشباح الليل ، همس الأسرار ، مواكب الآلام (١) ...

ثم ينتقل جبران الى تصوير الحلم الجميل بعد أن يختم المطلع باللازمة الموسيقية الاخيرة (اسكت يا قلبي واسمعني متكلما) . وليس في الحلم الا مجموعة من الصور الرمزية الموقعة توقيعا موسيقيا متوازنا . وقد رمى جبران الى اثارة واقعه النفسي في نفس القارئ بحيك هذه السلسلة المتلاحقة من الصور العجيبة التي لا يألفها المنطق

---

(١) من أجل هذا الى جانب ما قلناه عن صوره وعاطفته يعد بعض النقاد جبران شاعرا في منثوره لا في منظومه (مارون عبود ــ مجددون ٢١٣) . وكان جبران يسمي نفسه (الشاعر) ويتحدث باسمه . ويقول انه " ينظم الشعر وينثره " . (مقالته : حفار القبور العواصف ــ مجموعة المؤلفات ٣/ ١٠) .
ويرى أمين خالد من ناحية أخرى أنه " ليس في موسيقا الأدب الجبراني سوى طبول تدوي عند قرع أصواتها ، وتذيع ضجة البلاغة اللفظية والكلام الطنان الذي يؤثر بالاذن .. وينتقل بالانسان الى عالم الدوخة والانذهال . ولا وجود للأنغام العميقة المركبة في كثرة النفسيات المتشاحنة حيث تبرز واحدة من هذه النفسيات وتتغلب على غيرها تغلبا اخلاقيا " (المشرق ٣٠/ ٥٢٣) .
وهذا في رأينا خلط في الموضوع وحيدة عن القصد .

ولكن تسهف بها النفس ، ويقوم فيها شعور قوى بدورة الحياة وضياع مفارقاتها الظاهرة وتآلف المتناقضات وتكاملها .

وقد سلك جبران في المقالة بعد ذلك مسلكا رمزيا صرفا شديد الالتفات الى التوقيع الموسيقي واختيار اللفظ ذى الرنين الموحى بالحال النفسية التى يريد جبران الارتسام في نفس القارئ (١) . ونحا نحو (تاجور) في اختيار الصورة الرمزية التى يرمى من ورائها الى النقد الاجتماعى (٢) . ثم ختم المقالة بقوله " اسكت يا قلبى حتى الصباح .

اسكت فالعاصفة الهوجاء تسخر بهمس أعماقك ، وكهوف الوادى لن ترجع بصداها رنات أوتارك .

---

(١) من رأينا أن النثر المنغوم هنا يتيح لجبران ان يعمق انفعاله ويمدده دون أن يحبس بالقيود التى يفرضها النظم والتى يمكن ان تحز في مثل هذه التجربة الشعرية وتضغط بعض أطرافها . وهذه ظاهرة بارزة من ظواهر الذاتية النامية عند أدباء المهجر ، حتى حبب اليهم هذا النوع من النثر كما حببت اليهم المقالة للسبب نفسه ، كما سنرى فيما بعد (اعتبر القس عبد الجليل النثر الشعرى والمقالة ، الفنين العزيزين على قلوب المهاجرين). (B.H. P: 249) . فهم قد كرهوا كل قيد في الفكرة واللغة والاجتماع. وبهذا يفسر — في رأينا — انقطاعهم عن الشعر بعد فترة من معاناتهم نظمه والتفاتهم الى النثر ، والى هذا الضرب من النثر خاصة . ويخالفنا في هذا الرأى الاستاذ سيد قطب الذى يعتقد أن هذه الخواطر الشعرية " يستطيع النثر الموقع المصور أن يستنفدها ولا يحتاج الى ايقاع النظم الواضح المقسم لأن طبيعتها أقل انفعالا ، بحيث يغنى فيها هذا الضرب من التعبير " (النقد الادبى لسيد قطب ٩٧) . ونعتقد أن الدكتور مندور كان أسلم تذوقا لتجربة المهجريين التى سكبوها في أدبهم وأصح تقديرا لمسئولياتها الفنية (انظر في الميزان الجديد — الأدب المهموس) .

(٢) لتاجور طريقة رمزية في النقد الاجتماعى تأثر فيها — لاشك — آداب الهند الدينية القديمة . وقد قرأ جبران (تاجور) واطلع على جوانب صالحة من آداب الهند والفرس الصوفية . وقد ذكرتنا مقالة جبران بقصة رمزية كنا قرأناها لتاجور وضاع علينا مصدرها .

اسكت يا قلبي حتى الصباح ، فمن يترقب الصباح متجلدا يعانقه الصباح مشتاقا
ها هو قد طلع الفجر يا قلبي فتكلم ان كنت تستطيع الكلام .
هو ذا موكب الصباح يا قلبي . فهل أبقى سكوت الليل في أعماقك أغنية تلاقي بها الصباح ؟
هو ذا أسراب الحمام والشحارير تتطاير متنقلة في أطراف الوادي . فهل أبقى هول الليل في جناحك صلابة لتطير معها ؟
هو ذا الرعيان يسيرون أمام قطعانهم من الحظائر والمرابض . فهل أبقت لك أشباح الليل عزما لتسير وراءها الى المروج الخضراء ؟
هو ذا الفتيان والصبايا يمشون الهوينا نحو الكروم . فهلا نهضت ومشيت معهم ؟
قم يا قلبي . قم وسر مع الفجر فالليل قد مضى ، ومخاوف الليل قد اضمحلت مع أحلامه السوداء .
قم يا قلبي وارفع صوتك مترنما . فمن لم يشارك الصبح بأغانيه كان من أبناء الظلام ....." .

لقد نهض جبران بعد عاصفة الليل التي خربت أحلامه وواقعه ، وعاد من جديد الى عالمه المفضل الذي يرمز الى الانطلاق والطهر والتحرر ، وهو عالم الطبيعة الخالية والريف . وقد أثار في أنفسنا تحسسا عميقا بالراحة والهدوء اللذين يشيعهما هذا العالم النظيف ، فأطلق اسراب الحمام — رمز الطهر والوداعة — والشحارير التي تغني الحياة بعفوية ، وسير الرعيان الى الحقول الفسيحة والمروج الخضراء — رمز الانطلاق — مخلفين الحظائر والمرابض وأشباح الليل — رمز التقييد —(١)

ولا يمكن أن نخطئ نفحة بعض أسفار التوراة الشعرية ورمز معانيها هذه النصوص . وتذكرنا المقالة التي انتزع منها النص الاخير — على نحو خاص بمراثي ارميا التي يبكي فيها (٢)

(١) لجبران مقالات رمى فيها الى الرمز في الموضوع عامة ، مثل (المجرم) و (مدينة الماضي) و (حفار القبور) وغيرها . انظر دمعة وابتسامة . مجموعة المؤلفات ٢/١٦٤ ، ١٧٠ ، والمواصف ٣/ ٩ .

(٢) من المفيد هنا الرجوع الى كلمة عن الشعر العبري في كتاب (مرشد الطالبين) ص ١١٥ — ١١٦ و ١١٧ .

مدلـة أورشـليم حينـا ، وبسـفر أيوب حينـا آخـر [١] .

ولكـن جبران يلـجأ — على رمزيتـه — الى التعبـير القوى عن نفسـه ، استجابـة لمزاجـه الرومانسـى الذى يفـك العقال عن عواطفـه ويطلقها فى جيشـان نفسـى يبلـغ مـداه مـن التمـدد والاندفاع والتلـون . كأنـه " يكتـب بدم القـلب " [٢] حقـا وقـد أغرى هذا المزاج كتابتـه فى طوفان من العاطفة المشبوبة والانفعـال الأصيـل والكآبة المحببـة الى قلبـه ، والحنـين الطاغى ، وهى كلها سـمات الأدب الرومانسى الذى حمل جبران لـواءه فى أدبنـا الحديث على نحو ما رأينـا فى دراسـتنا للمضمـون وما نرى الآن فى دراسـتنا للصـورة [٣] . فقـد مجـد الطبيعة وناغاهـا وتمـرد علـى التقاليـد والشرائع وكره المدينة ، وامتـلأ شـوقا الى المجهول والمطلق حتى عد رومانسيـا " الـى أطراف أصابعه [٤] " .

---

(١) انظر — مثلا — كيف وردت فى سـفر أيوب اللازمة التى تكـررت فى مقالة جـبران :

" فاصـغ يـا أيوب ، واسـتمع لـى . أنصـت فأنـا أتكلـم .
ان كان عنـدك كلا م فأجـبنى . تكلـم ، فانـى أريـد تبريرك .
والا فاسـتمع أنـت لـى . أنصـت فأعلمك الحكمة ... "
(سـفر أيوب ٣٣/٢١ — ٢٣)

ونلاحظ ان جبران أولع باللازمـات فى كتابتـه كأنـه يريـد أن يضع بها قـرارات موسـيقية عميقة التأثـير فى نفس القـارئ ، فهو يفتتـح المقالة بجملة يظل يرددها من بعد فى كل مقطع من مقاطعها ، أو يكتفى أحيانا بأن يختمها بها . انظر مثلا مقالته (نشيد الانسان) ٢/٢٢٥ التى افتتحها واختتمهـا بقوله : " أنا كنت منـذ الأزل ، وهأنذا ، وسأكون الى آخر الدهر — وليس لكيانى انقضاء ... " ومقالته (لكم لبنانكـم ولى لبنانى) ٢٠٢/٣ و (لكم لغتكـم ولى لغتى) (بلاغة العرب فى القرن العشرين ٥١) اللتين كرر فيهما هذه اللازمة فى جميع المقاطع (٣/٢٠٢) —— (٢) ٨٤/٣ وكان جبران يصف كلامه — وهو بعد صغير — بأنه " أسهم نارية تشـق كبد الظلمة " (المشرق ٣٧/٢٥٠) ويقول عبد المسيح حداد : " كان جبران يذيب الكلام عندما يكتـب . وكان الكلام يذيبه كشمعة يفنيها نورها " . العصبة ٩٤٨ العدد ٥ ص ٤٤٤ . —— (٣) انظر مارون عبسود — مقالته فى المكشوف — عدد جبران ص ٢ .

(٤) احسان عباس — فن الشعر ٤٦ . وكانت ترد على لسـانه تعبيرات الرومانسـيين الدالة على التلـون العاطفى الخصب ، كأن يقـول : " ابتسـم الفضاء ابتسـامة نائم " ١/ ٧١ ، و" مترنمـة مع العصافـير باكية مع الجداول " ١/ ٧٥ ، و " الفنـون الصمـت الحى " ١/ ٦٩ و " فرح بدموعـه ، مغتبط بلوعتـه " ، ١/ ٧١ ، و " لطف سحـرى يكاد يبكيها لمذ وبته " ١/ ٧٧ ، و " تبتسـم وتبكى " ١/ ٧٨ الخ ...

وقد كان هذا المزاج - في رأينا - هو العامل الثالث في تكوين صورته الأدبية

وكان لهذا العامل أثره الخطير في تحطيم الصورة القديمة في نفس جبران ، وفي الجنوح بجملته الى الغرابة والى الجدة معا . فقد تمرد على قيود اللغة وأنكرها وسخر من النحاة واللغويين والبديعيين (١) حتى زعم أن له لغة خاصة من دون لغة الناس ، لا يرجع في تبيين حدودها وصحيحها وشاذها وخطئها وصوابها وقبيحها وجميلها الى " القواميس والمعجمات والمطولات " وكتب البيان والبديع وانما يرجع الى الأذن والطبيعة (٢) .

وقد أثار هذا الرأي المحافظين فردوا عليه ردا منكرا وعيروا جبران بأخطائه وسموها باسمها (٣) . ولم يكن المجددون راضين أيضا ، فأعلنوا أنهم ينكرون أن يكون

---

(١) انظر مقالته (لكم لغتكم ولى لغتى) . بلاغة العرب فى القرن العشرين ٥١ - ٥٦ . وسننقل أقساما منها فى فصل النقد . وانظر هذا الفصل على كل حال .

(٢) من هنا كان قول عبد المسيح حداد : " هنالك تعابير جبرانية هى فوق الاقيسة والموازين " . العصبة ٩٤٨ العدد ٥ ص ٤٤٦

(٣) يقول مصطفى صادق الرافعى - وهو يعنى جبران - : " اذا أنت لم تجد فى كل علماء المتقدمين من استطاع أن يقول انه صاحب مذهب جديد فى اللغة ، أو يرى لنفسه رأيا الا أنه يعمل لحفظها .. فانك واجد فى أهل سنة ١٩٢٣ من يقول فى هذه اللغة بعينها : (لك مذهبك ولى مذهبى . ولك لغتك ولى لغتى) . فمتى كنت يافتى صاحب اللغة وواضعها ومنزل أصولها ومخرج فروعها وضابط قواعدها ومطلق شواذها . ومن سلم لك بهذا حتى يسلم لك حق التصرف (كما يتصرف المالك فى ملكه) وحتى يكون لك من هذا حق الايجاد ، ومن الايجاد ما تسميه أنت مذهبك ولغتك . انه لاهون عليك أن تولد ولادة جديدة فيكون لك عمر جديد تبتدىء فيه الأدب على حقه من قوة التحصيل ، وتستأنف دراسة اللغة بما يجعلك شيئا فيها ، من أن تلد مذهبا جديدا أو تبتدع لغة تسميها لغتك ، فانك عمر واحد فى عصر واحد بين ملايين من الاعمار ، فى عصور متطاولة . وان ما تحدثه على خطأ لايبقى على أنه صواب . ولن يبقى أبدا الا كما تبقى العلة على أنها علة ، فلا يقاس عليها أمر الصحيح ولا يحكم بها فيمن لم يعتل .. " . (المعركة بين القديم والجديد ١٣) . وتتهم مجلة العصور أدباء المهجر بأنهم " يعيثون فى اللغة العربية فسادا ويكيلون لها من التراكيب الافرنجية البحتة بالمد والصاع ، حتى لقد غلبت على أكثرهم عجمة لا تستطيع أن تعرف كيف يتسع لها صدر العربية .. " وتقول ان هذه " العجمة " الغالبة عليهم " ماهى لدى الواقع الا العجز عن انتاج الأساليب القديمة " . وتبدى المجلة جزعها من انتقال هذا الأسلوب فى الكتابة الى سورية ، ليكتب به " المعجزة " و " مسوخ الأدب فى هذا العصر " . وتنهى حملتها بأن تصف هذا الأسلوب بأنه " انحراف عقلى تام " و " موت أدبى بعينه " . (العصور ٩٢٧ عدد كانون الأول - ديسمبر ص ٣٩٨ - ٩٩) . وما زال المحافظون حتى اليوم يقولون فى هذه الثورة قولهم هذا . (انظر الدكتور م . محمد حسين - الاتجاهات الوطنية ٢/٢٥٦) .

الضعف في اللغة مذهبا فيها[1] . وكاد يتضح في هذه المعركة موقف المدرستين الكبيرتين آنذاك المصرية والسورية الأميركية من الأدب عامة ومن الحياة . فقد كان جبران زعيم المدرسة الثانية على حين كانت مدرسة المجددين مزدهرة في مصر .

والحق أن أخطاء جبران في نثره ، ليست كثيرة على النحو الذي يصوره خصومه[2]. ولعل أكثرها يقع في ركاكة التعبير أو في استعمال كلمات عامية طها قصيح معروف

---

(١) طه حسين — حديث الأربعاء ٣/ ٢٠١ . ويقول بعد ذلك : " على أن هذا النحو من الضعف لم يكن شائعا مألوفا في مصر ، بل لم يكن شائعا مألوفا في بلاد الشرق العربي ، ولكنه أقبل عليها من مهاجر السوريين في اميركا " . ودعا طه حسين النقاد الى أن يحموا اللغة من " هذا الفساد الأجنبي " .
وبين أيدينا نصوص أخرى لأدباء عرفوا بحب الأدب المهجري ولكنهم أشاروا الى التفاته عن اللغة وقواعدها . انظر مثلا قول الياس أبي شبكة : " وفي مطلع القرن العشرين ، كان أدباء العربية في المهجر الأميركاني ، يعنون بالفكرة والألوان والموسيقا أكثر مما يعنون باللغة وقواعدها . وكان موقف أدباء الأقطار العربية منهم ، كموقف البارناسيين الفرنسيين من بعض أدباء العهد الرومانتيكي على وجه التقريب " . (روابط الفكر والروح ١٠٢). وقد وصف توفيق يوسف عواد لغة المهجريين بأنها " مهلهلة " وقال : " فكأن حبهم للجديد قد دفع بهم من صحراء العرب القاحلة الى أم العجائب أميركا دفعة هائلة تقطعت بها الأمراس . " . (المكشوف ١٩٤٠ العدد ٢٧١ ص ١٢ . مقالته : لماذا لم يكن أمين الريحاني عضوا في الرابطة) .
وقال نظير زيتون كلاما يشبه هذا (حديثه الى بحمص بتاريخ ١٥/١١/٩٥٩) .
وانظر ما قاله سامي الكيالي في السياسة الأسبوعية ٩٢٦ العدد ٦ بعنوان (الأدب المصري الحديث وأثره في تكوين الثقافة العربية) فقد اتهم أدباء المهجر بأنهم " يصفعون اللغة العربية التي يريدونها بلا قواعد ثابتة . " .
وراعت (الرابطة الأدبية) التي اسست في دمشق أن تنص في منهاجها قولها : انها " تحافظ على القديم ولا ترى الوقوف عنده . بل تدنو من التجدد بخطى واسعة متنسمة مواضع الزلل كالركاكة والتبذل واستعجام الأسلوب وما الى ذلك من معايب المقال ... " (مجلة الرابطة الأدبية العدد ١ ص ٣) . وانظر ما يقوله عمر فروخ في (المنهاج) ص ٣٣٢ .
ولا ريب أن هذا النقد المر كله ينصب على لغة جبران ونعيمة أولا . وقد كان في الأدباء الآخرين من يعنون باللغة وقواعدها وبسلامة التركيب في جملتها كما سيتبين لنا بعد قليل .

(٢) انكر صيدح أن تكون وقعت في نثر جبران اخطاء : أدبنا وأدباؤنا ٧٤

قريب[(١)] . أو يقع في التصرف تصرفا خاطئا بأسماء الاشارة أو بصياغة بعض الكلمات والتراكيب[(٢)] . وقد كان جبران — بشهادة نعيمة — يستهين بقواعد النحو ، بل بجهلها ويعجز عن فهمها[(٣)] . فكان لذلك يختار الجملة التربيعة ، حتى لا يقع في أخطاء فاحشة . ولاشك أن حياته بعيدا عن موطن العربية وانقطاعه عن النظر في تراثها وقلة ما لبث في المدرسة لدراستها[(٤)] ، ساعدت على تمكين الخطأ . ولكن للمسألة وجها آخر لا يصح أن يغفل هو ما يسر ذلك لجبران من انطلاق في سبل التجديد وجرأة على التصرف بالصورة القديمة وعرك لبنائها وتركيبها .

ومن هنا بدا تأثره القوى بالكتاب المقدس ، فقد أمده — فوق النغمة الشعرية التوراتية — بمجموعة كبيرة من الصور والتعبيرات . وقد دلل جبران — بالنص — على هذا التأثر في مواضع كثيرة من كتبه . فالموسر — مثلا — (في مقالته الأمس واليوم) ينظر الى المدينة " نظرة ارميا الى أورشليم " ويوميء بيده نحوها " كأنه

---

(١) مثال ذلك قوله : " متأهلين " ١/٥٢ أو " مترحمين " ١/٩٨ بدل (مرحبين) والكلمتان من عامية لبنان وسورية . وقوله " احتار " ٣/١٤ بدل (حار) ، و " تتحمم " ١/٩١ بدل (تستحم) و " تساهمنا " ١/٥٢ بدل (تسهم معنا) ، و " كثار " ١/٩٥ بدل (كثر) ، و " بكل زنديه " ١/٩٨ بدل (عقد زنديه) و " تحترم " ١/٧٣ بدل (تحرم) و " مهاب " ١/٦٧ بدل (مهيب) الخ .. وقد أشار بروكلمان الى هذا (G.S.111 P: 458 وضرب أمثلة أخرى : " لهات " بدل (لهاث) و " مشقلب " بدل (مقلوب) الخ ...

وقد جاءت في كتابته تعبيرات كثيرة منتزعة من العامية ، مثل قوله " تنهدة عميقة تشير الى حدوث انبساط في فؤاد منقهر " ١/٧٣ ، أوقوله : " متأسف على جمال وجهها الكئيب .. " ١/١٢٩ . ومثل هذا كثير .

(٢) كأن يقول مثلا : " هوذا الرعيان .. هوذا أسراب الحمام .. " بدل (هاهم أولاء الرعيان ، وهاهي ذي أسراب الحمام ..) — وقد مر بنا ذلك منذ قليل — . أو يقول : " تستبدل (الموسيقا) سكينة الأودية الرهيبة بريان مأهولة .. " ١/٥١ بدل : (تستبدل بسكينة ...) — ومثل هذا كثير في كتابته — أو يقول : " نادى عن .. " ١/٧٩ بدل (نادى على) ، أو " يصر أسنانه " ١/١٨٠ بدل (يصر على أسنانه) ، أو " آلهة غضوب " ١/٦٥ بدل (آلهة غضب) ، أو " من على المنابر " ١/٦٠ بدل (من فوق المنابر) .

(٣) كتابه عن جبران ١٦٩ .

(٤) أشار الذين زاملوه في مدرسة الحكمة الى أنه كان يدخلها (متفرجا) أكثر منه دارسا . (ادمون وهبة — مقالته في المكشوف : عدد جبران) .

(٥) دمعة وابتسامة — مجموعة المؤلفات ٢/١٢٥ .

يرثيهـا " . والربيع فى سورية روح الـه تطـوف " مترنمـة مع جـداول اليهوديـــة بأناشيـد سليمان الخالـدة ، مرددة مع أرز لبنان تذكارات المجـد القديم "(١) . والعاطفة تتمايـل حول قلبـه بهـدوء " يشابـه رفرفـة الروح على وجـه الغمر ، قبل أن تهتدى الدهـور "(٢) . وهو ـ حين يحـزن ـ يكون عنـده " سفـر أيـوب ... أجمل من مزامـــير داود ، ومراثـى ارميـا ... أحب من نشيـد سليمـان "(٣) . وسلمى كرامـه تدعو ربهـا : " لتكـن مشيئتك يـارب . ليكن اسمـك مبـاركا الى النهايـة "(٤) . والموسيقا "تطوفـت بها أنفـاس أنارتهـا ندامـة الملك داود ، فمـلأت أناشيـده أرض فلسطـين .. وكوسيط قامت مزامـيره ، بينه وبين اللـه ، تطلـب له مغفـرة زلاته "(٥) . والشاعر نور ساطـــع " لا تغلبـه ظلمـة ، ولا يخفيـه مكيـال "(٦) . ويوحنا المجنون " يكلم الجموع بالأمثـال "(٧) . ووردة الهانى تهـين معيشـة بشـر " يقولون عنها كل كلمـة شريـرة "(٨) وهى تحيـــا " بناموس المحبـة "(٩) . وخليل الكافـر يقول : " باطلة هى الاعتقـادات والتعاليم الـتى تجعـل الانسـان تعسـا فى حيـاته "(١٠) ويقول : " الحليقـة اذا غرسـت فى الكـرم لا تثمـر تينـا "(١١) . ويقول : " ان الله يعطينا خبزنا كفـاف يومنـا "(١٢) وقد تبعتـــه المرأتان " نظير بنات أورشليـم عندمـا اتبعـن يسوع الى الجلجلـة "(١٣) . والأرز عنـــده " موطئ أقـدام اللـه "(١٤) . والكاهن يصيـح : " ابتعدى عنى يا ابنة بابـل "(١٥) ، ويهمس " الزيجـة أفضـل من التحـرق " . ويقـول عن الدنيـا : " باطلـة الأباطيـل ، وكـل شـئ تحت الشمـس باطـل "(١٦) ويخاطب الناس : لا تدينوا لئـلا تدانـوا "(١٦) . والطبيعـــة " تكـرز بالروح "(١٧) . والحقـل " كرسـى مجـد اللـه "(١٨) .

على أن هـذا التأثـر بالكتـاب المقـدس لم يفقـد الجملـة دائمـا شخصيتهـــا العربيـة ، فبقيـت ـ فى الاجمـال ـ جملـة صحيحـة ، وان أنبـأت بسذاجتها المفرطـة وموسيقاهـا عن استمدادهـا من نبـع التوراة .

---

(١) الأجنحـة المتكسـرة ـ مجموعة المؤلفـات ١٦/٢

(٢) المصـدر السـابق ٢٣/٢ (٣) المصـدر نفسـه ٦٩/٢

(٤) المصـدر المذكور ٥٣/٢ (٥) الموسيقا

(٥) الموسيقا ـ مجموعة المؤلفات ٥٠/١ . وقد نقل هنا نصا طويلا من المزامير ثم قال : " وجاء فى الأسفار أن ملائكة من السماء تأتى فى آخر الدهر .. الخ " . وقال : " وجاء فى بدء مأساة ابن البشر ، أن التلامذة سبحوا قبيل ذهابهم الى بستان الزيتون حيث قبض على معلمهم " .

(٦) ١٩١/٢ (٧) ٩٢/١ (٨) ١٢١/١

(٩) ١٢٣/١ (١٠) ١٦٥/١ (١١) ١٧٠/١

(١٢) ١٧٣/١ (١٣) ١٨٢/١ (١٤) ١٨٧/١

(١٥) ١٩٢/١ (١٦) ١٩٣/١ (١٧) ٩٩/٢

(١٨) ١٠٣/٢

ولايعدل هذا التأثر بالكتاب المقدس، تأثره – في صياغة جملته – بالجملة الانجليزية، فقد بقى هذا مقتصرا على بعض التراكيب وتقديم أشباه الجمل والظروف والأحوال. كأن يقول عن الرهبان "ومثل غربان جائمة في أقفاص ضيقة، كانوا يرتجفون غضبا .." (١) أو يقول: "ونظير نمر يتراجع قليلا الى الوراء قبيل الوثوب بقى ساكنا هنيهة" (٢). ويقول "وبصوت عظيم يستدعى المسامع ويستوقف النواظر صرخ قائلا" (٣): "أو" ومن عينيه الدموع تستدر الدموع" (٤) أو يقول: "ينظرون الى صبية الأزقة كأشياء قذرة ... وليس كنفوس صغيرة" (٥) أو يقول: "ومن حين الى آخر كان ينظر الى الوراء ليرى اذا كنت بالحقيقة متبعا خطواته" (٦). أو يقول: "واذ هم يوحنا ليقودها أمسك الراهب بعباءته" (٧).

ويؤلف هذا التأثر – في صياغة الصورة – بالكتاب المقدس والجملة الانجليزية العامل الأخير في تكوين صورته الأدبية، في رأينا (٨).

وعلى هذا النحو تبدو الصورة أصيلة في أدب جبران أصالة الفكرة والاحساس، فهي تستجيب – في وضوح – لخصائصه في التفكير والشعور فتهوم وتتهود وتنطلق وتغنى، وتتأثر – في ذلك – بما قرأ من الأدب الانجليزى وآداب المتصوفة، وأسفار الكتاب المقدس.

(((٣)))

ولم يكن نعيمة رساما – وان أعداء جبران قليلا –، ولكنه لم يكن – كما قلنا سابقا – أقصر كثيرا في الخيال من جبران. وكان أقدر من جبران على الابتعاد بخياله وصوره عن ذاته، لأنه – فيما خيل الينا – أشد انفصالا وأكثر تحكيما للعقل والمنطق. فبدا قادرا على تصور عوالم كاملة بعيدة، وعلى خلق أحداث مترابطة عميقة الصلة بالحياة، على حين اكتفى جبران بتصور أحداث

---

(١) ٩٦/١ (٢) ١٨٠/١ (٣) ١٠٠/١
(٤) ٦٢/١ (٥) ٨٠/١ (٦) ٨١/١
(٧) ٩٢/١

(٨) غالى اسماعيل أدهم في رمى الأدب المهجرى – في تأثره بأدب الغرب – بالمروق من العربية، فقال: "ذهب بعض أدباء المهجر من السوريين لانتحال الأدب الغربى، ودعوا لأدب جديد ليس فيه من العربية الا الاسم. وهو – في قوامه وهيكله – غربى الروح، أوروبى الأخيلة". الامام ٩٣٧ العدد ٣ ص ٩٣ (مقالته: الزهاوى الشاعر).

عاطفية يجول هو فى وسطها ، وخلق لوحات متفرقة ، تبدو مفككة ـ أحيانا ـ فى اطار الموضوع العام.

ومن الطبيعى اذا أن تكون جملة نعيمة أكثر ثباتا من جملة جبران ، وأخف نبضا وأكثر تعقلا . ويمكننا أن ننظر فى أى نص غير قصير لنعيمة دون أن ترتفع أقدامنا عن الأرض ، فى حين يصعب أن نقرأ سطرين لجبران دون أن تنبت لنا أجنحة ، أو نطير حقا فى أغلب الأحيان . وسنختار الآن نصا لنعيمة من مقالة وصفية أطلق فيها خياله ، لتمثل فيه لما نقول .

يصف مقدم الربيع فى الجبال (١) ، وزحفه المبق فى الأرض والجو والطير ثم يرسل خياله أمامه فيقول : " .. ويطول بى دربى ، ويستهوى خيالى الواقع ، فأبصر جحافل الربيع تزحف وتزحف حتى تدرك القمة . ولن تدركها قبل أواخر حزيران ، وقبل أن تكسو السفوح والحقول والكروم والبساتين والأحراج بالأخضر والأحمر ، وبالأصفر وبالأبيض ، وبالبنفسجى والبرتقالى ، وسائر الألوان التى تنهل منها العين ولا ترتوى . أما العطور والأغاريد فيترنح منها حتى الهواء ، ويسكر بها الذين يشمون بقلوبهم ويسمعون بأرواحهم . اذ ذاك يبلغ ربيعنا أشده ويبلغ زحفه الظافر الذروة ، فيتنازل للصيف عن القيادة ، وينام على غاره حتى تدور الأرض دورة جديدة ... " .

فالخيال قريب لم يجاوز الأرض ، ولم يتعد الصور التى يتبعها خيال القارئ فى بساطة ، بل قد يسبقها أحيانا فيصور لنفسه عالما لم يبلغه خيال نعيمة (٢) .

ولا يبتعد نعيمة عن الواقع الا حين يلجأ الى الرمز ، ويجول فى عوالم غيبية يحاول تقريبها وفهمها . وتبدو رموزه ـ فى هذه الحال ـ قوية نافذة لأن الواقع لا يبعد عنها كثيرا ، فهو شاخص أبدا الى جانبها . وقد يقترن بها أحيانا كثيرة . فالحيزبون مثلا ـ فى قصته (هدية الحيزبون (٣)) ـ التى تضحى بحياة وليدها من أجل الذهب ، فتقبل أن يذبح فى كوخها ، رمز قريب لحب المال الذى يضحى الانسان فى سبيله بأكرم قيمة . و (الجليد) فى قصته (ويذوب الجليد (٤)) رمز معقول جدا للبغضاء والحقد والنميمة التى عمرت قلوب الناس

---

(١) مقالته الشعرية (هجم الربيع) . فى مهب الريح ٩٦

(٢) انظر ما يقوله مارون عبود فى هذا المعنى : مجددون ٢٠٨

(٣) المصدر السابق ٢٠٨ (٤) دروب

في هـذا الزمان • و(الأرقش) الـذي فقـد ذاكرتـه وذبـح زوجـه في قصته (مذكرات الأرقش)، هو رمـز للانسـان الـذي تخلى عن ماضيـه وقطـع صلاتـه به ، ليكـون أقـدر على تقيـيم الحيـاة وتعمـق معناهـا • والعاصفـة القاسيـة التي تسد علـى نعيمـة بـاب بيته أيامـا متواليـة ، في مقالتـه القصصيـة (في العاصفـة)(١)، رمـز للعاصفـة التي تجتـاح النفـس في تفتيشهـا عن معـنى الحيـاة ووحدتها • والأحـلام المزعجـة التي تتصـاور الراويـة في قصـة (مـرداد)(٢) هي رمـوز للمخاوف التي لـم يـزال الانسـان عالـقـا في شراكهـا حتى يفهـم نفسـه ويفهـم طريقـه وغايتـه الكبـيرة في الوصـول الى الألوهـة الخ •••

فالقارئ يـدرك معاني الرمـوز بسرعـة ، لأن الواقـع يقوم الى جانبه ، ويكاد يلمسه ويخاطبـه • وتنصـرف جملـة نعيمـة في هذه الرمـوز انصرافهـا الى الواقـع الـذي يمثلـه الرمـز ، تعالجـه وتفسـره كمـا تعالـج الواقـع وتفسـره • فالذهب في قصته (هديـة الحيزبـون) هو الذهـب نفسـه ، والساحـر هو الحيـاة الساحرة • والحطـب في قصتـه (وبـذوب الجليـد) هو دفء العاطفـة والمحبـة الصـادقة • والمرأة فـي قصتـه (الأرقـش) هـي المرأة التي تفـتن الرجـل وتشـده بأمراسهـا وتوقعه فـي شراكهـا • والتفاحـة وحبـات العنب في مقـالته (في العاصفـة) هي الغذاء الحق الـذي يتناولـه الانسـان من الطبيعـة فيتغذى بنفسـه دون أن يدري • والمتناقضـات الكثـيرة في أحـلام الراويـة في قصته (مـرداد) هي متناقضـات الحيـاة عمنها ومفارقاتها وهكـذا •••

ويعـود ذلك كلـه ـ في رأينـا ـ الى أن نعيمـة ينظـر الى الخيال نظـرتـه الى الحقيقـة ، فالخيـال عنـده ـ كما مر بنـا ـ هو الـقـوة التي تهدي الى الحقيقة وهو القائـل : " كل ما تتخيلونه كائـن • وكل مالاتتخيلونـه لا كيان له "(٣) • فالخيـال أصـدق من العقـل وأهـدى ، فلا جرم أن يشـف عن الواقـع دائمـا ويخالطـه أو يقـترب منه ، حتى ليتيسـر له ـ أحيـانـا ـ أن يفضـح زيفـه ويكشـف عن مفارقاتـه الكبـيرة •

ولكن نعيمـة يهتـدي الى دور الخيـال البالـغ عن طريـق العقـل والحـس فهـو اذا يهتـدي بعقلـه وحسـه دون أن يـدري • ويحكم عقلـه وحسه في صياغـة

---

(١) البيـــادر ٧ (٢) انظـر (حكايـة الكتـاب) •

(٣) زاد المعـاد ٩ (مقالتـه : الخيـال) •

الواقع وفهمه ، ثم يطلق الخيال ليحمله المعاني التى اهتدى اليها بعقله وحسه ، فيظل هذا الخيال قريبا منهما ٠

وعقيدة نعيمة بوحدة الحياة — من ناحية أخرى — عقيدة ساقه اليها تردد فكرى طويل ، وتمحيص وتحسس ، حتى اطمأن اليها أخيرا عقلا وحسا ٠ فالحقيقة التى تستبطن الموجودات اذا — فى نظره — حقيقة واقعة قريبة من الحس لايمكن أن يخطئها أى رمز يرمز اليها ٠

أما عقيدة جبران فهى تنبع من القلب أولا وآخرا ، ومن نفاذ الحس ٠ فلا دور لواقع عنده غير واقع القلب ٠ فاذا رمز لهذا الواقع الذى يحسه جبران ويصدى عن فلسفته و (منطقته) ٠ والخيال عنده مملكة يحالها — كما قلنا — لها ملكتها وحراسها وملائكتها ٠ وحسب جبران أن يغمض عينيه ليدخلها دون أن يعبأ بما يقوم حوله من واقع الأرض ٠

والى هنا يبدو أن العامل الأول فى تكوين الصورة الأدبية عند نعيمة ، هو مزاجه الهادئ وتعقله وثبات قدميه فى الأرض ومراعاته المنطق ٠

×× ×× ××

وليس معنى هذا على الاطلاق أن يضعف بروز ذاتية نعيمة فى صورته الأدبية ، فهو — على التحقيق — لا يحقق غير منطقه هو وما يهديه اليه حسه الخاص وعقله الذى تكونت له مقدمات ورواسب كثيرة ، بحيث تجد عواطفه وميوله مداها فى التعبير ٠ ولايمكن أن يخلف نعيمة أدبا ذاتيا تتخلف فيه الصورة عن مضمونها ، فأدبه ذاتى مبنى ومعنى ٠ ويتحقق ذلك واضحا فى مقالاته الشعرية خاصة ، ففيها تتدفق عواطف نعيمة وتطول غيبته الصوفية فى الطبيعة وفرحته الصافية بها وميوله العميقة الى التملص من كل قيد فيها للانطلاق وراء اللامحدود ٠ وتتابع صوره الجديدة المثقلة بالنشوة الذاتية الخالصة ٠٠٠

يقول فى مقالته (الصخور)(١) :

" تباركت الصخور

تبارك قزمها وعملاقها ، وداجنها وآبدها ، وعابسها وضاحكها ٠

تبارك أسودها وأبيضها ، وأغبرها وأصفرها وأزرقها وأسمرها ، وما كان منها بلون الشخم واللحم ٠

---

(١) البيادر ١٧٣ وانظر أمثلة أخرى فى النور والديجور ١٠٤ وفى البيادر ٢١١ ٠

تبارك ما ارتفع منها وما اتضع ، وما استطال وما استدار ، وما انتصب وما مال ، وما اتكأ وما اضطجع ، وما قصد القرفصاء ..

تبارك ما تراكم منها وما تكبل ، وما انفرد واعتزل

تباركت عروشا للبدور والنسور ، وملاجئ للسباع والافاعي ، ومخازن للفأر والنمل ، ومساكن للعصافير ، ومعابد للنساك ، وعقائل للرياح والنسائم.

تباركت سلاسل فقرية وضلوعا في جسوم الجبال ، وأسرة للانهار ، وحراسا للبحار ، وأعمدة في الهياكل ، وحجارة في المنازل .

تبارك صمتها ما أفصحه ، وسكونها ما أرهبه ، وعماها ما أبصره .

تباركت .. تباركت الصخور "

فهذا غناء للطبيعة في أشد صورها صمما وجمودا ، وهو — مع هذا — يحركها عصبا عصبا ، وينفذ فيها حتى يمس قلبها ويجول في دمها ويحيلها سحنات انسانية تنبض حياة وحسا وتسمى الى هدف وتتكامل به . ولا يطمع الرومانسيون أن يروا في الطبيعة أكثر مما رأى فيها نعيمة بفضل عقيدته ونفاذ حسه وانطلاق خياله .

وقد استغل نعيمة هنا الايقاع استغلالا حسنا ، حتى انقلب النص نثرا شعريا منغوما كنثر بعض أسفار التوراة . والموسيقا — فيما يقول نعيمة — حاجة أساسية من حاجات تعبيره (١) ، فهو يستعين بالايقاع على الايحاء بالصورة النفسية وعلى استنفاد انفعاله الفني . وقد لجأ — لهذا — الى النثر الشعري وأمعن فيه حتى كاد ينقلب شعرا " منسرحا " — على حد تعبيره (٢) — . وأكثر ما يكون ذلك في مجالات الانفعال الطاغي الذي لا يستنفده النثر الرتيب الفاتر . وفي قصتيه (مذكرات الأرقش) و (مرداد) أمثلة مختلفة لما نقول . ففي (مذكرات الأرقش) يغني البحر على هذا النحو :

" يابحر ، يامهدي ومهد الحياة

يا بحر ، ياصوتي وصوت الدهور

يا بحر ، يافوارة لا تغور .

---

(١) من حديثه الي في بيروت بتاريخ ٥/١٢/١٩٥٨ وقال : انه كثيرا ما يرفع صوته بالجملة التي يكتبها ليختبر موسيقاها .

(٢) انظر مقالته (وولت هوتمن أبو الشعر المنسرح) . الآداب ٩٥٣ العدد ٤ ص ٩ — ١١ . وقد قال فيها : ان حركة الشعر المنسرح انتشرت في أواخر القرن الماضي في امريكا ووجد لها أنصار كثيرون .

يابحر ، ياقلبي وقلب الاله
ياجامع مع ما انتشر ، وناثر ما اجتمع
يا معلم السمو والوداعة والطموح والقناعة
ياحامل أوزارنا ، وغاسل أقذارنا
يانقطة في ألف ربوة نقطة ، وألف ربوة نقطة في نقطة
يانائما لا يستيقظ ، ومستيقظا لا ينام
ياحالما ما نحلم ومالا نحلم
يامالك الأرض ومملوكها
أبديتك لمحة ، ولمحتك أبدية
والزمان على صدرك في غفوة الأبرار ...
أحبك أيها البحر . أحب سكونك الثائر ، وثورتك الساكنة . فثورتك ثورتي ،
وسكونك سكوني .
أحب زبدك وأمواجك . فبي زبد كزبدك ، وأمواج كأمواجك
أحب انكماشك وانبساطك . فبي مثل انبساطك وانكماشك .
وأحب حنينك الأبدي ، فما أشبهه بحنيني ..(١) "

فالايقاع الشعري هنا في اللفظ والتركيب يؤدي حاجة نفسية لا يمكن أن تؤدى بوسيلة أخرى . فالنداء الحار المتكرر الذي يسيل له القلب وتجيش النفس بأحلامها وشوقها الى المطلق ، كأنه يقرع أبواب الحياة ويهز عرشها ، ويغني توقا الى أسرارها الكبيرة .

وفي (مرداد) يغني الليل ، ويضع أسراره في يد الانسان " المتغلب " فيقول :

" ان الجبال المثقلة بالنعاس في أحضان الليل
والفيافي الغارقة في لجج من الذكريات
والبحار الماشية أبدا في نومها
والدراري الهائمة في فضائها
والساكنين في مدن الأموات
والثالوث الأقدس مع ارادته الكلية
كل هذه وكل هؤلاء يبتهجون بأن يحيوا الانسان المتغلب

---

(١) الأرقش ٧٤

وأن ينشدوا له نشيد الغلبة
فيالطوبى السامعين والمستوعبين ..." (١)

وينبغي أن نلتفت هنا الى أن انفصال نعيمة الصوفي الذي يستخرجه الايقاع يطلق خياله الى آماد يتجاوز بها الحدود القريبة التي يقف عندها عادة ويغريه بالرمز . وبهذا تتضح رومانسيته ورمزيته - في الصورة - اتضاحا كاملا . وهذا هو العامل الثاني في تكوين صورته الأدبية في رأينا : فهي تظل قريبة من الواقع حتى يطلقها الانفصال . على أنها هنا أيضا تظل - كما نرى - ثابتة واضحة لا تغيب في رمزية بعيدة كما تغيب صورة جبران أحيانا .

ولم يقف نعيمة - في بعض الأحيان - عند " الشعر المنسوح " وانما استعان بالايقاع الشعرى كاملا . ففي (مرداد) يكتب نشيد القيثارة شعرا :

" شفتاك عضهما الجليد
قيثارتي
وعليهما جمد النشيد
قيثارتي
ونجمد الحلم الجميل
قيثارتي
في قلبك السمح النبيل
قيثارتي

وكذلك يكتب نشيد الكرمة ونشيد الفلك . (٢)

×× ×× ××

وتبدو ذاتية نعيمة في تعبيره ، ببروز ألوان لبنان في صوره ، حتى كأنه يرى الطبيعة كلها من خلال أشجاره وجباله ووديانه . وقد ملأت صخور صنين وطريق الشخروب وبساتين بسكنتا وفراغ وادي الجماجم الرهيب خياله ، فاذا صور طريقا خطرا في الجبل صور طريق الشخروب ، واذا وصف الصخور غنى صخور صنين ، واستمار ألوانها . (٣) واذا وصف الربيع انبسطت أمام ناظريه بساتين

---

(١) مرداد ٢١٠ (٢) المصدر نفسه ١٠٠ و ١٧٧
(٣) انظر في المصدر المذكور : (حكاية الكتاب) .

بمكنتنا الجميلة التى تطفر بالألوان والألحان[١] .

وقد امتلأت قصصه بصور القرية اللبنانية ، ونقل فى حواره أسلوب أهلها فى التمثيل والحديث ومعالجة حياتهم القريبة . ولم يستكبر على الصور العامية التى تشيع بينهم ، فالحماة — مثلا — فى قصته (العاقر) تنزل الى بيروت " لتشم كنتها الهواء "[٢] . و " المغاربة " الذين يلفون القرى اللبنانية ينادون : " حكيم ، طبيب ، دوا للجبهة ، دوا للعين "[٣] .

ولم ير نعيمة بأسا فى استعمال العامية فى الحوار . وقد سلك هو هذه السبيل فكتب قسما كبيرا من حوار مسرحيته (الآباء والبنون) بالعامية الخالصة[٤] . وبسط الفصحى فى قصصه الأخرى وخلطها بالعامية خلطا رمى فيه الى تصوير الشخصيات وظروفها تصويرا دقيقا حيا . فصاحب المقهى — مثلا — يقول للأرقش فى قصته (مذكرات الأرقش) : " أين كنت مقبورا البارحة يا أرقش النحس كيت وكيت منك ومن أمك وأبيك أنت سوف تخرب بيتى . ملعونة الساعة التى رأيتك فيها . الحق على لانى آويتك وأطعمتك وسقيتك ، وأعطيتك معاشا فوق ذلك . كيف تركتنى الليلة البارحة وأنا مربط لا أقدر أن أتحرك أين كنت مقبورا[٥] ... " .

واستعمل نعيمة فى بساطة الكلمات الأجنبية التى دخلت مسمياتها فى حياتنا ، واعتبرها جزءا من اللغة دون أن يبدل فيها حرفا واحدا ، ودون أن ينصب من حولها الأقواس . وفى السيرة التى كتبها عن جبران وحدها نجد الكلمات التالية : " التاكسى " و " التليفون " و " البرنيطة " و " السنكسة " و " السيكارة " و " الكانابى " و " النوطة " و " الوجاق "[٦] . وفى كان ما كان تجد " الكموفلاج " و " المكروسكوب "[٧] . ومثل هذا كثير جدا فى كتابته . ولو شئنا أن نلتمس له العذر فى استعمال الكلمات التى لم يجر تعريبها حتى اليوم ، فماذا نقول فى الكلمات التى عربت كالمجهر — مثلا — بدل (المكروسكوب) ، والهاتف بدل (التلفون) .

على أن هذا يهون الى جانب استعمال العامية المحرفة للكلمة الفصيحة ، مثل قوله : يطالها " بدل (يطولها)[٨] ، و (عازب)[٩] بدل (عزب) و (الحضور)[١٠]

---

(١) ذكرنا فيما مضى أمثلة كثيرة ، تغنينا عن التمثيل هنا .
(٢) كان ما كان ٦٩
(٣) المصدر نفسه ٧١
(٤) سنناقش ذلك فى فصل النقد فليرجع اليه .
(٥) الأرقش ٢٣ — ٢٤
(٦) انظر الصفحات ١١ و ١٢ و ١٥٦ و ١٥٧
(٧) انظر الصفحات ١١١ و ١١٣
(٨) الأرقش ٦٣
(٩) النور والديجور ١٩٠
(١٠) كتابه عن جبران ١٦٣

بدل (الحاضرين) و " مهاب " بدل (مهيب) الخ ...[1]

ويهون كثيرا الى جانب استعمال التراكيب المغلوطة ، مثل قوله :" ماذا العمل "[2] و " أليس الانسان لا يزال طفلا "[3] و " قد يكون أن توحا تاب ...."[4] و " مثلما أني نبهته "[5] وقوله : " هوذا القبور ... هوذا السماء "[6] و " واذ لم يفهم البدوى قصده لانه لم يكن يعرف المال ، وقط لم يدفع ثمنا لضيافة ، ساقه صاحب المطعم الى القاضى . وهذا حكم عليه بالتشهير .."[7]

ويهون أيضا الى جانب استعمال التراكيب والكلمات العامية ، كأن يقول: " ماذاك فكرى "[8] (يريد : لا أعنى هذا) و " ضغط زرا "[9] و " هل خجل بلباسى " (يريد : من لباسى) ، و " غير أنى بدالة الرفقة "[10] (يريد : بدل المصاحبة) ، و " ما زال كنزى على التراب فقلبي عالق .."[11] (يريد : ما دام ..) ، و " ما حزرتم قصدى "[12] و " مادخل ذلك فى حريتى " و " لما كان فى الأرض ولا انسان حر "[13] و " توفق الى أسلحة أقوى "[14].[15]

ولانعيد هذا الضعف فى تركيب مثل هذه الجمل الى تأثره بالجملة الغربية أو بغيرها ، لأن مثل هذه الأخطاء لا تتصل بذلك . وانما نعيده الى نقص التمرس بالجملة العربية وانطباع اساليبها فى التركيب ووعى شخصيتها وتذوق أصالتها . ذلك ما كان ينقص نعيمة فى مطلع حياته الأدبية ، وما يزال شىء منه ينقصه حتى اليوم .

ولو ذهبنا نعد العامى والمحرف والمغلوط فى كتابته لاستغرق ذلك زمنا . وسنعود الى هذا بعد قليل . ونقول الآن ان هذا كله - بما فيه - يساعد على جلاء نظرة نعيمة الى اللغة والأدب والحياة من ورائهما ، ويكشف عن حدود ثقافته اللغوية ، ومن ثم يعنى انطباع ذلك فى صورته الأدبية . وهو ما نحرص على تبيينه هنا.

×× ×× ××

لقد كان موقف نعيمة من اللغة و (الشكل) بصورة عامة ، هو موقف جبران منهما وموقف الرومانسيين فى الأصل . وسنقرأ فى فصل النقد مارد به على ناقدى

---

(١) مرداد ٢٧٠
(٢) كتابه عن جبران
(٣) النور والديجور ١٩٨
(٤) فى مهب الريح ١٥٤
(٥) كتابه عن جبران ١٦٩
(٦) زاد المعاد ١١٧
(٧) المصدر السابق ٥٩
(٨) الأرقش ١٤
(٩) المصدر نفسه ٤٧
(١٠) كان ما كان ١١٩
(١١) المراحل ٤٥
(١٢) البيادر ١٨٢
(١٣) صوت العالم ٧٨
(١٤) المصدر السابق ٧٩ وانظر ايضا ص ٤٧
(١٥) المصدر نفسه ٦٤

أدبهم ، فى مقالته المنيفة (نقيق الضفادع)[1] . فقد سخر من منطقهم وعيرهم بجمودهم وجبنهم وقلة زادهم وقال لهم : " الفكر كائن قبل اللغة ، والعاطفة قبل الفكر . فهما الجوهر وهى القشور " . ورد على نقدهم وحججهم فى موضع آخر فقال : " لعمرى انها حجة الجامد فى وجه المتحرك ، وحجة الشيخوخة البالغة ضد الشباب المتوقد حماسة وعزما وعافية ، وحجة الخيال الصاقر المعقم ضد الخيال المولد والفكر الخصيب ، وحجة الرباب المفكك ضد الكمان الموقع خير توقيع ، والنابض بأنغام ما ألفتها أوتار الرباب .. "[2] .

على أن نعيمة بدأ يقر الآن بأن لغته قد تطورت من الضعف الى القوة ، وأن أسلوبه قد اختلف عما كان عليه حين بدأ الكتابة فى المهجر قبل حوالى نصف القرن[3] والناظر فى لغته سنة ١٩١٣[4] يلمس صدق ما يقول ، فقد كانت

---

(١) الغربال ٧٤ ـ ٨٧ . وارجع الى فصل النقد .

(٢) مقالته (أدب المهجر) . الحديث ٩٤٩ عدد ك ٢ (يناير) ص ٤٠ . وقد اعتبر نعيمة " الهفوات اللغوية " دليلا على أن " آدابنا لا تزال فيها قوى تبحث عن مسالك " ، وشجع على " الفوضى اللغوية " لما تشق هذه الفوضى ـ فى نظره ـ من " مناهج واسعة " وما تشيده من صروح عالية " . (المراحل ١٢٠ ـ ١٢١) .

(٣) رسالته الى بتاريخ ٢٦ ك ١ (ديسمبر) ١٩٥٨ . ومن سخرية القدر أن نجد لنعيمة الذى ثار على التزويق "والشعوذات اللغوية" فى صدر حياته ، تزويقا وتنميقا فى الأيام الأخيرة (النور والديجور ٧) يلفنا ـ فى مواطن كثيرة ـ السعى وراء السجع . كان يقول : " تنقاد لهم انقياد البصير لحاديه ، والحمل لراعيه ، وفى ذلك من العجب ما فيه " و " حاكت لها عناكب الزمان ، اكفانا من النسيان ، تمزقها من آن الى آن " و " فلا هو من الشتاء فى الكبد والرئتين ، ولا هو من الربيع فى القلب والعين ، ولكنه بين بين " و " يتفيؤها المكدودون والمشردون والمستوحشون ، فيتذوقون طعم الراحة ويشكرون ويباركون ، ثم فى سبيلهم يمضون .. " (النور والديجور ٨ و ٣٨ و ٥١ و ٢٠٨) الخ ..

وقد أولع نعيمة ـ فى أيامه الأخيرة ـ بالاطناب ولوعا عجيبا . والأمثلة مستفيضة فى كتبه لا مجال لنقلها هنا . (انظر مثلا واحدا فى مهب الريح ٩٨)

(٤) تفضل الأستاذ نعيمة فأرسل الى مسودة قصته (سنتها الجديدة) وقد كتبها فى المهجر سنة ١٩١٣ .

جملته مزيجا صافيا من العامية مع التركيب الأجنبي والمسحة الانجيلية — كما تبدو في ترجمة الانجيل العربية — . ونستطيع أن نقع على أمثلة كثيرة لما نقول في الطبعات الأخرى لكتبه التي كتبها في المهجر مثل مجموعته القصصية الأولى (كان ما كان) (١) ومسرحيته (الآباء والبنون) (٢)، وما كتب في مجلة الفنون من قصصه

---

(١) لم يتح لنا — للأسف — الوقوع على الطبعة المهجرية، على أن الطبعة الرابعة البيروتية (المطبوعة سنة ١٩٥٦) التي اعتمدناها لا تبخل ببعض الأمثلة فهو يقول — مثلا — " رعبة " (ص١٨) — وهي عامية — بدل (الرعب) الفصيحة القريبة . ويقول " ها الشمس " (ص٨٦) بدل (هاهي الشمس) . ويستخدم أمثال التعبيرات التالية : " أو ربما كان أن .. " (ص٥٥)، " أصبح عزيز في حياتها الكل بالكل " (ص٦٢)، " لماذا لا تطلب زيادة سعادة " (ص٦٢)، " لاتزال تطلبها نفسها وكل وجدانها .. " (ص٦٦) .

ويبدو أثر التركيب الأجنبي في تقديم الأسماء وأشباه الجمل في مثل قوله : " ولكي يكون لجميلة ما تقضي به ساعات فراغها الطويلة كان يأتيها من مدة الى مدة برواية أو مجلة أو جريدة وجميلة كانت تطالع كل رواية يأتيها بها زوجها .. " (ص٦٥)، " وحماتها نوهت عن بيروت او الشام " (ص٦٨)، " فكل يوم كان عنده عرسا " (ص٥٨)، " أدركت أني بين زمرة من العبيد اللصوص الذين بعد أن قتلوا النمر انها لوا على بوابل .. " (ص٩٤).

ويبدو فيه تأثره بجملة الكتاب المقدس المترجمة، في مثل قوله " تعالوا الى أيها العطاش والناشفو الملاقيم وأنا أرويكم " (ص١١٧)

ويبدو أيضا في استعمال الكلمات الانجيلية " مثل : " جدت " (ص١٠٠) و " ليحفظك الرب " (ص١٣٠) .

(٢) عثرنا لحسن الحظ على الطبعة الأولى المهجرية في مكتبة معهد الدراسات العربية العالية وقارنا بينها وبين الطبعة الثالثة البيروتية (المطبوعة سنة ١٩٥٩) التي اعتمدناها، فظهر لنا مدى ما بذل نعيمة من جهد للاقتراب بجملته من سلامة التعبير العربي بعد عودته الى الوطن وانكبابه على مطالعة جوانب من تراثنا .

كان يقول في المهجر مثلا : " وانه — وأعني الأدب — واسع كالحياة، عميق كأسرارها، وينعكس فيها وتنعكس فيه .. " فقال في الوطن : " وانه .. وهو ينعكس .. " . ويقول في المهجر : " الدراما رافقت "، فقال في الوطن " رافقت الراما " . ويقول في المهجر : " رب كلمة وقعت في أذنه فيحتضنها للحال عقله .. "، فقال هنا : " رب .. فاحتضنها للحال.. " ويقول هناك : " فأجزل عطاهم بالمال "، فقال هنا : " فأجزل لهم العطاء " . وقال هناك : " ننظر الى الممثلة كعاهرة .. " فقال هنا : " ننظر .. نظرنا الى عاهر " . وقال هناك : " يوافقوني " فقال هنا : " يوافقونني " . وقال هناك : " لو حاولت أن تؤديها بلغة فصيحة تكون كمن يترجم .. "، فقال هنا : " لو ... كنت ... " . وأبدل " بالمحلات " " الاحيان " و " بالحدثين " " المحدثين " و " بالاقمطة " " القمط " .. وهكذا .. هذا ونحن لم نجاوز أبرز الأمثلة في المقدمة وحدها، وقد تركنا مثلها كثيرا . فأكثر الجمل في الطبعة المهجرية مقطعة مفككة مختلة، كأنما هي ترجمة سقيمة حرفية لنصوص كتبت باللغة الأجنبية؛ على أن نعيمة ما يزال يقول — في المقدمة التي كتبها حديثا لمسرحيته — : " كنت أشعر كالولد يكره على .. "، و " اضطرار الروائي الى العامية " (يريد : الى استعمال العامية). و " يعصاني " بدل (يعصيني).

وترد في المسرحية كلمات التجديف والقديسين والعذراء وبركة الصلوات (ص١٣ و ١٨) وغيرها ..

(مذكرات الأرقش)[1] .

ولما عاد نعيمة الى الوطن سنة ١٩٣٢ بدأ يطالع من جديد أطرافا من تراثنا القديم والحديث ، فاعتدلت جملته ، وفارقتها المسحة الأجنبية والمسحة الانجليلية ، وان طافتا بها فى بعض الأحيان . وتؤلف هاتان المسحتان – على كل حال – العامل الثالث والأخير فى تكون الصياغة اللفظية لصورته الأدبية .

ويمكن أن يؤخذ كتاب (مرداد) الذى ترجمه عن الانجليزية مثلا لما رمى اليه نعيمة من كسر أساليب التركيب العربى لتنطبق على أساليب التركيب الأجنبى ، فهو حافل بمثل قوله : " وفى الحال سرت وشوشة بين الجماهير بأن الرجل ما كان غير رسول أسير بتمار ... " وقوله : " واذ أن شوف تقديم المصباح الجديد كان من نصيبى هذه السنة ، فقد آليت .. "[2] وقوله : " وعما قليل بأن المعلم يصعد[3] . " وقوله : " موجها كلامه الى المعلم أكثر مما الى الرفاق " الخ ... وهو كثير جدا يملأ الكتاب . ويكاد يخيل للقارئ أن المؤلف رمى أن يكتب هذا الكتاب ذاته بهذه اللغة[4] .

وأما المسحة الانجيلية فتبدو فى مواضع كثيرة من كتبه كلها . وليس غريبا أن يكون ذلك ما دام يكرز بعقيدة الانجيل ويبشر بأهدافه الكريمة . فمن الشائع فى تراكيبه مثلا استعمال (أن) بعد (ليس) فى حال الاستفهام ، كأن يقول : " أليس أنه ابنى ومن لحمى ودمى "[5] . أو استعمالها بعد (كان) كأن يقول :

---

(١) نجد ما كتبه منها فى مجموعة الرابطة القلمية الصادرة سنة ١٩٢١ ص ٢١ – ٥٧ . وقد رجعنا اليه فقارنا بينه وبين نصوص الكتاب المطبوع فى بيروت سنة ٩٤٩ ، واتضح لنا هنا ما اتضح فى مقارنتنا السابقة بين نصوص المسرحية فى طبعتيها . كان يقول :
" هلكنى هذا الروماتيزم " (ص ١١ السطر ١٤) ، فقال فى الكتاب : " أهلكنى .. " . وكان يقول : " وبدون برنيطة " (ص ٢٢ س ١) فقال : " ولا ما يغطى رأسه " . وكان يقول : " المطر نازل منه من كل خيط ساقية " (ص ٢٢ س ١) ، فقال : " المطر ينساب سواقى من كل خيط على بدنه " . وكان يقول : " قلت بنفسى " (ص ٢٢ س ٢) ، فقال : قلت فى نفسى " . وكان يقول : " أتخدم بالمؤونة .. " (ص ٢٢ س ٣) ، فقال : " أتخدم لقاء مؤونتك . " وكان يقول : " صدقة " (ص ٢٢ س ١٢)فقال : " مصادفة " . ، وكان يقول : " الرجل السرى " فقال : " الرجل الغريب " . وهكذا ..
على أن نعيمة ما يزال يقول فى كتابه " خزاك الله " . (ص ١٠٤) و " كلنى اليوم اضطراب " (ص ١٢١) و " فأنا اليوم غير أنا " (ص ١٠٣) ، ويبدو فيه تأثر جملته بجملة الكتاب المقدس المترجمة ، فى مثل قوله : " شيش يبكى دراهمه وما من معز " (ص ٤٨) ، فهذا من قول التوراة: " راحيل تبكى على أولادها ، ولا تريد أن تتعزى " (متى ٢/١٨) وفى قوله : " مغفورة لك خطاياك " (ص ٦١) فهذا قول المسيح نفسه (لوقا ٧/٤٨) . ويبدو أيضا فى استعمال كلمات الانجيل المعروفة : " الأقنوم " (ص ٢٠) ، و " المخلص " (ص ٧٨) وتكرار كلمة " التجربة " الخ ..

(٢) مرداد ٢٧٠ (٣) المصدر نفسه ٢٧١ (٤) المصدر المذكور ٢٦٨

(٥) فى مهب الريح ٢٣٣ . وانظر أيضا النور والديجور ٤١ و ٤٤ و ٨٠ والبيادر ٢٠٢

" أيكون أنه لا يؤمن بما يقول[1] " ، أو استعمال تراكيب الانجيل نفسها ، مثل قوله : " فكما في السماء كذلك على الأرض • كما في الظواهر كذلك في البواطن[2] " • أو تكرار اللازمة الانجيلية المعروفة : " أقول لكم "•• ولا يمكن أن تحصى — في كتابته — الكلمات المنتزعة من الانجيل ، والآيات والأمثال التي نقلها وخلطها بكلامه أو تركها مفردة ودلل عليها[3] •

ويصعب علينا بعد هذا أن نصدق ما يقوله بعض الباحثين من أن لغة نعيمة هي أصفى لغات أدباء المهجر وأسلمها وأقربها الى طبيعة التركيب العربي[4]، فهؤلاء لم يقرأوا — على الأقل — نثر أبي ماضي ونسيب عريضة • وقد فجأهم جبران — من ناحية أخرى — بخياله البعيد وصوره العجيبة فظنوا اللغة غريبة غرابة الصور ، وهم في ذلك مخطئون عندنا ، فلغة جبران — في رأينا — أقرب كثيرا الى السلامة والى الاعتراف بشخصية الجملة العربية واحترامها من لغة نعيمة اذا اعتبرنا — خاصة — المدى الغريب الذي يشقه جبران بخياله الأصيل وصوره الجديدة •

على أن مما لاشك فيه أن أسلوب نعيمة — بما فيه ، ولما فيه في بعض الأحيان — أسلوب حار ، حي ، خفيف ، متلون[5] ، صادق ، مرن ، يستجيب لطبيعة الظرف

---

(١) صوت العالم ١٨٠ وانظر أيضا ٩٢ و ٨٣

(٢) البيادر ١٨٣ — ٨٤

(٣) كان يقول مثلا : " أفما قيل من زمان أنه من فضلة القلب يتكلم اللسان " (البيادر ٢٠٣) أو يقول : " كيف أحزن وأنا أقول مع الرسول : يا اخوة لا تحزنوا لمن لا رجاء لهم " • (زاد المعاد ١١٦) أو يقول عن أناس : " فقد صح فيهم قول السيد المسيح : " لهم عيون ولا يبصرون ، ولهم آذان ولا يسمعون " (النور والديجور ٩٠) أو ينقل آيات مجتمعة من الانجيل (انظر في مهب الريح ٥٨ — ٥٩ والنور والديجور ٢٣٨ والمراحل ٢٨ وما بعدها وصوت العالم ٥١) وقد أكثر نعيمة من النقول عن التوراة (انظر مثلا النور والديجور ١٠٥ وزاد المعاد ٨٣ — ٨٤ وكان ما كان ٤٠ وفي مهب الريح ١٥٥) ، وأعاد تفسير بعض حكاياتها (حكاية برج بابل مثلا في النور والديجور ، ٣٢ مع نص طويل من سفر التكوين) ونقل عنها بعض صوره (البيادر ١٥٢) • وانظر أخيرا (وجه يسوع) من مقالته (ثلاثة وجوه) • المراحل — ٢٨ وقد لاحظ سيد قطب في نقده للبيادر أن تأثر نعيمة بجملة الانجيل المترجم ، يحجب كثيرا من جمال اسلوبه الفني • (كتب وشخصيات ٢٢٣)

(٤) انظر مثلا مقالة لابراهيم جلال الدين في الثقافة ١٩٤٠ عدد ٦٣ ص ٢٤ • ويكاد يكون هذا رأي أكثر من حدثتهم في الأدب المهجري •

(٥) أشار الى ذلك القس عبد الجليل

B. H. P: 249

والموضوع ، وينفذ ببساطة ــ الى القلب ، ويحيي شعور القارئ[1] ويثير فكره وخياله • فما أكثر ما تتقصف الجملة فى مواضع الانفعال والحركة ، وما أكثر ما تعمق وتطول فى مواضع التفكير والمناقشة ، وتفوح بالعطر والزهر والجلال والفرح فى مواضع النشوات الصوفية ، وتمكر وتتلوى وتعصف فى مواضع السخرية والنقد •

(((٤)))

وأقرب كتاب الرابطة من نعيمة ــ فيما يتصل بالصورة الأدبية ــ هو كاتسفليس • رومانسي عميق الاحساس ولكنه لا يعدى عن الواقع ، بل يغوص فيه ويحوم بخياله حوله • وشعور أصيل بالكآبة يكاد يبدو فى مقالاته وصوره القصصية كلها • وجملة سهلة تكاد تكون مسطحة لولا المسحة العاطفية الرقيقة • متجه الى الجديد بنفسه كلها حتى ليلوح لنا أنه لم يقرأ من تراثنا القديم شيئا يعتد به • الغاية عنده هى الفكرة والاحساس ، وانما يستطرى التعبير حين يستطربان ، حتى ليقع فى الايقاع الشعرى الخفيف والسجع المتواصل أحيانا •

وفى مقالته التصويرية (القلوب الجائعة)[2] تبدو معظم هذه الخصائص واضحة فى الشعور الانسانى الكئيب والخيال الذى لا يجاوز الأرض والصياغة الصحفية السهلة • وتبدو استمانته بالايقاع والسجع ــ الى جانب ذلك ــ فى مقالته الشعرية (واجعلوا الحلم جميلا)[3] ، التى يقول فيها : " روحوا النفس فالسبيل ضيق وقصير • اذا نثرنا فوقه الأزهار ربما هان المسير • ومن الجنون أن نؤثر العسير على اليسير • ومن الجحود أن نهمل كنوز النفس وهى عطايا الاله • فالعيش حلم ، والحلم كما نريده يكون " • ويبدو ذلك أيضا فى مقالته القصصية (قصة أم)[4] التى سلك فيها مسلك الريحانى وجبران ونعيمة فى كتابة النثر الشعرى •

ونعتقد أن العوامل التى كونت صورته الأدبية ، ثلاثة • أولها تأثره بالأدب الفرنسى الرومانسى خاصة • وثانيها تأثره بكتاب الصحافة فى مطلع هذا القرن ، وهم الكتاب الذين كونوا لكاتسفليس ــ فى رأينا ــ مثاله الأدبى الأول

---

(١) سنجد ــ فى دراستنا للفنون الأدبية المختلفة فى الباب الثالث (الجزء الثانى من الرسالة) أمثلة كثيرة لما نقوله هنا على الاجمال • وانظر ــ بصورة خاصة ــ دراستنا لفن السيرة •

(٢) مجموعة الرابطة ١٩٦ • وفى فصل القصة أمثلة منها •

(٣) المصدر نفسه ١٥٠

(٤) بلاغة العرب فى القرن العشرين ١٨٤ • وقد نقلنا مقاطع منها فى فصل القصة أيضا •

في اللغة العربية ، فدرج على محاكاة صورتهم الأدبية في سهولتها وبساطتها والتفاتها الى تأدية الغرض ونقل الفكرة والاحساس قبل كل شيء•• وثالثهما عمله التجاري الذي علمه الاهتمام بالواقع وعدم الانفصال عنه •

×× ×× ××

والعاملان الأخيران هما اللذان كونا الصورة الأدبية لدى عبد المسيح حداد ،فهو صحفي يخاطب الناس – في مستواهم المادي – ويتصل بمشكلاتهم الواقعية ، ويقرأ الصحف الأخرى الصادرة في الوطن والمهجر ، ويرد على بعضها ، وينقل عن بعضها (١) • وقد ألهاه ذلك – بالطبع – عن الرجوع الى تراثنا في مصادره الأصيلة ، ولم يكن هو يميل الى مطالعته ،ولم يكن يجد فيه مثاله الأدبي •

ومن هنا بدت جملته خفيفة سريعة عارضة ، تكاد تقترب من لغة الحديث ، دون أن تعلو – في أحيان كثيرة – على الركاكة والضعف والسقوط • وبدا خياله قريبا جدا لا يفارق بيئته على الاطلاق • والأصل في ذلك أن يظل مرتبطا – في كتابته – بالقارئ العادي ، قريبا من ادراكه ملتصقا ببيئته وواقعه • ولهذا كان مثاله في الكتابة أن يؤدي الفكرة دون أن يعبأ باللفظ على الاطلاق ، ودون أن يعاود النظر في التركيب • فهو لا يتنكر للخطأ والعامية والهلهلة والاسفاف في الخيال والضحولة في الاحساس• كأن شبح المطبعة الشرهة قائم أبدا في نفسه يسأله أن ينهي ما بين يديه على أي حال ، ويلتفت الى يومه الواقف بالباب •••

ولو كان لعبد المسيح رصيد حسن من الثقافة العربية جمعه من مصادره الأصيلة كما فعل أبو ماضي ونسيب عريضة ، لنجاه ذلك مما وقع فيه من ضعف الصورة ، وعوض شيئا عن السرعة وغطى بعض تورطها ، ولكنه جمع على نفسه اطلاعا ضئيلا وحاضرا مسرعا وعملا يتطلب مخاطبة الناس والنظر في مشكلاتهم ، على المستوى الصحفي القريب من نفوسهم•

---

(١) الملاحظ أن عبد المسيح بدأ الكتابة في السائح سنة ١٩١٢ متبعا السجع • وقد جاء في افتتاحية العدد الأول منها ما يلي : " لدى ظهور هذه الجريدة الى عالم الوجود ، نحمد الكائن الموجود ، الذي أهلنا لهذه الخدمة الأدبية بما نهيء للمواطنين في هذه الديار وخارجها من الفوائد ، وما ننتسمه من الأخبار والشوارد ، وما نقتطفه من المحبرات الفرائد •••" ولكنه تخلص سريعا من هذا القيد • (مقدمة العدد الأول من السائح بتاريخ ٢٣ نيسان (ابريل) ١٩١٢•

على اننا لسنا ننكر - مع هذا - أن لعبد المسيح قدرة حسنة على ملاحظة الناس ووصفهم فى حياتهم الاجتماعية ، والسخرية الرقيقة النافذة - أحيانا - من أخطائهم وأوهامهم وعيوبهم العامة . وبهذه الخصائص تبدو أصالته فى الكتابة. ولهذا اختار - فى رأينا - أن يكون أثره الأدبى الوحيد حكايات يصور فيها المهاجرين فى مجتمعهم الجديد ، وما كان يقوم بينهم وبينه من علائق وما كانوا يعانون فيه من مشكلات وفجائع ، تصويرا حلوا خفيفا ساخرا ، نافذ السخرية .

ولانعدم أن نجد هذه الخصائص كلها فى نص واحد نختاره له من حكاياته (الله يسمده ويبعده)(١) . وهى حكاية يصور فيها علاقة أخوية معقدة قائمة بين أخوين يدعى أكبرهما (ابراهيم) المعرفة على حين يمتاز بها أخوه الصغير (فريد) . يقول : " عندئذ لم يعد لابراهيم من مهرب . فصار عليه الا يحل مشكلة صغيرة كهذه ، وهو لم يعودهم ذلك(٢) . ففتح فمه أولا ببطء كلص وعيناه محلقتان ووجهه يتطاول . وكان يطرف نظره يحدج أخاه فريدا . لهذا تلعثم قليلا ولما تحنن الله على صبر القوم ، خرجت من فيه كلمة (أظن) خمس مرات ، وبين كل مرة وأخرى فرصة دقيقتين حتى أخيرا فاز بحل المشكل طارحا عنه التردد المصطنع . وقال : " ان السمار هو السامرى عذول اليهودى فيكون المعنى أن العدو نام وهو لم ينم ، بل أرقه الألم).

ويظهر أن فريدا فى تلك الساعة نسى أن أخاه الأكبر كان المتكلم . ولهذا استعان بكل ما فى قدرته على الضحك حين كان الكل صامتين وعلى وجوههم سيما الرصانة ، يتوقعون القول الفصل من رب العرفان عندهم . وهذا ما دعا ابراهيم أن يستشيط غيظا من أخيه ، فشتمه . ولولا حرمة الناس لكان ضربه . فانتبه فريد لأمره وعقب ضحكاته الطويلة ، عبوسة فجائية . فاستصفح أخاه وأقر بأنه مخطئ ، وأنه نسى نفسه لتفاسير القوم كلمة (سمار) البعيدة الصواب .. "

ففى النص هلهلة جامعة وعامية واضحة وسخرية من الأخ الكبير تبدو فى اللقب الذى منحه اياه (رب العرفان) ، وفى وصف قوله (بالقول الفصل). وفيه وصف دقيق لما يقوم بين الأخوين ، الكبير والصغير ، من غيرة خطرة،

---

(١) مجموعة الرابطة ٧٦

(٢) يشير الى السائلين الذين طرحوا على الأخ الكبير - بحضور الصغير - سؤالا فى تفسير كلمة (السمار) .

حين تكرم الطبيعة على الصغير بالمواهب الفكرية وتحرم الكبير ـ ذا السلطان ـ منها ٠

ويغنينا هذا التخطيط للصورة الأدبية لدى عبد المسيح ، عن الافاضة في ضرب الأمثلة ٠ وستبدى دراسة مقالته وحكاياته في الباب الثالث (الجزء الثاني من هذا البحث) تفصيل ما أجملناه هنا ٠

(((٥)))

أما أبو ماضي وعريضة فينكسر عندهما الخط الذى استقام عند الأربعة الأولين ، فقد شذا شذوذا مطلقا عنهم ، فرجعا بجملتهما الى الجملة العربية الأصيلة وساقاها على غرارها ٠

وقد بدا أبو ماضي أكثر تأثرا بصورة هذه الجملة من عريضة ، ويمكن أن يعود السبب الى اقامته الطويلة في مصر التى كانت تشهد حركة احياء قوية[١] ، والى انكبابه الدائم على المطالعة في دواوين القدماء وكتبهم ، ليستقيم له التعبير في محاولاته الشعرية المبكرة ٠

وهو قد يغرق أحيانا في عروبة الجملة حتى يقرب بها من البادية ، ويبدو ذلك واضحا في تشابيهه وصوره ، فهو يقول : " ألقى العصا " و " انجلى النقع[٢] " ٠ ويصف اللحية بأنها " متمكلة كأنها عوسجة القفر[٣] " ٠ وتمر في مقالاته مثل هذه الصور القديمة : " بنات القرائح " و " تسارعوا كالعصافير الى منهل عذب[٢] " و " كان من قوة يقينه في جيش لجب[٤] " و " يجسمون الحوادث ويبالغون ولو بجدع أنوف الحقائق[٥] " ٠

وقد يبدو في جملته أثر واضح للقرآن ، كان أبا ماضي قرأه في وعى وتأثر به ٠ مثال ذلك قوله : " عضوا أصابعهم أسفا[٢] " و " أعجاز نخل خاوية[٦] " و " لا تظلم أحدا فتيلا[٧] " ٠

ونعتقد أن هذا التأثر بالتراث القديم يؤلف العامل الأول في تكوين صورته

(١) انظر في ذلك مقالة كتبها لويس الريس بعنوان (مصر في امريكا) الثقافة ١٩٤٢ عدد ١٦٨ ص ١٥ ـ ١٧ ٠

(٢) السمير ٩٣٢ عدد ١ أيار (مايو) ٠ (الافتتاحية) ٠

(٣) السمير ١٩٣١ عدد ١٥ نيسان (ابريل) ص ١٧ ٠

(٤) السمير ١٩٣١ عدد ١٥ حزيران (يونيو) (الافتتاحية)

(٥) السمير ٩٣٤ عدد ١٥ آب (اغسطس) (الافتتاحية)

(٦) السمير ٩٣٢ عدد ١٥ آيار (مايو) ٠ (الافتتاحية) ٠

(٧) السمير ١٩٣١ عدد ١٥ نيسان (ابريل) : (الافتتاحية) ٠

الأدبية . فأما العامل الثاني فهو شاعريته الخصبة القوية ذات الاتجاه الرومانسي ـ أحيانا ـ .(١) وقد بدا هذا العامل في صياغته الذاتية الأصيلة للجملة ، وفي انتقاء الكلمات ذات الحساسية والنفوذ ، وفي اختيار الصور والتشابيه التي تشف عن احساس عميق بالروابط القائمة بين الأشياء :

وفي مقالته : (لماذا تذهبين الى المصيف)(٢) تنكشف هذه الخصائص كلها في وضوح . يقول يخاطب المرأة : " اذا خرجت من المدينة فانقضي غبارها عن حذائك ، وأطلقي روحك من سلاسل التصنع والرياء والتكلف فيها ، سلاسل المجتمع المغلوب على أمره ، المأخوذ بسحره ، المدمن الشرب لئلا يصحو من سكره ... واذا صرت في الخلاء الحر تحت السماء الضاحكة ، فاستقبلي الهواء والنور بملء صدرك ، وبكل جوارحك ، ولا تخافي أن تستوهبي الطبيعة الكثير منهما ، فليس أحب الى الطبيعة من العطاء ....

عرضي وجهك للشمس تسكب عليه ذوبا سحريا

وافتحي رئتيك في الخلاء الفسيح تملئا هواء نقيا

وامشي بين الأعشاب البليلة والأزهار الجميلة ، فتفيض على أثوابك ، وفي نفسك ، عطرا زكيا . واصغي الى همس الجداول ، وخرير السواقي ، تسمعي وحيا علويا . ولا تهملي الاصغاء الى شدو الطيور عند الأصيل ، وزقزقة العصافير عند الفجر ، فان للطيور لغة كلها شعر وكلها سحر .

ليس في المدينة جمال الا وهو مسروق أو مستعار من الطبيعة ، وليس في الطبيعة قبح الا وهو مدسوس عليها من المدينة . كم من قلب أهرمه الهم في المدينة . رجع في ظل الطبيعة الرءوم شديد الشباب . كم من روح صارت لمتاعب المدينة وأكدارها كالمومياء المصرية ، لمستها الطبيعة الساحرة ففكت عنها اللفائف والأكفان وردت اليها حياتها الأولى ، ورفعتها الى السحاب بعد أن كانت تتمرغ في التراب ... هناك الجمال السائغ الذي لا تصنع ولا تكلف فيه ، وهناك الفن الذي لا تخلق ديباجته ولا تبلى روعته " .

---

(١) كتب جبور عبد النور مقالة بعنوان (أيليا أبو ماضي) في الآداب ٩٥٣ عدد ٢ ص ٣٨ ـ ٤٢ أشار فيها الى أن تأثر أبي ماضي بجبران ونعيمة لم يغرقه في بحر الرومانسية وعوالم الحلولية وشطحات الانجذاب . ولم يجعله " يحتذي أسلوب التوراة ويستقي من ينبوعها ، فيقرر حقائق وعقائد ويضع نظما للسلوك والأخلاق " . وارجع هنا الى الفصل الذي كتبناه عن المفارقات الشخصية بين أدباء الرابطة .

(٢) السمير ٩٣٢ عدد ١٥ حزيران (يونيو) (الافتتاحية)

ففى المقالة اتجاه رومانسى يبدو فى هذه الفتنة بالطبيعة والرغبة فى التخفف من متاعب المدينة بالقاء النفس فى أحضانها ، وغسل القلب الذى أهرمته أكدار المدينة ،بصفائها ونورها وهدوئها وبساطتها.

وقد غلبته شاعريته فلجأ الى السجع وأمعن فيه حينا حتى كاد يحيل قسما من المقالة الى أبيات منثورة محتفظة بقافيتها. ولسنا ندرى كيف يذكرنا هذا القسم بسورة مريم فى القرآن . ومهما يكن فقد أولع أبو ماضى بالسجع ولوعا لا يفسره الا غلبة شاعريته وميله الى أن يستخرج بالانغام بقية ما يجول فى نفسه من انفعال قوى .(١)

ويتصل بهذا اختياره للألفاظ الشعرية ذات الرنين المعبر : " السماء الضاحكة ، الذوب السحرى ، الاعشاب البليلة ، همس الجداول ، خرير السواقى الوحى العلوى الخ ..

وخلاصة ما يقال فى صورته الأدبية أخيرا أنها صورة سليمة متأثرة بالقديم، مطوعة تطويعا شعريا لم يذهب بشخصيتها ، للتعبير عن ذات أبى ماضى وأشواقه ذات الاتجاه الرومانسى الواضح أحيانا.

×× ×× ××

أما نسيب عريضة فكان أقرب من أبى ماضى الى جبران ، وأكثر تأثرا به . فبدا – لذلك – أقدر على التملص من شباك التأثر بالصياغة القديمة ، بالرغم من ميله اليها وترويض جملته عليها. والأصل فى هذا كله حدة مزاجه الرومانسى البادى فى شعره ونثره على السواء.

وقد يخيل لقارئه أحيانا أنه ينافس جبران فى التعبير والتنغيم وابتكار الصور وعمق الاحساس بالطبيعة لولا اعتراض بعض الصور القديمة التى تنبئ عن مطالعات أصيلة فى الأدب القديم ، ولولا الحرص البادى على تجنب الركاكة وفى الوقوع على الفصيح. وهذه هى خصائص صورته الأدبية على التحديد . ويكونها العاملان اللذان كونا صورة أبى ماضى ، على أن نؤخر هنا عامل التأثر بالتراث

---

(١) وقد يتوارد السجع فى عفوية رقيقة كأن يقول : " لنبدأ بالسياسة أو بحكاياتنا معها، فلنا فى هذا المعترك زمامير وأبواق ، ولجلالتها عندنا طفمات وأجواق .. "، و " يجودون بالأرواح جود السماح " ، و " أصبحوا قدخلت منهم الديار فلا ناقر ولا زمار " . أو يقول : " إجترح المجائب ... وأتى بالغرائب . زرع الغريب كدا وجدا ، فحصد عزا ومجدا . وغرس الشرقى قناعة واستسلاما فجنى ذلا واعداما ". ومثل هذا كثير جدا فى مقالات أبى ماضى . (انظر السمير ٩٣٢ عدد ١ آيار – مايو . (الافتتاحية ، ومقالته " زماميرنا ")

القديم ، ونقدم عليه عامل الشاعرية الحادة ذات الصبغة الرومانسية الواضحة.

يصف الصباح ـ مثلا ـ في قصته (ديك الجن) (١)، فيقول : سبحت خيالات الصباح في اوقيانوس الجو . ومدت الشمس يديها بآلاف من الاشعة لعناق جسم الارض ، فتموجت لجج الاثير بين مد الألوان وجزرها . وبكت الارض شغفا وسعادة للقاء الشمس، فتلألأت دموعها نقطا ألماسية من الندى المستلقية على أراجيح الأوراق والبراعم. وبسطت الظلال طنافسها المخملية تحت أروقة الاشجار، وهب النسيم عليها متدفقا آتيا بسرعة من الغرب كساعي بريد مستعجل فأبلغ رسائله المطرية المرسلة من القمم الى السهل ، فطيبت بأريجها الافاق، فلما تنشقت البلابل رائحتها ناغت وسبحت بأصواتها ، فهزت أشجار الحور رؤوسها بعظمة وسمعت في حفيفها أنات طرب وحنين ، كأن في أصولها تحت الثرى روح طروب ولوع بالغناء يصرخ مستعيدا النشيد ، ويستحلف الشادي ألا يكف".

فعريضة هنا شديد الحرص على ابتكار الصور ،واختيار الألفاظ الشعرية ذات الرنين . وهو يمزج نفسه بالطبيعة حتى يحييها بعاطفته واحساسه وشوقه ، كما كان يفعل جبران . ولكنه ـ حين يتقدم في الوصف ـ يشبه مياه العاصي المتدفقة " بفرس كريمة تجري في المضمار والزبد على أشداقها " ، وهذه صورة البحتري في وصف تدفق المياه في بركة المتوكل ، وهي صورة قديمة على كل حال علقت بذاكرة نسيب في مطالعته للأدب القديم وان غير اطارها.

وقد يقد جملته أحيانا قدا عربيا خالصا ، كأن يقول بلسان ديك الجن لصديقه بكر : " أراك على غير هدى هذه الليلة يا صاح . فيم تشاؤمك ، وليس حولك الا ما يدعو الى التفاؤل والاستبشار ؟ أفي عنفوان الشباب تهذي بذكر الموت ؟ " . أو يقول لورد : " آه أحسنت لا فض فوك " ، ولكن ذلك ما يلبث أن يلين وتعود جملته الى حنانها وشاعريتها وأصالتها.

ولم يقع عريضة ـ على الاجمال ـ في أخطاء كثيرة فقد كان زاده من اللغة وقواعدها حسنا ، وان لم ينجه ذلك من أخطاء عارضة كان أبو ماضي أشد حرصا على تجنبها .

---

(١) مجموعة الرابطة ١٠٥ وما بعدها.

(((٦)))

والخلاصة أن كلا من هؤلاء الأدباء اختار لنفسه - في اطار الرابطة - أسلوبا يتفق مع خصائصه في الفكر والاحساس. فأغرق جبران في الرومانسية والرمزية، ولون الكلام ونغمه و (هومه) وألقى عليه ستارة من الضباب ليبدو أكثر ايحاء وفتنة . وسكب فيه كآبته وحرارة عاطفته ونفاذ حسه ، حتى تميز في أدبنا الحديث بما يحب بعض الناس أن يسميه (البلاغة الجبرانية). وقد كانت العوامل المؤثرة في تكوين صورته الأدبية هذه أربعة : كونه رساما رحب الخيال ، وعقيدته بوحدة الحياة التي أرهفت حسه وأغرته بالرمز وحببت اليه تعبير التوراة الرمزي المنغوم الساذج وأسلوب نيتشه وتاجور وبليك المثقل بالرمز الشعري الجميل ، ومزاجه العاطفي الحار المتقلب ، ثم تأثره - من حيث الصياغة - بالجملة الغربية والجملة المترجمة في الكتاب المقدس.

ولم يوغل نعيمة في الرومانسية والرمزية على السواء ، فامتازت صورته الأدبية - على الاجمال - بما يمتاز هو به من تحكيم للعقل والمنطق وثبات في المزاج . ولم يسرف في الخيال فبقي قريبا من الواقع دائما (1) . ويتضح اشفاف تعبيره عن ذاته ومزاجه الصوفي في مقالاته الشعرية التي غنى بها الطبيعة وجمل روحه بترابها ، ووقع تعبيره توقيعا مسكرا خرج فيه أحيانا الى (الشعر المنسرح) ، والى الشعر المقفى ... وقد كانت العوامل المؤثرة في تكوين صورته الأدبية هذه ثلاثة : ثبات مزاجه ، وعقيدته الصوفية التي أرهفت ميوله الرومانسية واغرته بالرمز وحببت اليه الطبيعة وخلطته بصورها وحطمت قيود الشكل في نفسه واطلقت خياله وقربت منه التوراة رموزها وأنغامها ، ثم تأثره - من حيث الصياغة اللفظية - بالجملة الغربية والجملة المترجمة في الكتاب المقدس.

ولم يبعد كاتسفليس - في صورته الأدبية - كثيرا عن نعيمة ، فلم يبعد عن الواقع - على رومانسيته - ، ونحا نحو الصحفيين في صياغة الجملة صياغة سهلة

---

(1) يصير سيد قطب عن ذلك بقوله : ان عرضه لفكرته يتم في حماسة شعرية ووضوح ذهني " . ويقول : " في أسلوبه يزدوج الشعر بالحقيقة " . كتب وشخصيات ٢١٦ و ٢٢١ . وانظر في هذا المعنى أيضا (بروكلمان) : G.S. 111 P. 471 - 72

عفوية ، واهتم بالفكرة والاحساس قبل اهتمامه باللفظ والتركيب • على أنه استعان بالايقاع الشعرى فى بعض مقالاته حين وجد ذلك يستجيب لحاجاته النفسية •

وأغرق عبد المسيح فى عمله الصحفى فلم يلتفت الى صياغة الجملة على الاطلاق ،ولم يعاود النظر فيها • فوقعت الصورة الأدبية عنده فى ضعف مازها من صورة كتاب الرابطة الآخرين •

وبلغ تأثر أبى ماضى بالجملة العربية التقليدية حدا احتفظ معه بأصالتها وسلامة تركيبها فى نثره وبكثير من صورها التقليدية • ولكنه استطاع مع ذلك أن يطوع هذا التعبير ليسع الترجمة عن نفسه وعن احساسه الشعرى النافذ • وقد استعان فى ذلك بالسجع حينا — وهوارث الشعر — وبانتقاء الكلمة الحساسة ذات الرنين حينا • وصنع نسيب عريضة صنيعه ولكنه لم يورث نثره السجع وان أورثه اللفظة الحساسة والرنين الشعرى وأغرق فى التلوين والتنغيم يشبها بجبران • وقد قصر عن أبى ماضى فى تتبع الصياغة القديمة وان حرص — فى أغلب الأحيان — على سلامة التركيب واستعمال الفصيح •

ومهما يكن ، فلاشك أن هؤلاء الأدباء — على الاجمال — سعوا وراء خلق صور أدبية ذاتية قادرة على نقل تجربتهم الخاصة الطوية التى يصعب أن تستجيب لها جملتنا العربية التقليدية القوية الجزلة ، فقد كانوا يحسون أنهم فى حاجة الى صورة شديدة الحساسية ، عميقة النبرة ، بعيدة الايحاء ، مرنة ، لينة الحافة ، لتستطيع أن تستغرق احساسهم المستوفز وغربتهم العميقة • وقد كانت الصورة الشعرية الرمزية المغموسة فى العاطفة ، والمطرزة بالخيال ، هى الصورة التى اختاروها وسكبوا فيها تجربتهم الأصيلة هذه •

وبهذا تميزت فى أدبنا حقا صورة مهجرية ، حاول بعض الكتاب فى الشرق أن يقلدوها فأخفقوا ، لانهم لا يملكون أصالة أصحابها ، وحاول آخرون أن يحطموها ويسخروا منها ، فأخطأوا فهمها ، ولم يدركوا أنها — فى حقيقتها — صورة فريدة لتجربة فريدة ، فهى — فى صفاتها وخصائصها وانحرافها — تحمل صفات هذه التجربة وخصائصها وانحرافها أيضا •

ولن يمنعنا هذا الانحراف — على كل حال — أن نقر بالدور الرائع الذى أدته هذه الصورة فى نهضتنا الحديثة ، اذ كسرت قيود التقليد

ورفعت راية الصدق فى التعبير عن الذات ، فى مرحلة كان الأديب فيها أحوج ما يحتاج الى الصدق فى الاحساس والتعبير • وبذلك نقول : ان هؤلاء الأدباء طفروا بالتجديد فى النهضة الأدبية ـ التى بينا حدودها الكبرى فى مطلع الفصل ـ طفرة واسعة أتيح لهم فيها (لأسباب أصبحنا نعرفها) أن يقطعوا صلاتهم بالقديم فى مختلف نواحيه ، ويسعوا فى تحويل جذور الصورة الأدبية العربية الى تربة غريبة (١) • ومن هنا كان ـ فى رأينا ـ انحسار مدهم عن كثير من البيئات العربية ، ووقوفه قريبا من الساحل (٢) بعد أن فجأها فى أول أمره وحرك أعماقها ، وألقى فى بركة حياتها حجرا كلسيا ظل يفور مدة طويلة •

وينبغى أن نلاحظ أخيرا أننا ـ فى هذا الفصل ـ تجنبنا الدخول فى دراسة تفصيلية للصورة الفنية ووقفنا عند حدود الجملة العامة وما يتصل بها ، لأننا خصصنا أطول أبواب هذه الرسالة/ لدراسة (الباب الثالث) الفنون الأدبية التى عالجها كتاب الرابطة فنا فنا • ونحن نعتبر هذا الباب مكملا لبحثنا فى المضامين والصورة على السواء ، لأنه يفصل ما أجملناه هنا ويمثل له تمثيلا حيا متكاملا ويفسر الصورة الفنية التفسير الواسع الذى يتم به معناها ، وفهم خصائصها ، ونقدها •

---

(١) وصف خليل تقى الدين هذا فى قوله عن جبران : " كان جبران يمشى ويهدم وراءه الجسور " الكشوف ـ عدد الريحانى ص ٧ •

(٢) لاحظ (بروكلمان) أن كتابة جبران لم تحدث أثرها فى مواطنيه أنفسهم.
G. S. 111 P: 464

ص ٦١٤ . أرى مسايرة كتب (مجهول) لخيالي نفسه . هل في هذا الكتاب ما يستدعي
تغيير آرائه أو تصحيحها ؟

أريد أولاً أن أتحدث عن ما بذلت من جهد في كتابة الرسالة . فقد
عشت عيشة الصوفيا المنقطع إلى أوراده ، وبذلت كل وسيلة ممكنة واستقصاء
الأبحاث والوصول إلى المصادر الأولية ، وقراءة الكتب والصحف قراءة وحرية .
وقد كتبت ثلاثة طباع [illegible] للباحث المخلص لعمله الدقيق لواجبه ، وقد أدركت معدل
إذا استغرقت كل هذه الأعوام لتحقيق هذه المرتبة العالية في كتابة الرسائل . وكانت [illegible]
في العهد - في أثناء الدرس - لا تقل جزءاً من عملي في كتابة الرسالة . ويؤسفني
[illegible] في هذا العهد أن أتحدث وأثني عليهم لطيب الثناء وأرجو أن يعود
[illegible] ما أسديه إلى الذين منهم من أمرائه [illegible]
مدونة لزملائي وأمتع بها التنافر . وحق الآخر [illegible]
أن التزام هذا المنهج في حياتنا : انقطاع إلى الدرس والبحث وقضاء في أداء الواجب ،
[illegible] ترتقي الأمة وتتحقق آمالها .

ص ٢٨٥ : اعتبر نعيمة رائداً للنثر وجبران رائداً في التمثيل . ربما قصد من رواد مذهب الفنية ، لأن كثيرين من المشاركة سبقاهما في هذين الفنين ، كرواية الأفغاني ... وقصص الأندلس لعلي أدهم . أما المسرحيات فالنقد منه نذكر (حتى السيراني ... الرابطة)

كيف نشأت الرابطة القلمية واتخذت مبادئها في تاريخ نشاط الحركة في أدبنا الحديث

ص ٢٠٠ : أصحاب نعيمة أنها ما ظهرت جميعاً علماً وهي في تاريخ ... خليل بيدس في الفلاشى (هذا ما أسميه دمائماً من الرجال) . سبقه في هذا الميدان استاذه خليل بيدس سعيد نعيمة ولد محدث في قصصه بيدس (مسارح الأذهان سنة ١٩٢٢) مرآة بيدس ... بيدس سعيد نعيمة .

بل وقال في هذه المعرض الدور الذي بجيل جبارة (علماً وفرقا) ... مبالغة .

ص ٢٦٠ : شيئاً من الاستطراد في نعيمة ذكر القصص الذي سبقوا نعيمة الى النشر القصة الاجتماعية لم تذكر خليل بيدس . ينقصه ... من نعيمة وذلك من في بناء القصة ... تمثيلاً . ولذا من ... اليه دون ... .

ص ٤٢٩ : في الملخص في أسلوب الصفة اعتدال في الحكم "احتفظت بأهمية تحديد به" .

ص ٤٢١ : تذكر أن مسرحية نعيمة الآباء والبنون ألفت سنة ١٩١٦ سابقة لمسرحية فرح أنطون (مصر الجديدة) الذي الثانية ... سنة ١٩١٣ في مصر قبل الأوبرا الملكية ...

ص ٤٤٨ : تذكر أن فرح أنطون في مسرحيته (مصر الجديدة) تأثر بمسرحية نعيمة ازدواج اللغة ... وعلى هذا المعرض في ... سبق نعيمة كما ذكرنا سابقاً . مسرحيته ... فرح أنطون ... والصحيح ...

ص ٤٥٦ : تذكر أن جبران لم يكتب مسرحية ... . هذه تكون جعله رائداً في التمثيل .

ص ٤٦٥ : عاد الى الحكم السليم عن مسرحيات ... الرابطة القلمية .

ـ حكى ص ٥١١ هامش (١) قبيلنا الى مصدر لم نفهمه ولم نجد له ذكراً في المصادر ؟

ص ٥٧٥ : تذكر أن نعيمة تأثر بجبران في كتابة الأمثال ... واحد للاثنين : ... المتفرقة . ... بدأها هذا الأدب ... سليمان ... (ص ١٦ ...)

أم تيارات سلبية للأدب الروسي ؟ أهو غربي أم شرقي ؟ وفي

١٩ ، تأثروا بالأدب الغربي .
(١١) هل يأخذ الروسي من الغرب ؟
ثم إنكم لم تذكروا الأدب العربي - مع أن بعضهم له علاقة بالشرق أو تأثر
بالمرايا ، ... في (ص ١١) أن ذكر تأثرهم بالمشكلات العربية العربية . ... أنه تأثر ...
أنه يبرز أثر الأدب العربي .

... حياة الناس في مجتمعهم ، وإلى ... الواقع أن
١١ . هل الظواهر الدينية ... عامة ، فالبعد ... كما يوجد ... بالشرق الأقصى
التكامل مع الأوساط ... لا ... (...) ... الأخلاقيات
والمسيحية الشرقية ... (...) ... المشرقية
ونحن نشهد ... من الإسلام ، والشرق ... تتكامل المسيحية
حارة (الكاملة) في الأوسط ... ؟
في (مائة ...) في يوميات ؟ ... لأسباب ... ام لأسباب أخرى ؟
١٢ . ... هل ... - ام نقرأ ... ؟ ولماذا ... ؟
١٥ . ما سندك في أن ... تختلف عنها ... الشرقية ؟ ... جزء
أشياء أصالة في ... من الريادة .

١٦ . عبارة غامضة .
٢٠ . نثر أصيل لا حد للأصالة (الأصالة)
٢٩ . ذكرت أسباب ... وهي أنك أغفلت سببا مهما عن حالة ... للشرق
... والأدب ... العالم ... وكذلك
... هذا السبب . ... تتضمن حقيقة الأسباب
٤٠ . ... أن صاحب ... يعرض ... فترة ذهبت ، وردها
... الإسلام ... المسيحية مع السلام .

... في الريادة في المدى ... الريادة ...
لماذا لم ... الريادة في الرابطة القلمية ؟ ... أغفلت ...
٨٢ . ... في فترة ... ٥٥ - ٢٥ ... الأرثوذكسية ...
هل أنتم هذه المدرسة ؟

عبد الكريم الأشتر

- من الإقليم السوري (حلب)
- درس الابتدائية والثانوية بحلب
- نال الإجازة في الآداب (الليسانس) من جامعة دمشق سنة ١٩٥٢ مع دبلوم كلية التربية.
- عمل في التعليم الثانوي أربع سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٦
- أوفد إلى معهد الدراسات العربية العالية بعد ذلك. ونال دبلوم [illegible]
- يتقدم الآن برسالة عن (النثر العربي وفنونه في المهجر الشمالي - كتاب الرابطة القلمية) لنيل درجة الماجستير في الأدب الحديث.

آمل أن أختصر ما وصلت إليه من نتائج في دراسة النثر العربي في أمريكا الشمالية.

١. لم كان [illegible] "[illegible]" [illegible] أو [illegible]؟
٢. [illegible]